جامع فقه الأمة رحيق الحقيبة المعرفية

للعلامة عبد الحميد أبو سليمان



تحرير

أ.د. السيد عمر

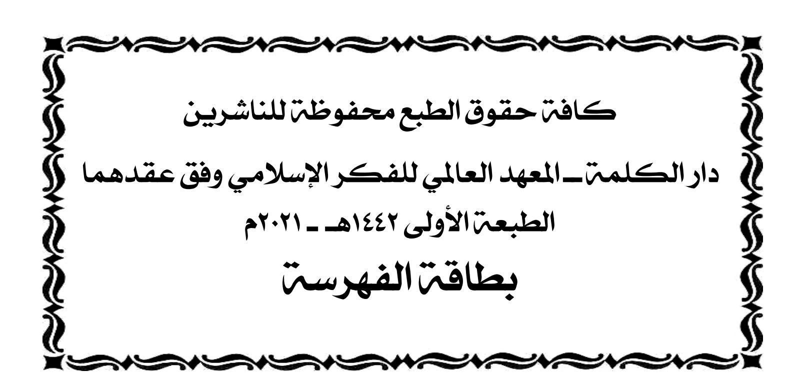
أستاذ النظرية السياسية الإسلامية

بجامعة حلوان






جامع فقه الأمة
رحيق الحقيبة المعرفية
للعلامة عبد الحميد أبو سليمان



الطبعة الأولى ١٤٤٢هـ ـ ٢٠٢١م

بطاقة الفهرسة

أبو سليمان ، عبد الحميد

رحيق الحقيبة المعرفية للعلامة عبد الحميد أبو سليمان

تحرير/ أ.د . السيد عمر ، ط١ ـ المنصورة :

دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ٢٠٢١م

٤٤٨ص ، ٢٤سم

رقم الإيداع : ٢٠٢٠/١٧٢٢٤

تـدمـك : 3 – 658 – 311- 977- 978

دار الكلمة للنشر والتوزيع مصر ـ القاهرة

القاهرة . محمول : ٠١٠٠٩٧٠٧٤٩٥

E-mail:mmaggour@hotmail.com

E-mail:daralkalema_pdp@hotmail.com

www.facebook.com/DarAlkalema



المعهد العالمي للفكر الإسلامي

مكتب مصر ـ مركز الدراسات المعرفية

٢٦ ب شارع الجزيرة الوسطى ـ الزمالك ـ القاهرة

International Institute of Islamic Thought

Egypt Office: Center for Epistemological Studies

26 B Al-Gazira Al- Wosta - Zamalek - Cairo

Tel: (2-02) 27359825 Fax: (2-02) 27359520

E-Mail : epistem@hotmail.com

epistemeg@yahoo.com

جامع فقه الأمة

رحيق الحقيبة المعرفية

للعلامة عبد الحميد أبو سليمان

تحرير

أ.د. السيد عمر

أستاذ النظرية السياسية الإسلامية

بجامعة حلوان

دار الكلمة

للنشر والتوزيع



المعهد العالمي للفكر الإسلامي

الإهداء

إلى كل من يعرف قدر الأسرة المؤمنة السوية

في بنيان الأمة المتراحمة

من أجل فجر بعث جديد لخير أمة أخرجت للناس

لبناء

عالم الإنسانية الحقة في كون كل ما فيه يسبح بحمد الله

السيرة الذاتية
للأستاذ الدكتور عبد الحميد أبو سليمان

الدكتور عبد الحميد أبو سليمان سعودي الجنسية، ولد بمكة المكرمة عام ١٩٣٦م، وأكمل تعليمه الابتدائي والثانوي بها ١٩٤٢ - ١٩٥٥م، وقد أتاحت له مكة أن يرى جموع المسلمين يأتون إليها من كل فج عميق، ويلاحظ ما هم عليه من فوضى في أداء مناسك الحج، ويقارن حالهم التعيس بما كان عليه المسلمون في أيام مجدهم من قوة وتحضر، ويحمل هم التساؤل لماذا وصل المسلمون إلى هذا الحال وكيف يمكن أن يستعيدوا دورهم الحضاري في هذا العصر؟

ولخلو مكة في هذا الوقت من عوامل التشتت الفكري وفوضى الإعلام، فقد تفرغ طفلنا للقراءة وساعده على ذلك ما كانت الأسرة توفره له من كتب حتى أنه قرأ كليلة ودمنة في الصف الثاني الابتدائي، وأصدر صحيفة ورقية مدرسية في الصف الخامس أو السادس الابتدائي (الشك من عند د. عبد الحميد أبو سليمان لاعتماده على الذاكرة)، وكانت كلمة التحرير للطفل عبد الحميد تعلوها صورة سرير وعليه إنسان مريض والتعليق: آما آن لهذا الشعب أن يستيقظ؟ .

ويشير د. عبد الحميد أبو سليمان أنه قرأ في تلك الفترة سقوط الأندلس للأستاذ محمد عبد الله عنان، التي فجرت عنده كل مشاعر الغضب لما أصاب المسلمون من ضعف وهوان وما لحق بهم من عنف وطغيان .... وهل حال المسلمين اليوم إلا تكرار لتلك المأساة[1]؟!!

وبعد حصوله على الثانوية العامة يرفض أن يكمل دراسته في الطب، ويرى أن دراسة الجيولوجيا أكثر فائدة لوطنه لما تمتلكه بلاده من ثروات معدنية، أو الحقوق لما

(١) تجربة الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، غير منشورة، **أربعة لقاءات مع د. عبد الحميد أبو سليمان**، مركز الدراسات المعرفية، القاهرة.

توفر من القدرة علي البحث عن حقوق الوطن والمواطن ولأن معظم القادة ورجال الفكر والسياسة يأتون غالبًا من تلك الكلية، وكان هواه مع هذا الاختيار الأخير.

واختيار عبد الحميد أبو سليمان لتخصصه الدراسي بالجامعة يدل على الشعور المبكر بمسؤوليته تجاه وطنه وأمته وليس التخصص الذي يحقق له النفع المادي أو الوجاهة الاجتماعية كما يفعل كثير من الشباب عند اختياره تخصصهم الجامعي المهني، ولعلهم يختارون الطب أولًا لما يحققه لهم من تلك المزايا المادية والأدبية ولكن اختيار د. عبد الحميد من البداية يستدعي أولويات حاجة الأمة والوطن وهذا يدل على إدراك مبكر لديه لفقه الأولويات ونضج في الالتزام بقضايا الوطن والأمة .

ويأتي إلي القاهرة للدراسة الجامعية وترفض إدارة البعثات السعودية أن يدرس الحقوق فيدخل كلية التجارة جامعة القاهرة قسم الاقتصاد والعلوم السياسية ويحصل على البكالوريوس في العلوم السياسية عام ١٩٥٩م والماجستير عام ١٩٦٣م، والملفت للنظر أنه قدم للمكتبة العربية الإسلامية دراسته الأولى والمهمة بعنوان «نظرية الإسلام الاقتصادية: الفلسفة والوسائل المعاصرة» عام ١٩٦٠م أي قبل حصوله على الماجستير بثلاثة أعوام تقريبًا. [١]

ومن يقرأ تلك الرسالة يدرك أنها تمثل نواة منهج إصلاح الفكر والبحث لدى د. عبد الحميد أبو سليمان تلك النواة التي ستزداد ثراءً ونماءً مع ممارساته العلمية التالية، وتتمثل تلك النواة في أن التناول الأمثل لقضايا الأمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية إنما يكون في تكامل المعرفة الشرعية والمعرفة الإنسانية معًا في أثناء بحثنا لتلك القضايا.

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. نظرية الإسلام الاقتصادية الفلسفة والوسائل المعاصرة، القاهرة، الخانجي، ١٩٦٠م.

والاقتصار على المعرفة الشرعية يحرمنا من العطاء المعرفي الإنساني الصحيح، وكذلك الاقتصار على المعرفة الإنسانية يحرمنا من هداية الوحي، والمنهج الأصوب هو هذا التكامل المعرفي بين علوم الوحي وعلوم الإنسان والكون، وهو من خلال هذا المنهج يقدم نظرية الإسلام الاقتصادية: الفلسفة والوسائل المعاصرة، يفعل ذلك وهو ابن الرابعة والعشرين من عمره وقبل أن يحصل على الماجستير ويجد فيها الشرعيون والاقتصاديون معا زادًا جديدًا أكثر ثراءً ويبشر بمستقبل علمي في عالم الفكر والبحث الإسلاميين.

ولقد أتاحت القاهرة لمفكرنا الإسلامي أجواء ثقافية غنية ومتعددة؛ فقرأ لأعلام الأدب: طه حسين والعقاد والمازني وغيرهم. وأعلام الفكر الإسلامي مثل السنهوري ومحمد عبد الله دراز وعبد القادر عودة، وعيسى عبده وسليم العوا والشيخ الغزالي وعبد الحليم أبو شقة .

وارتوى من موارد الثقافة الإسلامية حتى ازداد إيمانًا برسالية الإسلام وقدرته على البعث الحضاري للأمة، ثم رحل إلي الولايات المتحدة الأمريكية؛ ليحصل على الدكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة بنسلفانيا الأمريكية(١) .

وبذلك يكون متمكنًا في أكثر مجالات البعث الحضاري: الاقتصاد، والعلوم السياسية، والعلوم الإسلامية، ومن يقرأ تلك الرسالة يجد أنها خطوة تالية في تطبيق د. عبد الحميد أبو سليمان لمنهجه في الفكر والبحث والذي يجمع بين المعرفة الإنسانية والكونية والمعرفة الشرعية في قضية البحث ونظرية العلاقات الدولية في الإسلام، وكما قدم جديدًا في دراسته الاقتصادية التي سبق الإشارة إليها، فقد قدم جديدًا في العلاقات الدولية من المنظور الإسلامي؛ وبذلك تأكدت لديه فاعلية هذا

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. نظرية العلاقات الدولية في الإسلام، جامعة بنسلفانيا عام ١٩٧٣م وطبعت عام ١٩٨٦م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

المنهج في الفكر والبحث وهذا ما مارسه في كل ما عالجه من قضايا الفكر والبحث .

وبعد أن طبق بنجاح هذا المنهج خلال تلك الدراستين ورضي عن نتائج هذا التطبيق انتقل إلى مرحلة الدعوة إلى الأخذ بهذا المنهج من خلال مؤسسة علمية بحثية أنشأها تاليًا مع عدد محدود من الرواد، يؤمنون بتلك المنهجية في الفكر والبحث وقدرتها على إصلاح أحوال الأمة، لذا وهي المعهد العالمي للفكر الإسلامي الذي أُنشئ في أمريكا عام ١٩٨١م.

وتعززت على الدوام صلابة النواة المنهجية في فكر عبد الحميد أبو سليمان والذي يدور حول فهم كل النصوص القرآنية والنبوية ذات الصلة بموضوع البحث جنبًا إلي جنب مع ما تقرره الدراسات المعاصرة لتجلية جوهر الإشكالية محل البحث على أساس من الوحدة والتكامل المعرفي، بين المصدر الحاكم لها وهو القرآن وما صح من السنة سندًا وفقهًا وبين ما يصل إليه العقل الإنساني حول سنن الاجتماع وطبائع الأنفس وحقائق الكون، وهذا الشعور المنهجي المبكر سوف يزداد مع الأيام صلابة وعمقًا بما ينتجه د. عبد الحميد أبو سليمان من دراسات تؤكد بعض جوانب تلك المنهجية ويزيدها وضوحًا وفاعلية .

ولعل كتاب إسلامية المعرفة : المبادئ العامة – خطة العمل – الإنجازات، الذي صدر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي عام ١٩٨٦م وكان للدكتور عبد الحميد أبو سليمان مشاركة أساسية في إعداده بصورته الحالية والذي يحدد معنى إسلامية المعرفة، وأهداف المعهد، وخطوات إنجاز مشروع إسلامية المعرفة أو التكامل المعرفي ما يعد صورة كلية لمنهجية الفكر والبحث الذي يتبناها المعهد منذ إنشائه حتى الآن.

ولكن د. عبد الحميد أبو سليمان لن يكتف بتلك الصورة الكلية بل حاول في دراساته التالية أن يزيدها عمقًا وصلابة منهجية، ولذلك نراه في كتابه أزمة العقل

المسلم الذي أصدره عام ١٩٩٠م يؤكد على خطورة الازدواجية في تكوين العقل المسلم المعاصر، وكيف أن أجيال الأمة إما تكونت في مؤسسات التعليم الشرعي التي تقدم علوم الشريعة فقط أو مؤسسات التعليم العام التي تقدم علوم الإنسان والكون فقط.

ومن الطبيعي أن مشاكل العصر لا تحلها العلوم الشرعية فقط، ولا علوم الإنسان والكون بعيدة عن هداية الوحي، وعليه فإن التعليم المناسب للأمة هو الذي يكون أجيال التكامل المعرفي القادرة على الاستفادة من علوم الوحي وعلوم الإنسان والكون؛ لتقدم لأمتها وللإنسانية كلها المعرفة الأكثر صحة وأكثر صوابًا.

لقد قدم المعهد العالمي للفكر الإسلامي خطة عمل لإصلاح منهجية الفكر والبحث والسلوك، وقدم التسهيلات اللازمة؛ لتفعيل تلك المنهجية بين مفكري الأمة وشباب الباحثين وأثمر ذلك حركة علمية وفكرية خلال السنوات الماضية ولكن د. عبد الحميد أبو سليمان شعر أن الثمرة المرجوة ليست على مستوى التحديات التي تواجهها الأمة، وأحس أن الأزمة ليست أزمة فكرية بل هي أزمة إرادة ووجدان، ذلك أن امتلاك أدوات المنهجية الإسلامية لا يكفي في غياب إرادة التغيير وإرادة العمل الجاد من أجل النهوض بالأمة في شتى المجالات وتوفر الوجدان الحي الذي يشعر صاحبه بآلام الأمة ومشكلاتها ولا يكون ذلك إلا بالتربية الوجدانية الصحيحة ولاسيما في مرحلة الطفولة؛ حتى يملك المسلمون إرادة الإصلاح وحرارة الوجدان.

وهذا ما تناوله د. عبد الحميد أبو سليمان في كتابه أزمة الإرادة والوجدان: البعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة، في إصلاح الثقافة والتربية، رؤية إسلامية معاصرة ٢٠٠٤م.

ورأى أنه حتى تتضح الرؤية لدى العاملين بمجال إسلامية المعرفة أو التكامل

المعرفي فلابد أن يمتلك هؤلاء العاملون رؤية كونية حضارية قرآنية توجه مسارهم الفكري والعلمي وتحدد لهم معالم الحضارة العالمية التي يكدحون من أجلها، فقدم كتابه: الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساسي للإصلاح الإنساني ٢٠٠٩م، تلك الرؤية التي تقوم على: التوحيد، والاستخلاف، والعدل، والاعتدال، والحرية، والمسؤولية، والغائية، والأخلاقية، والشورى، والكلية العلمية السنية، العالمية والسلام، والإصلاح، والاعمار، والجمالية؛ لأن تلك الرؤية هي الأساس والمنطلق والدافع للإصلاح والاعمار.

ويصر د. عبد الحميد أبو سليمان على ضرورة أن تأليف كتاب مرجعي لدورات المنهجية الإسلامية في الفكر والبحث العلمي يكون مرجعًا لكل الدورات التدريبية التي يعقدها المعهد بفروعه المختلفة؛ لتدريب الباحثين على تلك المنهجية وامتلاك متطلباتها العلمية ويتابع بنفسه اجتماعات الإعداد لهذا المرجع لعدة سنوات حتى يكتمل هذا العمل ويصدر في جزئيين كبيرين أعدتها نخبة من علماء المعهد ومفكريه، وكان لمركز الدراسات المعرفية بالقاهرة شرف الإشراف على هذا العمل العلمي الهام: المنهجية الإسلامية، جزءان، ٢٠١٠م منذ أن كان فكرة إلى أن أصبح عملًا علميًا تدور حوله الدورات التدريبية بمكاتب المعهد المختلفة.

وتقوم ثورات الربيع العربي وتقدم الأمة أفضل شبابها؛ لتحقيق ما تحلم به الشعوب العربية من حرية وكرامة وعدالة، ثم يلفها الضباب جميعًا، وتتحطم آمال الأمة بين جهل العلماء، وفساد الأمراء، ومؤامرات الأعداء، ولو حكمت الأمة منهجيتها الإسلامية في تناول تلك الأزمة؛ لكان لها شأن آخر، وفي تلك الأجواء يقدم د. عبد الحميد أبو سليمان دراسته القيمة: انهيار الحضارة الإسلامية وإعادة بنائها: الجذور الثقافية والتربوية عام ٢٠١٦م؛ ليحلل أسباب هذا الانهيار وكيفية إعادة البناء، الذي يؤكد فيه من جديد ضرورة الاهتمام بتربية الطفل ومؤسسات الطفل.

وتجدر الإشارة إلي أن د. عبد الحميد أبو سليمان عندما وصل إلي أمريكا لأول مرة وجد بها اتحاد الطلاب العرب، واتحاد الطلبة المسلمين، الأول يغلب عليه النشاط السياسي الذي يفرق أكثر مما يجمع والذي يضعف فيه الالتزام الإسلامي والشعور برسالية الأمة العربية والإسلامية، والثاني يغلب عليه الطابع التربوي وإعداد كوادر الأمة القادرة على الريادة وحمل أمانة النهوض الحضاري بالأمة وربما اتسعت آفاقهم؛ ليحلموا بالنهوض الحضاري للإنسانية كلها، وكان من الطبيعي أن ينضم د. عبد الحميد أبو سليمان للفريق الثاني، ويجد في تلك الجمعيات مجاله الرحب لمزيد من التزكية لنفسه ومزيد من الشعور بالمسؤولية تجاه وطنه وأمته [١].

وفي تلك الجمعيات الإسلامية تعلم مهارات العمل الجماعي الإسلامي البعيد عن السياسة والذي يهتم بالبناء والتزكية والعمران، وتعرف من خلال تلك الجمعيات على زملائه الطلاب الذين أصبحوا وزراء ورؤساء دول فيما بعد نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر د. محمد ناصر أول رئيس وزراء لإندونيسيا، ود. أحمد عمر وزير التعليم العالي بالسودان، ود. أنور إبراهيم وزير التربية والتعليم بماليزيا وعبد العزيز عمر هادي الذي شغل منصب وزير التربية والتعليم والصحة ثم رئيس الوزراء في بروناي، وأربكان رئيس وزراء تركيا، وحبيبي رئيس وزراء إندونيسيا وغيرهم من قيادات العمل الطلابي الإسلامي والذين أصبح لهم دور مهم في تشجيع فكرة: إنشاء المعهد العالمي للفكر الإسلامي وتبني الكثير من مشاريعه العلمية [٢].

ويكفي أن نذكر هنا دور د. أنور إبراهيم وزير التربية والتعليم بماليزيا في رئاسة

---

(١) تجربة الدكتور عبد الحميد أبو سليمان، غير منشورة، **أربعة لقاءات مع د. عبد الحميد أبو سليمان**، مركز الدراسات المعرفية، القاهرة.

(٢) توتونجي، أحمد. تحت النشر، **سيرة أحمد توتونجي**، مركز الدراسات المعرفية، القاهرة، ص ١٨و١٩و٢١و٢٢٢ و٢٢٣.

د. عبد الحميد أبو سليمان للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا طوال السنوات ١٩٨٩م ـ ١٩٩٩م، وكذلك رعاية أحد زملاء جمعية الطلبة المسلمين بأمريكا لجميع المؤتمرات العالمية بالمعهد العالمي للفكر الإسلامي على النحو التالي:

- المؤتمر العالمي الأول بإسلام آباد الهند عام ١٩٨١م بمساندة ضياء الحق رئيس باكستان.
- المؤتمر العالمي الثاني في كوالالمبور بماليزيا عام ١٩٨٣م بمساندة أنور إبراهيم.
- المؤتمر العالمي الثالث في الخرطوم بالسودان عام ١٩٨٥م بمساندة أحمد عمر.

ويدرك مجموعة من هؤلاء الطلاب – ومنهم عبد الحميد أبو سليمان – أن تلك الجمعيات الإسلامية الطلابية وإن نجحت في الحفاظ على هوايات الطلاب الإسلامية أثناء وجودهم في أمريكا، وفي توجيه بحوث ودراسات بعضهم إلي الموضوعات التي تفيد الأمة في شتى التخصصات إلا أن عملية إنقاذ الأمة لا يمكن أن تتم إلا من خلال عمل جماعي مستمر له موارده الكافية لريادة هذا «العمل العلمي» الذي يعيد تشكيل «العقل المسلم»؛ ليكون عقلًا يجمع بين ثقافة العصر وعلومه وما يتصل بتلك العلوم والمعارف من هداية الوحي؛ ولذلك قرر ستة منهم فور حصولهم على الدكتوراه أن يسافروا إلى دول الخليج لعدة سنوات؛ لكي يجمعوا المال اللازم لإنشاء مؤسسة ترعى هذا المشروع العلمي الإسلامي الكبير والذي ظهر إلى الوجود عام ١٩٨١م يسنده وقف إسلامي قوي باسم المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

ويجب أن نشير هنا إلى حسن التخطيط لدى هؤلاء الأخوة الرواد: فقد مارسوا العمل داخل الجمعيات الإسلامية بالجامعة وأدركوا أن ما يريدونه يختلف عن تلك الجمعيات الإسلامية التي يكونها الطلبة المسلمون في الجامعات الأمريكية والتي تعتمد في معظم أنشطتها على التبرع من الداخل أو الخارج، كما تعتمد على تطوع الطلاب بالعمل بتلك الجمعيات وإدارة أنظمتها المختلفة، أما ما يريده الأخوة

الرواد فهو مؤسسة فكرية علمية دائمة تشتغل بإصلاح مناهج الفكر والبحث، ويكون لها كادرها المتفرغ لأداء تلك المهمة، ويكون لها التمويل المناسب الخاص بها والذي لا يعتمد على تبرعات الداخل والخارج بالدرجة الأولى؛ حتى تكون تلك المؤسسة مستقلة استقلالًا كاملًا من الناحية المالية والفكرية، وهذا ما نفذه الأخوة الرواد وبنجاح يحسب لهم.

ومن حسن الطالع أن د. عبد الحميد أبو سليمان عندما عاد للعمل بجامعة الملك ابن سعود بعد حصوله على الدكتوراه اختير أمينًا عامًا مؤسسا للندوة العالمية للشباب الإسلامي الفترة من ١٩٧٣م إلى ١٩٨٠م، وكانت الحكومة السعودية في تلك الفترة تقيم مؤتمرات عالمية للفقه والاقتصاد والتربية والإعلام والعلم والتكنولوجيا والأقليات المسلمة وغيرها، وتجمع العلماء والمفكرين المسلمين من شتى أنحاء العالم ويقيمون بالمملكة لمدة أسبوع؛ وكانت تلك اللقاءات فرصة للاجتماع بهؤلاء العلماء والحديث معهم حول أزمة الأمة وحلولها الإسلامية.

يضاف إلى ذلك اجتماعات منظمة المؤتمر الإسلامي كل ذلك تحت رعاية ودعم وزير التعليم العالي الشيخ حسن بن عبد الله والذي كان له معرفة وعلاقة ب د. عبد الحميد الذي أصر أن يكون عمله الإسلامي تطوعًا بدون أجر وقد اشتغل بالعمل التطوعي الإسلامي منذ التحاقه بجمعيات الطلبة المسلمين والندوة العالمية للشباب الإسلامي وحتى الآن، وتوجت تلك العلاقات بعلماء ومفكري الأمة بمؤتمر لوجانو بسويسرا الفترة من ١١ إلى ١٧ / ٧ / ١٩٧٧م الذي دعا إليه فريق إسلامية المعرفة وحضره أربعون مفكرًا وعالمًا كمؤتمر استشاري يناقش فيه المؤتمر أزمة الأمة، وإسلامية المعرفة كأداة لعبور تلك الأزمة، وضرورة وجود مركز بحثي متخصص للقيام بتلك المهمة .

وخلال هذا الاجتماع نالت الفكرة موافقة الحضور بإجماع تلك النخبة من العلماء والمفكرين من أمثال د. محمود أبو السعود، محمد مبارك، مالك بدري، إسماعيل

الفاروقي وجمال الدين عطية[١] ولمزيد من الإعداد المادي والعلمي تأخر إنشاء المعهد حتى عام ١٩٨١م راجع أهداف المعهد وخطوات تحقيق تلك الأهداف في [٢][٣] الدراسة القيمة لتقييم إنجازات المعهد في ربع قرن انظر [٤] وكان د. عبد الحميد أول رئيس لهذا المعهد، ثم انتقل إلى رئاسة الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا من الفترة من ١٩٨٩م إلى ١٩٩٩م؛ ليطبق فيها فكرة المعهد الأساسية إسلامية المعرفة.

ولا ريب أن الجهد الذي بذله د. عبد الحميد أبو سليمان في إنشاء تلك الجامعة والذي امتد ليشمل المباني الإسلامية الرائعة لتلك الجامعة بجميع مرافقها، كما شمل إيجاد التكامل المعرفي في إعداد جميع طلاب الجامعة بحيث يجمعون في إعدادهم بين معارف الوحي ومعارف الإنسان والكون مهما كانت تخصصاتهم المهنية وما أتاحه للطلاب والأساتذة من مناخ علمي إسلامي وإدارة إسلامية وأنشطة إسلامية متعددة كل ذلك يعد عملًا متميزًا لد. عبد الحميد أبو سليمان يستحق مزيدًا من الدراسة والبحث، ثم عاد رئيسًا للمعهد منذ عام ١٩٩٩م حتى خلفه فيه مؤخرًا رفيق درب الكفاح المعرفة الدكتور هشام الطالب .

والذي يهمنا هنا أن الدكتور عبد الحميد قد قاد تلك المؤسسة وساهم بإنتاج غزير في إثراء تلك الفكرة في شتى المجالات: السياسة والاقتصاد والاجتماع

---

(١) (٢) (٣) (٤) عطية، جمال الدين. ٢٠٠٤، انظر هذا المؤتمر وجدول أعماله وحضوره: **إسلامية المعرفة ودور المعهد العالمي للفكر الإسلامي**، الجمعية العربية للتربية الإسلامية، ملحق رقم (١)، القاهرة، ص ١ : ١٥& المبادئ العامة - خطة العمل - الإنجازات، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٨٦& AbuSulyman . Abdulhamid, N.D. toward Islamization of disciplines, **Islamization of Knowledge series,** no (٦), Virginia, The international institute of Islamic thought.

& مصطفي، نادية محمود. «محرر»، ٢٠١٦، **تجديد العلوم الاجتماعية: بناء منظور معرفي وحضاري «الفكرة والخبرة»**، الجزء الأول، القاهرة، دار البشير.

والتربية وغيرها والملفت للنظر أيضًا أنه وجه عنايته الفائقة لتربية الطفل؛ وأكد على أنها البعد الغائب في جميع حركات الإصلاح الإسلامي إذ أنها لم تركز عنايتها القصوى على حسن تربية الطفل، وغاب عنها الجانب النفسي والوجداني في الخطاب التربوي الإسلامي للطفل، ومن ثم أكد على ضرورة استعادة الوحدة بين المعرفي والوجداني والسلوكي في بناء شخصية الطفل وتمكين طاقات المبادرة والروح العلمية والإبداع في أصل طبيعة طفولة المسلم وتكوينه النفسي والوجداني، من أجل ذلك اهتم بإنشاء المدرسة الإسلامية العالمية بماليزيا International Islamic School لتكون نموذجًا للمدرسة الإسلامية [١][٢] التي تعتني بتربية الطفل تربية تعده لطفولة سعيدة أخلاقية.

وتعد المدرسة الإسلامية العالمية بماليزيا نموذجًا مبتكرًا للمدرسة الإسلامية التي تبدأ من رياض الأطفال وتنتهي بالمرحلة الثانوية، والتي تتيح لطلابها أن تتكامل معارفهم الإسلامية ومعارفهم الإنسانية والكونية في صورة واقعية هدفها تنشئة «الشباب المسلم» الذي يتوجه إلى التعليم الجامعي أو العمل المهني، والمدرسة تعتبر تجربة رائدة في الإصلاح التربوي تستحق مزيدًا من الدراسة والبحث، ثم أنشأ مركز تنمية الطفل "CDF" : Child Development Foundation ليكون محضنًا للبحث التربوي المتعلق بالطفل في مراحله العمرية المختلفة [٣] .

---

(١) Farhan , Ishaq , Islamization of the discipline of Education , **American journal of Islamic social sciences** , vol (٦) , no (٢) , ١٩٨٩.

(٢) Sulaiman , Sa'ida , ٢٠٠٠, **Islamization of Knowledge (Background , Models and the way forward)** , Kano : The international institute of Islamic thought (Nigeria office).

(٣) انهيار الحضارة الإسلامية وإعادة بنائها: الجذور الثقافية والتربوية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٦م، ص ٢٥٢ و٢٥٣.

وشارك د. عبد الحميد في تأليف موسوعة العلاقات الوالدية بالطفل ودليل لتربية الطفل من ثلاثة أجزاء بعنوان Parent - child Relations , A Guide to Rising Children صدر منها الجزء الأول [(١)] ويجعل التربية الوالدية «مقررًا جامعيًا» لطلاب الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا إدراكًا منه لأهمية العناية بحسن تربية الطفل [(٢)] .

كما قدم للأسرة مكتبة الأسرة المسلمة في مجلد ضخم عام ١٩٩١م وأعيد طباعته عام ٢٠٠٤م ثم زاد عليه ليصدر في جزئين عام ٢٠٠٨م بهما تعريف بأهم الكتب التي تنفع الأسرة في أهم المجالات المعرفية: مجال القرآن وعلومه والحديث والسيرة والفقه والدعوة والتربية والفكر الإسلامي والتراجم والسير والحضارة والتاريخ وحاضر العالم الإسلامي، المرأة والأسرة والاقتصاد والإعلام ومقارنة الأديان [(٣)] .

كما اهتم في تلك الفترة من حياته بتقديم الأدب الرائع للأطفال والشباب سواء كان شعرًا أو نثرًا ورأى أن الذائقة الأدبية للأطفال والشباب لابد أن تنمو وأن يكلف الأدباء بإصدار مختارات من عيون الشعر والنثر؛ حتى ينمو حب الطفل للعربية الفصحى أمام الهجوم الكاسح على اللغة العربية وحرمان الأطفال من تذوقها والاعتزاز بها ومن أمثلة ذلك:

- موسوعة القصص التربوي لطلاب المرحلة الثانوية ومن في مستواها إعداد يحيي بشير حاج يحيي، نشر مشترك مع الدار العالمية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٩.

---

(١) Altalib. Hisham & Abusulayman. Abdulhamid & Altalib. Omar, ٢٠١٣, **the international institute of Islamic thought**, London, Washington.

(٢) أبو سليمان، عبد الحميد. الإصلاح التربوي المعاصر، دار السلام، ٢٠٠٦م، ص ٧٨ و١٣٢.

(٣) أبو سليمان، عبد الحميد. مكتبة الأسرة المسلمة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٨.

- موسوعة القصص التربوي للشباب إعداد يحيي بشير حاج يحيي نشر مشترك مع الدار العالمية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٩.
- موسوعة القصص التربوي للناشئة إعداد يحيي بشير حاج يحيي نشر مشترك مع الدار العالمية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٩.

ولإيمانه بأهمية قصص الأطفال في حسن تربية الطفل ورعايته فقد اتجه أخيرًا لكتابة القصص للأطفال في السنوات الأخيرة والتي ضمنها معظم أفكاره التي عبر عنها في كتاباته المختلفة، بحيث يمكن القول إن هذه القصص بالفعل تشتمل على فكر د. عبد الحميد أبو سليمان الذي قدمه للكبار في مؤلفات ودراسات علمية رصينة ثم حرص على تقديمها للأطفال في صورة قصص مبسطة للأطفال [1] عسى أن يكون بذلك قد قدم رسالته للكبار والصغار معا تاركًا للأجيال القادمة أن تكمل المسيرة.

بارك الله ل د. عبد الحميد أبو سليمان في حياته، وفي إنتاجه وأثابه خير الجزاء على ما قدم من ريادة علمية وفكرية لأبناء جيله وللأجيال القادمة بإذن الله.

أ. د. عبد الرحمن عبد الرحمن النقيب

المستشار التربوي لمركز

الدراسات المعرفية

القاهرة ١٤٤١هـ- ٢٠٢٠م

---

(١) قصص د. عبد الحميد أبو سليمان:

- جزيرة البنائين: قصة تعليمية في الفكر الإبداعي وفي التربية العقائدية والاجتماعية، دار السلام، ٢٠٠٦م.
- كنوز جزيرة البنائين: قصة تعليمية في مقومات بناء الشخصية العربية، ٢٠٠٦م.
- القرد الذكي لا يعرف الحساب: قصة فكرية تربوية للصغار والكبار، ٢٠١٥م.

تمهيد
مفاتيح الحقيبة المعرفية السليمانية

هذا السفر هو عصارة تسبيحة معرفية عميقة محتسبة، من قلب ذاب عشقًا في أمة القرآن، فانطلق من بيت الله الحرام، حاملًا زاد تربيته في مكة في أحضان أسرة أمة، أعدته صبيًا بالقدوة الحسنة وبمكتبة أسرية جامعة لصنوف العلوم والمعارف، وحصنته في رحلة طلب العلم بالخارج بكنزه المتمثل في السجادة التي كان يصلي عليها إلى جانب والديه، والمصحف الذي كان يقرأ منه معهما، من عهد طفولته، وما وقر في قلبه من إيمان، مصحوب بالتفكر وإعمال العقل، والبحث المتواصل عن اليقين، وحمل هم أمته وحلمها.

وقد لا نحتاج إلا لسطور معدودات للتعريف بالعلامة عبد الحميد أبو سليمان متعلمًا في مكة حتى التأهل لدخول الجامعة، وحاصلًا على درجتي الماجستير والدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة القاهرة، ثم على درجة الدكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة بنسلفانيا الأمريكية، ومتقلدًا لمناصب أكاديمية رفيعة تبدأ بتدريس العلوم السياسية بجامعة الملك سعود، ورئاسة قسم العلوم السياسية بها، وتمر بالمشاركة في تأسيس جمعية الطلبة المسلمين بالولايات المتحدة وكندا، والمجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية، والأمانة العامة للندوة العالمية للشباب الإسلامي والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، والجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

فهذا السجل المعرفي والوظيفي الحافل على ما له من أهمية ودلالة لا تخفى على أحد، ليس هو بيت القصيد في التعريف بهذا العالم، وأرى أن السبيل الأوفق للتعريف به، هو تعريفه عبر حقيبته المعرفية التي تصب في عمق فقه الأمة، تشخيصًا لحالها، ورسمًا لمعالم طريق تعافيها، وإقلاعها الحضاري، فلنمسك إذن بخيط التعريف به عبر مفاتيح حقيبته المعرفية، ولهذا الخيط بداية ووسط ونهاية، نلقي الضوء عليها تباعًا بومضات معرفية خاطفة.

فأول هذا الخيط المعرفي هو ملاحظة أنه استحضر في خطابه المعرفي، فضل السلف الصالح على الخلف، آية ذلك أنه يخاطب أمته والإنسانية عبر **ثلاثة** مداخل:

أولها هو: التصديق على القول بالعمل، فهو ليس منظرًا حالمًا يهوى التفلسف والتنظير المجرد، رغم طول باعه في ذلك، بل هو مفكر صاحب رؤية طائر، تنبثق منها رؤية معمارية، تتجسد في رؤية تنفيذية، فهو يعي أن تشوه الرؤية الكونية الكلية، واستحكام المنهجية الجزئية العشوائية هما جذر تبدل حال أمتنا من العزة والتألق الحضاري إلى الوهدة التي صارت إليها، فينطلق من الكليات والمقاصد في قراءة الوحي المنزل وفي قراءة الواقع، ويرسم خرائط معرفية، لا تستغرق في التفصيلات، ولا يغيب عنها في نفس الوقت، أي معلم إرشادي يحتاج إليه رسم الصورة الكلية للواقع المعيش، وللواقع الممكن.

وهو لا يقف عند رؤيتي الطائر والمهندس المعماري، بل يجسدهما في واقع الأمة في مؤسسات معرفية، في مقدمتها: المعهد العالمي للفكر الإسلامي والجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا؛ لتكون محاضن لسبر أغوار الفكر، ولنقله، ولتحقيق التكامل المعرفي في الجامعي المسلم.

وثانيها: الحديث المباشر، حيث ألف كوكبة من الكتب، ونظم محاضرات وندوات ولقاءات يتحدث فيها باسمه المباشر، ويقول: هذا رأيي.... فمن كان لديه خير منه فليأتنا به على الرحب والسعة، ويستفتي علماء أمته في قضايا العصر ومستجداته، تاركًا السؤال مفتوحًا على الدوام، ومن الملاحظات التي لا يمكن الغفلة عنها، أنه وهو رئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي، لم يكتب قط في مجلة إسلامية المعرفة إلا في باب (رأي وحوار).

وثالثها هو: الكتابة على لسان كل من الفيلسوف الهندي بيدبا، والفيلسوف الإسلامي الرحالة ابن بطوطة، بحوار إنساني متناغم، لا محل فيه للجدل الصوري

العقيم، ولا للمعرفة الأحادية، بما يستبطنه ذلك من دلالة لا تخفى على اعتباره أنه لا جديد أصيل في المعرفة يولد من فراغ، ولا عبر الانغلاق على الذات.

فالمعرفة الصالحة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وجذورها ضاربة في عمق التاريخ الإنساني، ومن باب رد الجميل عند العلماء الربانيين أن يردوا الفضل إلى أهله، وأن يعتبروا أنفسهم وما لهم المعرفي ملكًا لآبائهم، فيردوا على التحية بأحسن منها، وهو بعقلية ابن حضارة الإسلام الحقة ينفتح على كل منابع المعرفة الحكيمة في الشرق وفي الغرب، فيتصور مجلس علم جامع بين الحكمة الإسلامية، وبين الحكمة الهندية الشرقية، وسير في الأرض لنقل المعرفة ولتحصيلها، ولتربية النشء عليها، فيقدم فكره للقارئ من بوابة بناء وعيه ووجدانه على عمق تراث الإنسانية، ووجوب التنقيب عن ما فيه من درر معرفية، وعدم الاغترار بكل جديد براق من زخرف القول.

ويلتقي الفيلسوف الهندي بيدبا والفيلسوف الإسلامي ابن بطوطة ليتحدث بلسانهما، وليرى القارئ بكل جلاء، أن الحكمة التي توصل إليها العقل الإنساني الفطري، بات موضعها في معظم الأحيان، بعد مجيء الحكمة الإسلامية التي أنتجها العقل المستنير بنور الوحي المنزل، في موضع السائل والمتلقي، ولكن الحكمة الإسلامية بانفتاحها وعالميتها تأبى إلا احتضان كل ما يتوافق مع الفطرة السوية، والسنن التي يستكشفها العقل الإنساني في كل زمان ومكان، وتتغذى به وتغذيه.

ولنتمهل هنا بعض الشيء؛ لالتقاط بعض مضامين ودلالات هذا الاختيار السليماني. أما ذاك الفيلسوف الهندي الشهير، قد تنبه علماء مسلمون من قبله إلى الأهمية العمرانية لما ساقه من حكم أغلبها على لسان الحيوان، في كتابه الذي سماه **ابن المقفع** حين ترجمه إلى العربية في لحظة التألق الحضاري الإسلامي الأولى (كليلة ودمنة)، ولتلك الأهمية قيمة مضاعفة بالنسبة لأمتنا وللإنسانية في هذا العصر الذي

أفرخ الاستبداد الداخلي والطغيان الدولي فيه وباض، **فبيدبا** كتب كتابه القصصي تنفيذًا لرغبة ملك مستبد يدعى **دبشليم**، أراد أن يكون كتابًا قيمًا تتناقله الأجيال ويدوم ذكره به، وتمثلت حكمة ذلك الفيلسوف في كتابة ذلك الكتاب في شكل تعبير قصصي غير مباشر، أسفر عن إقلاع ذلك الملك عن الاستبداد وعن الحماقة والظلم.

وهنا تأتي مرارة الرمز حيث يقتضي الاستبداد تعبير الإنسان على لسان الحيوانات، ويرافق تلك المرارة في نفس الوقت، حقيقة أن جوهر الحكمة أن يطرق الحكيم كل الأبواب الممكنة؛ لتجفيف منابع الفساد والاستبداد، وأن يحول بلوى كبح التعبير الإنساني الصريح، إلى نعمة بالتعبير القصصي الهادف الممتع البديع، فهو يقول: ليس من الحكمة الجلاء عن الوطن، ولا يسعنا في حكمتنا إبقاء **دبشليم** على ما هو عليه من سوء السيرة، ولا يمكننا مجاهدته بغير ألسنتنا، وإن نحن ذهبنا إلى الاستعانة بغيرنا لم تتهيأ لنا معاندته، وإن هو أحس منا بمخالفته وإنكار سوء سيرته كان في ذلك بوارنا.

تلك كانت هي معضلة زمانه، وهي في زماننا أدهى وأمر، وتلزمنا الإشارة في هذا التمهيد إلى ثلة من حكم ذلك الفيلسوف الهندي، فهو يعلمنا أن: الماء وإن طال تسخينه، فإن ذلك لا يمنعه من إطفاء النار إن هو ألقي عليها (ومعنى ذلك أن بذرة الخير التي تبقى في الأمة، يمكن إن تم تعهدها أن تنبت إنسانيتها من جديد)، والرأي الفردي لا يكتفي به في الخاصة، ولا ينتفع به في العامة، (فالشورى إذن لازمة في الشأن الخاص وفي الشأن العام، ولا خاب من استشار)، وثلاث من كن فيه لم يستقم له عمل: التواني، وتضييع الفرص، وتصديق كل مخبر (فتأجيل عمل اليوم إلى الغد، وعدم النظر إلى كل تحدي على أنه خطر يجب السعي لتفاديه فرصة يتعين السعي إلى الاستفادة منها، وعدم التثبت من كل ما نسمع، ثلاث علل لا يستقيم معها عمل).

ومن كان يصنع المعروف لبعض منافع الدنيا، فمثله كمثل الصياد حين يلقي الحب للطير لا يريد بذلك نفعه (فالعمل الإنساني لابد أن يكون أخلاقيًا، هدفه الفلاح في الدارين)، والعلم لا يتم إلا بالعمل، فالعلم كالشجرة، وإنما يقوم صاحب العلم بالعمل؛ لينتفع به، فإن لم يستعمل ما يعلم لا يسمى عالمًا، فلينظر العالم العامل أي الخلال يبتغي من علمه: المال، أم الذكر، أم اللذات، أم الآخرة..

أما **ابن بطوطة** الذي اختاره صاحب هذه الحقيبة المعرفية متحدثًا باسم الحكمة الإسلامية، وناقلًا لها في (كنوز جزيرة البنائين)، فهو فيلسوف إسلامي عاش منذ ستة قرون، و عمل بالقضاء والفتوى، والخيط المهم الواجب الانطلاق منه هنا هو أنه رغم أنه ليس مكيًا، فهو مغربي الأصل، فإنه بدأ ترحاله في قارات العالم القديم الثلاث، بالتوجه **أولًا** إلى مكة حيث قضى فريضة الحج، ثم انطلق منها باحثًا عن المعرفة، ومعلمًا لها، ومحاورًا، وحاكيًا، لمن يحل عليهم، ما عرفه بالمعايشة المباشرة، من حكمة أقوام غيرهم، ومعززًا لها بما يتعلمه حيثما حل، وعلى منواله جاء ترحال **ابن الحرم**[1] إلى مصر، ثم إلى الولايات المتحدة، ثم إلى ماليزيا، فضلًا عن أسفاره في كثير من بلدان العالم طالبًا للعلم و ناقله.

وعلى ضوء ذلك، نفهم نسج **أبو سليمان** على منوال ذلك الفيلسوف المسلم في (كنوز جزيرة البنائين) حيث الحوار والتلاقح المعرفي المباشر بين البشر، في مقابل نسجه على منوال ذاك الفيلسوف الهندي القديم، بالحديث على لسان الحيوانات والطيور، في قصته (جزيرة البنائين)، واصفًا حال أمتنا بين فكي الاستبداد والفساد الداخلي، وكواسر الحضارة المادية الغربية العنصرية السائدة، ومبينًا المخرج الإسلامي المعرفي والعملي منها، على لسان الحيوانات في جزيرة البنائين، بتصور شامل لإصلاح يأتي من القاعدة وليس من القمة.

---

(١) نقصد بهذا التعبير د. عبد الحميد أبو سليمان. والحرم هو الحرم المكي الشريف.

وينبع من تدارك أزمة الفكر والإرادة والوجدان، باستعادة عافية الرؤية الكونية الحضارية القرآنية الكلية الجامعة، والمنهجية المقاصدية التي تركز على الكليات والمبادئ العامة، وتتعامل مع كل ما بالكون، بما فيها الوجود الإنساني على الأرض، على أنه منظومات محكومة بحدود وبسنن، ومتناغمة مع الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها، وعلى أن استعادة الأمة الإسلامية، ومن ثم الإنسانية، للعافية الحضارية الإنسانية، أمر ممكن وميسر فيما لو تم السعي إليه بتغيير ما بالنفس ووفق سنن الله تعالى في الآفاق وفي الأنفس، بقراءة جامعة للوحي المنزل والكون المنظور، ذات أفق إنساني، نابع من حب الله والحب فيه وله، وهذا الهدف فوق كونه ممكنًا، فإنه ضرورة وجودية لا غنى للبشرية عنها.

فلقد أوشكت شمس الحضارة المادية الاستعلائية الغربية ذات الحس القومي الحيواني على الزوال بسنن الله في قيام الأمم وانهيارها، وذلك هو درس التاريخ وعبرته، فالبشرية ليست في حاجة إلى شيء قدر حاجتها الآن إلى البديل الإسلامي الحضاري الاستخلافي الصحيح، الذي تخرج به البشرية من الظلمات إلى النور، وتدخل فيه في السلم كافة، وتصير القوة للحق، وليس الحق للقوة، وتنمحي عقلية الاستكبار وعقلية الاستعباد، بثمارهما بالغة المرارة.

فلننتقل إلى **وسط ذلك الخيط المعرفي** للتعريف **بأبي سليمان**، بالتعرف عليه عبر مفاتيح مقدمات مؤلفاته، وصيغ الإهداء الواردة بها، الكاشفة لكل أبعاد شخصيته بكل جلاء، فهو من هذا المدخل بإيجاز، مسلم مكي يرى أن: الرأسمالية تحيل الحياة إلى مقامرة، والشيوعية تحيلها إلى سجن، والإسلام يجعلها صحبة فعل خير وعمل وإبداع، وتكشف مفاتيح مؤلفاته، التي تفصح عنها إهداءاته المتصدرة لمؤلفاته أنه صاحب رؤية إنسانية، نواتها هي: حسه الأسري، وعمق إيمانه بأن الأسرة هي نواة الأمة، والأطفال هم المستقبل والأمل.

فهو يهدي رسالته (**نظرية الإسلام الاقتصادية**) إلى أبويه، ويعتبر مؤلفه خطوة

على طريق الخير والحق، ويحسن الظن بالإنسانية وبالوجود، حيث يرى أن الخير والحق هما: هدف الإنسانية ومعنى الوجود، وهو في مقدمة هذه الرسالة يبدي حيرته من أمر بيئته ومساوئها وتناقضاتها، ومن سعي بعض أدعياء العلم بالدين الإسلامي إلى التلفيق في التوفيق بين تلك البيئة وبين تعاليم الإسلام (ص٥) .

ويفصح عن أنه انشغل من صغره بالتفكير في دينه وبيئته والعالم في الماضي والحاضر والمستقبل، مع الانفتاح على موارد العلم الحديث والتاريخ والمعرفة الدينية بالاستعانة بمكتبة أسرته، وتربت لديه قناعة راسخة بأنه لا معنى للحياة ولا لوجود المجتمع إلا بالدين، فهو ضمان التفاعل الخير (ص٦).

ويحرص **أبو سليمان** في مقدمات مؤلفاته، تضمين التعريف بها تعريفًا بنفسه، وبطريقته في التفكير، فمقدمة كتاب **(أزمة العقل المسلم)** على سبيل المثال، تصوره لنا على أنه، حسب تعبيره (ليس جمعًا أو تأليفًا، بل دراسة شغلت القلب والنفس على مدى رحلة العمر، قضيته هي: قضية الأمة، بل هي الأمة)، التي فتح عقله وقلبه على آلامها ومعاناتها من صغره، منذ أن (عرفت عيناه كيف تقرأ الكلمة، وعرف فمه كيف ينطق الحرف، وعرف قلبه كيف يعي المعنى) (ص١١). قرأ التاريخ الإسلامي فامتلأ بالإحساس بالمرارة وعمق الأزمة، مما ولد لديه عزيمة قلبية على الإصرار على التغيير.

وتمثلت حياته في تزود متواصل بالمعرفة والخبرة، يصاحبه شاغل وحيد: البحث عن إجابة صحيحة مقنعة للسبب في تعثر الأمة وانهيار بنائها، والحفر في جذور ذلك التعثر؛ طلبًا للمخرج منه بعقلانية لا تعرف العواطف الغاضبة ولا الحماسة ولا البكاء على اللبن المسكوب، ومن هنا فإنه يدعو إلى قراءة متعمقة صبورة في ربوع الأمة لكتابه (أزمة العقل المسلم)؛ لأن القراءة المتعجلة تقف عند القشور، فلا تزداد الرؤية إلا عتمة، ولا يزداد الطريق إلا عتمة (ص١٢-١٤).

وهو يحس من أعماق قلبه أن داء أمته هو داؤه، في تفاعله مع رواسب ماضيها ومعاناة حاضرها وحلم مستقبلها؛ وبذا فإنه لا يرى فيما يكتب نقدًا ولا تجريحًا ولا تطاولًا، بل محاولة للفهم وحديثًا صادقًا صريحًا، فيه من الصدق حدته، ومن الصراحة مرارتها، ومع عدم غفلته عن ما بالأمة من خير، فإن اهتمامه ينصب على تحليل (ثغرة العجز والتخلف والاستضعاف والذل)؛ طلبًا للمخرج منها.

ومن هنا يأتي زهده في التغني بأمجاد أمته، وولعه بالسعي لكشف الداء وطلب الدواء، بقلب وعقل مفتوحين يدعوان القارئ إلى إمعان النظر فيما يطرحه، وتبين مدى صدقه، وما عسى أن يكتنفه من ثغرات جديرة بالتصويب والتدارك، فمبتغاه هو أن يثير كتابه حوارًا يفتح الطريق لوصف داء الأمة ودوائه، سواء بالتوافق مع ما جاء به أو بما هو مغاير له، فالغاية هي: رسم صورة لأمة مسلمة عزيزة محررة من الوهن، تجسد الحق قولًا وعملًا وغاية ووسيلة، وتصير نموذجًا مثاليًا وواقعيًا له.

ويترسخ عمق هذه الصورة في الإهداء الذي استهل به كتابه عن: **إشكالية الاستبداد والفساد في التاريخ الإسلامي**، فهو يهديه إلى (العالمين العاملين دعاة الحق والعدل والإخاء والسلام وبناء خير أمة أخرجت للناس، ويحدد الغاية من إهدائه لهم بـ(إنقاذ الإنسانية والحضارة الإعمارية من: الاستبداد والظلم والفساد والنزعات الحيوانية المادية الأنانية، ونتن العنصرية الاستعلائية الوهمية، وبناء عالم أجيال أهدى وأقوم يقوم على الكرامة والإخاء والتكافل والسلام، (إشكالية الاستبداد والفساد في التاريخ الإسلامي) (ص ٨).

ويصرح بأنه بحكم نشأته في مكة المكرمة يشعر بالحيرة تجاه تردي المسلمين من وضعية العزة الأولى إلى وضعية الوهن، وبإحساسه بضرورة الفهم أولًا والإصلاح ثانيًا. (ص١١).

ويختم **أبو سليمان** دراسته الموسومة (**الإنسان بين شريعتين**) بالإفصاح عن أن

الغاية منها هي تقديم دليل عمل ورؤية لمفكري الأمة؛ ليعينهم على التعرف في خضم التفصيلات والمعارك والمواجهات، على جوهر معنى وجود الأمة ودورها، والعمل على استعادتها لسلامة الرؤية، ومساعدة الآخر من أتباع شريعة الغاب على فهم نفسه والرجوع عن غيه وضلاله على المدى البعيد؛ لتسود شريعة النور بين كل البشر (الإنسان بين شريعتين، ص١٠٣-١٠٤)

وتجسد الأعمال الأدبية التي ألفها **أبو سليمان**، حمله لهم أمته، ومن ثم لهم الإنسانية كلها، فهو يهدي قصته (**جزيرة البنائين**) إلى أبناء أمته صغيرهم وكبيرهم نسائهم ورجالهم، بوصفها عصارة خبرة حياته التي استلهمها من مصدرين: بنية الفطرة السليمة، وقيم الهداية الربانية، ويحدد مبتغاه منها برجاء أن ينفع الله بها ويصلح الجميع ويهديهم بعونه سواء السبيل، وهو يخاطب بها وجدان الطفل، ونفسية الكبير وعقله.

ويحدد أبو سليمان رؤيته للوالدية ولما يتطلع إليه كل طفل مسلم من أبويه، بقصيدة شعرية يختتم بها كتبه (**أزمة الإرادة والوجدان المسلم**) بعنوان: (وللشعر والوجدان كلمة: رسالة إلى الآباء من أجيال المستقبل)، يوجهها ابن لأبيه، يستهلها بأنه: **إن عافت نفسه** مرارة ثمر الصبار فلن يغني عنه شيئًا البكاء عند شجر الصبار، فهو لن يصغي له ولن يثمر إلا ثمرته المرة. أما إن **تاقت** نفسه للكرم والتين والتفاح فليبذر بذورها؛ ليجني ثمارها......**وكم هو بشع** شجر الصبار ومرارة ثماره هو وجيل الصبار......**فليبادر بقطع شجر** الشوك والصبار، وبذر بذور الكرم والتين والتفاح...... **وليقطع دابر جيل الصبار**، جيل الذل والخيبة والعجز والذل، وليحمله فوق العلياء في مكة وأرض الإسراء والمعراج وطيبة وفي كل الأرض...... و**ليحقق** بسمته ويرفع بنيان مقامه وعزته ومجده، ولا يتركه يغرق في الفكر الآسن والأوحال والأدغال وفكر الغربة وغربان الغابة والأوكار..... **وليدعه يغرد في** السرب وينهل من الماء الصافي من نهر التوحيد والإحسان والقوة والإيمان.....

وليعنه على الخروج من حال الضيعة والضعف؛ ليعلو الموج والصعب ويتحدى الإعصار..... **فالوالد هو** الأفق والريح والربان......**وليبذر للأمة** في سيناء والحرمين وبيت المقدس وفي المشرق والمغرب، وليبني لها بالقلب والعقل والحب والدين والقيم والأخلاق: **جيل** الروح والأبدان والعدل والعمران والفلاح في الدارين.....**جيل المستقبل** والعزة والقوة والبذل والإتقان والإحسان في كل المجالات.......**الجيل الحر** في القلب والفكر والوجدان والإيمان والأوطان يحميها ويغنيها ويبنيها ويعليها، ولا يعبد إلا الرحمن......**جيل الصمود** أمام العدو والتاجر والنخاس والسمسار.....**فحب الفطرة** في الأب وبذلها يصنع بسم الله وبالقرآن جيل الأبرار الأحرار..... ويذكر ذلك الابن أباه في ختام رسالته بأن: شجر الصبار لن يثمر إلا مر الصبار......فليبذر بذر الكرم والتين وبذر الأحرار...... والمقابل الذي يعد به ذلك الابن أباه إن هو بذل طاقته في الاستجابة لندائه هذا. هو: **السلام عليه وعلى الزراع والأحرار**. (أزمة الإرادة والوجدان المسلم، ص ٣٢٠-٣٣٤).

أما **منتهى هذا الخيط المعرفي**، فتجليه نظرة خاطفة على أبرز **عشرة مفاتيح معرفية** قدمها **أبو سليمان** في مشروعه الفكري، في سعيه الحثيث، المتعدد الأساليب، إلى بناء وعي أمته بمختلف مكوناتها، من صغارها إلى كبارها، ومن جمهور عامتها، إلى صفواتها المثقفة، بالمعالم الكبرى للإجابة على سؤال معرفي واحد هو: كيف تستعيد الإنسانية المنكودة والمبتلاة، إنسانيتها المفقودة على مدى القرون الخمسة الأخيرة التي عرفت فيها نظام الدولة القومية، نتيجة غروب شمس الألفية الإسلامية العالمية الأولى، والنهوض المادي الاستعلائي للغرب الحديث فيما عرف بعصر النهضة والاستنارة العلمانية المفارقة للدين والقيم والأخلاق؟ بتعافي الأمة صاحبة الرسالة الاستخلافية السلامية من جديد من غبش الرؤية الكونية الكلية، ومن المنهجية الجزئية الأحادية، ومن الخلط في المفاهيم وفي الخطابات؛ حتى تستأنف رسالتها في الدعوة إلى الحق والسلام والعدل والإحسان في الأرض ومكارم

الأخلاق والقيم، لصالح كل البشر، بل لصالح الحيوان والنبات والجماد؟

وهو في الإجابة على هذا السؤال لا يبكي على الأطلال، ولا يعظ الطغاة بالكف عن الطغيان، ولا ينشغل بأعراض المرض، عن جذر الداء، ولا يضخم الجزء بحيث يغطي على الكل، إنه بالأحرى يحفر معرفيًا، مبينًا أن جذر مرض أمته نابع منها.

وما كل الويلات التي صبت على رأسها منذ الحروب الصليبية والتترية، في الداخل ومن الخارج حتى الآن، إلا أعراض لهذا المرض، فجذر المرض هو: تشوه الرؤية الكلية للأمة نتيجة السرعة الرهيبة للفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، والانفتاح غير المنهجي على الفكر اليوناني مما أوقع العقل المسلم في براثن المنطق الإغريقي الصوري، من لحظة التألق الحضاري الإسلامي الأولى، والانفصال بين القيادتين الفكرية والسياسية للأمة، وتغول الدولة على مؤسستي الشورى والدعوة.

فلنقدم إضاءة معرفية خاطفة على **المفاتيح المعرفية السليمانية العشرة** للوصف الإسلامي الصحيح لداء أمتنا ولدوائه، ومن ثم وبالتبعية لداء البشرية جمعاء ودوائه، بما أن أمتنا مكلفة من بارئها بأن تكون خير أمة أخرجت للناس.

أما **المفتاح المعرفي الأول**، فهو اكتشاف البعد الغائب المركزي الأول، الذي هو بمثابة الباب الذي دخلت منه كل أسباب تمدد المرض في جسد الأمة واستعصائه على المعالجة، ذلك البعد هو: تغييب **(الأمة المنية)**. فالنظام السياسي الإسلامي كما بين القرآن الكريم مقاصده ومرتكزاته وكلياته، نظام أمة تفرز أمة منها، تمثل ضابط الإيقاع لكل من الأم الجامعة، والدولة. وفي غيبة تلك الأمة المنية، وتمكينها معرفيًا وماديًا من القيام بدورها، يصير **(القِدْرُ)** برجلين، **والقِدْرُ** لا يستوي على الموقد أبدًا - كما يعلمنا أبو سليمان - وهو برجلين، بل يسكب الطعام، ويستحيل إنضاجه.

ولمحورية هذا المفتاح الذي ساعدني منذ أكثر من ثلاثة عقود، في أطروحتي للدكتوراه، على تعرية كثير من الأساطير الاستشراقية والاستغرابية المعششة في

العقل المسلم، إلا ما رحم ربي، عن ما يسمى زورًا وبهتانًا: الفتنة الكبرى في صدر الإسلام، والبرهنة على أن الأمة كانت بسليقتها، وإن بشكل مؤسسي بسيط يوازي احتياجات لحظته الزمانية والمكانية، تعرف وجود تلك الأمة المنية.

وكان لتلك الأمة الفضل في حسن إدارة حروب الردة، ومراعاة متطلبات حق الدفاع عن الثغور وحق الأجيال القادمة في ترتيب وضعية الأرض المفتوحة بالإسلام بإبداع حضاري في إنزال القرآن على الواقع، وفي إدارة حكيمة وعبقرية، لتداعيات عدوان المتمردين على إرادة الأمة بقتل ذي النورين **(عثمان بن عفان)** ﷺ، تمخضت عن رد أمر الشورى إلى أهل الحل والعقد في الأمة، وحفظ الفتوح الإسلامية.

ولا يتسع المقام هنا لمزيد من التفصيل لما بيناه في مئات الصفحات من قبل في أطروحتنا للدكتوراه، لكن إلقاء نظرة خاطفة على المنظومة القرآنية لهذا المفتاح، أمر يستحيل التغاضي عنه، فلنمسك بهذا الخيط القرآني، يقول الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

هذه هي **قاعدة مثلث** النظام السياسي العمراني الإسلامي، وخيرية الأمة ليست تشريفًا ولا تكريمًا، ولا خاصية وجودية ملازمة لها، إن منطوق الآية الكريمة هو: قضى الله أزلًا تكليفكم بأن تكونوا خير أمة أخرجت للناس، والدليل القرآني الدامغ على ذلك هو قول الله تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ [محمد:٣٨]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة: ٣٩].

فالأمة مأمورة بالوفاء بعهد الله وبأداء الأمانة، وبالإنفاق في سبيل الله، وبالجهاد في سبيله، فإن هي لم تفعل، فإن الله تعالى يبين لها أن سنته في خلقه هي: استبدال الأقوام والأمم، ومن بديع نص آية آل عمران جمعها بين ذلك التكليف الرباني لأمة النبي الخاتم ﷺ، وبين لفت نظرها إلى عبرة من كانوا قبلها، فلو آمن أهل الكتاب لكان خيرًا لهم، وهم ليسوا سواء، ومنهم من سيستجيب للحق ويدخل في دين الله الحق، وأكثرهم فاسقون، لن يألو تلك الأمة خبالًا، ولن يتوقفوا أبدًا سرًا وعلنًا عن الكيد لها، وعن السعي إلى ردها عن جادة صراط ربها.

و**قاعدة** مثلث النظام السياسي العمراني الإسلامي إذن هي أمة مكلفة برسالة إنسانية عالمية، بحاجة دائمة إلى إعداد العدة للخروج بالدعوة إلى السلام والعدل والإحسان والحق للإنسانية في كل زمان ومكان، وهي بالتالي بحاجة إلى من يفقهها في دينها وفي واقعها، وإلى من يساعدها على إزالة خبث ونفايات القابلية لمحاكاة أهل الكتاب في قبول بعض الحق، ونبذ البعض الآخر، وإلى من يصلح ما قد يثور من خلافات بين طوائفها.

ومن هنا يأتي **الضلع الثاني** من هذا المثلث، والمعبر عنه في قول الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وتشير هذه الآية الكريمة بوضوح بالغ إلى **أمة مخصوصة** من **الأمة العامة**، فهي ليست (**على** الأمة) بل (**من** الأمة) هي إذن أمة منية، لا أمة فوقية، وبقراءة الآية ١١٠ من آل عمران وهذه الآية معًا، نلاحظ وحدة رسالة الأمتين: الأمة الوعاء، والأمة النابعة المنبثقة منها، تلك المهمة هي: الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الخير تتطلب البيان وإقامة الحجة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يتطلبان السلطة والمكنة، وكلا الحجة والسلطة منظوم بناظم إيمان أمة – وليس فردًا أو أفرادًا – بالله.

ومن الملاحظات التي يجب لا أن تفوتنا أبدًا في قراءة هاتين الآيتين الكريمتين، أن الآية المتعلقة بعموم الأمة الإسلامية، استبطنت فلاحها ضمنًا، في حين تضمنت آية الأمة المنية، النص على فلاحها بالتصريح لا بالتلميح، وتعد تلك الأمة المنية بمثابة رمانة الميزان في النظام السياسي الحضاري الإسلامي، أو هي بتعبير آخر، ضلع الزاوية القائمة لذلك النظام، المحدد **لضلعه الثالث** المتمثل في الدولة التي هي شخص معنوي تعبر عنه السلطة السياسية، التي تحتاج لضوابط لتنشئة عناصرها، ولاختيارهم، وللرقابة عليهم، ولمحاسبتهم، ولمنع تغولهم على مفهوم الدولة ذاته الذي هو أوسع في مقوماته من السلطة السياسية، ومنع تغول مؤسسات الدولة، لكونها تخضع مهما التزمت بالمبادئ، لمقتضيات الاختيار السياسي الذي يفرضه الواقع، على مؤسسات الأمة العامة التي تقوم على المبادئ وليس على الاختيارات الموقفية، بوصفها خير أمة أخرجت للناس.

وعبرة التاريخ الإسلامي تبرهن على محورية دور تلك الأمة المنية بالنسبة لكل من قاعدة مثلث النظام الإسلامي، وضلعه الثاني على حد سواء. فلقد خرج من الأمة رعاع قتلوا ذا النورين، في الشهر الحرام في البلد الحرام ومصحفه بين يديه، وقراره أن لا تراق نقطة دم واحدة من دم أمته بسبب الدفاع عنه، فالأمة العامة بحاجة إلى من يفقهها في أمر دينها ودنياها، ويأخذ على يد من يعتدي عليها، والسلطة السياسية بحاجة إلى من يرشدها في إنشائها، وفي تسييرها، في الداخل والخارج، ويأخذ على يدها حين تنحرف باتجاه الطغيان والتأسيس للاستعباد.

فلنسأل القرآن عن ماهية تلك الأمة المنية، وحدود دورها العمراني، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وتوجهنا هذه الآية الكريمة إلى كليات: إقامة الأمة المنية، فاعتبار الأمة العامة كلها مغنية عنها

هراء، فما كان المؤمنون لينفروا كافة، فالعمران نظام، إذن المطلوب القرآني هو: **تنشئة الأمة الفرعية النابعة**، وتلك الأمة تتشكل من نفر أفراد نافرين في سبيل الله، يمثلون كل طوائف الأمة العامة، وهم لا يؤهلون في مقاعد تعليم منغلقة، بل في معامل تنشئة كونية بالسير في الأرض، للتفقه في الدين، والدين منهج حياة شامل لتحقيق الفلاح الإنساني الفردي والجمعي على كافة أنساق العمران الإنسانية بدءًا بالفرد مرورًا بالأسرة والعشيرة والبطون والأفخاذ والقبائل والعمائر والشعوب ووصلًا إلى مستوى الأمم، ووظيفتهم بعد ذلك التأهيل، هي (أن ينذروا قومهم)، متى؟ حال احتياجهم إلى الرجوع إليهم، لأية غاية؟ لعلهم يحذرون.

تلك هي المنظومة القرآنية لكيفية إنشاء تلك الأمة وإعدادها، وتحديد رسالتها، فهي أمة مؤهلة لأن ترد إليها أمتها ودولتها، ما يغم عليها من أمر الأمن أو الخوف؛ لتستنبطه عن علم، وهي ليست كيانًا متسلطًا لا على الأمة العامة ولا على الدولة، بل هي: منذر بالحق، لعل من ينذر يحذر الوقوع في حدود الله ومحارمه.

ولنسأل القرآن مرة أخرى عن دور تلك الأمة المنية التي غيبت من نظام أمتنا جزئيًا بعد القرن الهجري الأول، وعلى نحو متصاعد، في القرون الخمسة الأخيرة، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

وتوجه هذه الآية الكريمة بكل جلاء إلى **هيئة جماعية**، مكلفة بالسعي إلى إصلاح ذات البين، فيما لو حدث أن اقتتلت طائفتان من المؤمنين، ومكلفة **ثانيًا** في حال إخفاق مساعيها للصلح، بسبب بغي طائفة بعدم الامتثال للحق، بأن تقاتلها على نحو مشروط بحد هو الفيئة إلى أمر الله، ومكلفة **ثالثًا**، بعد تلك الفيئة، بالصلح بينهما بالعدل والقسطاس، فالله يحب المقسطين.

وخلاصة هذا الطرح، الذي آثرت الاكتفاء بالوقوف عند كلياته الكبرى، أن أمتنا فرطت في إقامة بنيان نظامها العمراني على هدي كتاب ربها، حينما استدرجت إلى إفك حصر مفهوم **الواجب العيني** في قيام الفرد المسلم بشعائر العبادات، وبتلمس سد متطلبات نفسه وأسرته المادية، وحصر مفهوم **الواجب الكفائي** في مقولة سقوط الإثم عن الأمة إن قام بشأنها العام بعض أفرادها، مع التمثيل لذلك بغسل الميت وتكفينه والصلاة عليه ودفنه، وحصر **مفهوم الشورى** في إسداء النصيحة، وتمييع ذلك المفهوم المركزي في سفاسف لغط هل هو ملزم أم معلم؟

وكم كنا أغرارًا مغفلين حين ابتلعنا مقولات أن النبي الخاتم ﷺ بنى بالمدينة المنورة دولة، وأن القرآن الذي تنزل بمكة كان يركز على بناء العقيدة، بينما ركز القرآن المنزل بالمدينة، على بناء الدولة، فحقيقة الأمر أن النبي ﷺ، أنشأ في مكة أمة، وترك بالمدينة أمة أفرخت أمة شورها، ودولتها، والغفلة عن هذا المفتاح المعرفي والتعتيم عليه، هما البوابة التي تغولت بها الدولة ممثلة بالسلطة السياسية على الأمة، بكل ما ترتب على ذلك من ويلات على مدى التاريخ.

ولقد أعاد **أبو سليمان** استكشاف هذا المفتاح القرآني، ورسم خريطة كلية واضحة المعالم لكيفية استخدامه في استعادة العافية الحضارية لأمتنا، وقوام تلك الخريطة التي نترك للقارئ الغوص في تفصيلاتها من منبعها المباشر في العديد من المؤلفات التي تقدم هذه الحقيبة المعرفية عصارتها ورحيقها، هو الفصل بين الدعوة والسلطة السياسية، وبناء الوعي بأن ذلك لا يمثل دعوة للفصل بين الدين والسياسة، بل هو شرط الوصل الآمن بينهما، الذي يظل فيه الدين ميزانًا، والسياسة موزونًا، مع احترام المبدأ الإسلامي الأم وهو: الحظر المطلق لأي إكراه في الدين، وإقامة مؤسسات الأمة الست المستقلة المتكاملة، **وهي**: مؤسسة الدين والقيم، ومؤسسة مجلس الشورى والتشريع، ومؤسسة الإعلام الشعبي، ومؤسسة التنفيذ، ومؤسسة هيئة القضاء، ومؤسسة مجلس صيانة الدستور، ونواة هذه المؤسسات الست

على صعيد مراقبتها وتحقيق التناغم بينها والتكامل، والمحاسبة وتصحيح المسار هي مؤسسة: مجلس الشورى والتشريع، وهي المقابل العصري لمفهوم (الأمة المنية).

وأما **المفتاح المعرفي الثاني**، الكاشف عن سر ظاهرة كثرة حركات الإصلاح التي عرفتها أمتنا على مدى تاريخ ما بعد القرون الثلاثة الأولى عامة، وفي القرنين الأخيرين بوجه عام، مع أيلولتها جميعًا، رغم تعدد مشاربها وأساليبها، ونبل المقاصد التي انطلقت منها، إلى الفشل في تحريك طاقات الأمة الكامنة، وإحيائها.

فالسر هو: البعد الغائب في تلك الحركات التي ركزت على توجيه خطابها للكبار بأسلوب وعظي، والتعويل على التغيير من قمة السلطة السياسية، والتحرك بمنطق الدولة، لا بمنطق الأمة.

وغاب منها بعُد: التنشئة الوالدية السوية للطفل، ذلك أن الكبار قد يمكن تعليمهم وبناء وعيهم، ولكنهم أشبه ما يكونون بالعود الجاف، من يريد أن يسوي اعوجاجه يكسره. أما الطفل، فهو كالغصن الطري اللين، القابل للتشكيل، ولما كانت شخصية الفرد تتشكل في سني عمره الأولى، فإن عدم التركيز في مشروعات الإصلاح في الأمة على الأسرة وعلى التنشئة الأسرية السوية، أخرج أجيالًا قد تفهم، ولكنها لن تغير سلوكها - بتعبير أبي سليمان البليغ - حتى يفهم الديك.

وقصة ذلك الديك هي أن رجلًا أصيب بمرض نفسي عضال، حتى رأى نفسه حبة قمح، لو رآها ديك لالتقمها، ولإزالة هذا الوهم من نفسه، ذهب به أهله إلى طبيب حكيم، أقنعه خلال شهور من العلاج أنه إنسان كامل الإنسانية، وليس حبة قمح يأكلها الديك، وأبدى الرجل اقتناعه بما قاله الطبيب، وجلس الطبيب ليتأكد من زوال الوهم ونجاح العلاج مع المريض وخاصة أهله في العيادة وطلب من مساعده أن يأتي بديك جميل، ويطلقه في المجلس، وما أن تحرك الديك في الغرفة، حتى هرول المريض خائفًا مضطربًا مختفيًا خلف مقعد الطبيب، تحير الطبيب، وأمر

بإخراج الديك، وسأل المريض: لم خاف واختبأ رغم اقتناعه بأنه ليس حبة قمح يلتقطها الديك؟، قال الرجل: نعم لقد أقنعتني بأنني لست حبة قمح، وأنت أيضًا مقتنع، لكن من يقنع الديك؟

ومن هنا يأتي تركيز **أبي سليمان** البالغ في كافة مؤلفاته، على مؤسسة الأسرة وعلى التربية الوالدية الرشيدة، تنظيرًا لها، وبيانًا للخطوات العملية التي يمكن بها إطلاق مشروع تربوي حضاري شامل، تلعب فيه الأسرة دور النواة، وتتكاتف معها فيه المؤسسات الدعوية والتعليمية والإعلامية، ولئن كان القرآن قد فصل لنا معالم عملية تنشئة لتخليص بني إسرائيل في شبه جزيرة سيناء، من استبداد نفسية العبيد بهم بعد طول معايشتهم للطغيان الفرعوني، إلى حد أنهم طلبوا من موسى أن يجعل لهم صنمًا يعبدونه، يقول الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وعبدوا بالفعل عجل السامري، المصنوع من أوزار القوم، يقول الله تعالى في سورة طه: ﴿قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾ [طه:٩١]، عقب أن نجاهم الله تعالى، بآية بالغة بطريق يبس في البحر، مع إغراق فرعون وجنوده، فإن الأسرة هي سيناء هذا العصر، التي من المأمول أن تُربى فيها أجيال الحرية الحقة، وبما أن الوالدين يمكن توعيتهم معرفيًا؛ فإنه لا يضاهيهم بفطرتهم أحد يمكن الثقة فيه في السهر على ما هو في صالح الأبناء؛ وبذا يتجه هذا المفتاح المعرفي إلى التخطيط لمشروع تربوي علمي حضاري ينشئ: الفرد الأمة، والأسرة الأمة؛ ليكونا نواة لاستعادة خير أمة أخرجت للناس، بالصبر وباتباع السنن الإلهية في تغيير ما بالنفس.

وبهذا المفتاح يتبين أن السبب في اعتلال الأمة وفقدانها المناعة الحضارية هو: إسقاط الطفولة من مشروع الإصلاح، وبالجمع بين فقه النص وفقه الواقع بقراءة سياقية تتحدد معالم طريق بناء الطفولة، والوجدان والإرادة بخطة عمل تربوية في

سيناء العصر، ويرتبط بهذا المفتاح التركيز على إعداد دليل لمكتبة الأسرة يتم تحديثه بشكل دوري يتضمن كل مجالات المعرفة، للصغار وللكبار، وحسب المستويات الثقافية المختلفة، والأدب الحضاري الأمتي الذي يشمل: جزيرة البنائين، وكنوز جزيرة البنائين، والقرد الذكي لا يعرف الحساب.

وأما **المفتاح المعرفي الثالث**، فهو بناء مصفوفة تشوهات فكر الأمة الإسلامية، بلبناتها الخمس: تشوه الرؤية الكونية الكلية الإسلامية، وتشوه المنهج، وتشوه المفاهيم، وتشوه الخطاب، وتشوه دعوى العرقية القومية المنتنة.

وأما **المفتاح المعرفي الرابع**، فهو: رسم خريطة كيفية إزالة تلك التشوهات الخمسة، وكيفية إعادة النهل من المنبع القرآني الصافي بمنهجية كلية معرفية علمية سننية، لبناء الرؤية الكونية القرآنية الحضارية، وتوضيحها، ونشر الوعي بها، وتفعيلها، والاسترشاد بخبرة الهدي النبوي، وهدي الراشدين في صدر الإسلام، بما يعزز التمسك بالثوابت والكليات والمقاصد، ويضع في اعتباره تغير الواقع، وبالتالي تغير سؤاله وتحدياته، وسقفه المعرفي.

وأما **المفتاح المعرفي الخامس**، فهو البرهنة النظرية والعملية على أن: المنطلق الأساسي للإصلاح الإنساني هو: الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، فالقرآن هو كتاب الحرية الإنسانية التوحيدية، إنه ليس كتاب أمتنا وحدها، بل هو الكتاب الذي تهتدي به وتهدي إليه، وهو الكتاب الوحيد الذي تمتلكه الإنسانية الموثوق به لحفظ الله له، الذي لم يفرط الله فيه من شيء، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو بالتالي الميزان لكل ما عداه، وهو مطلق، وكل ما عداه نسبي محكوم بزمان ومكان.

وأرقى نموذج لبيان تنزيله على الواقع الإنساني هو النموذج النبوي ونموذج الخلافة على منهاج النبوة في الصدر الأول للإسلام، وترسم الحقيبة التي بين أيدينا

عصارتها، معالم منظومة الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، وعمودها، وأوتادها، ولبناتها، وخصائصها، وإطارها المعماري الإنساني الجامع، وعبرة قراءة الواقع الإنساني بمنظورها.

وأما **المفتاح المعرفي السادس،** فهو تقديم نماذج في بناء مفاهيم قرآنية محورية عبر الرؤية الكونية القرآنية الكلية، والقراءة السياقية المقاصدية، ودراسة النص المنزل في ضوء سنن الفطرة وتغيرات الواقع الاجتماعي، وبيان العلاقة بين فهم النصوص ومدخل المعرفة والعلوم الاجتماعية، ومن المفاهيم التي تم بناؤها بهذه المنهاجية في التدبر: مفهوم العقوبات الإسلامية، ومفهوم التزكية، ومفهوم الرؤية الكونية القرآنية بين الأصحاب والأعراب، ومفهوم العقيدة الحضارية، ومفهوم نظرية الإسلام الاقتصادية، ومفهوم التصوير، ومفهوم ضرب المرأة، ومفهوم إسلامية المعرفة، ومفهوم العنف.

وأما **المفتاح المعرفي السابع** فهو القراءة الحضارية لأزمة العقل المسلم، التي تبين قصور القراءة السياسية لها، وتقيم تحليلها على ثلاثة مفاتيح:

أولها: بناء الوعي بمتوالية ضياع الأمة.

وثانيها: رصد خبرة انهيار المنظومة الاشتراكية السوفيتية في أوربا الشرقية وتفكك الاتحاد السوفيتي.

وثالثها: بيان أن أزمة الإنسانية تزداد تفاقمًا في كل ربوع المعمورة، ثم التعريف بمفهوم: الأصالة الإسلامية المعاصرة والبرهنة على أنها هي المخرج الوحيد الصحيح من أزمة الإنسانية، بالنظر لإنسانية الإصلاح الإسلامي.

والمفتاح الثامن هو بناء النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية، ورسم إطار التصور الإسلامي للنظام العالمي ومحدداته، وخلفيات تحول الأمة الإسلامية من الريادة الحضارية إلى وضعية التابع، وبيان أن منبع ذلك التحول داخلي، وأن أثر

الخارج هو مجرد مضاعفات لانحراف الداخلي، والتحليل النقدي للرؤية التقليدية التراثية لعلاقات العالم الإسلامي مع الخارج، ومحددات التصويب المنهجي لتلك الرؤية، وآفاق التحول من الفكر القانوني الشكلي إلى الفكر السياسي الموضوعي في ترتيب العلاقات الدولية من منظور إسلامي، وبناء إطار لتحليل العلاقات الدولية في العالم المعاصر.

والمفتاح التاسع هو: المقارنة بين الرؤية القرآنية للإنسان، والرؤية المادية الاستعلائية للإنسان، والجديد المعرفي في تلك المقارنة هو: التحليل الحضاري الذي ينطلق من حاجة العلم إلى الرشد، والتنقيب في الصورة الكلية القرآنية للإنسان من لحظة خلق آدم وحواء، وتحديد أساسيات البحث العقلي الكلي الراشد، وبيان الفروق النوعية بين حضارة شعارها هو حق القوة، وحضارة شعارها هو: قوة الحق، وتحديد مفتاح التعامل المنهجي مع الآخر.

والمفتاح العاشر هو رسم معالم منهاجية تحليل الصورة الكلية لست قضايا من قضايا الخطاب الإسلامي المعاصر، هي: **الإيمان** بصدق الرسالة المحمدية بين العقل والخوارق، و**تجديد** الخطاب الإسلامي المعاصر بين الثابت والمتغير، و**نظام** الدولة المدنية الإسلامية وإشكالية الاستبداد والفساد في الفكر والتاريخ السياسي الإسلامي، **ودور التعليم** الإسلامي في الإصلاح، **وعقيدة** الصلب بين المسيحية والإسلام، و**قضية** النقد المنهجي لمتن الحديث الشريف.

ويقوم معمار هذه الحقيبة المعرفة على تخصيص فصل لكل كتاب، وفصل للمتفرقات المنشورة على الموقع الإليكتروني لمركز الدراسات المعرفية بالقاهرة والمساهمات العلمية المنشورة بمجلة إسلامية المعرفة، مع ضم الأعمال الأدبية الثلاثة في فصل واحد.

وقد يبدو للقارئ المتعجل أن بهذه الحقيبة بعض التكرار للأفكار، وهذا غير

صحيح، كل ما في الأمر أن أبا سليمان مبدع في تعدد أساليب توصيل الفكرة، وهو لا يخاطب شريحة واحدة من شرائح عقل الأمة، بل يحرص على مخاطبة كل شرائحها، فيتعدد الخطاب بتعدد مستويات المخاطبين به، مع الإلحاح على تعميق الأفكار، والتدبر في مرتكزاتها التنظيرية والتطبيقية، واستوجب ذلك مني الحرص في إعداد هذه العصارة المعرفية، على الإبقاء على حيويتها، وعلى وحدة الطرح في كل مؤلف منها؛ ليقيني أن ذلك أجدى للقارئ، وأدعى لكشف وحدة نواتها وتكاملها في مخاطبة العقل والقلب والنفس والوجدان، وتيسير الوقوف على مفاصلها الرئيسة.

وأود في ختام هذا التمهيد أن أشكر كافة الإخوة والأخوات العاملين بمركز الدراسات المعرفية بالقاهرة، على توفيرهم المادة العلمية، التي استعنت بها في استخلاص رحيق هذه الحقيبة المعرفية، وأن أعرب عن أملي في أن تكون سلسلة حقائب فقه الأمة عند رواد مدرسة إسلامية المعرفة، التي تمثل هذه الحقيبة الحلقة الثانية منها، نافذة لعقل أمتي وقلبها ونفسيتها ووجدانها، على ما أنتجته تلك المدرسة، بما يفتح السبيل لتصور كلي لإصلاح عمراني شامل، تستعيد به ذاتها، وتعيد بناء إنسانية الإنسان.

والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير

السيد عمر

طحانوب

١٤٤١هـ- ٢٠٢٠م

الفصل الأول

الرؤية الكونية الحضارية القرآنية

المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني

الفصل الأول
الرؤية الكونية الحضارية القرآنية
المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني(١)

تنطلق هذه الدراسة من استحضار حقيقة أن القرآن الكريم - كما أفصح هو عن نفسه، وكما بينته السنة النبوية - كتاب رباني يهدي للتي هي أقوم، يستحيل أن يأتي الثقلين الإنس والجن مجتمعين بمثله، فصله الله تعالى على علم ليكون هدى ورحمة للمؤمنين، وليخرجهم به من الظلمات إلى النور بإذنه جل وعلا، وهو وحده المخرج للأمة الخاتمة من الفتن، ففيه نبأ ما قبلها وخبر ما بعدها وحكم ما بينها، وهو القول الفصل الذي يقصم الله كل جبار يتركه ويبتغي الهدى في غيره، وهو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم، الذي لا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه.

وتقع هذه الدراسة في مئتين وخمس وثلاثين صفحة، ويدور معمارها حول: **مقدمة، وسبعة محاور**، وخاتمة، **وثلاثة ملاحق**. موضوعها: الرؤية الكونية القرآنية الحضارية من حيث تحديدها للعلاقة بين الأنا والآخر وللسلام العالمي وجمعها بين المثالية والواقعية ومبادئها وأسس ومنطلقات ودوافع الإعمار فيها وخلفياتها الكامنة، وكيف يمكن الاستعانة بها في بناء العلوم الاجتماعية الإسلامية.

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني، ضمن: د. أحمد فؤاد باشا (وآخرون) المنهجية الإسلامية، القاهرة: دار السلام للطباعة والتوزيع والترجمة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٠ الجزء الأول.. نشرت هذه الدراسة في كتاب منفصل: د. عبد الحميد أبو سليمان، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٩. وتقع هذه الدراسة في ٢٢٩ صفحة. وللاقتصاد في الهوامش سوف أدرج أرقام الصفحات المستقى منها المعلومة في نهايتها بالمتن بين قوسين وأرقام الصفحات المثبتة بين قوسين بالمتن هي أرقامها في هذا المرجع.

وتدور ملاحق الدراسة حول تجلية معادلات الإصلاح والإيمان بالعقل والخوارق، وقراءات لتعميق الوعي بتلك الرؤية.

والرؤية القرآنية ليست رؤية للمسلمين وحدهم بل للإنسانية جمعاء، وهي رؤية فطرية استخلافية علمية عالمية، تقوم على قوة الحق والتمكين للعدل والإحسان والسعي والإبداع والعطاء والعزة والكرامة والإخاء والتكافل والرحمة والسلام، وربط القول بالعمل؛ لبناء حاضر ومستقبل مشرقين للإنسانية على يد أجيال من المأمول تنشئتهم بها وعليها.

ومفتاح رسم معالم تلك الرؤية هو منهاجية تقوم على الاسترشاد بالوحي المنزل بنصه ومقاصده، وبالنموذج التطبيقي له في الصدر الإسلامي الأول، وبخبرة دراسات الفطرة الإنسانية الاجتماعية والسنن الكونية في واقع الزمان والمكان، والسؤال المحرك للسعي إلى بناء تلك الرؤية هو تفسير لغز ضخامة الموارد المادية والمعنوية القيمية لأمتنا مع تواصل ركودها، بما يؤشر على وجود خلل في الفكر وفي منهج الفكر كامن في قلب أزمتها، وهو ما كشفت عنه بالفعل جهود المعهد العالمي للفكر الإسلامي وتجربة الجامعة العالمية الإسلامية بماليزيا، التي يمكن تلخيص عبرتها في أن: معرفة الصواب لا تكفي لتحويله إلى سلوك، ومعرفة الخطأ لا تكفي لاجتنابه.

فالأمر الأهم هو بناء الوجدان الذي ينزع إلى الالتزام بما يراه العقل، وخبرة بني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام، بعد أن نجاهم الله من القهر الفرعوني تبرهن على أن عقدة الاستعباد لا تزول بمجرد معرفة الصواب، بل تلازم من لا يتغير وجدانه فيسيء استعمال حريته، ويحتاج إلى عملية تربية جيلية.

ومن هنا تتلازم أزمتي (الفكر الإسلامي) و(الإرادة والوجدان الإسلامي). فوجود غاية إنسانية مقدم على امتلاك أدوات العمران، وبغياب الغاية لن يتغير حال

الأمة مهما امتلكت من الوسائل، وستظل نهبًا للمحاكاة الفاشلة، ولن توجد غاية إلا إذا تم بناء الوعي برؤية كلية إيجابية ينبع منها الهدف والدافع لتحقيقه، وبدون تلك الرؤية الكونية القرآنية الحضارية ستظل كل إمكانيات الأمة المادية والقيمية أشبه ما تكون بقطع السيارة المفككة، لا يؤمل أبدًا أن تحقق حراكًا حضاريًا مهما عظمت، ومن هنا تأتي محورية هذه الدراسة وأهميتها الأكاديمية والتطبيقية العملية. (ص١١١- ١٢٢).

أولًا: معالم منظومة الرؤية الكونية القرآنية الحضارية: لكل أمة رؤية كلية تنبثق منها منهاجيتها في التفكير وإطارها المرجعي، وسعيها العمراني، وأي خلل جوهري يلحق بتلك الرؤية بتشوهها أو تغييبها يفضي بالضرورة إلى سلبية الأمة وتيه عقليتها وشل فاعليتها الحضارية، وتبديد مفاهيمها، ومعنى ذلك أن الركيزة الأم للفاعلية الحضارية للأمة هي: رؤية كلية مستقرة في ضميرها، فالرؤية الكلية الراسخة في وجدان الأمة بمثابة التربة التي تنبت فيها مبادؤها وقيمها ومفاهيمها وفكرها، والمنبع الصافي للرؤية الكونية للأمة الإسلامية هو القرآن، فهو معين تحديد هويتها، ومصدر إجاباتها على كافة الأسئلة النهائية.

وبقدر نقاء تلك الرؤية والوعي بها يتحدد مدى فاعلية ثروة الأمة من المبادئ والمفاهيم والقيم، وضبابية تلك الرؤية تورث السلبية وتسطيح الفهم والخرافة بالضرورة، وهي التفسير الصحيح لما تعانيه أمتنا من تيه، ولتلك الضبابية مصدران: جمود الموروث الفكري والانبهار الساذج بالنموذج المعرفي الغربي القاهر، ولا مخرج من تلك الضبابية المورثة للتيه إلا بمراجعة نقدية جادة للتراث الإسلامي والإنساني بوجه عام بميزان قرآني جامع، وفي القلب من تلك المراجعة يأتي التنقيب في موارد تشوه الرؤية الكلية الإسلامية، والكيفية التي حدثت بها، لأخذ العبرة، وامتلاك بصيرة إعادة بنائها على استقامة وهدى، باستلهام الرؤية الكلية الكونية الحضارية الفعالة التي أثمرت العالمية الإسلامية الأولى.

١- **معالم الرؤية الكلية الكونية الحضارية في القرآن الكريم**: سؤال استقصاء تلك المعالم هو: ما هي معالم الرؤية التي تحقق بها التألق الإسلامي، وكيف أدى اندراس تلك المعالم عبر الزمن إلى إصابة الأمة بالوهن في العصر الحديث؟، وعين الدراسة هنا على تجلية الفارق الرهيب بين الرؤية الكلية الإسلامية في نقائها الأول، وتلك الرؤية الكلية التي تشكلت في العهود المتأخرة في ظل استحكام الجمود والتقليد وغياب الاجتهاد، وورثتها الأمة كإرث ثقيل ينوء به ظهرها في العصر الحديث، فنواة الرؤية الكلية الأصيلة الأولى هي: الحرية التوحيدية المسؤولة، ونواة الرؤية الكلية البديلة هي: الإملاء العشوائي بخطاب ترهيبي يصل إلى حد إلغاء الذات بالنسبة للمسلم، ويسلمه للإحساس بالقهر والتهميش، ويفقده الدافعية، ولا يمكن لمثل تلك النفسية أن تخلف غير أمة مستضعفة مهمشة اتكالية غائبة عن البحث في السنن الكونية والشهود الحضاري، لا تخرج منها ومضات خير إلا لمامًا من معين الفطرة الروحانية الكامنة في ضمير النفس اللوامة.

فدعونا نرصد معالم الرؤية الكلية القرآنية في نقائها:

أ- **عمود الرؤية الكلية هو الحب الشامل**: تنبثق هذه الرؤية من منظومة الحب الشامل لعلاقة الإنسان بكل أنساقه المجتمعية بالوجود كله، ولتلك المنظومة نواة هي صدارة حب الله لحب كل ما عداه، وبتلك الصدارة يتوجه الحب وجهة صحيحة إلى تحقيق الذات الفردية والجماعية بإيجابية واختيار حر متناغم مع كل ما بالوجود، ومن هنا تتألق فطرة الله التي فطر الناس عليها، في دفع الله تعالى الناس بعضهم ببعض، في جدلية النفس الأمارة بالسوء مع النفس اللوامة وصولًا إلى النفس المطمئنة، وضرب الله الحق والباطل، ويذهب الزبد جفاء ويمكث ما ينفع الناس في الأرض، وتغلب قوة الحق حق القوة.

ومن هذا الجذر التأسيسي يتم تفعيل مبدأ الاستطاعة العمرانية، ومبدأ المحاسبة

الذاتية الجوانية، ومبدأ الأخذ بالأسباب مع استحضار الوعي بالحاجة إلى الرعاية والتوفيق الإلهي؛ لتحقيق مشيئة الاستقامة، ويمتلك الإنسان ميزانًا فطريًا جوانيًا يعرف به البر ويميز به الإثم بما يحيك في القلب السليم ويكره المرء أن يطلع الناس عليه.

ولقد كان أول خلل أصيبت به نواة تلك الرؤية الكلية، هو السرعة المذهلة للفتح وانتشار الإسلام، التي صاحبها غياب جيل الصحابة الذين تربوا على يد النبي ﷺ في عهد التلقي بالموت وبالاستشهاد، وبصيرورة من بقي منهم على قيد الحياة قطرة في محيط بشري مثقل بإرث وتقاليد وعادات أمم أخرى قبل الدخول في الإسلام؛ وبذا حل محل روح وثيقة المدينة المنورة بحلقات التضامن الإنساني المترابطة من الأسر والأخوة والجوار، مكون إنساني يحتاج إلى التربية لتخليصه من إرثه القبلي العنصري الاستبدادي الذي تلوث به على عهد الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية الغابرتين.

ولم يكن بوسع الأمة الإسلامية في صدر الإسلام القيام بعملية تخلية تزيل ذلك الإرث بكامله، وبعملية تحلية تحل محله منظومة الحب في الله ولله في روح الشعوب التي دخلت في الإسلام أفواجًا، بحكم سنن التدرج والاستطاعة، ومن ثم دارت رحى الصراع بين الحرية والاستبداد.

وبدأ الغبش ينال تلك الرؤية تدريجيًا، في ظل قلب الموازين بتوظيف الدين لمآرب السياسة، بدلًا من ضبط السياسة بالدين، وتسلل الكثير من الإرث الثقافي غير الإسلامي إلى عقل الأمة على نحو مراوغ يبدو إسلاميًا في ظاهره، وانفتح بذلك الباب للتخبط الفكري والعقائدي.

ب- بناء العبادات والمعاملات على ركيزة العقيدة الإيمانية الراسخة الفطرية العقلانية: يتأسس الظاهر الإسلامي الصحيح على البنية الجوانية القلبية، ومن هنا تتعلق أركان الإسلام جميعًا بتربية الروح الفردية والجماعية المتراحمة، وأسفر ضعف

هذا المعلم عن مفارقة التراكم الحضاري المادي المصحوب بتراجع استخلافي روحي، وأخفى الأول الثاني، وعتم على تراجع الأداء الإسلامي الحضاري وتكلس نظام مجتمع الأمة.

وبمرور الزمن تفاقم ذلك التشوه العقدي الفكري الحضاري مولدًا أمراضًا حضارية خطيرة يتصدرها: الخرافة، وتوهم إمكانية وجود تعارض بين العقل والنقل، وتغذى ذلك الانحراف على الإسرائيليات والفكر الغنوصي الباطني، والمنطق الفلسفي الصوري الإغريقي، والقراءة التجزيئية المحرفة للقرآن والسنة.

وبرزت قضايا عقيمة مثل: خلق القرآن والخوض في الغيبيات وغيرها من متاهات الاعتزال والتصوف والتشيع وما يسمى علم الكلام، ذلك أن العقل لا يتعارض أبدًا مع الوحي، فوظيفة العقل هي تحرير مدى التوافق بين الفكر الإنساني، وكل من الفطرة والوحي والسنن الكونية، ووحدة القصور في النظر وفي فهم مقتضيات الفطرة والوحي والسنن، ذلك أن الحقيقة الكونية ونواميسها مطلقة، في حين أن إدراك الإنسان لها نسبي زماني مكاني وفق السقف المعرفي المتاح له.

ج- التركيز على كليات الوحي ومقاصده: جوهر الرؤية الكلية القرآنية هو مبدأ: حدود لا قيود، فهي تقدم خطوطًا إرشادية كلية ضابطة للفرعيات، والإنسان المكلف صاحب فطرة يزن بها البر والإثم لا سلطان لأحد عليها، بما يجعل مفتاح التغيير هو تغيير ما بالنفس. أما إحاطة الإنسان بكافة الحقائق والنواميس فهي نسبية وتغيرية عبر الزمان والمكان.

ومن هنا تأتي محورية الوعي بالكليات والمقاصد القرآنية، وجماع تلك الكليات والمقاصد وارد في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، ويحتاج الإنسان للحكم على النوازل إلى منهاجية عقلية تستحضر مقاصد الفطرة

والـوحي وأصـول كـل مـن الـشريعة وعلـوم فطـرة الاجـتماع الإنـساني، وإخـضاع الجزئيـات النـصية والعمليـة للكليـات، فـما يـستطيع العقـل البـشري الوصـول إليـه هـو فرضيات محدودة بالسقف المعرفي المتاح، يتعين اعتبارها موزونًا تابعًا لكليات ومقاصـد الوحي والفطرة، وليس ميزانًا لها، وضبط الإشكالية النصية والإشكالية العلميـة بتلـك الكليات هو السبيل للتخلص من الخرافات والتهـويمات التـي لا تـزال تطرح عـلى أنهـا نظريات، مع إخفاقها في تحقيق المقاصد العمرانية والمصالح المتيقنة أو الراجحة.

وخلاصة القول أن الوحي والفطرة والسنن والعقل كلهم جميعًـا مـن صـنع الله، ومن ثم لا مجال لتنافر حقيقـي بيـنهم، ومـصدر تـوهم إمكانيـة التنـاقض بـين العقـل والوهم هو المنطق اليوناني الصوري والفلسفة الأسـطورية السفـسطائية، ولا سـبيل لاستعادة وحدة الأمة وفاعليتها الحضارية دون تخليص العقل المسلم منه ومن آثـاره الفتاكة، فذلك المنطق مناقض لجوهر الرؤية الإسلامية القائمة على السعي الإنـساني العمراني الجامع، فهو منطق ترفي نظري غارق في الذاتية وفي تخليق الفـوارق وتوليـد الاختلاف بالهوى، وهو جذر انقسام أمة التوحيد إلى ملل ونحل وطوائف.

ولو كانت الأمة قد ردت ما اختلفت فيه إلى القرآن والسنة دون سوء تأويـل ولا تعـضية للنـصوص، واعتـصمت بوحـدة الحـق، لمـا انفـرط عقـدها إلى طوائـف وعرقيات، ولم وجد عدوها سبيلًا عليها، إلا أنها للأسف احتضنت الموروث القـبلي الجاهلي واليهودي الغنوصي والصوري اليونـاني، وغفلـت عـن التـدبر والتنقيـب في السنن الكونية، وعن وضع العقل في المقام المرموق الذي وضعه القرآن فيه.

د- **الوعي بقابليـات الترقـي والتدسـية اللامتنـاهيين لـدى الإنسان**: يبـين القـرآن الكريم أن الإنسان قابل للترقي العمراني بالتزام الفطـرة الـسوية والـسعي العقـلي في الاستفادة من الطيبات المسخرة في الكـون واجتنـاب الخبائـث، فـلا حـدود للإبـداع الإنـساني والحيـاة الطيبـة في مجـال الخـير لـدى اسـتقامته، وفي المقابـل فإنـه لا حـدود

لانحطاط الإنسان ولحياة الضنك والخيبة حين انحرافه عن الجادة وتدسيته لنفسه، ووعد الله الأبدي للبشرية هو: الكشف المستقبلي الدائم لآياته في الأنفس وفي الآفاق حتى يتبين لهم أنه هو الحق.

ومعنى ذلك أن الإيمان الصحيح بالوحي، لا يلغي الفطرة ولا يحول دون تحقيق الذات الإنسانية، ولا يلقي على عاتق الإنسان تكليفًا مغايرًا لفطرته التي فطره الله عليها وللسنن الكونية، فالإنسان في هذا المنظور مكلف مكرم بحمل الأمانة، مطالب بقراءة الوحي المسطور والكون المنظور، لعمارة الأرض ولتحقيق السعادة في الدارين: الدنيا والآخرة، والرؤية الكلية القرآنية رؤية لخلافة إنسانية في الأرض على منهاج النبوة.

ولو قدر لأجيال الأمة التي تلت جيل الصحابة أن التزمت تلك الرؤية الكونية القرآنية، لما وجد مجال لتمزق الأمة شيعًا وأحزابًا، ولما تمكن الفراعنة والكهان من تضليل جماهيرها بطلاءات علمانية ليبرالية ديموقراطية أو بشموليات مادية أو دينية تلبس الحق بالباطل، وتقدم ما هو ذاتي ملفق على أنه هو الحقيقة، وهنا يأتي التحذير النبوي من تحديث أي قوم بما لا تحتمله عقولهم؛ لأنه يكون فتنة لبعضهم على الأقل.

وهذا هو ما حدث حين تعرض العقل المسلم لطوفان الموروثات القبلية واليهودية والغنوصية الباطنية بما يحمله من غشاوة وتحريف وتشوهات وأنانية تسلطية استبدادية، مما أضعف الصلة بينه وبين القرآن ومع الرؤية الكلية النابعة منه، وتفهم المكنون القرآني المتكشف وتنزيله على الواقع المتغير والمتطور عبر الزمان والمكان؛ وبذا تحول الخطاب في الأمة من خطاب حب وتكريم وتحقيق للذات بما أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، إلى خطاب تحقير وتسفيه وإذلال وبطر للحق وغمط للناس. (ص١٢٣-١٥٢).

هـ- **الوسطية الفطرية السوية**: تكشف المعالم السابقة للرؤية الكونية القرآنية عن

كونها رؤية تقوم على الوسطية التي لا تعرف التفريط ولا الإفراط في السعي الإنساني الفطري السوي في الكون المسخر لاستخلافه بما يحقق الإبداع الإنساني العمراني الفردي والجماعي؛ وبذا لا تكون التضحية إلغاء للذات بل تحقيقًا لها، ويتسع بذلك مفهوم الصدق والصدقة بحيث يكون كل فعل يلبي حاجة إنسانية حقيقية صدقة، فحتى الاستمتاع الجنسي المشروع يدخل في عداد الصدقة، ويصير ميزان العمل هو النية، وخير النية هو: إقامة الوجه للدين حنيفًا، فتلك هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، وذاك هو الدين القيم، ولا تبديل لخلق الله.

وفي ظل تلك الرؤية يصير الله تعالى هو مصدر الخير كله والداعي إليه والمعين عليه والملهم له، ويصير الشيطان هو مصدر الشر كله؛ وبذا يميز الحق من الباطل، فالعدل والإحسان والرحمة والسلام والحق هي دعوة الله للإنسان، والظلم والفساد والطغيان هي دعوة الشيطان للإنسان، والإنسان حر مكلف مسؤول يحيا عن بينة ويهلك عن بينة، وعلامة الاستواء والوسطية الإنسانية هي الاستقامة على صراط الله، وعلامة التدسية هي الانحراف عنها إلى مهاوي الشيطان.

وتنتظم تلك الوسطية الفطرية بمنظومة حب لله ولرسوله ولكل ما أمر به الله، بغض واجتناب لكل ما نهى عنه من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وفي الصدارة منها غواية الشيطان واستذلاله والقنوط من رحمة الله وعفوه، ومن قبوله، وظلم النفس، وظلم الغير، وولاية الشيطان.

ومع محورية الذكر والتواصل بين الإنسان وربه بوصفه هو الأساس الوجداني الفطري الذي يحقق به الإنسان ذاته ويضبط علاقته بالمخلوقات، فإن من الهدي النبوي تجنب الغلو في الدين، والنهي عن صوم الدهر وعن الرهبانية، وعن الصلاة طوال الليل، ومن ذلك أيضًا ربط العبادات بالمعاملات، فرب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، ولا صلاة لمن لم تنهه صلاته عن قول الزور والعمل به،

وهكذا يتحقق التوازن بين حق الروح والجسد وبين حق الفرد والجماعة، وتنعكس تلك الرؤية الكلية على كافة المفاهيم والقيم القرآنية المأمور بها، وكافة الخصال والقيم السلبية المنهي عنها.

ويولي القرآن اهتمامًا خاصًا بتكريس تلك الوسطية الفطرية على مستوى الأسرة، ويفصلها، بوصفها المؤسسة الرئيسة في كيان الأمة، ولو قدر للوسطية القرآنية البقاء في مؤسسة الأسرة لظلت الوصاية للأمة على الدولة وأجهزة الحكم، ولما فسدت السلطة.

ولعل الفضل فيما بقي من كيان الأمة حتى الآن رغم أعاصير مستنقعات الفساد والاستبداد، والهجمة العلمانية الغربية الضارية عليها، يرجع إلى عدم القضاء على مؤسسة الأسرة المسلمة.

والمتأمل في العبث الغربي المعاصر بوظيفة المرأة وبمؤسسة الأسرة يدرك الأهمية المحورية للوسطية الإسلامية، فلقد أعفت تلك الحضارة السائدة الرجل من مسؤوليات الزوجية والأبوة، وضربت وظيفة الأمومة في مقتل، وحولت المرأة إلى سلعة متعة عابرة، وساهم غياب الوعي بالرؤية الكلية القرآنية في ابتلاع المسلمين طعم تلك الحضارة الغربية الظالمة، والإقدام على التعرض لوسائلها الترفيهية المحبوكة دون مناعة فكرية وتربوية وجدانية تكشف الغث من الثمين.

و- **الغائية الأخلاقية**: تقوم الرؤية القرآنية الكلية على أن الوجود لم يخلق عبثًا، بل لغاية تقتضي التعامل الإنساني الأخلاقي مع كل مكوناته، بنواظم المودة والرحمة والمعروف والإحسان، ومعنى هذا أن الرؤية الكونية الحضارية القرآنية رؤية توحيدية إعمارية غائية أخلاقية تفعل الفطرة السوية وترشدها سعيًا؛ لتحقيق الحياة الطيبة والسعادة في الدنيا والآخرة، والجماعة والأمة في تلك الرؤية جزء من فطرة الوجود الإنساني التي لا وجود للفرد فيها دون الجماعة، ولا للجماعة دون الفرد،

ولا استواء لبنيان أحدهما إلا باستواء بنيان الآخر، وكل خطاب قرآني للفرد هو خطاب للجماعة، وأساس أخلاقية الفعل الإنساني الهادف ثلاثة: قوة اليقين الإيماني، والعمل المثمر، وفاعلية العمل بصلاحه بالتزامه بالسنن الكونية وبالعلم وبابتغاء الأخذ بالأسباب والرقابة الجوانية والمجتمعية (ص١٥٣-١٦٦).

ز- **الإنسانية الجامعة:** لا تقف الرؤية الكونية القرآنية عند حد بيان هوية المسلم، بل تحدد تلك الهوية ضمن الهوية الإنسانية الجامعة، ومن هنا يختلف مفهوم الأنا والآخر في منظورها عن أية رؤية كونية أخرى، فالأنا المسلم متكامل مع كل آخر، ويوحد بينه وبينهم الانتماء إلى الكل الإنساني النابع من أصل واحد.

وانبثق من الذكر والأنثى بالتكامل التزاوجي بينهما: الأفراد والجماعات والأمم والشعوب المطالبة بالتعارف والتعاون على البر والتقوى وبعدم التعاون على الإثم والعدوان، والأنا والآخر هم قرآنيًا دوائر متداخلة على كل المستويات، وهم وحدة في تنوع، وتنوع في وحدة، والعلاقة الواجبة بينهم هي علاقة الدعوة بالحسنى وبالحكمة وبالموعظة الحسنة، مع تحري البر والإحسان وحرية العقيدة والتزام العدل حتى في حالة العداء والتنافر، ولا مجال عند الظلم والعدوان إلا لخيار من اثنين: العفو فهو أقرب للتقوى، أو المعاقبة بالمثل دون أية زيادة.

وللتحذير من المبالغة في الرد على العدوان يسمي القرآن الرد نفسه عدوانًا، وباب التوبة مفتوح على الدوام، ودعوى الجاهلية نتنة منهي عن الوقوع فيها، والأمانات واجبة الأداء إلى أهلها، والظلم ظلمات وهو محرم بين البشر، والدماء والأعراض والأموال حرام بمستوى حرمة الحرم في يوم عرفة، والتكليف هو الاستطاعة في ابتغاء الخير واجتناب المنكر، والوسطية مطلوبة. فالإسراف رذيلة أيًا كان موضوعه، وحرمة النفس الواحدة مكافئة لحرمة البشرية جميعًا، والأنا المسلم والآخر غير المسلم كيان نفسي قابل للصلاح وللفساد، والأنا المسلم والآخر المسلم

يرتبطان بهوية إخوة في الدين وعقيدة ورؤية هي جوهر حياتهم ومآلهم، وكل حق يقابله واجب، وللمرأة مثل الرجل من الحقوق وعليها مثل ما عليه من الواجبات، ولا فضل لمسلم على مسلم إلا بالتقوى.

وتتعدد انتماءات الأنا والآخر في هذا المنظور القرآني، على نحو يجعل الأنا هي الـ (هم) وال (هم) هي الأنا، بوحدة الأصل والفطرة وغاية الوجود ومناط المسؤولية والخلافة في الأرض، والأمانة التي حملها الإنسان، وفصل القرآن والهدي النبوي تلك الهوية الإنسانية الجامعة ودعا إلى تمثلها، فمن لم يهتم بشأن الأمة غير مؤد للأمانة، ومن لا يبلغ من أمة الإجابة أمة الدعوة وفق الهدي القرآني غير مؤد للأمانة، وكذا من ينقض عهد الله ويبغي الفساد في الأرض ويبخس الناس أشياءهم ويبذر ويسرف ويكذب ويبخل ويكذب بالحسنى ويتكبر ويحرم طيبات ما أحل الله.

وبالقول المختصر الفصل فإن الأنا المسلم مطالب في مواجهة نفسه وكل أواخره بالدخول في السلم كافة وعدم اتباع خطوات الشيطان، وبالتزام الصدق واجتناب الكذب الفجور، هذه هي معالم الرؤية الكلية القرآنية الإعمارية للعلاقة بين الأنا والآخرة، وهي على النقيض تمامًا من الرؤية المادية العنصرية الحيوانية العدوانية (ص١٦٧-١٨٦).

ح- عالمية السلام: تقوم الرؤية الكونية الحضارية القرآنية على مبدأ وحدة السلام الإنساني، فالقرآن خطاب إلى الإنسان، بل إلى العالمين، ولا مجال في ظل هذا الخطاب للعنصريات القبلية والقومية التي تقوم على إقصاء الآخر وعلى الاستعلاء على الأنداد وعلى التمايز السلبي الحيواني بين بني الإنسان، وفحوى الخطاب العالمي القرآني هي التنوع في إطار الوحدة الإنسانية المتراحمة والمتكاملة والمتفاعلة من أجل الخير في أمن وسلام، وفي ظل هذه الرؤية تتغلب النفس اللوامة والنفس المطمئنة على النفس الأمارة بالسوء؛ ليعيش الإنسان كما خلق (في أحسن تقويم) .

ووعد الله للإنسان في ظل هذا المعلم هو هداية المجاهدين في سبله والمعية مع المحسنين منهم، ولا محل في هذه الرؤية لخطاب الترهيب الإملائي التجزيئي المفكك للقيم الإسلامية، والمبدد للحياة بإلغاء الذات وتكريس السلبية والخوف والإصر والأغلال.

ويؤكد هذا البعد من الرؤية الكلية القرآنية على ضرورة التمييز بين الإسلام والمسلم وبين الأمة والدولة والدعوة، فالإسلام هو رسالة الله الخاتمة للإنسان المستخلف لترشيده وتعزيز فطرته برؤية كلية جامعة. أما المسلمون فهم بشر مكلفون يلتزمون بتلك الرؤية بقدر إرادتهم واجتهادهم وفهمهم، وقد يخطئون ويصيبون، ولا يصح نسبة خطئهم إلى دينهم، فالبون شاسع بين الدين والتدين.

والإنسان له قابلية لثلاث أنفس: نفس أمارة بالسوء ونفس لوامة أقسم الله بها، ونفس مطمئنة، والدعوة خطاب أمة أخرجت للناس موجه إلى العقل والقلب الإنسانيين. أما الدولة فهي كيان سياسي بشري مكلف بترتيب العلاقة بين مكونه الإنساني وفيما بينه وبين الكيانات الدولية الأخرى، وهي بدورها كيان قابل للإصابة في سعيه وللخطأ، وهو مطالب قرآنيًا بالدخول في السلم والوفاء بالعقود، ويحث القرآن على التزام دفع انحراف الدولة بوسائل سلمية بواسطة الأمة سواء كان الأمر يتعلق بالعلاقة مع الداخل أم مع الخارج.

وينظم القرآن الحالة الاستثنائية التي يقع فيها اقتتال داخلي بين طائفتين من الأمة والقتال مع غير المسلمين بضوابط صارمة وجهتها هي الإصلاح وعدم العدوان والجنوح إلى السلم ما استطاع المسلمون إلى ذلك سبيلًا، وعرف تاريخ الأمة التمييز بين دار الإسلام، ودار العهد اللتين تجمعهما علاقة سلام اتفاقية تعاهدية، وبينهما وبين دار الحرب التي تحكمها قاعدة رد المظالم ودفع العدوان بكل الوسائل بما فيها القوة المنضبطة بشرع الله فيما لو لم يكن هناك مناص من ذلك.

وشتان بين تلك الرؤية الحضارية للمعمورة، وتقسيمها الراهن بدول قومية أنانية وبنظام عالمي قائم على القهر والتسلط على الشعوب المستضعفة، ولم تكن دعوة الإسلام إلى عالمية السلام الإنساني مجرد دعوة طوباوية، فلقد تجسدت في أرض الواقع الإنساني بالفعل في ظل العالمية الإسلامية الأولى.

ومن المؤسف أن الغرب أخذ عن المسلمين المنهج العلمي السنني، ولكنه عزف عن تلقي الرؤية القرآنية التوحيدية، فحقق عمرانًا ماديًا تسلط به عبر العرقية العنصرية على الشعوب الأخرى، ونبذ به الدين، وأقام عليه حضارة الاستعلاء والبغي المادي والثقافي، وخلط الثابت بالمتغير، وحول الثوابت إلى متغيرات وقيود في غيبة المقاصد الكلية للدين المتناغمة مع الفطرة الإنسانية السوية. (ص١٨٧-٢٠١).

ط- **الجمع بين المثالية والواقعية**: ليست الرؤية الكونية القرآنية الحضارية رؤية فلسفية حالمة، بل هي مثالية واقعية حقة تستجيش القابليات الإنسانية الإيجابية وتزكيها، والبراهين على ذلك عديدة.

أولها أنه: ليس في هذه الرؤية أمر لا يرغب فيه الإنسان وتهفو إليه نفسه.

وثانيها: أن العهد النبوي عرف مثالًا واقعيًا لتحقيق تلك الرؤية وفق متطلبات الزمان والمكان.

وثالثها: هو «برهنة العبرة التاريخية على اختلاف النفوس والمجتمعات البشرية في تحقيق قيم الخير في أرض الواقع».

فلنهضة الأمم أسباب يتحقق بوجودها، ولتدهور الأمم أسباب يحدث بحدوثها، وتلك الأيام يداولها الله بين الناس، ولا جدوى تنتظر من مثالية تفوق قدرة الواقع الإنساني على تمثلها، ولا وزن لواقع إنساني لا يعرف مثالية ممكنة يتخذ منها وجهة وغاية لسعيه العمراني، فالمثالية الحالمة تهويمات فلاسفة، والواقعية المنفصلة عن القيم فضاء ظلم وظلمات وعدوان، وحدها المثالية الواقعية هي حبل

النجاة للبشرية في كل زمان ومكان من التردي في ظلمات المادية الحيوانية ودركاتها، ولا تفترض تلك الرؤية القرآنية في الإنسان العصمة من الخطأ، فقط تدعوه إلى المراجعة والتوبة مما قد يقع فيه من زلل، فكل البشر خطاؤون، وخير الخطائين التوابون.

والتدافع بين قوى الخير وقوى الشر في النفس البشرية حقيقة كونية؛ ولذا يلزم التمييز بين الرؤية الكلية القرآنية وبين السلوك الإنساني، فالأولى هي الميزان والبوصلة الإرشادية للسعي، ولا موضع في تلك الرؤية للعنصرية الحيوانية ولا للخيال الرهباني ولا للمادية العدمية العبثية، فهي ساحة حياة إنسانية سوية، ومن العسف نسبة قصور الأمة لدينها وللرؤية الكلية النابعة منه، فسبب القصور هو هجر الأمة لهما في مناهج تربيتها وتفكيرها وفي تفعيلها في واقعها. (ص٢٠٢-٢٠٧) .

وتقوم هذه الرؤية المثالية الواقعية على جملة مبادئ يتصدرها:

التوحيد: الذي هو الإجابة الكونية الفطرية السوية للبعد الروحي للإنسان في فهم ذاته من المبتدى إلى المنتهى، وفهم أبعاد الوجود والحياة الدنيا وما وراءهما، وإدراك وحدة الكون في تنوعه وتناغمه وتكامله، ورسالة الإنسان فيه، وفي ظل هذا التصور لمعنى الحياة والكون البديع يحقق الإنسان ذاته ويحيا حياة طيبة في كون كل ما فيه يسبح بحمد الله، وينفتح على سنن الوجود المادية والمعنوية ويجمع بين الإيمان بالغيب وبين الشهود الحضاري. (ص٢٠٨ -٢١٢) .

وأما **المبدأ الثاني** فهو: **الاستخلاف**: فلقد سوى الله النفس البشرية، وألهمها فجورها وتقواها، واستخلف الإنسان الحر المكلف في الأرض، وائتمنه على نعم وطيبات لا تعد ولا تحصى منها ما ظهر وما بطن؛ ليقوم برعايتها باختيار حر مسؤول، وربط القرآن بين استعمار الله للإنسان في الأرض وبين دعوته إلى الاستغفار والتوبة وابتغاء الدار الآخرة وعدم الإفساد في الأرض وعدم نسيان

نصيبه من الدنيا والإحسان كما أحسن الله إليه، وبين له غائية الوجود وأن إلى الله الرجعى.

وأما **المبدأ الثالث**، فهو: **العدل والاعتدال**: فقصد العدل الذي هو نقيض الظلم في كل تصرف إنساني هو لب المحتوى والتفاعل الإنساني السوي، والاعتدال هو جوهر الاستخلاف، ولباب معنى الحياة وأساس خيريتها، ومفهوم العدل القرآني كلي شامل لكل شأن فردي وجماعي في كل مجالات الحياة، والدليل الظاهر عليه هو الاعتدال السلوكي، وما شاع الاعتدال إلا صحبته الرحمة والتكافل والوسطية والوصال الحميد بين بني الإنسان.(ص٢١٣- ٢١٨)

وأما **المبدأ الرابع** فهو: **الحرية**: فالحرية هي جوهر تكريم الله للإنسان، ومن الأهمية بمكان ملاحظة أن القرآن بين في صعيد واحد وحدانية الله تعالى مع اتخاذه عبادًا مكرمين، وجعل الله تعالى التكليف في حدود الاستطاعة دون قيود ولا إعنات، **والحرية نوعان**: حرية شخصية تتعلق بقناعات الفرد ورؤيته الكلية، ليس لأحد أن يتدخل فيها بأكثر من الدعوة والنصيحة، وحرية تصرف في المجال الاجتماعي محدودة بضوابط السعي إلى التوافق والتشاور وتجنب الضرر والضرار والتعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان، وتحاشي الاستعلاء والظلم والوقوع في حبائل الاستبداد والفساد والركون إلى الظالمين.

وكلا النوعين من الحرية مترابطان ومتلازمان، فالإنسان لا وجود له كمجرد فرد، فهو بأصل فطرته لا يوجد ولا يحقق ذاته إلا في جماعة، فالجماعية والجماعة هي أصل الفطرة والوجود، وأخلاقية الفعل الفردي والجماعي تنبع من معين واحد، وهي أساس التوازن وعدم الإجحاف بحريات الفرد ولا بحريات الجماعة، ولباب الحرية هو المسؤولية إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، فالحرية هبة ربانية في ظل مبدأ: غائية الوجود المرتبة لمبدأ المسؤولية، وللجزاء الحق يوم القيامة، في كون كتب الله

عليه الاستبدال، وإنسان كتب الله له الخلود منعمًا أو معذبًا وفق اختياره الأخلاقي الحر المسؤول.

وتؤكد هذه الرؤية القرآنية على محورية الشورى في الأمر الخاص والعام، فلا خاب من استشار، ويبين القرآن أن من سمات المؤمنين به: اجتناب كبائر الإثم والفواحش، والعفو عند الغضب، والاستجابة لربهم، وإقام الصلاة، وجعل أمرهم شورى بينهم، والإنفاق مما رزقهم الله، والانتصار إذا أصابهم البغي، بتحري عدم الرد على السيئة بأكثر من مثلها، مع الاجتهاد في الارتقاء لمقام الصبر والعفو والإصلاح؛ رجاء الأجر من الله، وبالشورى تنضبط الحرية فلا تتحول إلى فوضى، ويتم رد ما عساه يحدث من انحرافات فردية أو جماعية.

وقصارى القول، أن الحرية والشورى معًا شرط لازم لبقاء الحضارات، فالتكلس والجمود الحضاري لا يفترس الأمم إلا من نافذة الاستبداد السياسي والكهنوتي، المنتج للأمة المتكلسة الآفلة، وتعاني الحضارة الغربية المعاصرة السائدة من سطوة النفس الأمارة بالسوء عليها، التي تؤذن بالغلبة على إنجازاتها المادية الإيجابية، وبإدخالها في نفق التشوه والاستبداد والمظالم والفساد والكهانة الإعلامية والأفول الحضاري.

ولقد وصل المرض بتلك الحضارة درجة بالغة التقدم، حيث أنجبت فراعنة جدد يتمثلون في الشركات العملاقة، وإقطاعيين جدد يتحكمون في التكنولوجيا ورأس المال، وحولت بقية الشعوب عبيد مسلوب منهم الحقوق والحريات، بما يصاحب ذلك من توسيع للفجوة بين الأمم، وتفاقم التكلس الاجتماعي والصراع، وطوق النجاة هو تعميم الوعي الإنساني بـ: الرؤية الكونية القرآنية الحضارية، والسعي إلى مأسستها والتدافع الإنساني على نورها، فذلك هو المخرج من تكلس الداخل الإسلامي ومن مؤشرات التكلس الكوني الذي تنذر به العولمة، فتصحيح

الرؤية كفيل بالإقلاع الحضاري من جديد، رغم سطوة الفراعنة الجدد وتدليس الكهنة وضجيج أعوانهم ومحاسيبهم، فيما لو صح العزم على توبة الأمم، بخطاب منهجي علمي سنني.

فالاستخلاف والسببية العلمية صنوان متلازمان، وبالوعي بتلازمهما يتم إزالة العبث الذي لحق بعقل الأمة في لحظة تكلسها الحضاري، وفي الصدارة منها مفاهيم: الجبر والقضاء والقدر، وتستعاد الآصرة الحميمة بين التكوين المعرفي والوجداني للمسلم، فالله لم يخلق الشيطان شريرًا، بل هو الذي اختار أن يكون شريرًا.

وكذا حال الإنسان حين يختار الفساد والشر والعلو في الأرض، وما الإرادة الإنسانية في هذه الحياة إلا ابتلاء بالخير والشر، والأصل الفطري هو العالمية، والانحراف الاستثنائي هو العولمة التي هي بمثابة مخدر عتيق في زجاجة جديدة، فهي مجرد التجلي المعاصر لإرادة الهيمنة والطغيان من بعض بني الإنسان على البعض الآخر، سبقتها تجليات إمبراطورية استعمارية استغلالية بشعة المستهدفة للمستضعفين في الأرض، على نحو ينزلق بالعالم وبالإنسان إلى جحيم الفوضى، مع تسميتها خلاقة، وإلى العنصرية واحتكار السلطة والثروات مع تسميتها إصلاحًا وحرية سياسية واقتصادية.

وطوق النجاة هو السعي إلى إنقاذ الأمة الإسلامية مما أصابها من انحراف وتشوه لإقامة نموذج للمجتمع العالمي الحر القائم على الدخول في السلم كافة والدعوة إلى الله وإلى العمل الصالح، وإلى الصلاح والإصلاح والإعمار بوصفها جميعًا مبادئ وغايات إنسانية فطرية، في كون قام على الجمال الحقيقي لا الموهوم، وأحسن الله تعالى فيه كل شيء خلقه، ولم يجعل فيه من فطور، ونهى عن تحريم زينته التي أخرجها لعباده والطيبات من الرزق، وأمر بالأكل منها مع تجنب الطغيان،

وبالصبر الجميل، وتلك هي صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون. (ص٢١٨-٢٦٦).

٢- عبرة قراءة الواقع الإنساني بمنظور الرؤية الكونية القرآنية: بينا فيما سبق معالم الرؤية القرآنية الكونية الحضارية والآثار المترتبة على كل من تمثلها ومن الانحراف عنها عبر التاريخ الإنساني على الأرض، والذي بلغ ذروته في الحضارة المادية الغربية المعاصرة المجسدة في جوهرها لشريعة الغاب، رغم جعجعاتها المثالية، ومن الأهمية بمكان قراءة الواقع الراهن بمنظور قرآني، فحضارة العصر هي شريعة غاب تتبتل في محراب النفس الأمارة بالسوء، وتنحرف بمفهومي القومية والمواطنة باتجاه التكاتف العنصري لسياسات القوة ولتعلية قانون (الحق للقوة الجامحة المفترسة اللا أخلاقية) .

وتلك الحضارة في أمس الحاجة إلى روحانية الفطرة المتمثلة في النفس اللوامة، ولا خلاص للإنسانية من حضارة شبيهة بالنار تأكل نفسها إذا لم تجد ما تأكله غير استعادة الوعي بالرؤية الكلية القرآنية كما يبينها القرآن وكما تجسدت في الأمة المسلمة بالمدينة المنورة في صدر الإسلام، فذاك هو منطلق الإصلاح والإعمار وأساسه (ص٢٦٧-٢٧٠).

ويطرح هذا التصور سؤالًا مركزيًا: كيف نستعيد الوعي بالمفاهيم الإنسانية الاستخلافية في نقائها قبل أن تصاب بالغبش والتكلس؟، ومفتاح الإجابة الصحيحة على هذا السؤال هو: البدء بتجلية ما وراء تلك الرؤية الكلية، فالبدء من غير ذي الجذر التأسيسي الكاشف عن مكنونها هو بمثابة الحرث في البحر، ولاستكشاف ما وراء تلك الرؤية الكونية ومكنونها سبيل واحد هو وزن موروثنا الفكري كله بالقرآن؛ لتخلية ما أصاب رؤية الأمة الحضارية من تلوث من موروثات غير إسلامية، أدت إلى تراجع أدائها وخواء مؤسساتها.

ومعنى هذا أن مفتاح التعافي هو المراجعة النقدية لتراث الأمة دون خوف من كافة الكوابح الكهنوتية والثقافية والغوغائية، ويسلمنا هذا الخيط إلى التركيز على: تنشئة الطفل على رؤية حضارية كونية قرآنية، وتتكاتف في تلك المهمة جهود صناع الفكر والمعرفة، مع مهمة الوالدين والأسرة والتربويين بوصفهم هم قاطرة بقية قنوات التنشئة القرآنية وناظمها، فهذا هو الحرث في البر لإقالة أمتنا من عثرتها واستعادة دافعيتها الحضارية، ونواة هذا الحرث هي تنقية تراثنا وإصلاح مناهج التعليم والتربية، على هدي كليات الرؤية الكونية القرآنية (ص٢٧١-٢٨١).

ويتطلب ذلك إعادة بناء العلوم الاجتماعية الإسلامية، وإسلامية المعرفة وإسلامية العلوم الاجتماعية وجهان لعملة واحدة، ومهمة العلوم الاجتماعية أوسع من وظيفة الفقه التراثي الفردي لكونها تركز على البعد الجمعي في كافة المجالات.

ويحتاج الباحث المسلم إلى التخلص من داء التقليد والمحاكاة والتسلح برؤية قرآنية كلية، لا تستبعد مطلقًا المنهج العلمي غير المناهض للفطرة وغير المجزئ للإنسان، ولا تدعو مطلقًا لعدم الاستفادة من الخبرة المتناغمة معها في كل زمان ومكان، وثمة خطط عمل طرحت في ساحة تفعيل ذلك من جانب المعهد العالمي للفكر الإسلامي؛ لتخريج باحث مسلم يجمع بين المعرفة بالشرع والمعرفة بالواقع، ويعيد الربط على نحو مرن بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية الاجتماعية (ص٢٨٢-٢٩٣).

ولصياغة تلك الخبرة في معادلات استرشادية للإصلاح، يمكن القول بأن متطلبات المنهاجية الفكرية السليمة تتمثل في الجمع بين الوحي والفطرة والسنن والعقل واعتبارات الزمان والمكان لتكوين المنطق العلمي، وبين تربية الوجدان الإيجابي وإرادة العمران الخيرة، وبجماعهم تتحقق الذات الإنسانية السوية، التي تستطيع تحقيق التغيير الحق بفكرة وتربية وإصلاح مؤسس على رؤية كلية فعالة،

وبناء اجتماعي سليم، فبنية حضارة الإسلام هي رؤية توحيدية استخلافية ترتكز على السببية العقلانية التي لا موضع فيها للخوارق ولا للأدلة الغنوصية، وعدم الخروج عن الطبيعة البشرية، والتربية الوجدانية والمؤسسية الأمتية العالمية المتراحمة، والوعي بالتكامل بين عالمي الغيب والشهادة؛ لتنشئة مسلمين بالخيار وليس بالمولد ولا بالهوية الأبوية أو المكانية (ص٢٩٤-٣٠٩)

وخلاصة هذه الدراسة أن الرؤية الكونية هي البنية الأساسية للإصلاح الإنساني الكوني، وهي رؤية للسلام العالمي للأنا المسلم وللآخر، على أساس يبين الثابت والمتغير بمثالية واقعية تؤسس حضارة إنسانية تقوم على ثلاثة عشر مبدأ قرآنيًا هي: التوحيد، والاستخلاف، والعدل، والاعتدال، والحرية، والمسؤولية، والغائية،والأخلاقية، والشورى، والشمولية العلمية السننية، والعالمية، والسلام، والإصلاح، والعمران، والجمال[1].

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٩ ص٥-٦.

الفصل الثاني
أزمة العقل المسلم

الفصل الثاني

أزمة العقل المسلم[١]

أصل هذه الدراسة هو مجموعة محاضرات وأبحاث قدمها أبو سليمان، وتحاور في مضامين موضوعها، وحرص على تأخير ظهورها في كتاب، إلى أن تتحقق غايتان: هضمها بالمدارسة، وإزالة الحساسيات النفسية الجانبية التي قد تصرف الحوار بشأنها عن لب قضية أزمة العقل المسلم والمخرج منها، وعن استهداف تعميق فهم أبعادها ومتطلباتها، ومن هنا كانت الفجوة الزمنية بين جمع مادة هذه الدراسة في منتصف ثمانينيات القرن العشرين وبين نشرها بعد انصرام قرابة عقد من القرن الواحد والعشرين.

وتنطلق هذه الدراسة من فرضية أساسية هي وجوب القراءة الحضارية للواقع المعاصر، فالقراءة السياسية له قاصرة ومضللة.

وتتمثل لبنات تلك القراءة الحضارية في ثلاثة مفاتيح:

أولها: ضرورة الوعي بمتوالية (ضياع الأمة) على مدى قرون.

و**ثانيها**: مقاربة انهيار الإمبراطورية الماركسية السوفيتية في شرق أوربا وتفكك الاتحاد السوفيتي بمنظور حضاري فكرى، لا بمنظور سياسي، فدرس التاريخ يبرهن على عقم محاولة احتماء بعض الدول الإسلامية بتلك الإمبراطورية من سطوة الغرب الرأسمالي، وما الماركسية في جوهرها إلا حركة إصلاحية من داخل البيت الغربي من ذات منطقه المادي المؤله للعقل والنابذ للدين، فالماركسية رد فعل لخواء روحي وخلل اجتماعي ملموس لمبالغة الحضارة الغربية الرأسمالية في تضخيم دور العقل مع تهميش الدين.

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. أزمة العقل المسلم، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٩. وتقع هذه الدراسة في ٢٤٠ صفحة.

ولم تكن وجهة رد الفعل هذه هي إرادة استعادة الروحي، بل الوصول في المادية إلى نهاية منطقها بنبذ ما تبقى بالغرب من روح أخلاقية متضائلة منبعثة من الكنائس الإصلاحية، وانهارت التجربة البلشفية الماركسية بعد امتدادها في العديد من القارات، في أعقاب حربها اللاأخلاقية في أفغانستان، وساد وهم روج له الإعلام باعتبار ذلك انتصارًا للنظام الرأسمالي الغربي، وحقيقة الأمر أن ذلك الانهيار ترك الحضارة الغربية في أزمة أشد وفي إشكال أكبر.

فالمقاربة الحضارية لتلك القضية تكشف حقيقة أن أصل داء الحضارة الغربية المعاصرة في عقر دارها وفي نطاق تمددها الخارجي هو: تفاقم عجز الحضارة القائمة على العقل والمادة بقدر إذابتها لما تبقى من نفحات الروح وهداية الوحي، وتكشف خبرة النموذجين الرأسمالي والاشتراكي أن التوازن بين دور كل من المجتمع والدولة والفرد ضرورة للاستواء الحضاري، فمن الخطأ إطلاق يد الأفراد أو المجتمع أو الدولة.

نعم قد يحقق ذلك إنجازًا سياسيًا واقتصاديًا مؤقتًا، لكنه لا يمكن أن يحقق إنجازًا حضاريًا قائمًا على الحرية والعدالة والمساواة.

و**ثالثها**: أن أزمة الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها تزداد تفاقمًا، والحاجة إلى العلاج الآن تفوق أي وقت مضى، وعلينا أن نضاعف جهودنا؛ لتجلية البديل الحضاري التوحيدي، وبيان إمكانيات إنقاذ الأمة المسلمة به، والإحسان إلى الإنسانية، وإرساء دعائم الحضارة الإصلاحية الخيرة به، ومفتاح هذه المفاهيم الثلاثة هو: تلمس فكر صحيح متكامل مع الرؤية العقدية الروحية الأخلاقية الصحيحة. (ص ١١-١٩).

ويدور معمار هذه الدراسة حول ستة محاور: **البرهنة** على أن الأصالة الإسلامية المعاصرة هي المخرج، وأن الأزمة أزمة فكر، لا أزمة عقيدة، و**نقد** المنهج التقليدي،

واستشراف مستقبل بناء الأمة الإسلامية، **وبيان** المرتكزات والمفاهيم الأساسية لمنهجية الفكر الإسلامي، **ورصد** متطلبات بناء علوم الحضارة الإسلامية، **مع التركيز** على إسلامية علمي التربية والسياسة والعلوم التقنية.

أولًا: الأصالة الإسلامية المعاصرة هي الحل: موارد أمتنا البشرية والمادية غزيرة، ومع ذلك فهي في وضعية تيه وتخلف، ومفتاح التنقيب في سبب تلك المفارقة هو: التحليل الكلي العميق لكيان الأمة ومسيرتها عبر القرون الأخيرة، والمتتبع لتاريخ هذه الأمة يجد أن تدهورها حدث على نحو كامن في لحظة ازدهارها الأولى، وأخفاه عن الأذهان التألق العمراني المادي، بتأثير فعالية وزخم التألق الروحي، لأمد غير قصير بعد ضموره، ومن هنا صاحب التألق المادي تحولًا تدريجيًا للأمة من موقع المبادرة إلى موقع الدفاع، وتواصل التردي بحيث غلبت الأمة على أمرها، واجتاحها أعداؤها.

ويلزم التمييز بين المرض الذي أصيبت به الأمة، وهو: ضمور الناظم الروحي لعمرانها المادي، وبين المضاعفات التي ترتبت عليه، وفي الصدارة منها التشرذم وظهور الفرق والمذهبيات والادعاءات المنحرفة، فجذر انحراف الأمة هو غلبة العقلية القبلية على كيان الأمة الحضاري والسياسي بعد العهد الراشد، على نحو تواصلت دركاته حتى الآن.

والعمود الفقري لأزمة الأمة الآن هو مفارقة الإجماع على وجودها، مع التباين في تصور المخرج منها، حيث يرى البعض في المذهبيات الشعوبية والعنصرية والقومية والإلحاد والفوضوية والإباحية المعاصرة أعراضًا لداء الأمة يجب البحث في كيفية تجفيف منبعها باستعادة دور الإسلام الحضاري، بينما يرى البعض الآخر أنها هي سبيل إخراجها من أزمتها، ويروج لها بكل الوسائل والضغوط والحيل، وتتلقى الأمة ثلاث دعوات: دعوة البعض لها إلى تبني الحل الأجنبي المادي بكل

أشكاله الرأسمالية والماركسية، مقابل دعوة البعض الآخر إلى الحل التقليدي القائم على حلول من الماضي لا تعبأ بتغير الزمان والمكان، وفي مواجهتهما معًا تأتي دعوتها إلى: الحل الإسلامي المعاصر كمنطلق أصيل للحل، فيما لو بنيت القناعة الكاملة به بمقارنته بالبديلين الآخرين نظريًا وتطبيقيًا، والسير بخطى ثابتة على هدي منه، وتوفير الوسائل العملية الفعالة لتربية الأمة عليه (ص٢٠-٢٤).

وفيما يلي إطلالة على معالم تلك المقارنة المنهجية:

١- **تحليل الحل الأجنبي الدخيل**: المفتاح الصحيح لتحليل الحل الأجنبي هو تقويمه بمآلات الأخذ به على مدى أكثر من قرنين حتى الآن، فالدولة العثمانية رأت منذ القرن الثامن عشر أن تقليد الأجنبي الأوربي هو السبيل الوحيد للقوة وإعادة البناء، ومن حينها انطلقت دورة الفراغ والضياع، وأخفق أسلوب محاكاة الغرب في تحقيق القوة واستنبات المعرفة وروح التحدي في كيان الأمة، وتواصل التقهقر العثماني في كل الميادين، وعبر البعثات الثقافية تشكلت نخبة تركية ترى محاكاة الغرب، وتعتبر أن الإصلاح هو نقل فكره إلى بيئة تركية مغايرة.

وكانت النتيجة هي الفشل، جنبًا إلى جنب مع إجهاض دعاة الحل الأجنبي لمحاولة البحث عن حل إسلامي، وحل مفهوم القومية الطورانية محل مفهوم الأمة الإسلامية في العقل التركي، وانتهى المطاف بتركيا إلى الهزيمة المنكرة في الحرب العالمية الأولى، ولم يكن ذلك كافيًا لأخذ عبرة خواء الحل الغربي المستورد، بل أسس **كمال أتاتورك** الجمهورية التركية على إلغاء دولة الخلافة الإسلامية، والتبني المطلق للعلمانية الغربية.

ومرة أخرى لم تسفر التجربة الأتاتوركية إلا عن مزيد من الضعف لتركيا، وتوالت الانقلابات العسكرية، وتعمقت التبعية للغرب، ولم يكن الفشل هو مآل التجربة التركية وحدها، بل حدث بذات القدر بالنسبة لتجربة **محمد على** وما تلاها

من تجارب في كافة البلدان الإسلامية في آسيا وإفريقيا حتى اليوم، وحدوثه هو عين المنطق وطبيعة الأمور، فلكل أمة تكوين قيمي عقائدي مفاهيمي يشكل نفسيتها ويستحيل تحريك دافعيتها من خارجه.

ويفسر ذلك نجاح النظام النابع من البيئة الغربية فيها وإخفاقه خارجها، وبالتالي فإن أي مسعى للإصلاح لا ينطلق من خصوصية الأمة محكوم عليه بالفشل، خذ مثلًا نجاح المؤسسة البنكية الغربية في الغرب، وإخفاقها حين نقلت إلى البيئة الإسلامية حيث جرت التبعية للخارج بدل أن تكون عاملًا معززًا للتنمية، والسبب هو تعارضها مع منظومة القيم الإسلامية، فهي وضعت المسلم أمام خيارين: إما أن يبيع آخرته بدنياه بالتعامل بالربا، وإما أن يقبل الفقر في دنياه.

وجاء إنشاء البنوك الإسلامية كحل جزئي بديل، فالضمير المسلم لا يستريح إلا بالجمع بين الفلاح في الدنيا والآخرة معًا.

والحل الأجنبي الدخيل هو بمثابة حل مسرحي يضع الأمة في موضع المتفرج، فهو ملهاة وتمثيل لا يعكس شيئًا حقيقيًا في كيانها، وحلقات هذه الملهاة تتجدد كلما سقط زعيم وكلما انتهى دور، وجوهر مهزلة (الساسة والسياسة في العالم الإسلامي) أن الأنظمة والسياسات والزعامات غير نابعة من خصوصية الأمة ومن كيانها.

ومما يؤبد تلك الملهاة مقاربة تحليل الحل الأجنبي من مدخل جزئي اقتصادي وسياسي، فالمطلوب هو سبر غور بعده الفكري والثقافي، لكي تخرج النخب الفكرية والسياسية القومية والماركسية والعلمانية المتغربة من أسر المداوة بالتي كانت هي الداء، ومن السير المتكرر نحو طريق مسدود وحلقات مفرغة، فالطريق الوحيد للحل مهما كان شاقًا لابد أن يبدأ من (ديننا وأرضنا وتاريخنا ودوافعنا؛ لتحقيق الأصالة في مواجهة تحديات العصر). (ص٢٥-٣٢).

٢- **تحليل الحل التقليدي التاريخي**: تكشف خبرة مآلات الأخذ بهذا الحل عن عجزه لكونه لا يقيم وزنًا للبعد الزماني والمكاني في كيان الأمة، وهو حل يقوم على التبسيط المخل المؤسس على سلامة منطلقاته وتخطئة كافة الظروف التي تعجز عن تلبية متطلباته أو تعارضه، ومن المفارقات أن دعاته يفسرون إخفاقه بوجود عقبات، مع أن الحل يصير اسمًا على غير مسمى إن هو اشترط لنجاحه تعاون معارضيه معه.

ويسعى هذا الحل إلى سحب حاضر الأمة إلى ماضيها، في وقت يتكرس فيه على نحو مطرد تهميش المكون الإسلامي في كافة أنظمتها، على نحو يحصره في دائرتي الشعائر والشؤون الشخصية، ومن الإفرازات السلبية لاقتراب دعاة هذا الحل الغافل عن عاملي الزمن والمكان، دعوتهم لما يسمونه (الإصلاح عبر المستبد العادل)، مع أن الاستبداد نقيض للعدل وصنو للفساد.

وجذر الخلل في هذا الحل التاريخي هو كونه وليد الفرقة بين القيادتين الفكرية والسياسية للأمة، وهزيمة القيادة الفكرية وانعزالها، الذي رسخ روح التقليد والنظر الجزئي في النصوص والغرق الانتقائي في المتاهات، وتجفيف المنابع الاجتماعية لفهم المفكرين للواقع، مما مكن للاستبداد؛ وبذا فإن الصورة الحالمة للماضي لا تصمد أمام التحليل المتعمق، ولابد أن نفكر في طريق آخر لعلاج الداء المعاصر للأمة، فمضاعفات الحل الأجنبي الدخيل، والحل التقليدي التاريخي في جسد الأمة أوضح من أن تحتاج إلى حفر معرفي للتدليل عليها. (ص٣٣-٣٥).

٣- **منطلق الأصالة الإسلامية المعاصرة في الحل**: نواة هذا الحل هو البعد الإسلامي بوصفه جوهر كيان الأمة، من حيث غايتها وعقيدتها وقيمها ومفاهيمها وتصوراتها، ومن هذه النواة تتحدد الأرضية المشتركة مع الحل التاريخي التقليدي، وناظم الاستفادة من خبرة الأمم الأخرى، ويقوم الحقل الدلالي المعرفي لمفهوم (الأصالة المعاصرة) إلى: الرؤية الكلية المقاصدية لخبرة صدر الإسلام، وللواقع

المعاصر، انطلاقًا من مقاصد الشريعة وكلياتها ومنظومة القيم الإسلامية، واستحضار خبرة الأمة في الممارسة والسعي إلى ربط قضايا الواقع وإشكالياته بمقاصد الإسلام وقيمه وتوجيهاته.

ولتحقيق تلك الغاية يلزم إعادة بناء منهج البحث الإسلامي، بما يحقق إعادة ترتيب الأولويات على نحو يكفل تحقيق **ثلاثة** مستهدفات: **توفير** وسائل التربية الإسلامية الصحيحة، إعادة بناء السياسات والأنظمة، التكامل والتسلسل في حركة المجتمع، فدرس الخبرة التاريخية هو أن التغيير المحقق للريادة الحضارية يقوم على الجمع بين دعائم ثلاث: دافعية الرؤية العقدية البناءة، والتفوق الفكري المنهجي العلمي الفعال، وسلامة التربية الوجدانية الإيجابية.

والمتدبر في سيرة المناعة الحضارية لأمتنا يلاحظ أن منابع ضعفها هي: غلبة العناصر التي دخلت في الإسلام بعد الفتح على الصحابة مما غير القاعدة السياسية للأمة، والفصام بين القيادتين الفكرية والسياسية، مما ولد بيئة خصبة لأمراض الأمة اللاحقة، فلقد انعزلت القيادة الفكرية عن المسؤولية الاجتماعية والممارسة العملية، مما أدى إلى إصابة العقل المسلم بالضمور والعجز عن تحليل الظواهر الاجتماعية والسياسية العامة، وجهل القيادة السياسية وحرمانها من وجود قيادة فكرية تواجهها وتساعدها على معالجة المستجدات، وضعف قوة الدفع الحضاري الإسلامي للأمة، والخلط بين العقيدة والفكر الإنساني وسحب قداسة الأولى على الثاني، ولجوء الساسة إلى وسائل للإرهاب المادي، ولجوء القيادة الفكرية إلى أساليب الإرهاب النفسي، وأدى هذا كله إلى غبش الرؤية الكلية وإلى تيه العقل المسلم، مع اختلاط الديني بالتاريخي وبالأعراف.

ونستخلص من ذلك أن في الإسلام منظومة قيم لا يختلف عليها غير جاحد، في الصدارة منها: التوحيد والعدل والإصلاح والصدق والأمانة والإحسان وطلب

العلم والإعمار والرفق والرحمة والتعاون وحسن الخلق، إلا أن هواة الخلط بين العقائد والقيم وبين الفكر يسحبون انحرافات المسلمين وتاريخ أخطائهم وآثار عاداتهم وتقاليدهم وجهلهم على الإسلام.

ومقتضى الإنصاف المعرفي هو تقرير أن الشعوب التي دخلت في الإسلام دخلته وهي في لحظة انحطاط، فكان له الفضل فيما حققته من رقي، وفي نفس الوقت كان ما أصابها من تدهور نتاج رواسب ماضيها والمؤثرات الأجنبية الدخيلة عليها غير المتمشية مع الإسلام، فالقصور ليس في قيم الإسلام ومقاصده بل في فكر المسلمين، فالأزمة أزمة فكر، وليست أزمة عقيدة.

وكانت العزلة الفكرية وانفصال علم الفقه والتطبيقات الحياتية عن علم العقيدة والرؤية الكلية الكونية الحضارية، وعن علوم المجتمع المعنية بالظاهرة الإنسانية العمرانية بكافة مجالاتها، هي التربة التي ولد فيها وبها الجمود والتقليد والتخلف، ولن تحل أزمة عجز الأمة عن مواكبة المستجدات والتحديات المتعاظمة المتلاحقة إلا ببناء منهجية الأصالة المعاصرة، ومعايرة المنهجين الأجنبي والتقليدي التاريخي وقراءة تاريخ أمتنا و الواقع المعاصر بها، فإذا صح المنهج صح الفكر (ص٣٦-٦٦).

٤- **تقويم المنهج التقليدي للفكر الإسلامي**: نواة هذا المنهج هي: علم أصول الفقه، ومر هذا العلم بطورين: طور الاجتهاد المحاكي لنموذج الخلافة على منهاج النبوة، حيث التلاحم والتناغم بين الفكر والحركة، ثم طور التقليد، وكانت ولادة هذا العلم تلقائية ومعبرة عن بدهيات العقل المسلم، التي صيغت في أصول على يد علماء التابعين وتابعي التابعين، وصاحب تحول الفقه من السليقة إلى علم له أصوله تشكل ثنائية تقسم العلوم بموجبها إلى علوم شرعية لب منهجها هو الاستنباط اللغوي والفقهي، وعلوم غير شرعية عقلية.

ومن هذا الجذر نشأ الانفصام في بنية المنهجية الفكرية الإسلامية، وتسلل المنطق

الفلسفي اليوناني إلى علم الكلام، وبقي علم العقيدة مصدر ضعف وبؤرة استنزاف في فكر الأمة، بتعبير أوضح انفصلت دائرة الفقه الحياتية الجزئية عن دائرة علوم العقيدة الكلية التوجيهية، وفي غيبة التكامل بين تلك الدائرتين ضعفت كل منهما، فتقلصت قدرة العقل المسلم على صعيد التنظير والتطبيق معًا، ذلك أن منهاجية تدارس القرآن والسنة في ظل المنهج التقليدي انصبت على التحليل اللغوي التاريخي المقطوع الصلة بفقه الواقع؛ وبذا انقطعت أسباب الاجتهاد، وبات ظهور مجتهدين مبدعين هو الاستثناء وليس القاعدة، وبمرور الوقت غاب التحديد الدقيق لدور القرآن ودور السنة، وطبيعة العلاقة بينهما، وغلبت العناية بالشكليات على التنقيب في المقاصد والجوهر.

وتعرض مفهوم (الإجماع) للتشويه بصرفه عن كونه رؤية جمهور العلماء أو الرأي الغالب، إلى اعتباره هو الرأي الذي لا محل لأحد لمراجعته ولا لمعارضته، فصار الإجماع مفهومًا نظريًا لا يستجيب لمستجدات الواقع الإنساني ولا يولد قناعة ودافعية لدى المخاطب به، وبالمثل لم يتوفر الأساس، اللازم لصحة (القياس) وهو: ثبات الصورة الكلية للمجتمع، فساد القياس الجزئي، في واقع يشهد تغييرًا واسعًا شاملًا يتطلب رؤية كلية، وأمام عجز القياس كواحد من الأصول الفقهية الفرعية، ظهر أصل فرعي آخر هو (الاستحسان) بغية تخطي النظر الجزئي إلى النظر الكلي، واستحضار روح الشرع ومقاصده وأولوياته في الحكم على المستجدات.

ونتيجة لعزلة القيادة الفكرية الإسلامية ومحدودية اهتماماتها وممارساتها الاجتماعية والسياسية، لم تتطور تلك الأصول الفقهية الفرعية بما يجعلها أدوات للنظر العلمي المنهجي في أحوال النفس والكائنات والتنظيمات الاجتماعية، فلم تنشأ لدينا: علوم الفطرة الإنسانية الاجتماعية، ويفسر ذلك وفرة الدراسات الفقهية النصوصية وندرة الدراسات الفكرية المتعلقة بمسيرة حياة الأمة ومؤسساتها العامة والبدائل الحضارية، وغياب البرنامج العلمي التربوي والثقافي المتكامل، ومن رحم

ذلك نشبت معركة وهمية بين العقل والنقل، ولم يكن الفصام بين علم العقيدة والتوحيد وعلم الفقه نظريًا أكاديميًا، بل كان فصامًا فكريًا له عواقب وخيمة على العلاقة بين الدين ومقاصده وبين الحياة الاجتماعية ومؤسساتها.

وفي حين انخرط علم الكلام في الجدل الفلسفي النظري في شؤون الغيب التي ليست من طبيعة العقل المسلم ولا من قضاياه بما أدخله في متاهات فرية استنزفته وشوهت رؤيته، وأضرت بالتكوين العقدي والنفسي بالأمة، انصرف الفقه إلى الشأن الفردي الجزئي بمعزل عن الرؤية الكلية الناظمة له؛ وبذا أصبح العقل المسلم حبيس منهج جزئي وصفي، غير منظوم برؤية كلية، عاجز عن ملاحقة مستجدات الواقع وتحدياته، وبدعوى انصباب العهد المكي على بناء العقيدة، وانصباب العهد المدني على بناء الدولة، لا يزال العقل المسلم موزعًا حتى اليوم بين دعاة التماثل بين وضعية المسلمين الراهنة والمطالبة بالتالي بالتركيز على بناء العقيدة، وبين فريق يرى وجوب إقامة دولة مناظرة لدولة المدينة غير عابئين بمعطيات الواقع المعاصر وموازين القوة فيه.

ونتيجة للمنهج الجزئي، وقع العقل المسلم في التفريق بين أنواع الربا، وتلمس حيل ومخارج للتهرب من حقيقة كونه محرمًا بكل أشكاله، ومن صور القصور المنهجي أيضًا إضفاء قداسة على أقوال السلف وشروحاتهم واجتهاداتهم وإلحاقها بالسنة وكأنها جزء منها.

وزاد الطين بلة أن الدعوة لمراجعة تلك المنهجية التقليدية التاريخية باتت تجر الاتهام بكون الداعي إليها صاحب فكر مشبوه ومرفوض، ومع تعقد تلك المنهجية عبر عصور الجمود، باتت عصية على الفهم في كليتها، وأصبح من يطبقونها في الدراسات الإسلامية يتعاملون معها بانتقائية نابعة من صعوبة فهم بعض جوانبها، وهي وإن كانت قد استجابت لعصور تشكلها، فإنها أصبحت عاجزة عن

الاستجابة لتحديات العصر الحالي، ويوجد في ثناياها رؤى بالنسبة للمسألة الواحدة تجعل أي اختيار منها عرضة لعشرات الاستدراكات والاعتراضات الجدلية بعيدًا عن جوهر القضايا والمقاصد.

وبالتالي فإن الإصلاح الفكري بات مرهونًا بتنقية التراث وإعادة طرح صحيحه بأسلوب ميسر، فتراثنا هو ثروة الأمس وزاد المسير وقاطرة العبور إلى المستقبل، ولكنه بحاجة إلى مقاربته بمنهجية إسلامية معاصرة أصيلة، فالماضي يصير مصدر قوة حين نركز على إيجابياته وعلى العبرة المستفادة منه، ونتفهم حقيقة أن كثيرًا مما شابه من قصور ناتج عن حسن نية وعن معطيات الواقع، ونعي عقم التلفيق الحضاري؛ لننتقل بأمتنا من الانعزال عن الواقع، ومن خلط بصمتها الحضارية ببصمات حضارية غير إسلامية، إلى رحاب التجديد الحضاري النابع من خصوصياتها، بالجمع المتكامل بين القراءتين: الوحي والكون. (ص٦٧-٩٩).

٥- **معالم الإطار الكلي لمنهجية الفكر الإسلامي**: نواة هذا الإطار الكلي هي: تكامل مفهومي الغيب والشهادة في تحديد غاية الحياة ومعناها، والوجود الإنساني، وما وراء الحياة الدنيا وما وراء المادة، وجوهر مفهوم الغيب هو تقديم إطار للإجابة عن سؤال: أصل الحياة الإنسانية والوجود وغايتهما، ومعنى العلاقات الأساسية فيهما والله تعالى يختص بعالم الغيب المطلق، وعلاقة الإنسان بما كشفه الوحي المنزل عن ذلك العالم علاقة خير، تبين له أن للوجود غاية أخلاقية وأنه لم يخلق عبثًا، وتزوده بمنطق لعلاقات الوجود الكلي، وتعرفه بالله تعالى، وبالآخرة، وبالدنيا بوصفها ساحة عمل وإعمار وإصلاح، وبالإرادة الإنسانية المسؤولة عن الخلافة والعمران وفق الفطرة والسنن بالاستعانة بالوحي والعقل، وتلك الأرضية من المعرفة بعالم الغيب كافية لتفرغ الإنسان للسعي في عالم الشهادة برؤية كلية تقوم على التوحيد والغائية والسببية والتكامل بين الغيب والشهادة. (ص١٠١-١١٠).

وللمنهجية الإسلامية **ثلاثة مصادر**: الوحي والكون والعقل، والإنسان خلق

مكرمًا، ويظل مكرمًا طالما التزم الصلاح، ولكنه يهوي إلى أسفل سافلين إن هو اختار العصيان والفساد، والوحي هو المصدر الوحيد للمعرفة اليقينية، والعقل أداة للتمييز بين الوحي الصحيح وبين الخرافة، والوحي هو مصدر علم الكليات، والعقل هو مصدر علم الشهادة وإدارة شؤون الحياة، ولا مجال لتجاهل غايات الوحي ومقاصده وتوجيهاته باسم العقل.

ولا مجال في نفس الوقت للوصاية الغاشمة على العقل وتعطيله ومنعه من التفكر والتدبر والتجريب والفهم، وبقدر توفر صفاء الرؤية الكلية النابعة من الوحي بقدر استطاعة العقل الإنساني الإبداع في عالم الشهادة بنور الوحي، وتجنب تبديد الطاقة العقلية في جدل عقيم، ومن هنا يحتاج العقل إلى منهجية لقراءة القرآن والسنة في كليتهما، بعيدًا عن النظر التجزيئي.

ولكي يبني العقل المسلم العلوم الاجتماعية، فإنه يحتاج إلى بناء وعيه بالمنطلقات الأساسية للمنهجية الإسلامية، وهي: استلهام العقل المسلم للتوحيد في كافة تصوراته وعلاقاته، بما يحرره من الاستعلاء والفساد والهوى والعصبيات، والنظر إلى الخلافة في الأرض على أنها نعمة ربانية، يرى الإنسان الكون عبرها بمنظور الرعاية والإصلاح والإعمار، بإرادة حرة مسؤولة أخلاقيًا عن استخدام كل الطيبات فيما هو نافع. (ص١١١-١٣٠).

وترتكز هذه المنهجية الإسلامية على منظومة من المفاهيم المفتاحية، تشمل:

أ- **غائية الوجود والخلق**: مقتضى عقيدة التوحيد هو غائية الوجود ووحدة الخلق والحياة والإنسان والحقيقة، وما دام الكون كله من خلق الله تعالى، فإنه متكامل ومتناغم، وانطلاقًا من تلك الرؤية فإنه مما يناقض الفطرة والعقل التعامل الإنساني بسلبية مع الكون، وأدى غياب تلك الرؤية إلى تسلل عقيدة الجبر والتواكل التي أوقعته في براثن القدرية والعجز.

ب- **موضوعية الحقيقة ونسبية الموقع منها**: نظام الكون البديع حقيقة يلمسها الإنسان المسلم بعقله وفطرته المستنيرين بنور الوحي، فلا يسيره الهوى ولا الشهوات ويصير عنوانه هو الفضيلة، وهمه هو الحق، ولا يقع تناقض لديه بين الحق والمصلحة، وبين المعنى والمادة، وبين التوكل والمسؤولية، ومع ذلك يظل موقع العقل الإنساني جزئي نسبي مرتبط بالزمان والمكان، بما يعني نسبية الرؤية والموقع والتطبيق، وبنسبية الموقع من الحقيقة يتسم العقل المسلم بالتسامح وسعة الأفق، والقابلية للجمع بين حرية الإرادة والنظام، ومن هنا يصير السبيل الفعال لخدمة الإسلام هو حسن فهمه وحسن العمل به والدعوة إليه، وتجنب الإكراه والبغي والقهر، ذلك أن الحياة الدنيا بمثابة امتحان لإرادة الإنسان في الخلافة في الأرض.

ج- **حرية القرار والإرادة**: لمفهوم حرية الإرادة الإنسانية وحرية القرار الإنساني ثلاثة أبعاد:

أولها: حرية العقيدة كأساس للعقيدة وللحركة الإسلامية المضادة لقوى البغي والعدوان، فالحرية حق وموقف ومسؤولية، وحرية الإرادة والقرار عامة، وحرية العقيدة خاصة للفرد الراشد، والنضج الحضاري شرط ضروري للتأهل لمزاولة حق الحرية.

وثانيها: حرية الفكر، وهي بعد مكمل لحرية العقيدة ونابع منه، وهي مقتضى الفطرة الإنسانية السوية، وهي لا تعني العشوائية في الاختيار ولا الجهالة في القرار، بل تقوم على القناعة الضميرية والأخلاقية للإنسان، وناظم تلك الحرية هو مراعاة تناغمها مع غاية الوجود الإنساني، ومع ضوابط النظام الاجتماعي، بحيث تمثل انعكاسًا لحرية العقيدة وللرؤية الكلية في أرض الواقع، ليس على المستوى الفلسفي النظري وحسب، بل العملي أيضًا، وكلما كانت المنطلقات النظرية الفلسفية لتلك الحرية سليمة، كلما كانت الأمة أقدر على التسامح المؤسسي مع التنوع الفكري والعقيدي.

وثالثها: حرية الأداء الاجتماعي، فالفرد لا يمكن أن يعيش إلا في مجتمع يتبادل

مع بقية أفراده العلاقات والمصالح، ويتطلب ذلك بالضرورة ضوابط للسلوك بما يحقق التكامل بين الإرادات الفردية، وترتبط مشروعية الأداء الاجتماعي للفرد بالتزامه النظام العام المعبر عن إرادة الجماعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

د- **كلية التوكل**: التوكل هو اعتماد القلب المؤمن على الله وثقته به وبقدره وعدله وإطلاقية مشيئته وحكمته، ويتأتى هذا التوكل من الإيمان بكليات الغيب، والتعامل مع الكليات الربانية في الحياة والوجود من منطلق الرضا والتسليم، وعلى العكس منه يأتي التواكل المتمثل في التقصير في السعي الإنساني وفي بذل غاية الجهد المستطاع في الأخذ بالأسباب المتاحة، وفي مراعاة السببية والسنن والنواميس الكونية.

هـ- **السببية في أداء الفعل الإنساني**: السببية مفهوم أساسي في حياة المسلم وفي تشكيل عقليته، فالإسلام يأمرنا بالأخذ بالأسباب في التعامل مع كل ما بالكون، في الحدود التي هي في مقدور العقل الإنساني، ويأمر بالسير في الأرض للتعرف على السنن، وانشغال العقل المسلم عن تحمل مسؤوليته في عالم الأسباب وانشغاله بالحديث عن الكليات الربانية وعن علم الله، لا يورثه إلا الانحطاط.

فالإنسان مطالب بالسعي في الأرض وابتغاء الوسيلة غير المتعارضة مع الشرع، والفهم المقاصدي الكلي، وعدم الخوض في شؤون عالم الغيب، ومن مقتضيات الأخذ بالسببية في أداء الفعل الإنساني السعي إلى صياغة مقدمات للعلوم الاجتماعية الإنسانية نابعة من كليات القرآن ومقاصده، وتجريبها لتحويل الفكر إلى واقع علمي وحياتي حي وفعال (ص١٣١-١٦٠).

ثانيًا: متطلبات بناء علوم الحضارة والعمران الإسلامي: ينصرف مفهوم علوم الحضارة والعمران الإسلامي، إلى كل وجوه العلم والمعرفة الاجتماعية والإنسانية والتقنية، ومتاح بناء هذه العلوم هو تأصيل منهجيتها، حتى تنتج معرفة مرشدة بنور الوحي وبالنظر العقلي وسنن الفطرة معًا، وهو ما ناقشناه في المحور الأول من هذه

الدراسة.

وفيما يلي تصور لخطوات التأصيل الإسلامي للعلوم الحياتية:

١- **تصنيف النصوص الإسلامية:** على نحو ميسر يعيه الدارس المسلم ويحسن التعامل العلمي معه، ولا تقف عملية التصنيف عند إعادة التبويب، بل تشمل التنقية من الشوائب، وأول ما يجب البدء بتصنيفه بهذا المعنى السنة المطهرة، ويتطلب ذلك صياغة مناهج وأساليب تكفل تعامل الباحثين معها بعيدًا عن الرموز والتقنيات التراثية السائدة لدى المتخصصين في دراستها، ذلك أن الحاجة ماسة لتسيير فهم الباحثين في كل المجالات العلمية الإنسانية للسنة، والاستفادة منها في بناء تلك العلوم.

٢- **توفير الدراسات والشروح التاريخية واللغوية** اللازمة للفهم الصحيح لمقاصد النصوص وغاياتها، واستنباط ما بها من مبادئ ومفاهيم وقيم تتعلق بالاجتماع الإنساني، وبهذه التهيئة العلمية للنصوص، تصير نصوصًا حية واضحة الخلفية والدلالة والمعنى والأثر، وتقوم هيئات علمية جادة بتبويب تلك النصوص وتوثيقها بالاستعانة بالتقنيات الحديثة، والفصل الواضح بينها وبين شروحها، توطئة لنقدها، وتيسيرها، حتى تتوفر للأمة مراجع أساسية ميسرة للنصوص الإسلامية.

٣- **صياغة رؤية كلية إسلامية:** يرجع الفشل في تضييق الفجوة الحضارية بين الأمة والغرب، رغم ضخامة الجهد المبذول، إلى الانطلاق من رؤية جزئية، ولن تفلح سياسة الترجمة العلمية والأدبية وبعث المزيد من البعثات إلى الخارج، ما لم تتخلص العقلية الإسلامية من الرؤية الجزئية المبددة لروح المبادرة وللدافعية العقدية والنفسية، ومن الذوبان في المنهجية الغربية والتقليد الأعمى، والتمييز بين الانفتاح المتسيب، وبين التلاقح الحضاري الواعي المستقل.

٤- **صياغة مقدمات للعلوم الاجتماعية**: لباب المقدمات التي تدعو هذه الدراسة إلى صياغتها هو: الربط بين العلوم الاجتماعية والغايات والمقاصد الإسلامية؛ وبذا تضمن تلك المقدمات نوعين من المقدمات:

أولها: الإطار المنهجي العام النابع من تجلية المبادئ العامة للإسلام ومقاصده في الحياة وفي الأنظمة الإنسانية، ويركز هذا الشق على القيم والأولويات والمنطلقات.

وثانيها هو: المقدمات النوعية لكل علم المحددة لأسسه ومجاله وما ينطوي عليه من أحوال الفطرة والواقع، ومن مقاصد وقيم وقضايا، ومع أن هذه المقدمات نابعة من الرؤية المقاصدية الإسلامية، فإنها تظل نسبية قابلة للمراجعة والتطوير باستمرار، ولعملية الإنضاج والالتحام بالمعرفة الاجتماعية والتقنية بمرور الوقت، وتتطلب تلك المقدمات منهاجية كلية سليمة متكاملة، ورؤية عقدية واضحة التوجهات والأولويات، والاجتهاد، والتأهيل المنهجي الحضاري للحركات الإسلامية المعاصرة، والأمانة في نقد الذات ومواجهة القصور في التكوين والأداء، وتتمثل القاعدة المنهجية الأم لصياغة مقدمات إسلامية كافة فروع المعرفة الإنسانية في **ثلاثة مرتكزات**:

أ- **وحدة الوجود الإنساني الإسلامي في كليته وتعدد روافده**: يتسم الوجود الإنساني في المنظور الإسلامي بالتعدد المتكامل في وحدة وكيان إنساني موحد، وفي حين تركز الأيديولوجية الغربية الليبرالية على البعد المادي الفردي المؤله للشهوات، فإن الفرد الغربي يعاني من صراع نفسي اجتماعي بالغ، ولم تفلح الماركسية بدورها في تحرير الفرد من الصراع والخوف، وعلى الجانب الآخر لم تفلح ديانات الشرق الأقصى التي تمتهن البعد المادي للإنسان في الإشباع الروحي وتحقيق التقدم، بدليل وقوع الصين في براثن أيدلوجية مادية استبدادية، وحده الإسلام يتعامل مع الإنسان وفق الفطرة التي فطره الله عليها، على نحو يحقق متطلباته المادية والروحية معًا على نحو متكامل، في حياة محدودة لها غاية، ولها ما بعدها، بما أن الموت ليس

نهاية الحياة، فالحياة الدنيا اختبار، وما بعد الموت محصلة نوعية لنتيجة هذا الاختبار، ويلعب هذا البعد الروحي الأخروي دورًا محوريًا في استواء السلوك الإنساني وتوازنه، وفي إثراء التكامل بين البعدين الفردي والجماعي، وفي ترسيخ حس المسؤولية الجواني.

ب- **غائية نظام الكون والحياة:** يحمي اليقين بتلك الغائية العقل المسلم من خداع النظر وقصور المعلومة وانحراف الوجه، وبها يتحرك دائمًا باتجاه غاية الكون العمرانية الخيرة.

ج- **موضوعية الحق والحقيقة في طبائع النفوس والعلاقات الاجتماعية الإنسانية:** العقل المسلم عقل علمي يسعى إلى المعرفة بشروطها الموضوعية وليس بالهوى، وفي حال غياب الغاية والمقصد ينحرف العقل الإنساني، وهذا هو بيت القصيد بالنسبة للبحث العلمي المادي الاجتماعي فهو باعتباره العلم الإنساني مصدرًا وحيدًا للمعرفة ينحرف حتمًا عن الحقيقة الموضوعية، وهذا هو سر عجز الحضارة الغربية عن تحقيق تقدم في العلوم الإنسانية يضاهي إنجازها في العلوم التقنية، وعلى العكس من ذلك فإن البحث العلمي الاجتماعي الإسلامي رشيد الوجهة والغاية والمقصد. (ص١٦١-١٨١).

٥- **نماذج أولية لصياغة مقدمات للعلوم السلوكية:** يقصد بالعلوم السلوكية في المعرفة الغربية المعاصرة: علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الإنسان، وتؤثر فرضيات ومنهجيات تلك العلوم على فلسفة كافة العلوم الاجتماعية والإنسانية، ومن هنا تنبع أهمية أسلمة توجهاتها ومجالها وتقديم قضاياها وحقائقها الأساسية من منظور إسلامي.

ومن الشواهد على خطورة تلك العلوم، أن أمتنا جربت اللهاث خلف العلوم التقنية والعسكرية والقانونية والسياسية ورجعت خالية الوفاض، وتنبهت مؤخرًا إلى محورية بناء علم التربية من منظور إسلامي، يراعي غرس القيم في النشء

بأساليب علمية مناسبة، تطلق عملية التكوين والبناء النفسي الأساسي للطفل على حب الله تعالى والحب فيه وله، والبعد عن أسلوب التخويف، وتنشئة الشباب على المسؤولية واحترام الحقوق والحرمات، ولا يكفي قصد الخير، بل يلزم معرفة الدروب التي يمكن السير فيها لتحقيقه، ومن المهم في مقدمات علم التربية الإسلامية بناء الواعي بالأسوة في النموذج النبوي، والعناية بالجوهر، والتخفف من الأبعاد الشكلية. (ص١٨٢-١٩٥).

وبالمثل، تلح حاجة الأمة إلى مقدمات لعلم السياسة، فمعنى الأمة وبناء كيانها لن يتم إلا بعد تمكنها من بناء المؤسسات السياسية المعبرة عن خصوصيتها واستلهام خبرة النماذج التاريخية الإسلامية وإعادة النظر في الفكر السياسي الإسلامي بحيث يعكس التنشئة السياسية العقدية والنفسية والمنهجية الصحيحة، ويبني الوعي بالظاهرة السياسية، ويميز بين منطوق الوحي والاجتهادات الفكرية والحركية الإنسانية، ومن الجلي أن الأنظمة والمؤسسات السياسية الغربية والشرقية لا تصلح للتعبير السلمي عن احتياجات أمتنا وعن منظومة قيمها السياسية، والفكر السياسي الغربي مادي يهمش البعد الروحي ويختلف في منطلقاته عن الفكر السياسي الإسلامي.

ويجب أن تمثل المقدمات التي يتم إعدادها في علم السياسة نقلة من فهم نظام الخلافة على أنه القولب في نظام تاريخي، إلى فهمه على أنه نظام حركي مقاصدي متجدد، ومعنى هذا أن من السطحية بمكان تصور أن نظام الخلافة يقوم على مركزية السلطة، فكل نظام يقوم على المبادئ والمقاصد الإسلامية ويعبر عن إرادة الأمة هو نظام خلافة، أيًّا كان شكله المؤسسي.

ومن هنا تركز مقدمات إسلامية علم السياسة على الغايات والمقاصد في حياة الأمة في ضوء واقعها المعاصر برؤية كونية إسلامية كلية، ويحتاج الفكر السياسي الإسلامي المعاصر إلى تنقيته مما أصابه من نعرات عرقية، ومن شوائب موروثة،

بحيث يركز على التوحيد والشورى والتربية السياسية الإسلامية والفهم الحضاري لواقع الأمة، وتنشئة قيادة أخلاقية إسلامية ملتزمة، وتصحيح المفاهيم وتعميم الوعي بها.

ومن مقتضيات إسلامية العلوم، تخليص العقل المسلم من وهم حياد العلوم التقنية الغربية، فهي علوم محملة بقيم وفلسفة غربية مفتقرة إلى الغاية والدليل والهداية، مما ينفي عنها دعوى الموضوعية، فتلك العلوم حققت إنجازات تتعلق بالبعد المادي الجزئي. أما من الوجهة الكلية فهي نتاج حضارة ضالة انتهت بالإنسانية إلى أبشع صور القلق والصراع والخوف، وهي بحاجة إلى معايرتها بالميزان الإسلامي لفرز إيجابياتها من سلبياتها، فالفلسفة الحضارية الحاكمة لتلك العلوم لا تقل أهمية عن بعدها العلمي التطبيقي، والإسلامية تعني في جوهرها سلامة التوجه والغاية والفلسفة بما يجعل العلم الإسلامي إعماريًا إصلاحيًا توحيديًا أخلاقيًا راشدًا، وهكذا تنصب إسلامية العلوم الطبيعية والتقنية على فلسفة العلم وعلاقتها بالحياة وبالبصيرة الروحية الإيمانية.

فالحضارة الغربية لم تفلح إلا في سباق التسلح والدمار وإقامة النظم الإنسانية على توازنات الخوف والرعب وحق القوة، وتعني إسلامية العلوم مراجعة شاملة للحالة الفكرية والتربوية في مؤسسات الأمة التعليمية، بحيث يتم تحويلها من تدريس العلوم برؤية جزئية مادية مستعارة من أمم وحضارات أخرى، إلى دراستها في دائرة الإطار الإسلامي بمنطلقاته وكلياته وقيمه وغاياته، مع التركيز على تنشئة الطفل المسلم عليها (ص١٩٦- ٢١٥).

٦- **إنسانية الإصلاح الإسلامي**: يخدم الإصلاح الإسلامي أمتي الدعوة والإجابة على قدم المساواة. ومن هنا ينبغي توجيه جهود القياديين والعاملين الإسلاميين إلى بناء مستقبل الأمة المتمثل في النشء وبناء الأجيال المؤهلة لحمل الرسالة الإسلامية، والعمل باتجاه مستقبل الوجود الإنساني والبناء الحضاري،

فالنشء بحاجة إلى تنشئة تحمي طاقتهم من الاستنزاف، وتزودهم بالرؤية وبالمفاهيم الإسلامية الصحيحة، وتبنيهم نفسيًا وعقليًا ووجدانيًا، فمستقبل الأمة رهين بتنمية الأجيال القادمة وتعزيزها بالرؤية الحضارية الأصيلة المعاصرة، وبإصلاح دور الأسرة والمؤسسات التعليمية، بحيث تنطلق من الكليات والقناعات والمقاصد المركوزة في ضمير الأمة، والخطوة الأولى لإسلامية المعرفة وإسلامية الأمة هي: تحقيق وتصنيف وتكشيف نصوص الوحي وأمهات التراث الإسلامي وتيسير فهمها، والربط بين العلوم الشرعية والاجتماعية، ونشر الوعي بقضايا إسلامية المعرفة وتعميق البحوث المرتبطة بها.

وتعاني الحضارة المادية المعاصرة من الإفلاس الروحي والقلق النفسي، ويتوقف مستقبل الإنسانية على نجاح الأمة الإسلامية في إصلاح مناهجها وأساليبها التربوية وتقديم نموذج إسلامي حي لها، فالإسلام يمنح الفرد والجماعة غائية الوجود، وأساس الاستقرار والوحدة والإخاء، فعالم الإسلام هو عالم الدوائر المتداخلة المحقق للسلام والأمن الحقيقي للإنسانية، في ظل إدراك كون الإنسان جزء من كون لا يحيط بكل أبعاده، ولا تكفي رؤيته العقلية له دون تعزيزها بالرؤية الروحية الكلية المقاصدية، وما يقدمه الوحي الرباني ليس قيودًا على حركة الإنسان، بل مشاعل لهدايته ودرء الضلال والغواية عنه.

ولن ينجي البشرية من الانزلاق إلى هاوية الفناء بعد ما أنتجته من أدوات تدمير غير الضوابط والثوابت الكلية الدقيقة المعلومة الواردة في الوحي الرباني والبحث عن المشترك الإنساني الموثق، عندها لا تسعى الأمم إلى الصراع والغلبة، بل إلى التكامل والوحدة والتقارب، ومعنى هذا أن الإسلامية قضية أمة تتطلب تضافر الجهود بعيدًا عن سراب النظر الجزئي؛ لنقل العمل الإسلامي إلى مستوى التحدي على صعيد الأمم والحضارات، ودرس التاريخ أن أية أمة تهتدي إلى جادتها تعاود الإقلاع الحضاري. (ص٢١٧-٢٣٦).

الفصل الثالث
أزمة الإرادة والوجدان المسلم
البعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة

الفصل الثالث

أزمة الإرادة والوجدان المسلم

البعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة[١]

تستهل هذه الدراسة بالتذكرة بحقيقة أن التغيير لا يأتي إلا من داخل النفس، وبأن خيار الناس في الجاهلية هم خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وأن من شب على شيء شاب عليه، وأنه كما تكون الأمة يولى عليها، وأن العلم مطلوب من المهد إلى اللحد، وأن أمام كل أب وأم مسلم خيار من اثنين، إنه إن كره نفسية العبيد فليتعلم كيف ينشئ في داره المؤمن القادر المبادر كريم النفس شجاع الفؤاد، وإلا فليعش عبدًا ويرضى لأبنائه عيشة العبيد.

ويقوم معمار هذه الدراسة على عدة أعمدة هي: بناء منهاجية التعرف على الصورة الكلية للخبرة التاريخية للأمة، وتشخيص دائها ودوائها، وبيان محورية الطفل في حركة الإصلاح الإسلامي الحقيقي الشامل، ومتطلبات بناء الطفولة، وخصائص الأسرة المسلمة بوصفها منبع الوجدان، وخطة العمل التربوي حتى نعلم ونعمل، ورغم وجود تقاطعات مفصلية بين هذه الدراسة وبين الدراسة الموسومة (**انهيار الحضارة الإسلامية وإعادة بنائها: الجذور الثقافية والتربوية**) التي صدرت بعدها باثني عشر عامًا، فإن من المهم استعراض مفاصلها الكبرى، لبيان مدى ثبات محورية الأسرة والمنهجية القرآنية الكونية الكلية في المشروع الفكري لمؤلفها، حتى لو بدا للوهلة الأولى أن ذلك يحمل حقيبته المعرفية بشيء من التكرار.

أولًا: منهاجية بناء الصورة الكلية لتاريخ الأمة الإسلامية: جوهر هذه الدراسة هو تحليل ظاهرة غياب الجانب النفسي الوجداني في الخطاب التربوي الإسلامي

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. أزمة الإرادة والوجدان المسلم: البعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة، في إصلاح الثقافة والتربية رؤية إسلامية معاصرة، دمشق: دار الفكر، مؤسسة تنمية الطفولة، ٢٠٠٤. دراسة تقع في ٣٣٦ صفحة.

للطفل من حيث أسبابه وتأثيراته، والحاجة إلى سرعة تداركه، باستعادة الوحدة بين المعرفي والنفسي والوجداني في بناء نفسية الطفل، وتقرر أن شروط ذلك هي التعامل الجاد مع أزمات ثلاث: أزمة العقل والمنهج، وأزمة الفكر والثقافة، وأزمة التربية والوجدان، ومقتضى التعامل الجاد مع هذه الأزمات هو التعرف على مكامن داء الأمة وتبصرة النشء به، واعتماد مكامن طاقة الفطرة الوالدية في تربية الأبناء على روح الأمة وضميرها ووجدانها (ص١٣-١٦).

وترجع الدراسة ظاهرة إسقاط الطفولة من مشروع الإصلاح إلى الخلل الذي أصاب المنهجية الإسلامية، وغياب الخطاب النفسي العلمي التربوي السليم، ويتوقف نجاح المشروع الحضاري الإسلامي على إعادة بناء النفسية المسلمة؛ ليتحقق التدافع العمراني البناء بالرؤية القرآنية الكونية الكلية في مواجهة الرؤية الكونية المادية العنصرية الجاهلية السائدة في عالم اليوم.

ولعل العلاقة بين النظر الجزئي والنظر الكلي في الدراسات الاجتماعية شبيه بمن يسكب بعض الحبر على ورقة ثم يقف أمامها متأملًا صورا يصنعها خياله ليس لها من الحقيقة نصيب، فالنظر الجزئي يؤدي إلى تخيلات وهمية ونتائج اعتسافية، وقد ينفعل صاحبها مستغربًا أن ينصرف الناس عما يقول ويستنكر عدم أخذهم ظنونه التي يعتقد أنها حقائق مأخذ الجد، وحدها المنهجية الكونية الكلية هي التي تغرس في الإنسان التواضع وتجعله يدرك نسبية معرفته وتركيبية كل ما بالوجود من مخلوقات ومن قضايا، وتمكنه من رؤية الصورة الكاملة، ومعرفة شبكة العلاقات والتفاعلات بين عناصرها الأساسية وترتيب الأولويات والتدبر في المآلات، قدر استطاعته، وغياب المنهجية الكلية هو السبب في عدم تحريك كتب مثل كتابي **عبد الرحمن الكواكبي** (أم القرى) و(طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) لعقل الأمة ووجدانها رغم مرور عشرات العقود على نشرها.

فبدون تلك المنهجية تعجز الأمة عن بناء الوعي بخصائص منظومة ذاتها العقدية والفكرية، ولقد عجزت الأمة في سالف تاريخها عن توفير الجهد الهائل اللازم لإتمام الصهر الثقافي والتربوي للشعوب التي دخلت في كيانها بسبب الكم الهائل والسرعة الفائقة للفتح الإسلامي، وبمرور الزمن ضمر فكر الأمة وعجز عن مناجزة فكر الوافد الأجنبي بمؤسساته المتطورة والمتجددة وانبهرت به فقلت قابليتها لتبني قيمها ومنطلقاتها الذاتية، وغاب التناغم بين عقل الأمة وضميرها ووجدانها (ص١٧-٣٤).

فلقد تمخضت الأزمة المنهجية عن إهمال المعرفة الإنسانية والاجتماعية والوقوع في أسر المنهج الجزئي النصي اللغوي، والغفلة عن الأدوات المنهجية اللازمة لدراسة السنن والواقع عبر الزمان والمكان وتربية النفس والوجدان من الطفولة المبكرة، ومن الواجب تجنب محاكمة فكر السلف بحاجة حاضرنا، فلقد فسر السلف لزمانهم وأجابوا على أسئلته، وعلينا أن نستأنس بما كتبوه دون أن نتجمد فيه أو أن نهدره ونقلد الآخر.

ومن الملاحظ أن أثر طاقة الدفع الإيماني الحضاري في صدر الإسلام أدى إلى تراكم مادي عمراني استمر قرونًا بعد ضعف تلك الطاقة، نتيجة دخول شعوب كثيرة في الإسلام محملة بموروثها الثقافي والفكري غير المتناغم معه، فضلًا عن حدوث نوع من القطيعة بين القيادة السياسية والعلماء، أسفر عن نشأة المدرسية النظرية المنفصلة عن الواقع الاجتماعي والسياسي، فانهارت المؤسسات وغاب البعد الجمعي، وتراجعت روح الإبداع في الأمة بتراجع روح الحضارة فيها.

وخلاصة القول: أن الأمة المسلمة عرفت قوة دفع إيماني حضاري في العهدين النبوي والراشد، ومع مرور الزمن تلوثت الثقافة فتضاءلت القوة الإيمانية؛ وبتطاول المد خبت قوة الدفع الإيماني واتسع نطاق التلوث الثقافي والفكري،

وتكشف الخبرة التاريخية للأمة أن الجزيرة العربية كانت ضئيلة العمران والصنائع مع بداية الرسالة الإسلامية، ثم عرفت في صدر الإسلام والخلافة الراشدة نمو العمران والصنائع، ثم تراكمها وازدهارها وتنوعها مع مرور الزمن وتوسع الممالك في عهود دول الإسلام العمرانية الزاهرة، رغم ضعف الروح الإيمانية الحضارية الإسلامية وتشوه الرؤية الكلية الكونية، وتلوث الثقافة، ثم عرفت الدخول في عصر الانحطاط حيث انهار العمران والصنائع، وانتهى هذا الانحدار بالأمة إلى حالة ضعف وتخلف مادي وفكري ومعنوي. (ص ٣٥-٥٢).

ثانيًا: تشخيص داء الأمة: تعاني الأمة من ثلاثة تشوهات، **أولها وأخطرها**: تشوه الرؤية الكونية الإسلامية، فلقد كانت لدى جيل الصحابة رؤية كلية واضحة قائمة على كون الإنسان خليفة في الأرض مخلوق من نفس واحدة، مكلف بالسعي في الأرض؛ لتحقيق العمران على أساس من العدل، وبقدر تقواه يتحدد فلاحه ومكانته في الدار الآخرة، وهو يؤمن بالغيب بوحدانية الله وبكونه حامل أمانة مسؤول، محاسب على عمله في الدارين، إلا أن تلك الرؤية الكلية الواضحة تشوهت نتيجة عزلة العلماء، وتركيزهم على تقديم رؤية فردية تتعلق بالشؤون الشخصية لا جماعية تتعلق بالشؤون العامة، وتكرس اعتقاد غير صحيح بأن الثواب على العبادات، أما المعاملات فهي شأن دنيوي لا ثواب عليه، ولا يتعلق بعدم إتيانها إثم؛ وبذا غابت حقيقة أن حياة المسلم كلها جهاد في سبيل الله، وأن المعاملات مرتبطة بالعبادات، وأن الفرد مرتبط بالجماعة.

وثانيها: التشوه المعرفي المنهجي المتمثل في تحول الفكر الإسلامي إلى فكر نظري غارق في التأملات المدرسية التي لا تعرف طريقها للاختبار والتجريب في الحياة الاجتماعية، وأدى ذلك إلى العجز عن الإبداع وسيادة المحاكاة والتقليد، وغلبة النظرة الجزئية والاستظهار، وعدم بناء علوم اجتماعية، نتيجة أحادية المعرفة الدينية والمدنية وغياب النظرة السننية.

وبالغ المتأخرون من أنصار المعرفة الجزئية في تحفيظ تلاميذهم عشرات الألوف من النصوص المكذوبة، لشدة حرصهم على جمع المرويات، وعلى كم المعلومات، دون الكيف، دون مراعاة أثرها على عقولهم ونفسيتهم، وتضييعها لفرصة تزويدهم بمعرفة صحيحة نافعة، وصاحب ذلك تشوه المفاهيم، وفي الصدارة منها مفهوم العبودية باعتباره مشتقًا من الاستعباد، وليس من العبادة لله وحده، وأدى فقر طلبة العلوم الدينية في العلوم الإنسانية إلى انصراف كثير من المفكرين إلى الفلسفات الدخيلة الموروثة من حضارات وثقافات الأمم التي دخلت في الإسلام، وتولدت من ذلك نفسية العبيد تحت تأثير أساليب الترهيب التي استخدمتها الصفوات السياسية والعلمية؛ لتطويع العقل المسلم واستعباده.

و**ثالثها**: تشوه الخطاب نتيجة العزلة بين القيادة السياسية والقيادة الفكرية، وعانى العقل المسلم من ألوف أحاديث الآحاد التي تحتمل الغفلة والتدليس، فضلًا عن الحكايات، وسوء التأويل، وتركيز الخطباء على أمور ثانوية مثل تقصير الثوب وإطلاق اللحية، والترهيب بجحيم جهنم وأهوال القبر ويوم الحشر، والإفراط في الوعيد، جنبًا إلى جنب مع ترهيب السلطة السياسية بالسجون والقمع لكل من يعارضها.

وغاب من هذا الخطاب التبشير وتربية العقل والنفس والوجدان خاصة بالنسبة للطفل، على شاكلة الهدي النبوي للشاب الذي سأله أن يأذن له بالزنا، فبين له أن الناس لا يرضونه لأولي رحمهم كما لا يرضاه هو لذوي رحمه، وبين له أن عليه أن يستعين بالزواج وإلا فبالصيام، وجعله بعد ذلك الأسلوب التربوي الرشيد يمقت الزنا من صميم قلبه.

و**رابعها**: فشو عقلية الخرافة والشعوذة والتواكل، وسيادة المعتقدات في الأساطير والأموات والجان، وتلك كانت نتيجة طبيعية للتخلف والإرهاب

الفكري والاستبداد، وإساءة تفسير ما ورد بالقرآن عن السحر، والخوض في عالم الغيب وفي الإسرائيليات، وتحويل الدعاء والرقية من علاقة وجدانية، إلى مهنة احترفها المشعوذون، على نحو يقوض أسس التوحيد، وترويج فكر الشعوذة والخرافة جريمة دينية، ومن الواجب تنقية الأدبيات التراثية من الخرافات، وتنقيتها، وتجنب نشرها بين الناس والناشئة.

ووعي الآباء هو مفتاح عدم تربية النشء على الخوف من مخلوقات وهمية، وتلقينهم من صغرهم المفاهيم الصحيحة، ومما يساعد على ذلك أيضًا إعادة النظر في التراث وفي صياغة الخطاب الإسلامي بمنهاجية كلية علمية، تبني الوعي بالانفصال بين عالم الإنسان والعوالم الغيبية وعدم سيطرتها عليه، فعالم الإنسان محكوم بسنن، وليس للشيطان وذريته أية سلطة على الإنسان، وأعمال الشعوذة والسحر مجرد أوهام وحيل، التي لا محل لها إلا في عالم الجهل، ومقتضى تكريم الإنسان هو منحه الحرية وتحميله مسؤولية الأمانة (ص٥٣-٩٥) والتشوه الخامس هو العرقية العنصرية التي تمثل تلوثًا عقديًا ثقافيًا خطيرًا، فيما يمثل تكريسًا لعالم الغاب والظلام، على حساب عالم الحق والنور.

وخلاصة هذا الطرح للتشوهات التي أصابت الأمة أنه في حين عرف العهدان النبوي والراشد قيادة فكرية سياسية موحدة، فإن تلك القيادة انقسمت إلى قيادتين متنافرتين: قيادة سياسية مستبدة، وقيادة فكرية نظرية مدرسية معزولة، وكان من آثار الانقسام والتنافر بين القيادتين، أن أصيبت القيادة السياسية بعدم المشروعية والاستبداد والضعف، فلجأت إلى الإرهاب السياسي، وأصيبت القيادة الفكرية بالعزلة والضعف وبالانكباب على التنظير، واللجوء إلى الإرهاب الديني.

وأسفر هذا التردي في نوعية السلطتين السياسية والفكرية عن تدهور المؤسسات والحياة العامة، وانحطاط أساليب التربية والتعليم، وضمور المعرفة

الاجتماعية، وعدم القدرة على التعامل مع المتغيرات وتشوه الرؤية الكلية الكونية، وتخلف المؤسسات التربوية التعليمية، وإهمال البعد المعرفي الإنساني الاجتماعي، وكانت الثمرة الأخيرة، لذلك كله هي توليد نفسية العبيد الخائفة العاجزة عن المبادرة، فباتت الأمة أمة سلبية، وأصبح العقل المسلم أسيرًا للنظرة الجزئية ومسكونًا بالخوف ومياًلا للتقليد والمحاكاة. (ص٩٦-١١٧).

ثالثًا: الطفل الجندي المجهول: لو قدر للفكر الإسلامي أن اهتم بالطفل وتربيته وبنائه نفسيًا ومعرفيًا كركيزة لمشروعات الإصلاح في الأمة؛ لكان قد تيسر له إدراك بعد التغيير في النفس الإنسانية، ذلك أن تاريخ أمتنا عرف ظاهرة الاهتمام بتربية أبناء الخاصة على يد مؤدبين على نحو فيه احترام لكرامة الطفل والرفق به، والعكس صحيح في تربية أبناء العامة وفي إعداد الحرفيين والموظفين، ونتيجة قصور الثقافة الإسلامية صار الطفل هو الحلقة المفرغة التي يدور في رحاها عجز الأمة.

فمن الثابت أن تنمية الوعي التربوي وإصلاح التعليم من الطفولة هو أساس الإصلاح، فوجدان الإنسان يتشكل في سنوات عمره الأولى، ومن الصعوبة بمكان أن يرافق المعرفة الجديدة تغيير في سلوك الكبار، فمن يشب على شيء يشيب عليه، ومن التجارب التي يكشف القرآن عنها بجلاء: تجربة بني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام، حيث تربوا في مصر على نفسية العبيد، فلما تحرروا على يد موسى عليه السلام، أبوا أن يتصرفوا تصرف الأحرار، واحتاج إصلاحهم إلى جهد استغرق جيلين.

ومن العواقب التي ترتبت على تلك التشوهات التي أصابت عقل المسلم ونفسيته ووجدانه، أن الأمة الإسلامية تجنح إلى مزيد من التمزق والصراع، في الوقت الذي تتجه فيه أمم أخرى إلى التعاون والتنسيق والتكامل، ووراء ذلك حقيقة ضمور الجانب الجمعي في الفكر الإسلامي وفي الثقافة والتربية، بعد العهد النبوي والخلافة الراشدة، ومن الآثار المترتبة على ذلك ظاهرة سعي الفرد لكفاية

نفسه ومن يعول من الحاجيات والكماليات، مع شحه وعدم اكتراثه بمسألة سد حاجة المعوزين، وانتشار ظاهرة التسول، والفساد الاجتماعي، وترسيخ السلبية الاجتماعية في فكر الأمة، ونتيجة لذلك صارت المؤسسات السياسية محل شك وريبة في نظر الجماهير.

وأصبح الحكم والسياسة والشأن العام بمثابة حكر على النخبة السياسية القبلية العرقية الشعوبية العسكرية، بينما استأثرت الصفوة الدينية بمجال شؤون الفرد وتعاملاته الفردية، وكانت الكارثة أن تم بناء رؤية كلية تعكس هذا الواقع الذي ينزوي فيه البعد الاجتماعي تعليمًا وتربية وممارسة، مما جفف منابع الخطاب التربوي والتغيير الاجتماعي؛ فسادت السلبية والاستكانة وندر الإبداع والمبادرة. (ص١١٧-١٥٦).

رابعًا: التغيير الاجتماعي والخطاب التربوي: تبين مما سلف أن الأمة غنية بمواردها المادية والروحية، ولكنها تعاني من ضمور فكري، ومن صراع بين النخبة السياسية والنخبة الفكرية، أدى إلى تشوه رؤيتها الكونية، وإصابة منهجيتها بالسطحية والجزئية، مع فشل مساعي الإصلاح على مدى قرون في تحقيق غاياتها.

والسؤال هو: ما المخرج؟ وما هو العنصر الغائب من مشروعات الإصلاح في الأمة الذي يعزى إلى غيابه عدم نجاح حركات الإصلاح في تجديد الأمة وإطلاق طاقاتها الكامنة واستعادة إنسان الكرامة والشجاعة والبذل القادر علميًا ومعرفيًا ووجدانيًا؟

مفتاح الإجابة على هذا السؤال هو أن العنصر الغائب هو حقيقة أن التغيير الإنساني الجذري الذي يشكل البناء النفسي والوجداني والعقلي للإنسان هو التربية السليمة خلال العقدين الأولين من حياة الإنسان، فما لم يتم تربية النشء في التكوين الوجداني والتصورات الكونية الاجتماعية والبنية المعرفية حتى تتسم بالتكامل والتوازن والإيجابية في مرحلة النشأة، فإن تصحيح المسار والتغيير، يصير من

المستحيلات، فالإنسان أشبه ما يكون بالعود الطري في طفولته القابل لإعادة التشكيل، وللعود الصلب الذي لو نشأ معوجًا يستحيل إصلاح اعوجاجه، والتربية في الصغر نقش على الحجر، وهي في الكبر نقش على الماء.

والتكوين المعرفي العقلي للبالغ لا يكفي لتحريك وجدانه، فخطاب البالغين لا يحقق التغيير الحقيقي لكونه لا يغير قواعد بناء أنفسهم، وقصر خطاب السعي إلى التغيير، حرث في الماء لكونه لا يحدث التغيير التربوي الضروري لدى الناشئة، وبهذا القصور في العناية التربوية بالطفل، فإن جهود الإصلاح تظل تدور في حلقات مفرغة من خطاب للبالغين لا يغير، وتغيير في الناشئة لا يتحقق، ويظل التغيير في المخيلة من باب المغيب المأمول.

وباستعادة خبرة صدر الإسلام يتبين أن الخطاب الإسلامي التربوي كان متعدد المقامات والأبعاد والغايات، ومتناغم مع حقيقة تعدد المخاطبين به واختلاف احتياجاتهم، فعرف العقل المسلم في ذلك العصر تعدد الخطاب بتعدد المخاطبين، وبتعدد أبعاد الوجود، وبتعدد الحاجات، فكان هناك: الخطاب العام، والخطاب الكوني الأزلي، والخطاب الزماني المكاني الحركي، والخطاب العقلي الفكري، والخطاب الوعظي، والخطاب التربوي الوجداني، والخطاب الزاجر للمتكبر المعاند، والخطاب المبشر للمؤمن العامل، والخطاب التربوي الودود الموجه إلى الطفل، وعلى النقيض من ذلك، عرفت أمتنا في عصور التأخر والتخلف قصورًا في الاهتمام بالدراسات الإنسانية، مما أدى إلى خلط الأبعاد والمجالات.

وعلى سبيل المثال لم يميز الفكر الإسلامي في عصور الانحطاط بين موقف الإسلام من العنف في داخل المجتمع، ومن العنف في الصراع بين الأمة المسلمة والعناصر المحاربة من الأمم الأخرى، ومن العنف في القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يميز ذلك الفكر بين أساسيات التعامل الاقتصادي

داخل المجتمع الإسلامي، والتعامل الاقتصادي بين الأمة الإسلامية والأمم الأخرى، كما لم يميز ذلك الفكر بين خطاب البالغ العقلي المعرفي وبين خطاب الطفل النفسي الوجداني التربوي، وصاحب ذلك الخلط إطلاق مقولات غثة مثل دعوى النسخ، وعجز عن إدراك الفرق بين الخطاب الديني الإلهي الأزلي والخطاب الزماني المكاني لعهد الرسالة.

ومع خلط الثابت بالمتغير، وقع خلط خطاب الكفار بخطاب المؤمنين، وخطاب النبوة بخطاب السياسة والحكم، وخطاب السعة بخطاب الضرورة، وخطاب رعاية الطفل بخطاب مسؤولية البالغ وضبط سلوكه، والجذر الذي نبع منه كل هذا الخلط هو العجز المنهجي وضمور الرؤية الاجتماعية العلمية، وتوظيف قدسية الخطاب في تشكيل نفسية العبيد بالإرهاب بالخطاب الديني المعتل والخطاب السياسي المستبد.

وتجلى ذلك بكل وضوح في تقديم العقوبات الإسلامية بمنظور قانوني جاف يغيب الحكمة منها ولا ينطلق من فلسفتها الحقيقة، بدلًا من صياغة خطاب تربوي في طرحها على الأنا المسلم والآخر غير المسلم، يستوحي روح القرآن والهدي النبوي، ويكشف عن تناغمها مع الفطرة الإنسانية السوية، على غرار ما كان عليه الحال في العهد النبوي وفي عهد الخلافة الراشدة.

ومن أخطر ما وقعت فيه الأمة في عصور تأخرها سوء طرحها للحدود الإسلامية، وغياب خطاب تربوي للأطفال يربيهم على حب الله وحب القرآن، وليس على الخوف، فالفكر الإسلامي في تلك العصور لم يدرك الأبعاد التربوية للطفل، وتجاوز الطفولة على نحو حال دون فهم طبيعتها وتطورها، ومعرفة دورها في التغيير، وحرمها من الوعي بالنهج النبوي في تربية الطفل والحرص على حقوقه بخطاب له خصوصيته ودلالته.

فبدلًا من خطاب الرحمة والرفق، تسلط خطاب العقاب والإرهاب والقهر على الطفل، بنصوص حتى لو صحت لتبين عند تحليلها والتعمق في ملابستها أنها متعلقة بحالات استثنائية شاذة، خذ مثلًا التوجيه بضرب الطفل على الصلاة لعشر، فالفهم الصحيح لهذا التوجيه هو وجوب ترغيب الطفل وتعويده على الصلاة من سبع سنين، وعدم إلحاق أي أذى بدني به على أي أمر مهما كانت أهميته، قبل أن يعي ويدرك أبعاد المسؤولية، ولا يؤذن بالضرب الرمزي غير المبرح لإظهار أهمية أمر الصلاة، إلا بعد الأخذ بكل الوسائل التربوية الممكنة، التي نادرًا ما لا تحقق الغاية المرجوة، بما لا يجعل هناك مجالًا للضرب من الأساس.

فالطفل يحاكي، ومجرد حرص الأبوين على غرس العقيدة فيه بالقدوة بهما واتباع الأساليب التربوية في تعويده على الصلاة، كفيل بنشأته عليها، إلا أن هذا التوجيه اتخذ بذهنية خطاب الترهيب والعقاب مفتاحًا لاعتبار مفهوم العقاب للطفل وسيلة أساسية في التربية.

ولم يتنبه دعاة هذا الخطاب إلى حقيقة أن المربي الأول وهو النبي ﷺ الذي يجب التأسي به كان رحيمًا ولم يرد أنه ضرب طفلًا قط، بل ورد أنه كان ودودًا رحيمًا صبورًا في معاملة الأطفال يراعي حالهم ويتلمس حاجتهم، ويخاطبهم على قدر عقولهم، ويتدرج بخطابه لهم وفق طبيعة المرحلة العمرية التي يمرون بها، ويقبلهم، ويشجعهم، ويسلم عليهم، فكان ﷺ يقيم تربيته للطفل على الرعاية والحب والصبر والتسامح والعفو والمتابعة والخوف الإيجابي في علاقة المتحابين.

ومعاملة النبي ﷺ للحسن والحسين رضي الله عنهما بالمسجد على مرأى ومسمع من جموع الصحابة، وإردافه لعبد الله بن العباس وراءه وهو غلام يعلمه أن سبيل حفظ نفسه واستمداد العون من الله هو حفظه لله، وأن لا يستعين إلا بالله، وأن يعلم أن لا ضار ولا نافع إلا الله، خير نموذج لما يجب أن تكون عليه أساليب التربية الوالدية للأطفال على حب الله وروح المسؤولية والشجاعة بحس قلبي ووعي عقلي

وضميري، بل إن رعاية النبي ﷺ للطفل تبدأ من قبل أن يتكون في رحم أمه، فهو ﷺ يأمر بحسن اختيار الصالحين والصالحات، وبالزواج من الودود الولود.

فأساس العقوبات هو الترغيب في العفو وعدم تجاوز حدها الذي هو بمثابة الحد الأعلى الذي يلزم عدم تجاوزه في أي حال كان، بعكس العبادات التي يندب الاستزادة منها بالنوافل. (ص١٥٧-١٧١).

خامسًا: طريق الإصلاح ومواجهة التحديات: يتبين مما سلف أن الفصام بين النخبة السياسية والنخبة الفكرية لمدة طويلة في حياة أمتنا، أسفر عن سيادة فكر نصي نظري، نتجت عنه نزعة جدلية مدرسية في ثقافة الخاصة، ونزعة سطحية خرافية في ثقافة العامة، ونزعة نصية استظهارية في مناهج التعليم، ونزعة سلطوية استعلائية قهرية في مناهج التربية، ونزعة استبدادية قهرية تبديدية في مزاولة السلطة والحكم، وتمزق في علاقات المجتمع وانحطاط في أداء الفرد وانهيار في الحضارة والعمران، وكان أصل أزمة الأمة سياسي اجتماعي، ولكنها تحولت إلى أزمة فكرية ثقافية حضارية، تحولت بدورها إلى أزمة نفسية وجدانية تربوية متوارثة، ومن المهم تفكيك تلك الأزمات للتعرف على جوهر التحديات، ووجوه قصور أداء الأمة في مواجهتها، للتعرف على متطلبات مواجهتها.

وتواجه أمتنا الآن تحدي امتلاك القدرة التكنولوجية، في ظل تعميق العولمة لقدرة الآخر المتفوق علميًا وتقنيًا على التحكم في مقدراتها، وعلى تهميشها، ومفتاح الارتقاء إلى مستوى المعالجة الفعالة لهذا التحدي هو تطوير العقلية العلمية وتنمية القدرة النفسية الإبداعية، ذلك أن هذا التحدي ليس كما قد يبدو للوهلة الأولى يمكن علاجه بمزيد من الانفتاح على المخرجات العلمية والتقنية للعقل الغربي واستيراد تلك المخرجات؛ فهو تحدي ثقافي منهجي تربوي، باب معالجته هو فض المعارك الوهمية وتصحيح المفاهيم بامتلاك فكر إنساني اجتماعي حي وعلوم

اجتماعية إنسانية حية ومنهجية علمية سننية، ومعرفة قائمة على ثوابت الإيمان بالله وبغائية التوحيد الأخلاقية وقيم العدل والسلام والتكافل، وإرادة الخير، وعدم الاستعلاء والاستكثار والاستكبار وتوليد أسلحة البلاء والدمار.

وتحقيق تلك الغاية رهن بالسعي لحل الإشكالات الثقافية والتربوية التي تعاني منها أمتنا في لحظتها الحاضرة، بالعودة إلى روح الإسلام الذي هو دين العقل والعلم والاقتناع في إزالة تشوش المناهج والرؤية الكلية، وتعميق الوعي بمبدأ نفي الإكراه في الدين، والتخلص من المنهجية الجزئية النصية، والسباحة في فضاء المنهجية الكونية القرآنية الكلية، الجامعة للديني والمدني في كل مجالات الحياة، وفي كل شبكة العلاقات الإنسانية مع ما بالكون، فذلك هو السبيل للإتقان والإحسان بحوار تتفق فيه كل مكونات الأمة على الثوابت وعلى الغايات والأهداف، بما يتيح تبادل المعلومات المتعلقة بقضايا الاختلاف ومعالجة إشكالياتها، وإقامة أرضية مشتركة للتعاون الإيجابي، والتحلي بروح تقبل الآخر؛ بما يؤسس لوحدة حضارية إنسانية.

وسيظل هذا التوافق أقرب إلى الأماني منه إلى الممكن ما لم يؤهل الأطراف أنفسهم للحوار والتواصل على أساس من الثوابت القرآنية، فأمتنا تعاني من جهل العلماني بالديني، ومن جهل الديني بالعلماني، ما يؤدي إلى تحويل الحوار بين المسلمين الدينيين والمسلمين العلمانيين إلى منابذة بين جهلاء، تعمق الخلافات فيما بين الجانبين، وتخمد عزم الأمة وتغيب ضميرها، ومفتاح المخرج من ذلك هو استعادة الوعي بخبرة صدر الإسلام التي قامت العلاقة فيها على التفكير المقاصدي في أمري الدين والدنيا، وإخضاع ما هو جزئي لما هو كلي.

وتدور القضايا التي يختلف بخصوصها الفرقاء الدينيون التقليديون والمدنيون المستغربون حول سؤال واحد هو: هل التزام المنهج العلمي السنني يعني نفي عالم الغيب وتصريف الله للكون وفق حكمته والغاية من خلقه بما لا يستطيع العقل

الإنساني الإحاطة بكلياته وإدراكها؟ يقع الجانبان في الخلط في الإجابة على هذا السؤال، فالدينيون التقليديون يقدمون إجابة وعظية تركز على الدعاء والتوكل والتسليم والحكمة الخفية لمقدار الله في تسيير شؤون الخلق، وهم في استدعائهم للنصوص والشواهد على ذلك يستدعونها بمنهجية مبتورة لا تلقي بالًا للسنن الكونية وأثرها في الواقع الاجتماعي، فيجيء خطابهم في آذان المدنيين وكأنه غيبة وعي وإلهاء عن الواقع الاجتماعي يعمق أزمة الأمة ويعقدها.

وبدل أن يدرك الدينيون قصور خطابهم، فإنهم يرمون المدنيين والعلمانيين المستغربين بمتابعة المستعمر الأجنبي وعلى نحو يستبطن إنكار قداسة الدين، ولو أن الطرفان تحركوا من مبادئ الدين وكلياته ما وقع هذا الخلط ولأدرك كل منهما المشترك بينه وبين الطرف الآخر، فمرد الخلط هو غرق العقل الديني التقليدي في المرويات التي يصعب ضبطها على نحو كامل ودقيق مع غياب فقه الواقع وخبرة التاريخ بمنهاجية كلية مقاصدية، ومع انتشار المعرفة التراثية في ظل ثورة المعلومات والاتصال تفاقم التأثير السلبي لها على عقل العامة من جهة، والنقد العلمي لها من جانب المتخصصين في العلوم الإنسانية والاجتماعية والطبيعية بمحاكمتهم ذلك التراث بخبراتهم وعلومهم وحصيلة معارفهم السننية، مع التوسع في نقد المتون والأسانيد، وتعرية نزعة إكثار المتأخرين من روايات الآحاد لأغراض العزلة الفكرية ولأمور عقدية ومذهبية وسياسية، في ظل العجز الفكري وضمور القدرة على الاجتهاد.

ومن نماذج تلوث الثقافة نتيجة التساهل في نقد المتون، وجود أحاديث تتكلم عن تعرض النبي ﷺ نفسه للسحر، وعن معرفة الكهان لشيء من الغيب قل أو كثر، رغم جزمه ﷺ بأن الإسلام لا يعرف الكهانة والعرافة والتنجيم والعيافة [1]

(١) العِيافَةُ: زجرُ الطيرِ والتفاؤلُ بأسمائها وأصواتها ومَمَرِّها.

والطيرة والسحر، بل يعرف التوكل على الله بعزيمة وقوة إيمان والكسب بالعمل بعيدًا عن كافة أشكال الخرافة والشعوذة، وينهى عن تصديق الكهان والمشعوذين، ويلح في التأكيد على أنه لا يعلم الغيب إلا الله.

ولئن كانت الإنسانية قد عرفت نوعًا من الطفولة الفكرية في عصور ما قبل الإسلام، فإنه لا موضع في ظل الرسالة الإسلامية الخاتمة للخوارق وللمعتقدات الخرافية التي يروج لها المحتالون والدجالون للتأثير النفسي بتوظيف الحيل وغش البسطاء والجهلة والمكروبين، وكثير من النصوص التي تعامل على أنها صحيحة قد لا تصمد للنقد لخلل في متنها أو في روايتها، وتحتاج لحوار علمي جماعي بين المتخصصين بمنهاجية كلية كونية مقاصدية تراعي التمييز بين الثوابت والكليات وبين المتغيرات والجزئيات، وتميز بين قداسة الوحي وبين الفهم الإنساني له القابل للمراجعة والتجويد والتصويب.

وكان من الطبيعي في مجتمع تكرست فيه نفسية العبيد وهرمية الاستبداد وفكر الوصاية والفردية، أن يأتي ترتيب الطفل في أدنى سلم الأوليات، وأن يصب كل هرم السلطة المستبدة في نفسيته وعقله ووجدانه، مع كونه هو عدة المستقبل وبذرة التطور ومحط الأمل وقبلة الرجاء، ومن خلال تلك الرؤية الدونية للطفل تعمقت النظرة إليه على أنه لا يعي ولا يدرك ولا يفهم، ويجب أن ينصاع لأوامر الكبار على مستوى الأسرة وفي المدرسة ويخضع لإملاءاتهم دون مناقشة ولا مساءلة، فتلك في مجتمع الاستعباد هي منهج التربية.

وغابت في ظل ذلك المنهج التربوي المنحرف متطلبات مراعاة التناغم بين المعرفي والتربوي والوجداني في نفسية الطفل وعقله، وانحط الفكر التربوي بوصفه تابعًا للتخلي عن التفكير السنني، فضمرت آفاق التغيير الاجتماعي الحقيقي وبناء الشخصية الإنسانية الإسلامية السوية، وفشت الأمية المعرفية والثقافية في الأمة لصالح العقلية التسلطية العرقية الطبقية الشعوبية.

وتعاظم هذا الانحراف بتفشي ظاهرة التعليم الخاص والأجنبي للأطفال في العالم الإسلامي، إلى جانب ظاهرة (خدم المنازل) وإسناد مهمة تربية النشء لمربيات تعانين من نظرة استعلائية وتحرمن من جل حقوق الكرامة الإنسانية، وباتت أمتنا تعاني من ظاهرة انقسامها إلى قلة منعمة لديها كل الامتيازات التي تعزلها عن أمتها وعامة مسخرة لخدمتها نصيبها هو الازدراء والإهمال وانتهاك الحرمات (ص١٧٢-٢٠٧) .

وعلى الأمة أن تسعى إلى استعادة الوعي بالأسس والمنطلقات التربوية في المنهج النبوي، فالني الخاتم ﷺ بعثه الله؛ رحمة للعالمين، وبين له أنه لو كان فظًا غليظ، القلب لانفض الناس من حوله، وأنه برحمة الله لان للناس، وحدثت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الأمة أن النبي ﷺ لم يضرب قط امرأة ولا خادمًا، ويعرفنا أنس بن مالك أنه خدم النبي ﷺ عشر سنين، فما انتهره قط ولا عبس في وجهه، ولا قال لشيء صنعه لما صنعه ولا لشيء تركه لم تركه.

ومن هدي النبي ﷺ أن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله، وأن الراحمين لمن في الأرض يرحمهم الله، فغاية الرسالة الإسلامية كلها هي إتمام مكارم الأخلاق، وفي الصدارة من مكارم الأخلاق حسن رعاية الطفل والرفق به بخطاب ود ورحمة يربيه على المودة والحب واليسر وحسن التوكل على الله والإتقان والإحسان والشجاعة المسؤولة، فالحب المصحوب بالعدل والإكرام والاحترام هو جوهر النهج التربوي النبوي، وكل لجوء للعنف في تربية الطفل دليل على قصور وجهل في منهج التربية، ووقوع في أسر شريعة الغاب، ويولد عجز الطفل عن الدفاع عن نفسه في مواجهة مثل هذا النهج التربوي الضال، تنشئته على نفسية الخوف والكراهية والكذب والنفاق والسلبية، وخير الأمور الوسط.

فالحب تربة للعلاقات المؤثرة المثمرة ولإطلاق الطاقات الكامنة في الطفل، شريطة عدم الإفراط فيه؛ حتى لا ينقلب إلى تدليل غير مسؤول، فالحرية الإيجابية

هـي الحريـة التـي تعـرف الحـدود والـضوابط، وتراعـي ثوابـت الفطـرة الإنـسانية والمجتمع ومسؤولية حق الاختيار الحر والقدرة على أداء الواجبات دون عوائـق، في ظـل مبـدأ: لا ضرر ولا ضرار، وخـير مـصدر يمكـن تعلـم أساسـيات تلـك التربيـة الرشيدة منه هو القرآن الكريم والمنهج النبـوي التربـوي الجـامع بـين جـوهر النظـام والانضباط والتناغم مع الفطرة التي فطر الله النـاس عليهـا، والتعـود عليهـا بحـس كرامـة مـسؤول، تـصير الحاجـة إلى العقـاب في عمليـة التربيـة، في ظلهـا اسـتثنائية وخاضعة لضوابط صارمة.

ويمر الطفل بمراحل نمو أساسية لكل منها منطلقات للتعامل يجب الـوعي بهـا والتزامها، فطبيعة الطفل دون الـسابعة تـستوجب عـلى المـربي: التركيـز عـلى التعويـد والمناغمـة وتكـرار الخـبرات وتحقيـق الألفـة بينـه وبـين الطفـل، وصـولًا إلى تكـوين المفاهيم والعادات المرغوبة في سلوكه وفي تعاملاته مع الآخرين.

ويحتاج الطفل في مرحلة التمييز إلى بيئة تربية تسودها الألفة والتعويد على العادات والأساليب الحميدة في التعامل مع مـن حولـه مـن كبـار وصـغار والمـشاركة واحـترام حقـوق الآخـرين والتعـاون معهـم، والقيـام بالواجبـات وحـسن المطالبـة بـالحقوق، واعتبارًا من سن العاشرة يبدأ المربي في التركيز على تنمية روح التصرف المسؤول لدى الطفل، وحضه على أن يقبل على المخاطرة المحسوبة وعلى الابتكار والإبداع.

أما في مرحلـة المراهقـة فيكـون مـن المطلـوب مراعـاة المـربي للتغـيرات الجـسمانية والنفسية والوجدانية السريعة التي تطرأ عـلى الطفـل، وإشـباع رغبتـه في الاسـتقلال على نحو مسؤول بتوفير المناخ النظيف والمتابعة الرؤوفة والتوجيه اللبـق لـه، وحـين يبلغ الطفل المتربي على هذا النحو من بداية طفولته حتى سن الرشد والنضوج يتعين التعامل معـه بثقـة وتـشجيعه وتحميلـه المـسؤولية؛ لـيشكل خبراتـه ويـشق طريقـه في الحياة، ويكون إنسانًا نافعًا مبدعًا مبادرًا قويًا وأمينًا.

وعدة المربي الناجح هي التحلي بالمعرفة والحب والاحترام والعدل والصبر، فلا قيمة لمعرفة لا تراعي تأسيس البناء النفسي القويم للطفل على مقاصد الإسلام، فبدون ذلك البناء الوجداني لا يجدي العلم في خلق دافعية للعمل به، والعلم والمعرفة ضروريان، وبدونهما لا تجدي عواطف الحب، بل قد تضيع الطفل وتنشئه عاطفيًا عاجزًا مدللًا أنانيًا، فكم من دب جاهل قتل صاحبه ليهش ذبابة وقفت على رأسه؛ خشية أن تقلق منامه، ودون الحب المقترن بالحرص على مصلحة الطفل والصبر على تحمل أعباء تربيته، لا يمكن كسب ثقته وولائه وحرصه على تقبل التوجيه.

ثم إن مراعاة العدل في العلاقة بين المربي والطفل هي محك صدق المشاعر، ولن يستطيع الطفل الإصغاء إلى مرب يميز بينه وبين غيره، ولا تتطابق أقواله مع أفعاله، والصبر والتربية صنوان لا يفترقان، ودون البذل والحرص على رعاية الطفل وتوفير احتياجاته المشروعة لا يمكن الحديث عن الحب والبذل، ولا فهم مسوغات اعتبار الجنة تحت أقدام الأمهات وتوصية الله بالإحسان إلى الوالدين. (ص٢٠٨-٢٢٧).

سادسًا: مكانة الأسرة في تربية الوجدان: الغاية العليا للتربية الإسلامية هي: بناء الإنسان المؤمن الصادق المستخلف الراعي القوي الأمين المحسن للعمل المتقن للأداء، وكل هذه السمات لا تبنى إلا في الطفولة في بوتقة الأسرة، والمتدبر في القرآن الكريم يجد أن الله قد بين فيه أن من آياته خلق الأزواج من النفس الإنسانية الواحدة التي خلق منها زوجها؛ لتقوم أسر على علاقة زوجية قائمة على السكنى والمودة والرحمة، وأمر الله الزوج بأن يدعوه بأن يجعل لهم من أزواجهم وذريتهم قرة أعين، وأن يهبهم الصدارة في التقوى.

ومن بين توصيات لقمان لابنه أن يتجنب الشرك بالله بوصفه هو ذروة الظلم، وأن يحسن إلى أبيه وإلى أمه بصفة خاصة ويطيعهما، ويخفض جناحه لهما بتواضع الرحمة، إلا في دعوة الشرك بالله، مع التزام حسن صحبتهم في الدنيا بالمعروف حتى

لو وصل بهما الحال إلى مجاهدته على الشرك بالله، وأن يستحضر معية الله في كل أحواله، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويصبر على ما أصابه، ولا يتكبر على غيره من بني الإنسان، وأن يقصد في مشيه، ويسلم أمره كله لله.

وبينت سورة يوسف ما قد يقع في الأسرة من ويلات نتيجة ظن بعض الأبناء تمييز أبيهم لواحد منهم عن غيره، وحث النبي ﷺ على الزواج من الصالحات الودودات الولودات، وبين ﷺ وجوب تزويج من نرضى دينه وخلقه، مع التحذير من عاقبة عدم الامتثال لهذا التوجيه النبوي: الفتنة والفساد الكبير في الأرض، وبين ﷺ أن كل مسلم راع ومسؤول عن رعيته على كافة الأنساق الاجتماعية بدءًا بالأسرة وانتهاء بالأمة، وجاءت مشيئة الله أن تكون فترة طفولة الإنسان أطول منها بالنسبة لكافة الكائنات الحية، مما يبين محورية دور الأسرة في تشكيل الشخصية وبناء الأمة.

ومن هنا حظي الشأن الأسري بتفصيل قرآني يفوق تفصيل أي شأن حياتي آخر، ولا يمكن فهم التشريعات الإسلامية للأسرة وفهم حكمتها، ما لم نتفهم الجوانب السننية في تكوينها، المحددة لوظائف أفرادها وطبيعة أدوارهم المتكاملة، وغياب الوعي بدور الأسرة كما تجليه الرؤية الكونية الكلية المقاصدية هو جذر ما تعانيه أمتنا في هذا العصر من قصور في مسايرة المتغيرات على هدي من روح التشريعات الإسلامية وبفهم صحيح لها، فوظيفة الأسرة في رعاية أفرادها وتكامل أدوارهم هي الأساس الفطري الحيوي والنفسي للتكامل في علاقات أفراد الأسرة الإنسانية.

وضعف المرأة الجسدي ورقتها العاطفية، قياسًا بالرجل مع تعلق الطفل بها وجدانيًا ونفسيًا، يجعلها بحاجة إلى الرعاية التي كفلها لها الإسلام بجعل النفقة حقًا لها على الزوج، وبجعل حاجة المرأة الجنسية إلى الرجل أدنى من حاجته هو إليها، فزمام القرار الجنسي يظل بيد المرأة، ولا تنساق إلى تلك العلاقة بعاطفية، إلا إذا هي قررت بداية الاستجابة لها.

وعلى العكس من ذلك يتأثر الرجل بمنظر المرأة بل حتى بخيالها، مما يجعله أقل من المرأة قدرة على التحكم، ويسلم قياده لزوجته؛ وبذا نظمت الشريعة علاقة الزواج والنسب على أساس من الخصوصية، وجعلت انتماء الطفل لأبيه، وولاء الأب لامرأته وأطفاله، وأسندت مهمة الحضانة للأم وحملت الأب بالنفقة؛ لتقوم الأسرة على المودة والحب والتكامل في الأدوار وتكون محضن حب وولاء لكل أفرادها.

ومن هذا المنطلق حددت الشريعة عورة الرجل بما هو أدنى من عورة المرأة التي أمرتها بستر الجسد عدا الوجه واليدين بوصفهما أساس هويتها وقدرتها على التعبير وتبادل المشاعر، بحيث تزيد قدرة الرجل على التكيف مع متطلبات العمل، وتقل فتنة جسد المرأة مع حمايتها من تعديات من في قلوبهم مرض من الرجال على أمومتها.

فالتفاوت بين عورة الرجل وعورة المرأة نابع من فطرة كل منهما ويصب في مصلحتهما معًا، ومن ذلك أيضًا حكمة منع زواج المرأة من أكثر من رجل في آن واحد؛ لكونه يهدم الأسرة، ويضيع النسب ويلغي دور الأبوة، وفي المقابل السماح بتعدد الزوجات حين القدرة والعدل والحاجة، فعلاقة الزوج بكل زوجة من زوجاته تولد ثمرة لها أب وأم معلومين مسؤولين عن رعايتها، وإلى جانب ذلك فصل القرآن منظومة الحقوق والواجبات المتبادلة بين الزوجين، وكيفية معالجة ما قد ينشب من خلافات بينهما، وسمح في حال استحالة العشرة بالخلع وبالطلاق. (ص٢٢٨-٢٣٦).

ويتعين عدم الخلط بين أدوار الأفراد بصفتهم أعضاء في أسرهم وأدوارهم بصفتهم أعضاء في المجتمع وفي مؤسساته، فذلك الخلط يؤدي إلى كثير من سوء الفهم وتنازع الأدوار وإهدار الطاقات والتعدي على الحقوق، فلا علاقة لمقام ومركز كل فرد في الأسرة، وبين مقامه ومركزه في مؤسسات المجتمع الأخرى،

فمكانة الرجل الزوج في الأسرة هو مقام ومركز يتعلق بهوية الأسرة والولاء الأسري المتبادل وبخصوصية البناء الأسري، ولا علاقة لهذا كله بقدرات أفراد الأسرة ولا بأدوارهم الأخرى في المجتمع.

فطبيعة المرأة تختلف عن طبيعة الرجل، فالمرأة ثنائية الوظيفة والقدرات والاهتمامات، بعكس الرجل الذي هو أحادي الطبيعة والاهتمام والقدرة، ورغم قدرة المرأة على العمل والإبداع فإنها مشدودة إلى الأمومة، ومتطلبات البيت والأطفال، ولا بديل لدور المرأة العاطفي في حمل الطفل ورعايته، وهي جديرة بالحصول على أكبر عون مادي ونفسي ممكن من الرجل لوظيفتها في الأمومة ورعاية النشء، وهو مسؤول عن ذلك كونه بأحادية دوره وقدراته واهتمامه أكثر قدرة على الكسب لسد حاجات أسرته، ولا مجال للتعالي والتمايز بين الزوجين، فدور كل منهما مكمل لدور الآخر.

ولقد كان لإبعاد المرأة المسلمة عن الإسهامات الثقافية والدينية والاجتماعية دوره السلبي البالغ في ضعف دورها تربية الأبناء وفي المجال الاجتماعي الإسلامي، ومن الإجحاف إخراج المرأة للعمل خارج البيت بنفس شروط عمل الرجال؛ لما لذلك من تأثير بالغ على الأسرة وعلى تكامل الأدوار في نطاقها.

ويمكن تطبيق إجراءات من قبيل السماح للمرأة بالعمل في سن تالية لتربيتها لصغارها، وبالعمل باختيارهن لنصف الوقت وبنصف العبء الوظيفي، مع توفير المرونة الاختيارية لساعات دوام العمل، ومراعاة توفير فرص العمل المرن الذي لا يتعارض مع انشغال المرأة بالأمومة حتى بلوغها سن الأربعين، كما ينبغي تنظيم سوق العمل بما يحافظ على كرامة المرأة وطهرها وعفتها، وتطوير مناهج وأساليب التربية الوالدية، ومناهج التربية والتعليم والإعلام والثقافة، بما يتناغم ومتطلبات دعم دور الأسرة في البناء النفسي والعقلي والوجداني للطفل.

ذلك أن دافع الفطرة الأبوي هو المفتاح الوحيد الذي يمكن التعويل عليه في التنشئة الإسلامية المتكاملة والسوية للطفل في عصر العولمة، وتحتاج الأسرة للقيام بهذا الدور إلى دور مساند يصب في نفس اتجاه تربيتها لطفلها من المدرسة والجامعة والمؤسسة الدينية والإعلام، والواقع الراهن لا يوفر متطلبات تربية وجدانية من هذا القبيل في ظل قصور التربية والتعليم، وضآلة ما يتم رصده لها من ميزانيات، وتدني نوعية التعليم، وتركيزه على مجرد تخريج موظفين، فضلًا عن فشو الأمية التربوية بين معظم الآباء والأمهات حتى بين المثقفين منهم، لضحالة ثقافتهم، وتأثرهم بالأساليب التي تربوا هم أنفسهم عليها.

وخلاصة القول أنه رغم عدم انفراد الأسرة بالضعف من بين قنوات تنشئة الطفل، فإنها تظل هي النواة التي لابد من إصلاحها أولًا لما لها من أهمية في تشكيل نفسية الطفل وعقليته وتكييف قابلياته وتوجيهها، ولكون الفطرة ودافع الوالدين للحرص على مصلحة الطفل أمر لا يرقى إليه الشك، ولأن المفكر والمصلح قادر على الخطاب إلى الوالدين، وتكلفة ذلك في متناول اليد، وتعين عليها فطرة الأبوين، على عكس بقية المؤسسات التي تحرص بالطبع على عدم مساس التغيير بالمصالح المكتسبة والتوازنات القائمة المعقدة، وإذا كانت إرادة الله أن يحقق على يد موسى عليه السلام عملية تحرير للعقلية اليهودية من نفسية العبيد التي تربوا عليها في ظل الاستبداد الفرعوني، فإن الأسرة المسلمة هي سيناء هذا العصر.

ويحكي **أبو سليمان** من تجربته الذاتية أن والده كان مدخنًا، إلا أن حكمته في تربية أبنائه جعلت ضرر تلك العادة لا ينتقل إليهم، فهو كان يرافق تدخينه بالكلام إلى صغيره مقرًا بخطئه في التدخين، معبرًا عن عجزه وندمه لعدم ترك تلك العادة السيئة راجيًا الله أن يعينه على التخلص منها، وينبه ابنه لدى تنظيفه للشيشة بأن القطران الذي يلتصق بالسيخ لدى تنظيفها، قد دخل صدره أكثر منه، وأصابه بالكحة.

ومعنى ذلك أن الأب استطاع حتى وهو لا يقدم القدوة الطيبة في هذا النموذج، أن يربي في وجدان ابنه كراهية الوقوع فيه، وقد كان فلم يدخن هو مدى حياته قط، وبما أن القدوة الحسنة أطيب أثرًا بالمنطق، فإن تخلي الآباء عن كل ما لا يرضيهم أن يفعله أبناؤهم، يساهم في حسن تربيتهم على هجره، وعلى تقليدهم في الطيب من القول والعمل، فأثر الدروس التربوية في الصغر بالغ الأهمية، فحين التقط أخ له محفظة وجدها على قارعة الطريق سقطت من أحد المارة، ودخل بها إلى البيت، تصرفت أمه بحكمة بأن حملته على كتفها، وجعلته يلقيها مرة أخرى في نفس الموضع الذي وجدها فيه؛ ليتعلم أن لا يأخذ ما ليس له.

ويصب في ذات الوعاء توجيه الأبوين الأبناء فيما يتعلق ببرامج التلفزيون التي تقدم رسائل ملغومة هدامة في ثوب مغري وبراق، بما يقلل أثرها السلبي عليهم، ومن العار أن تمتلئ مكتبات الأمم بمئات بل ألوف الكتب والأبحاث التربوية التي تعين الوالدين على تربية الأبناء، بينما تخلو مكتبة الأسرة المسلمة من مثل تلك الكتب والبحوث الرصينة، ولا يوجد فيها إلا النذر اليسير من الكتب التي تقدم خطابًا وعظيًا سلطويًا مكررًا، وكتب فقه قانونية تتعلق بأحكام عقود الزواج والطلاق والوصاية والتركات، وغيرها مما لا علاقة له بجوهر التربية والعلاقات الإنسانية، ولا تقدم علمًا سننيًا ولا خبرة تربوية علمية.

ودور المعلم - خاصة في التعليم ما قبل الجامعي - هو دور الرديف المعاون للأسرة، وكلما تناغم دور الأسرة والمدرسة كلما طابت ثمرة عملية التنشئة المعرفية والنفسية والوجدانية، ومن هنا تأتي ضرورة الاهتمام بإعداد المعلم ورعايته، والمعلم مثل الوالد من حيث حرصه على مصلحة الطفل وعلى النجاح في مهمته، وهو بحاجة لتوفير المتطلبات النفسية والمادية لقيامه بدوره على أحسن وجه ولمتابعة المعرفة دائمة التجدد، وللجمع المتوازن بين متطلبات الطفل المعرفية والوجدانية،

وتربيته على الحب والأمل، وليس على الخوف والقنوط، والقرآن والهدي النبوي التربوي هما خير مصدرين يمكن للمعلم التزود منهما للقيام بتلك المهمة.

فأخطر ما تعاني منه البشرية جمعاء الآن هو ضحالة التربية الوجدانية والمعرفية والنفسية للطفل، واستحكام فلسفة الاستعلاء العنصرية العرقية التي تعاني البشرية في ظلها من ضعف الانتماء وضعف التراحم وضعف الحوار، وسيادة الصراع الإنساني والحضاري والحروب المتقابلة الجامحة. (ص٢٣٧-٢٧٢).

وللخروج من تلك الوضعية يتعين صياغة خطة عمل للإصلاح التربوي الذي يغرس بذرة الإصلاح المعرفي والوجداني في تربة الطفولة على أساس مكين، ويعيد إلى الأمة هذا البعد الغائب في مشروع الإصلاح الإسلامي الحضاري، بمنظومة من الخطوات المترابطة والمتزامنة.

والخطوة الأولى في تلك الخطة هي توعية المثقفين والمفكرين بطبيعة تلك المشكلة وأبعادها الثقافية التاريخية وبمحورية الطفل والتربية الأسرية في الإصلاح الحضاري الشامل.

والخطوة الثانية هي تنمية الفكر الإسلامي الاجتماعي النقدي، بوصفه شرطًا لتدارك سمة الجزئية والمعرفة الأحادية المنهجية التي غلبت على تراث الأمة في عصور تدهورها.

والخطوة الثالثة هي الإصلاح الثقافي ببناء الثقافة على مقاصد المنظومة الإسلامية ومفاهيمها الصحيحة وقيمها، وتأصيلها وتنقيتها، لاستعادة روح العقلانية العمرانية في الأمة.

ورابعها: إصلاح المنهجية التربوية والحفاوة بتنقية الأدبيات الأسرية التربوية، وبتجديدها، وإصلاح التعليم العالي، والعناية بالمؤسسات المتخصصة في دراسات الطفولة ورعايتها، وإثراء مكتبة الأسرة المسلمة، وتقدم خبرة المعهد العالمي للفكر الإسلامي زادًا مهمًا في هذا الصدد عبر مؤسسة الطفولة والمؤتمرات والدراسات

المعنية بالطفولة والأسرة.

وتطرح مدرسة إسلامية المعرفة معالم خارطة لمفهوم العلاقات الإنسانية الإسلامية، تقوم على دوائر للتداخل والتراحم الإنساني الحضاري، والفرد هو نواة دوائر تلك الخريطة، فهو اللبنة التأسيسية للأسرة والقرابة والشعب والقوم والإقليم والوطن، وهذه الدوائر الأربع نواة لدائرة انتماء الأمة، ودائرة انتماء الأمة هي نواة الدائرة الأوسع: دائرة الانتماء الإنساني.

وأول خطوات بناء هذه الخريطة هي: تنقية الثقافة بإصلاح مناهج الفكر.

و**ثانيها** هي: إصلاح بناء الأسرة وعلاقات الأزواج على أساس من الحب والثقة والأمن؛ لإيجاد محضن تربوي مناسب لتربية الطفل المتكامل الشخصية.

و**ثالثها**: التوعية التربوية التي تحول الأسرة من معين الحب والثقة والأمن إلى منهج تربوي إيجابي فعال.

و**رابعها**: توفير الوسائل العلمية والتربوية للمعلمين لمساعدتهم على تعضيد دور الأسرة في التربية، بتزويدهم بكل جديد نافع في المجال التربوي، وإنتاج الأدبيات التي تعينهم على توسيع مداركهم، وتوفر لهم المناهج المعرفية التربوية التي تقدم المعرفة المناسبة للطفل حسب مرحلة تطوره، وإنشاء مدارس عالمية تقدم نماذج للتربية الوجدانية والنفسية والعقلية للطفل على أساس المقاصد والكليات الإسلامية.

ويعاني واقع الأمة الإسلامية الراهن من ظاهرة ثرائها في الكليات والعقائد الإسلامية والذاكرة الحضارية التاريخية الغزيرة، مع افتراس عقلية ونفسية العبيد لها في واقع اجتماعي سيء ومليء بالكوابح النفسية، وهذه الوضعية تركة تراكم إخفاق مساعي كثيرة للإصلاح لم تنجح نتيجة وقوعها في أسر القصور المنهجي وغلبة السياسي على الفكري والميل للتقليد وغلبة الخطاب الوعظي السطحي التأثير الموجه للبالغين، مما عرض الأمة لتحديات ومتغيرات يصعب عليها مواجهتها، فوقعت في

براثن التخلف والتمزق والاستبداد والاستعمار والجهل والفقر والمرض.

ويتطلب هذا الواقع حركة إصلاح جذرية فعالة غايتها: تنمية روح العزة الإسلامية بالتخلص من نفسية العبيد، ومفتاح تحقيق هذا الهدف هو إسلامية المعرفة والوجدان بإسلامية الإنسان، عن طريق إصلاح منهاجية المعرفة والتكامل بين معارف الوحي والمعارف السننية، وبناء الطفل بناءً تربويًا متكاملًا، يتحقق عبره تنشئة جيل القدرة والاستخلاف.

وخلاصة هذا الطرح، أن أساس نجاح مشروع إصلاح الأمة هو: تنشئة طفل مؤمن واضح الرؤية سوي وحر وقوي وقادر، ويتم ذلك بمفتاح الإصلاح المنهجي الذي يستعيد وحدة المعرفة الكلية الدينية القيمية والمعرفة الإنسانية السننية، ويترتب على إنجاز ذلك إصلاح ثقافي يستعيد الرؤية التوحيدية الاستخلافية الكلية الإسلامية.

ويؤدي ذلك إلى فتح الطريق أمام الإصلاح التربوي الذي يحدث تغييرًا وجدانيًا نفسيًا فعالًا في مرحلة الطفولة، تستعاد به الوحدة بين التكوين المعرفي والنفسي والوجداني التربوي في تربية الطفل من معين محاكي للخطاب النبوي، بالتناغم والتكامل بين دور كل من الأسرة والمؤسسات التعليمية، وإدراك أهمية التربية والوجدان والأبوة والطفولة، والبناء من الأساس وليس من الفروع ولا بمعالجة أعراض الداء دون استئصال المرض ذاته.

ويسفر تحقيق ذلك عن إعادة بناء أمة تتحلى بالشجاعة المعنوية الإيجابية وبالقيم وبروح المبادرة الجماعية وبنفسية الأحرار التي هي شرط لإتقان الأداء الاستخلافي الحضاري، والثمرة النهائية لهذا كله هي: ناشئة قادرة على حمل المسؤولية وحسن الأداء وحمل أمانة الرسالة، والقدرة على الاستخلاف ومواجهة التحديات بحب وحرية مسؤولة وبمبادرة وإبداع جماعي. (ص٢٧٢-٣١٩).

الفصل الرابع
الإصلاح الإسلامي المعاصر
قراءات منهجية اجتماعية

الفصل الرابع
الإصلاح الإسلامي المعاصر
قراءات منهجية اجتماعية[(١)]

يتصدر هذه الدراسة إهداء إلى المتواصين بالحق والصبر والعمل الصالح، وبشرى الله تعالى لهم بالحياة الطيبة وبالجزاء بأحسن ما كانوا يعملون، وتعالج هذه الدراسة خمس **قضايا جوهرية** من قضايا الخطاب الإسلامي المعاصر، تهم الأمة الإسلامية سواء بالنسبة للداخل أو العلاقة مع الخارج.

وهذه القضايا هي: الإيمان بصدق الرسالة المحمدية بين العقل والخوارق، وتجديد الخطاب الإسلامي المعاصر مع التطبيق بقراءة منهجية اجتماعية في قانون العقوبات الإسلامية، ونظام الدولة المدنية الإسلامية وإشكالية الاستبداد والفساد في الفكر والتاريخ الإسلامي، ودور التعليم العالي في الإصلاح بالتطبيق على الجامعة الإسلامية بماليزيا نموذجًا، وعقيدة الصلب بين المسيحية والإسلام والمسعى إلى حوار بناء وإلى كلمة سواء.

وتنبع أهمية **القضية الأولى** من تردي الأمة الإسلامية في تشوش الرؤية الكلية الكونية القائمة في الأصل على السببية والسننية العلمية، مما أوقعها في فخ الشعوذات والخرافة.

وتستمد **القضية الثانية** أهميتها من تعريتها لوهم قيام النظام العقابي الإسلامي على التشدد في الوعيد والتهديد، وبيان قيامه على نظام متكامل مرن متناغم مع الفطرة الإنسانية.

وتجلي **القضية الثالثة** دور التحول عن نظام الدولة المدنية الإسلامية في الإصابة

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. الإصلاح الإسلامي المعاصر: قراءات منهجية اجتماعية، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١١. دراسة تقع في ٢٠٦ صفحة.

بالاستبداد والفساد.

وتسلط **القضية الرابعة** الدور المنوط بإصلاح التعليم في العالم الإسلامي بين النظرية والتطبيق.

وتسلط **القضية الخامسة** والأخيرة الضوء على قراءة كلية لإشكالية صلب السيد المسيح، بما يبين أساس الموقف الإسلامي منها، ويفسح المجال لعدم اعتراضها لفرص الحوار البناء والكلمة السواء بين العالم الإسلامي والعالم الغربي المسيحي. (٧-١١).

وفيما يلي إطلالة على هذه القضايا الخمس:

أولًا: الإيمان بصدق الرسالة المحمدية بين العقل والخوارق: تتعلق هذه القضية بأحد أبعاد الرؤية الكونية القرآنية التي هي بمثابة البنية التحتية للثقافة والحضارة الإسلامية، فحسم إشكالية الأساس الذي يقوم عليه الإيمان الإسلامي يجلي العديد من كليات الوجود، ومن اللافت للنظر أن العديد من كبار المفكرين المسلمين القدامى، مالوا رغم أن منهجهم كان عقليًا علميًا، إلى ربط الإيمان بالخوارق والمعجزات، على العكس من فريق آخر من بينهم: **ابن تيمية وابن خلدون**.

ويرى **أبو سليمان** أن التصور الرابط للإيمان بالمعجزات وليس بالعقل، يحتاج إلى مراجعة وإعادة نظر، وهو ما بينه في دراسة بعنوان (تأملات في ظاهرة ابن حزم وإعجاز الرسالة المحمدية) التي يستعرض خطوطها العريضة في هذا المقام، مبينًا أن الدليل العقلي أولى بحجية الوحي المحمدي، فمن المفارقات أن **ابن حزم** تبنى منهجية عقلية علمية منضبطة بالغة الجرأة والوضوح في رفض التوهمات والتهويمات، وكان التزامه ظاهر النص الموحى به وحده امتدادًا طبيعيًا لمنهجه القائم على العقل والحس والتجربة، فليس للعقل أن يزيد أو ينقص عن ما جاء به الوحي؛ لأن ذلك يضخم دور العقل ويؤلهه، كما أن إلغاء العقل يؤدي من الجهة الأخرى إلى

الخلط بين عالمي الشهادة والغيب دون حجة، فالواجب برأيه هو إعمال العقل في فهم الوحي دون زيادة ولا نقصان.

وقاد ذلك الوعي المنهجي إلى احترام معارضيه ومؤيديه لفقهه حتى اليوم، إلا أن ابن حزم واجه مشكلة في بحثه عن الدليل العقلي في قبول مبدأ الوحي مصدرًا للمعرفة وتمحيص حقيقته وتقبلها والتزامها، وهكذا توزع ابن حزم بين منطقه العلمي العقلي وبين حسه الإيماني النفسي، ودفعه ذلك إلى تلمس الدليل على صدق النبي ﷺ من حياة النبي وسيرته، فدفعه ذلك إلى البحث عن الإعجاز في حياة النبي ﷺ كأساس عقلي علمي منهجي لقبول الرسالة والتسليم بها.

وانتهى به المطاف هنا إلى نتيجة غير صائبة، فهو بدل أن يقول بأن القرآن هو المعجزة التي تتضاءل أمامها أية معجزات مادية، فيستقيم له الجمع بين عالمي الغيب والشهادة على أساس عقلي علمي قاطع، راح يقول بالمعجزات والخوارق المادية، مع حقيقة أنها لا تقدم دليلًا قاطعًا، فهي وإن صدق بها بعض المؤمنين، تترك الباب مفتوحًا لإمكانية الجدل والشك في سلامة السند والرواية ومبالغات الرواة وخداع الحواس، فقبول البعض بها لا يكون امتثالًا لحكم العقل، بل لتوقير من نسبت إليه ﷺ، واحترام من نقلوها إلينا، ومعنى ذلك أن العقل أولى من دعوى الخوارق.

وليست قضية تفكيك دعوى ارتباط الإيمان الإسلامي بالمعجزات وليس بالعقل قضية ترف فكري نظري، فقد ترتب على تلك الدعوى وتجاهل أصحاب العقلية العلمية المنهجية من جمهور علماء الأمة في عصر التخلف الذي امتد قرونًا، سيادة الجمود وتمزق المعرفة الإسلامية وانتشار الخرافات.

ومفتاح معالجة هذه الإشكالية هو التفكير بعقلية تعرف حدود الممكن لها، فالعقل الإنساني لا يستطيع الإحاطة بحقيقة الوجود وما وراء الوجود وما وراء عالم الشهادة، وإفناء الأعمار في البحث اللاعقلاني عن الحلقة المفقودة في الخوارق

المنسوبة إلى النبي الخاتم عمل لا طائل من ورائه، وحده التفكير العقلاني في شخص الرسول هو مفتاح تحرير هذه المسألة المعرفية، فحياة النبي ﷺ كلها نموذج للأخذ بالأسباب ومراعاة مقتضيات الفطرة الإنسانية والتفكير العقلي في علاقات السببية وفي السنن الكونية الثابتة، وإثبات صدق الرسالة المحمدية لا يتأتى بشكل قاطع إلا من هذا التوجه العقلاني.

فالإسلام قائم على قاعدة العقل والسنن، وقياس كليات السيرة النبوية وتفصيلاتها بهذا المعيار العقلي العلمي السنني هو الذي يكشف عن الفارق الجوهري بين الديانات السابقة للإسلام التي عزز الله تعالى فيها الرسل بأدلة مادية معجزة، كان يتم التشكك فيها مع مرور الوقت، ومن ثم كان أثرها مؤقتًا، وهو ما لا يصلح بالنسبة للرسالة الخاتمة وختم النبوة، التي لازمتها معجزة أبدية مطلقة معنوية، تلزم العقل الإنساني المستقيم إلى قيام الساعة بفهم بشري نسبي يختلف سقفه المعرفي مع مرور الزمن.

وفي ضوء ذلك نفهم تأكيد القرآن على بشرية الرسول الخاتم، وعلى أن دليل صدقه متناغم مع الطبيعة البشرية، بما يؤذن بدخول البشرية المرحلة الأخيرة: مرحلة العلمية والعالمية.

وبذلك توفرت شروط صدق الرسالة الإسلامية، **وأولها**: انفراد القرآن الكريم بدرجة من التوثيق لا يضاهيها توثيق أي مصدر معرفي آخر على امتداد التاريخ الإنساني، وثانيها: شرط الخيرية، حيث لا يأمر القرآن إلا بما هو خير للبشرية جمعاء، فهو يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وهو لا ينهى إلا عن ما هو شر: الفحشاء والمنكر والبغي، والتوثيق وقصد الخير هما الشرطان الضروريان لثبوت أن الرسالة إلهية ولكنهما لا يسدان الباب تمامًا أمام مجادلة البعض بأنها رسالة يريد من يخاطب البشر بها إضفاء قدسية عليه بنسبتها إلى الله.

ومن هنا يأتي الشرط الثالث الدامغ وهو التفكير العقلي في شخص الرسول ﷺ وفي حياته وسيرته التي تقطع بصدقه بالعقل، فالنظر العقلي في حياة النبي ﷺ يكشف عن حقيقة إمكانية أن يشاطره في كل خصلة له أناس آخرون، لكن يستحيل أن تجتمع كل خصاله في شخص واحد آخر؛ وبذا لا يكون الإعجاز في كل صفة بشرية على حدة، ولكن في اجتماعها في شخص واحد، ومن جمال هذا الإعجاز وروعته أنه لا يخرج النبي الخاتم من طبيعته البشرية، ولا يؤدي قبوله إلى إلغاء العقل والمنطق الإنساني.

ومعنى ذلك، أن التدبر في حياة النبي ﷺ تكشف عن نمط من الإعجاز الكلي العقلي العلمي الإنساني، فهو اليتيم يتمًا مركبًا في طفولته، وهو الإنسان الذي لم تظهر له أية طموحات معرفية طيلة أربعة عقود من حياته، وهو من أقر له معايشوه حين تنزل عليه الوحي بالصدق والأمانة والوداعة وحسن الخلق، وهو من ألزم قومه الحجة لدى تنزل الوحي، بأنهم سيصدقونه في كل ما يخبرهم به مهما كانت جسامته، وهو الأمي المبعوث في أمة أمية، ولا عدة معه غير الأمانة والصدق والاستقامة والوحي المنزل، الذي يصمد سنين عددًا في مواجهة ضغوط نفسية ومادية لا طاقة لأية أمة ناشئة بها، وهو من استطاع في المدينة المنورة أن يبني خلال عشر سنين أمة منقطعة النظير رغم ما كان بالمدينة من عداوة سالفة بين الأوس والخزرج، وما تعرضت له الأمة من عدوان خارجي متواصل معظم تلك السنوات العشر. (ص١٥-٢٨).

ثانيًا: تجديد الخطاب الإسلامي المعاصر، الثابت والمتغير: نظام العقوبات نموذجا[١]: المستهدف المعرفي لهذا البحث هو تقديم نموذج لإعادة بناء الخطاب

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. تجديد الخطاب الإسلامي المعاصر، الثابت والمتغير: نظام العقوبات نموذجًا، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية: ٢٠٠٧. دراسة في ٦٢ صفحة. وأعيد نشر مضمون المحورين الثاني والثالث من هذه الدراسة الخاصين بحد الردة وخصوصية وضع الأقليات المسلمة بالغرب، على نحو موجز في دراسة تقع في ٤٥ صفحة من القطع الصغير،

الإسلامي المعاصر بتكامل منهجي يجمع بين نصوص الشريعة والفهم العلمي للسنن في طبائع البشر، على هدي كليات ومقاصد الشرع الإسلامي، بما يحقق الاستجابة لمتطلبات الواقع، والتمكين في الزمان والمكان لبناء المجتمع الإنساني الخير المعاصر. (ص٣١-٣٢).

ويقوم معمار البحث على المحاور التالية: الأهمية الخاصة لقانون العقوبات الإسلامي، وكيفية بناء منهج للمعالجة يجمع بين الخبرة المستفادة من ملاحظة الواقع وفقه النصوص الشرعية مراعاة تكامل مصادر المعرفة الإسلامية وشمولها للوحي (النص) والكون (العقل والفطرة والسنن والوقائع)، وكيفية مواجهة الحاجات الغريزية البشرية وترشيد سلوكها، والتنقيب عن مقاصد النصوص الشرعية، والحفر المعرفي فيما يسمى: حد الردة، وفي وضع الأقليات والجاليات المسلمة، وضرورة إصلاح التعليم ومناهج المعرفة الإسلامية المعاصرة، وفيما يلي إطلالة خاطفة على المعالم الرئيسة لتلك المحاور:

١- **في الأهمية الخاصة لقانون العقوبات الإسلامي**: يثير مفهوم الحدود الإسلامية إحساسًا بالرهبة لدى كثيرين ممن يتوهمون قسوتها، على خلاف حقيقة أنه كافة مبادئ وقيم الإسلام ترمي إلى النفع والأمن والطمأنينة للبشر، ويؤشر ذلك على الحاجة إلى طرح إسلامي يقدم العقوبات الإسلامية بشكل أكثر تفهمًا وتقبلًا من عامة الناس .

والخيط الذي تسعى الدراسة إلى الإمساك به لصياغة طرح اجتهادي بهذا الصدد هو الحفر المعرفي في حكمة اشتراط أربعة شهود لإثبات واقعة زنا، مقابل

بيانات توثيقها على النحو التالي: د. عبد الحميد أبو سليمان، حد الردة في الإسلام عقيدة وقانونا، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٣. وأرقام الصفحات المشار إليها بالمتن هي أرقامها في: د. عبد الحميد أبو سليمان، الإصلاح الإسلامي المعاصر، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر، ٢٠١١.

اشتراط شاهدين اثنين فقط لإثبات وقوع جريمة سرقة أو قتل، بمنهجية فكرية كلية منضبطة تراعي الجمع بين الوحي والعقل والطبائع والوقائع، ورأب الصدع بين الوحي والسنن الكونية، وهي المنهجية التي قامت عليها الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، مستهدفة وضع حد لمنهجية التجزئة والانفصام بين الفكر والحركة وبين الشرعي والاجتماعي التي أصابت العقل المسلم من أمد بعيد، والتي أدت إلى عجز معرفي لجأ الفقهاء في ضوئه إلى الترهيب الفكري، ولجأ الحكام إلى التخويف الجسدي المادي، وأصبح الترهيب والاستبداد وسيلة لحفظ المصالح الفئوية وسببًا في تكوين عقلية العبيد والقضاء على دافعية الإنسان المسلم الفطرية وعلى روح الاستخلاف والإبداع. (ص ٣٢-٣٣).

٢- **الدلالة الاجتماعية لشهادة الأربعة**: يكشف التحليل النفسي الاجتماعي أن للعدد أربعة دلالة اجتماعية نفسية، هي أن هذا العدد يمثل الحد الأدنى للتفاعل الاجتماعي المحقق للتوازن الاجتماعي ولإشباع الحاجات الإنسانية، ومعنى ذلك أن اشتراط أربعة شهود لا أكثر ولا أقل هو وجود دليل قاطع على أن فعل الفاحشة تم أمام أعين المجتمع جهرًا، بما يمثل عدوانًا على حرية الآخرين وإشاعة للانحراف، ويتبين من ذلك أيضًا منطق عقوبة الشهود إن قل نصابهم عن الأربعة؛ لأنهم يكونون هم الذين أشهروا بدل أن يستروا، وأخرجوا بالترصد ما كان خطيئة وضعفًا من دائرة الخاص إلى دائرة الفضيحة والتشهير الجمعي العام، ويجب أن لا تغيب في ضوء ذلك دلالة أن تكون الشهادة قطعية صريحة غير ظنية. (ص٣٤-٤٤).

ومن الأهمية بمكان عدم الانشغال بعقوبة ارتكاب حد من حدود الإسلام عن تركيزه على الوقاية من الإثم من الأساس بالتربية والتنشئة والنصح والقدوة الحسنة، ولنتأمل في المعالجة التربوية النبوية لمن جاءه يستأذنه في الزنا، حيث لم يهدده ولم يتوعده، بل حرك كامن الكرامة والخير في نفسه، بتذكيره بأنه لا يرضاه لأمه ولا لزوجه ولا لأخته، وكل النساء أمهات وأخوات وعمات وخالات.

وأقام النبي ﷺ بذلك من نفس ذلك الشاب رقيبًا على نفسه، فما دام لا يرضى أن يدنس الناس عرضه، فيجب أن لا يدنس هو عرض غيره، وشفع النبي ﷺ تلك النصيحة له بأسلوب عملي لمدافعة الشهوات وهو حثه على الزواج والإحصان، ورياضة النفس بالصوم عند عدم استطاعة الباءة، وفي نفس الاتجاه يسير الهدي القرآني إلى غض البصر وحفظ الفروج وعدم اتباع خطوات الشيطان، وإقامة الصلاة بروحها الناهية عن الفحشاء والمنكر، والتوبة والاستغفار.

وعلى العكس من ذلك فإن شهادة الاثنين تكفي في الدماء والمال بهدف حفظ المال والنفس ومنع العدوان والتعدي عليها سرًا أو جهرًا، وفي كل الأحوال يبقى الأساس هو الوقاية من الجريمة بكل صنوفها بتطهير التربة النفسية والاجتماعية من دواعيها كأساس لأي نظام عقابي راشد لا يدمر روح الأمة ولا يشل طاقاتها الحضارية.

ويتضح مما سلف أن غاية النظام العقابي الإسلامي هي تحقيق الأمن في المجتمع المسلم وحمايته من العدوان سواءً في النزوات والغرائز أو في الأموال والدماء والأعراض، وما دام الأمر كذلك فإنه لابد أن يشعر المسلم بالأمن والطمأنينة والستر، وليس بالخوف والترصد والرهبة، وليس أقسى من انتهاك الحرمات، فحد النظام العقابي الإسلامي وغايته هو منع أهل الفساد من إشاعة الفاحشة في المجتمع ومن إقحام فسادهم في حياة غيرهم، فالغاية هي منع الجريمة وليس الانتقام، وباب التوبة مفتوح لا يغلق، ومن تعاليم الإسلام درء الحدود ما استطاع أولو الأمر إلى ذلك سبيلًا، والوعي بأن خطأهم بالعفو خير من خطئهم بعقوبة بريء، والعقوبات المنصوص عليها تمثل الحد الأعلى للعقوبة، وهو قابل لمراعاة معطيات كل حالة بشورى جماعية، والاجتهاد لدرء الحدود، بحيث لا يطبق الحد الأعلى للعقوبة إلا على المخطئ المصر على الخطأ، مع إمكانية العفو عن غير المصرين على الإفساد في الأرض التائبين المرجو صلاحهم.

ولقد اجتهد الفقهاء في درء حد السرقة باشتراط النصاب والحرز وانتفاء الضرورة، فضلًا عن الحض على العفو قبل أن يصير الأمر إلى مجلس القضاء، ومفاد ذلك أن الرؤية الكلية لحكم القرآن في السارق على ضوء التدبر في الآيات وفي دلالة التطبيقات النبوية والراشدية لها، تبين أن عقوبة السرقة وكذا في جرائم القتل والحرابة والإفساد في الأرض، تتراوح بين الحد والعفو بما يناسب الحال، ويحقق للمجتمع الأمن والطمأنينة.

ومما يحتاج إلى مراجعة وصول بعض الفقهاء بالعقوبات التعزيرية إلى ما يفوق السقف الأعلى للعقوبات التي هي أدنى من القصاص، بدعوى شدة خطورة جرائمهم، دون تدبر لما يقدمه القرآن من معالجة، لا موضع معها للمبالغة في العقاب البدني ولا لتخطي سقف الحدود الشرعية، فالقرآن ينص في آية الحرابة على ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [المائدة: ٣٣-٣٤].

فلقد استثنى القرآن صراحة التائبين طواعية من الحد، وتضمنت العقوبة بدائل من بينها النفي الذي لا يوقع عقابًا بدنيًا بالمفسد رغم جسامة إفساده، كسبيل لوقف استمرار فساده وحماية المجتمع من أذاه، ويظل باب التوبة النصوح مفتوحًا (ص٤٥-٥٦).

٣- **عدم وجود نص قرآني يحدد ما يسمى حد الردة:** لم يرد بالقرآن ذكر لأية عقوبة دنيوية تتعلق بما سماه الفقهاء حد الردة، الذي هو متعلق بموضوع العقيدة التي هي جوهر الدين، وحتى في ذكر تآمر طائفة من أهل الكتاب بهدف إحداث فتنة بين المؤمنين عن طريق إعلان دخول الإسلام ثم إعلان خروجهم منه، لم يرد

أي ذكر لعقوبة دنيوية على هذا التآمر وذاك التدبير، بل نص على عقوبة أخروية.

والمتدبر في القرآن وفي التطبيقات النبوية يلاحظ بكل جلاء التأكيد على حرية العقيدة، وعلى محاورة المخالف في الدين بالموعظة الحسنة وبالحكمة، وعلى عدم التعرض لرهبان الصوامع ولا للقبط، والإسلام لا يخشى من ردة من عرفه حق المعرفة إلى خرافات أو عنصريات أو دهريات عدمية، والمسؤول الحقيقي عن ما يقع من بعض الجهال والعامة من زيغ العقائد وانحرافها، هو تقصير المجتمعات والدول المسلمة، وتقصير مؤسسات الدعوة والتربية والتعليم في ترشيد العامة والناشئة، فمن يرتد عن الإسلام بما يتضمنه من إيمان بالله ورسوله وقصد العمل الصالح والإعمار الخير في الدنيا لا يمكن أن تكون ردته إلا عرض لمرض نفسي أو جهل ديني ثقافي أو غرض سياسي مادي نفعي، والأمراض النفسية تعالج بعلاج نفسي، والجهل بالحقائق يعالج بالتبصرة العلمية وبتوضيح الشبهات، وتعليم الفئات الفقيرة المحرومة الجاهلة، وتعريفها بصحيح الدين. أما إصرار البعض على معاقبة الحفنة الاستثنائية التي تعلن الردة وتصر عليها، فإنه ليس سبيلًا لتثبيت إسلامهم، بل لخلق حفنة من المنافقين الموتورين الحاقدين على الإسلام وعلى الأمة (ص٥٦-٧٤).

٤- **الأقليات والجاليات المسلمة**: للمسلمين المقيمين في الخارج عامة وفي الغرب بوجه خاص، ظروف خاصة بهم، في مجتمعات هجرت الدين وحولته إلى طقوس أسطورية، ومن الإشكاليات التي قد تواجهها المرأة في تلك المجتمعات أن تسلم ويبقى زوجها على غير الإسلام، ولها منه أولاد، ولكون تلك المجتمعات لا تبالي بالدين فإن مثل هذا الزوج قد لا يخشى من السلطة النفسية لزوجته التي أسلمت على أبنائها، ولا تخشى هي أن يتوقف لهذا السبب عن رعاية أبنائه، وتأمل في هدايته إلى الإسلام، فهل يكون التفريق في هذه الحالة مع ما يترتب عليه من أضرار على الأطفال والأسرة لا تقابلها مصلحة ظاهرة هو الخيار الأفضل المحقق لمقاصد الشريعة وفق خصوصية وضع الأقليات المسلمة في الغرب؟ تلك مسألة خلافية لم تحسم بعد.

ومثل هذه المستجدات تحتاج إلى اجتهادات متأنية، لا إلى فتاوى خطيرة متعجلة، ومن الضروري لمفكري الأمة أن يراعوا الحاجة إلى المنهج الكلي المنضبط القائم على مقاصد الشريعة في إعادة النظر في كثير مما أخطأ فيه الفكر الإسلامي المعاصر، مما كرس روح الاستبداد والاستعباد السلبية، وعليهم الاجتهاد في استحضار فرضية أن الشرع حدد الحد الأدنى لذكر الله الذي يمكن الاجتهاد حسب الاستطاعة في الاستزادة منه، وحدد الحد الأقصى للعقوبات الذي ليس لأحد أن يزيد عليه، بل يسعى إلى تخفيفه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، بحثًا عن الحد الأدنى المناسب من العقوبات، فالاستزادة من ذكر الله تقوي القابلية للخير والانتهاء عن الظلم، بينما يؤدي الترهيب بالعقوبات إلى تربية نفسية العبيد والمنافقين (ص٧٤-٨٣).

٥- **ضرورة إصلاح التعليم ومناهج المعرفة الإسلامية المعاصرة:** الجمع بين إنعام النظر في الواقع وفي النص الشرعي هو مفتاح هذا الإصلاح، وبصرف النظر عن التوصل إلى نتائج يقينية من هذا الاقتراب التكاملي بين النظر في الوحي والواقع، فإنه يمكن أن يساعد على بناء فروض علمية يتم اختبارها وتجويد قدرتها التفسيرية، وتعزيز مناهج المعرفة الإسلامية بها، والتخلص من المعارك الوهمية المتولدة من المنطق الصوري المستعار من الفكر اليوناني، ومما يساعد على هذا الإصلاح الأخذ بفكرة (التخصص المزدوج) التي تمت تجربتها بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، والتي من المأمول أن تحدث تراكمًا معرفيًا إسلاميًا جنبًا إلى جنب مع تخريج كوادر قيادية ذات عقلية منهجية علمية متكاملة، بما يساهم في بناء علوم الأمة عامة والعلوم الاجتماعية بوجه خاص.

وخلاصة القول أن الإشكالية ليست بالدرجة الأولى تحديد ما هو الثابت وما هو المتغير فقط، بل فهم الثابت وتقديمه للأمة وتكييف المتغير به في الواقع المعاصر، ومراعاة الجمع بين الفردية والجماعية معًا، فالفرد يحتاج إلى حيز خاص يستقل به، دون أن يحرمه ذلك من الصحبة والاستئناس بآخرين (ص٨٣-٩٠).

ثالثًا: نظام الدولة المدنية الإسلامية وإشكالية الاستبداد والفساد في الفكر والتاريخ السياسي الإسلامي: تقدم الدراسة في تحليل تلك القضية مقاربة منهجية في التعرف على أساسيات الدولة الإسلامية في النموذج الذي عرفه العهد النبوي وعهد الخلافة الراشدة، والكيفية التي تهاوى بها ذلك النموذج لتنطلق منظومة الفساد والاستبداد السياسي في الأمة، ولتختم بالتمييز بين نموذج الدولة المدنية الإسلامية ونموذج الدولة الديموقراطية الغربية المعاصر.

١- **مفهوم الدولة المدنية الإسلامية**: نواة هذا المفهوم هو (مؤسسة الشورى). فالقرآن يأمر بأن تكون للأمة الإسلامية أمة منها، يسميها: **الأمة الداعية**، ووظيفتها هي: الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. يقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وتنبه المفكرون المسلمون من أمد بعيد إلى أهمية الشورى، إلا أنه من المؤسف أنه لم يتوفر الوعي بها كمؤسسة اجتماعية سياسية، وليس كمجرد إسداء النصح غير الملزم للسلطة السياسية، ونتيجة لذلك لم تكن ضمن بناء نظام الحكم مؤسسة شورى فاعلة تجسد مفهوم الشورى وتفعله في واقع النظام السياسي الإسلامي، وتحتاج هذه الظاهرة إلى رصد وتحليل للأسباب التي تولدت عنها.

السبب الرئيس الذي تقدمه هذه الدراسة هو: عدم التنبه إلى خصوصية النبي ﷺ من حيث تعدد الأدوار التي قام بها في الأمة وفي الدولة الإسلامية، فهو كان في حياته رسولًا مبلغًا يوحى إليه، وكان داعيًا ومعلمًا، وكان باني أمة، ورئيس دولة،

وكان من الواجب على المسلمين الفصل بين هذه الأدوار في بناء السلطة بعد وفاة النبي ﷺ، إلا أن ما حدث هو الظن بأن من يتولى الخلافة بعد النبي ﷺ يمسك في يده بكل أدوار النبي ﷺ باستثناء كونه لا يوحى إليه، وابتدع غلاة التصوف وبعض الشيعة دعوى الكرامات وعصمة الأولياء وإلهاماتهم، ولم يتم الفصل بين دور النبي ﷺ كداعية ومعلم وبين دور رئيس الدولة الإسلامية، حتى لا يوظف الدين لخدمة السياسية، وتظل الدعوة الإسلامية مستقلة عن إكراهات السلطة، وكانت تلك هي الثغرة التي وضعت عبرها بذرة الاستبداد.

أما السبب **الثاني**، فهو سرعة الفتح الإسلامي بما صاحبه من موروثات متجذرة في ثقافات الشعوب التي دخلت في الإسلام، ومن نزعات قبلية وشعوبية ومصالح طاغية.

أما **السبب الثالث** فهو: تداعيات متلازمة الاستبداد والفساد، ذلك بأنه ما أن توضع بذرة الاستبداد في النظام السياسي، حتى تنطلق دورة تزييف وعيها بقناعات صورية مضللة، غايتها إضفاء المشروعية على الاستبداد بالقهر الفكري والقهر المادي، وتتولد من ذلك حلقة مفرغة مقفلة يصعب كسرها من سعي السلطة لتكريس مصالحها الخاصة وتقديمها على مصالح الأمة والتمكين للفساد بكل صوره وأشكاله، والنظر إلى الأمة على أنها قاصرة وبحاجة إلى وصاية السلطة الحاكمة عليها، فتتحول السلطة من (سلطة من الأمة) إلى (سلطة على الأمة)، ويرافق ذلك غياب أو ضمور مؤسسات التربية في الأمة، وتصير السلطة الحاكمة هي الخصم والحكم معًا في العلاقة بين الأمة والدولة.

ومع عزل الحياة السياسة عن مقاصد الدين ومفاهيمه، تغيرت طبيعة الواقع العمرانية والاقتصادية، وأصيبت السلطة السياسية والنخبة المفكرة على حد سواء بالعجز عن الإبداع والتطوير، وساد الجمود والتقليد، وأغلق باب الاجتهاد.

وأولى لبنات كسر متلازمة الاستبداد والفساد هذه هي: التنشئة الوالدية الراشدة التي تعيد بناء الطفل في محضن الأسرة؛ ليكون هو: إنسان الرشد الكوني، القادر على تعرية منظومتي الفساد والاستبداد، وإقامة نظام مدني إسلامي شوري، بما يخلص الأمة من ظاهرة تهميش السلطة السياسية للعلماء، ومن عزلة العلماء عن معطيات الواقع بما يؤدي إلى ضحالة بضاعتهم في فقه الواقع.

وأما **اللبنة الثانية** فهي: إقامة مؤسسة شورى الأمة، التي تتمثل الأمة في ظلها عمق مفهوم الشورى القرآني، وتكون تلك المؤسسة مستقلة، وتسند إليها مهمة الدعوة والتربية والتعليم الديني والعمل الاجتماعي التربوي، وتفعيل مؤسسة الأسرة.

وأما **اللبنة الثالثة** فهي إعادة بناء المفاهيم القرآنية الرئيسة والتعرف على مقاصدها، وتأتي في مقدمة المفاهيم التي تحتاج إلى إعادة بناء برؤية كلية قرآنية، **مفهومي** (الإمساك بمعروف) و(التسريح بإحسان)، فالطلاق في ضوء القراءة السياقية للقرآن الكريم لا يقع مهما تلفظ الزوج به، شرعًا إلا أن يتم أمام القاضي المختص وبحضور الزوجة أو من يمثلها حتى تتاح فرصة للتفكر ولمساعي الإصلاح بين الزوجين ولترتيب ولكفالة عدم تضييع الحقوق وحفظ الأطفال ومنع انتهاك الحرمات، حتى يتحقق مفهوم الإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان، فكلمة الطلاق ليست مقدسة في حد ذاتها، ولكن القصد منها هو تأكيد النية والقصد في الفراق وحسب.

وأما **اللبنة الرابعة** فهي: إحياء الفكر الاجتهادي الكفيل بارتقاء الأمة إلى مستوى تحديات العصر، ويتطلب ذلك بناء الوعي بالثوابت الإسلامية وتعميمه، وتوضيح مقاصد الشرع وتجديد الخطاب المعبر عنها، وإحياء دور الدين في بناء كل من الأمة والدولة، بإعادة الأمر شورى، فلقد قلب الخطاب الديني الذي تشكل في عصور انحطاط الأمة الأمور رأسًا على عقب، ففي حين يعرف القرآن الأمة

الإسلامية بأنها هي التي تعلم وتفكر وتفقه، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فإن ذلك الخطاب صورها على أن جمهورها جاهل يحتاج إلى تقليد علمائه؛ وبذا أصبحت الأمة هي الجاهل القاصر، وأصبح الحكام وأعوانهم وأصحاب المصالح الخاصة هم الراشدون العالمون الأوصياء عليها، وهم من يصنع القرار السياسي وينفرد به مع مجرد نصيحة غير ملزمة من المتخصصين في العلوم الاجتماعية والإنسانية والدينية، وبهذا الشكل اختلطت الأوراق، فوضع الأمور في نصابها يقتضي أن تكون الأمة هي صانعة القرار السياسي، ودور السلطة السياسية هو: تنفيذ قرار الأمة.

ولم يعرف المسلمون في الصدر الأول للإسلام المتون والحواشي الفقهية، بل عرفوا بسليقة وتلقائية النموذج النبوي في بناء الأمة والدولة، واستطاعوا بذلك أن يفرقوا بوضوح بين الشورى كمؤسسة اجتماعية سياسية للأمة المجسدة للمبادئ الإسلامية وبين المشورة المحكومة بالاعتبارات الموقفية والاختيار السياسي في ضوئها، وبين المعرفة المهنية المتصلة بالشأن الحياتي، والتي يكون الأمر فيها للمتخصصين المحترفين لها، وتحتاج أمتنا إلى استعادة الوعي بهذا التمييز بين المبدئي والسياسي والتقني الفني.

ومن الأهمية بمكان أن لا يستمر الخلط بين الدعوي والسياسي، باستقلال مؤسسات الدعوة عن السلطة السياسية، ولا تمثل تلك الدعوة كما قد يتوهم البعض الفصل بين الدين والدولة، فهي دعوة للفصل بين الدعوة والسلطة السياسية؛ لأن الأولى تقوم على المبدأ الثابت، بينما تتسع الثانية للاختيار السياسي الموقفي، ومن شأن هيمنة السلطة السياسية على مؤسسات الدعوة، فتح الباب لتوظيف الدين لأغراض سياسية، وقلب الثابت إلى متغير، والمقصد من هذه الدعوة إذن هو كف يد السلطة السياسية عن تشويه الدين وتهميشه وتوظيفه والتسلط عليه، ومن المفاهيم التي تحتاج إلى إعادة بناء مفهوم الدولة ذاته، فلقد تم اختزاله في سلطة الحكم، وهي في الحقيقة واحدة من مؤسسات الأمة والشعب.

وأما **اللبنة الخامسة** فهي إعادة بناء مؤسسات الدعوة والإسلام على أساس من الرؤية الكونية القرآنية الكلية، فاستقلال تلك المؤسسات عن السلطة السياسية شرط لتمكينها من بناء الوعي ومراقبة السلطة وترشيد خيارات المواطنين بالنسبة للتشريعات والبرامج السياسية، وتحقيق التناغم بين مقاصد الدين وكلياته ونمط الحياة في المجتمع، فالدين هو حسن الخلق، وأساس العقائد هو المبادئ والمفاهيم والأخلاق المؤسسة على التربية والإقناع، وجوهر النظام السياسي الإسلامي الراشد هو أمة حية لها دولة مدنية إسلامية، لها حكومة مدنية ونظام مدني إسلامي، فالأمة تكون إسلامية بهوية مواطنيها وقيمهم ونظام تربيتهم، والدولة تكون إسلامية بقيامها على مفاهيم ومقاصد كونية عالمية إسلامية خيرة، وهي تستند إلى إرادة الشعب، لكن تلك الإرادة ذاتها تنبثق من منظومة قيم ومبادئ مقاصدية ثابتة، (ص٩٥-١١٢).

٢ - **الفارق بين النظام الإسلامي والنظام الديموقراطي**: الفارق الرئيس بين النظامين هو أن النظام السياسي الغربي الديموقراطي نظام مادي علماني يقوم على الإرادة الذاتية لأغلبية المواطنين، التي تخضع لها الأغلبية والأقلية معًا، مع رعاية الأغلبية لحقوق الأقلية الخاصة، ونتيجة الفلسفة المادية العلمانية التي يقوم عليها هذا النظام فإنه يواجه إشكاليات بالغة الخطورة فيما يتعلق بضبط الحريات، فلكون الذاتية الحيوانية هي المرجعية فإنه يقع في الفوضى الاجتماعية والأخلاقية، فضلًا عن تحلل مؤسسة الأسرة مما ينذر ببالغ الخطر على الأجيال القادمة.

أما النظام السياسي الإسلامي فهو نظام شوري مدني ناظمه هو المقاصد والمبادئ الكلية الإسلامية، وهذا النظام ديموقراطي من زاوية تمثيله لإرادة الأغلبية مع حفظ حقوق الأقليات، ولكنه يفارق النظام الديموقراطي الغربي في كونه يجمع بين القيم والأخلاق والمادة، وترتكز الإرادة الشعبية في ظله إلى ثوابت ليست من صنعها، فلا يمكن التلاعب بها وفق الأهواء وتغير موازين القوة، ويقوم هذا النظام على شورى تقبل تعدد الأحزاب والبرامج السياسية ما دامت لا تناقض تلك

الثوابت، وعادة ما تسفر طبيعة النظام السياسي الإسلامي عن قيام أحزاب برلمانية، مع الميل لنظام قريب من النظام الرئاسي فيما يتعلق بالسلطة التنفيذية، ومن سمات هذا النظام الفصل بين الدعوة والسلطة السياسية حفاظًا على قداسة الدين.

وتتناغم مدنية النظام السياسي مع قيم الإسلام ومقاصده، وتكون الوصاية للأمة على السلطة السياسية بحيث تكون منفذة لإرادتها، ولا مجال في ظل الدولة المدنية الإسلامية للعنف في العلاقة بين السلطة السياسية الحاكمة والمعارضة، فلا شرعية للسلطة والمعارضة في حال سعيهما إلى تسوية الخلافات السياسية بينهما بالعنف، فما هو سياسي لا يحل إلا بإجراءات سياسية سلمية، ويحتاج هذا النظام إلى برامج مقاصدية تحقق الرشد السياسي والرقابة على السلطة الحاكمة ومحاسبتها، وتجفيف منابع الفساد والاستبداد، بالتزكية على التربية وبناء الوعي والتكامل بين مؤسسات الأمة.

ويتطلب نظام الحكم المدني الإسلامي وضع معايير تحدد الراشدين المؤهلين لشورى المجتمع، على نحو يخالف ربط الغرب الديموقراطي لحق المشاركة السياسية بالسن ودفع الضرائب، فالنظام الانتخابي الغربي يفسح المجال لغوغائية تستغلها القوى صاحبة المصالح، وتضغط بها على إرادة الناخبين فيما يسمى الحملات الانتخابية، على نحو يعلي ما هو مادي على ما هو روحي وأخلاقي.

ومن المهم أن يكون المشارك في الشورى ناضج الوعي عارفًا بالمصلحة العامة يفقه الواقع ويفقه الدين معًا، والسبيل إلى ذلك هو عملية تنشئة تخرج جيلًا واعيًا بالرؤية الكونية القرآنية الكلية، مع الإصلاح العقدي والفكري والعلمي والمؤسسي وإيصاله إلى جمهور الأمة بدءًا من الأسرة ومرورًا بمؤسسات التعليم والإعلام وأئمة المساجد، فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ومن يشب على شيء يشيب عليه. (ص١١٣-١٢٨).

رابعًا: دور التعليم العالي في الإصلاح: الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا نموذجًا[(١)]: كثيرًا ما لا يجدي العلاج لتأسيسه على تشخيص خاطئ للمرض بالتركيز على أعراضه بمنهج جزئي، بدل التنقيب في جوهره برؤية منهجية كلية، ويصدق ذلك إلى حد كبير على قصور تشخيص سبب تخلف الأمة الإسلامية، فالأمة تعاني من التخلف والفرقة والجهل والمرض وتتطلع إلى القوة والعدل والوحدة والتنمية الشاملة والمستوى الحياتي الإنساني، دون أن تكلل مساعيها بالنجاح على مدى قرون، وسر ذلك أن جهود الإصلاح انشغلت بمعالجة أعراض المرض، بدل التنقيب عن جذره العميق: وهو قصور المنهج وتشوه الرؤية مما يؤدي إلى ضعف الحافز النفسي وقصور الأداء، وفقدان الطموح، والفرق الرئيس بين الأمم الراكدة والأمم الطامحة هو، نوعية إنسان كل منهما وفكره وقدراته وأداؤه.

وأمتنا لا تنقصها الموارد المادية ولا القيم والمبادئ والأهداف السامية، فالتخلف كامن في النفس والعقل ومنهج الفكر، ومفتاح الخلاص منه هو: إصلاح النفوس والعقول وتغيير الذات، فالله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ومن هنا تتضح محورية الإصلاح التعليمي التربوي المبرأ من المحاكاة والتقليد والتلفيق.

فالإصلاح التعليمي التربوي الحقيقي لا يقف عند تطوير الوسائل والآليات بل يغوص في جوهر بناء الإنسان عقيديًا وحضاريًا ومنهجيًا، بما يؤهله للسبق الحضاري وتبليغ الرسالة، ونقطة البدء في الإصلاح الإسلامي إذن هي: إصلاح النفس، بإصلاح رؤيتها العقدية الحضارية ومنهجها الفكري وخطابها التربوي، واستعادة وحدة المعرفة الإسلامية ووحدة مصادرها، والرؤية العقدية الحضارية الكلية الإسلامية، وإنهاء العزلة بين حملة العلم العاملين وحماة المثال الإسلامي

---

(١) نشرت الدراسة المتعلقة بهذا المحور أيضا في: د. عبد الحميد أبو سليمان، إسلامية الجامعة وتفعيل التعليم العالي بين النظرية والتطبيق: الجامعة الإسلامية العالمية نموذجًا، مجلة إسلامية المعرفة، العدد ٢٦، ٢٠٠١، ص١١٥ – ١٥٠.

بالربط بين المعرفة الشرعية والدنيوية، بما يجعل حياة المسلم كلها جهادًا في الشأنين الخاص والعام.

وخلاصة القول: إن تشوه الرؤية العقدية وأحادية المعرفة وعقم المنهج المعرفي وقهر الخطاب الديني واستبداد الصفوة السياسية هم معًا السبب في تباطؤ الدافعية الحضارية عند الأمة الإسلامية، وتدهور مؤسساتها وضعف حافزيتها النفسية للإنجاز وللإتقان، فالمحب الراغب يصبر على عناء البذل. أما الخائف الكاره فيكون سلبيًا يفعل الحد الأدنى.(ص ١٣١-١٤٢).

وسؤال هذه الدراسة هو: ما موضع التعليم العالي من الإصلاح الحضاري الإسلامي؟ وكيف نفعله ليسد حاجة الأمة إلى التوليد المعرفي ومواكبة متطلبات العصر وتحدياته؟ لابد من الوعي بداية بأن التوليد المعرفي وإعداد الكوادر العالمة العاملة، لا يتحققان بمجرد توفير المتطلبات المادية والإدارية للعملية التعليمية والاعتماد على استيراد ومحاكاة منظومات معرفية وأنظمة تعليمية وتربوية، ذلك أن لكل أمة شخصية حضارية لها قيمها وغاياتها ومنطلقاتها ومفاتيح تحريك طاقاتها.

ويستحيل تحريك الطاقات الكامنة في الأمة في حال تجاهل مقومات شخصيتها الحضارية، ويجرنا هذا المحدد المنهجي إلى التنقيب في آفات التعليم العالي في البلاد الإسلامية، والبحث في فضاء معالجتها عبر إسلامية المعرفة بوصفها تجربة حية في تفعيل التعليم العالي، وتسليط الضوء على تجربة إسلامية المعرفة في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، **على النحو التالي**:

أولًا: آفات التعليم العالي في البلاد الإسلامية: يعاني التعليم العالي في البلاد الإسلامية من آفتين: **آفة التقليد والمحاكاة** دون مراعاة لخصوصية الشخصية الإسلامية، **وتشوه الرؤية الكلية الإسلامية**، بما اختلط بها من خرافات، عوقت الفهم الصحيح لكل من الوحي والواقع، وقادت إلى قرون من التيه والتخبط،

وغياب التوازن بين المعاني والمباني، والتلفيق المعرفي. (ص١٤٢-١٤٥).

ثانيًا: إسلامية المعرفة: تمثل إسلامية المعرفة تجربة حية في تفعيل التعليم العالي في العالم الإسلامي؛ فهي قضية معرفية علمية تربوية، وجهتها هي الجمع بين معارف الوحي والثقافة والتاريخ الإسلامي من ناحية، وبين الثقافة والعلوم المعاصرة من جهة أخرى، ومراعاة وحدة المعرفة الجامعة بين معارف الوحي ومعارف العلوم الإنسانية والتقنية.

وأرسى المعهد العالمي للفكر الإسلامي حجر الأساس لتلك الوحدة المعرفية، وشخص جوهر أزمة الأمة على أنها نابعة مما أصاب الفكر الإسلامي في تطوره من تشوهات للرؤية ولمبدأ وحدة المعرفة، على نحو أصاب المعرفة الدينية بالجمود والمعرفة الإنسانية بالتهميش، مما أفسح المجال للعجز الفكري والاستبداد السياسي.

وجوهر مشروع إسلامية المعرفة هو: إعادة صياغة فكر الأمة على أساس من ثوابت الإسلام ومنطلقاته الإنسانية العالمية الحضارية، واستعادة الرؤية الكلية الإسلامية الإيجابية، وإصلاح المنهج المعرفي بحيث تتناغم في ظله المعرفة الدينية المستمدة من الوحي والمعرفة الطبيعية المستمدة من النظر العقلي في السنن الكونية، ونشر الوعي في الأمة بجذور أزمتها الفكرية والمخرج منها. (ص١٤٥- ١٥٠).

ثالثًا: تجربة إسلامية المعرفة بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا: تأسست هذه الجامعة في كوالالمبور عام ١٩٨٣ باتفاقية دولية مع منظمة المؤتمر الإسلامي ضمن منظومة سلسلة جامعات إسلامية عالمية هدفت تلك المنظمة أن تعنى في برامجها بالثقافة الإسلامية وبالفكر الإصلاحي الحضاري البناء، وبدءًا بعام ١٩٨٨ بدأ التعاون بين المعهد العالمي للفكر الإسلامي وتلك الجامعة في صياغة خطة تربوية؛ لبناء مفاهيم إسلامية المعرفة والتعريف بمنطلقاتها، وتواصل ذلك التعاون عشر سنوات طور المعهد تلك الجامعة خلالها بحيث باتت تضم برامج دراسية لمختلف

العلوم الإسلامية والإنسانية والطبيعة، لطلابها، ولمن ينتسبون إليها في دراسات تكميلية.

وروعي في تصميم تلك الجامعة أن تعبر عن المفاهيم والمنطلقات الإسلامية سواء في مبانيها أو في برامجها، أو في جمع خريجيها بين معارف الوحي الإسلامي والعلوم الإنسانية، وتحددت الغاية الرئيسة للجامعة في: إعادة البناء النفسي والتربوي لأجيال الأمة، بمعالجة التشوه المعرفي والفكري والثقافي والمنهجي، بنظام التخصص المزدوج، مع إتاحة الفرصة لخريجي الجامعات الأحادية المعرفة للالتحاق بالدراسات العليا بها؛ لتدارك قصورهم المعرفي بعد اجتياز دراسات تكميلية، وتطوير برامج تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.

وعنيت الجامعة بإجادة الدارسين بها للغتين العربية والإنجليزية، والانفتاح على كل فروع المعرفة الشرعية والإنسانية، وإدراكًا من الجامعة لحقيقة معاناة جيل الأساتذة الجامعيين الراهن من أحادية المعرفة، فإنها نظمت دبلومًا في الدراسات الإسلامية للمتخصصين منهم في العلوم الاجتماعية والإنسانية والطبيعية، مقابل تنظيم دبلوم آخر في تلك العلوم للمتخصصين في الدراسات الإسلامية، لإتاحة فرصة للتكامل المعرفي، كما أنشأت الجامعة دبلومين في دراسات الأسرة والأبوة وعلم النفس؛ لتعزيز مهارات التنشئة الوالدية، والتفكير الابتكاري والإبداعي، كما خططت الجامعة لمساق في قيام الحضارات وانهيارها، وتخصصًا في مجال الدراسات الغربية، بهدف تكوين كوادر متخصصة في فهم التاريخ والفكر وتخليصها من التحيز الغربي الظالم ضد الحضارة العربية.

وُعنيت الجامعة ببناء وعي خريجيها بفلسفة العلوم الطبيعية ودور المنظور الإسلامي في ترشيدها والتمييز بين الخبيث والطيب فيها، وتعزيز ثقة الكوادر العلمية المسلمة بنفسها بدراسة تاريخ الأمة والإنسانية وإنجازاتها، وراعت الجامعة

تطوير برامجها على الدوام لتحقيق غايات حضارية حية (ص ١٥٠ - ١٥٦).

وإذا كان المنهج والفكر هو الجوهر، فإن اللغة هي أداة الأداء وشرط فاعليته، من هنا كان اجتماع الجامعة بانفتاح الدارس على البيئة التي سيعمل بها وتعزيز قدرته على التواصل معها، فوفرت الجامعة برامج لإتقان اللغتين العربية والإنجليزية بمادة وتوجيه إسلامي، فمن الأهمية بمكان حل الإشكال اللغوي في الأمة بشكل جذري، فالإبداع لا يكون إلا باللغة الأولى.

ولا يمكن أن يكون للأمة الإسلامية وزن علمي ثقافي عالمي إلا بلغة عالمية واسعة الانتشار، غنية بالمادة العلمية، ولا يتوفر هذا الشرط إلا في لغة القرآن التي ترتبط كل الشعوب المسلمة بها وجدانيًا، ومن المهم تعزيز البحث العلمي، وترجمة الدوريات العلمية والتقنية إلى اللغة العربية؛ لتحقيق تدفق الجديد من المعارف في كل المجالات، ويقتضي ذلك إنشاء مؤسسات للترجمة العلمية والنشر العلمي تتولى ترجمة الجديد من المعارف والعلوم على نحو منظم وتوزيعه على نحو فعال.

فانتشار المعرفة بلغة القرآن ييسر تعريب التعليم، ولقد آن الأوان لأن تعكف مجامع اللغة العربية على تيسير الإملاء والنحو العربي، دون المساس بالضروري لفهم القرآن والتواصل مع معانيه وأساليبه، ومن المهم أن تقوم مراكز البحوث بالتعاون فيما بينها؛ لتحقيق التكامل المعرفي وتنظيم الاستشارات والبحوث، وتطوير المناهج والكتب الدراسية، ووضع خطة لمدرسة إسلامية نموذجية عالمية، تكون نواة لنظام مدرسي إسلامي عالمي يغطي كافة مراحل التعليم من الروضة حتى المرحلة الثانوية، مبني على الرؤية الإسلامية، يفعل التربية الأسرية والمدرسية البانية للإنسان المتحلي بروح الاستخلاف في الإبداع والمبادرة والعمران والإصلاح، ويتكامل في ظله الأداء العلمي والتربوي، والترابط بين المؤسسة التعليمية والمجتمع، والتركيز على تربية الطفل، (ص١٥٧-١٨٢).

خامسًا: عقيدة الصلب بين المسيحية والإسلام: الخلاف الحاد بين المسلمين والمسيحيين حول دعوى المسيحيين صلب المسيح، واعتبارهم عقيدة الصلب رمزًا للمحبة والتضحية والفداء، مقابل اعتبار المسلمين لها ضلالًا وافتراء يجب أن يقرأ في ضوء تصديق القرآن لكون المسيحية ديانة إلهية، جاء بها نبي جليل ولدته مريم البتول ابنة عمران الطاهرة الصديقة، يقول الله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

والمسيحية والإسلام ديانتان عالميتان قامت على كل منهما حضارة إنسانية عظيمة، وفي حين يتخذ القرآن هذا الموقف الإيجابي من المسيحية، فإن الكنيسة المسيحية الكهنوتية تنظر إلى الإسلام من العصور الوسطى على أساس من المواجهة والعداء العقيدي.

وأول خطوة في تصحيح قواعد الحوار بين المسلمين والمسيحيين حول هذه المسألة العقيدة هي بناء جوهر الحوار فيها على ما جاء بالقرآن بخصوصها، ضمن الرؤية القرآنية للحوار القرآني مع المسيحية، فالقرآن ينكر عقيدة صلب المسيح على نحو قاطع، لكن ذلك النفي لا ينطلق من روح عداء لنبي المسيحية عليه السلام، بل مع الدفاع والتكريم له وأمه ودفع كل محاولات السابقين واللاحقين للحط من مقامهما، وبيان ما أجرى الله على يدي عيسى عليه السلام من معجزات، وبيان أن أهل الكتاب ليسو سواء، وامتداح على طائفة منهم. يقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ وأمر القرآن المسلمين بعدم مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن.

وحدها عقيدة الصلب هي التي وقف لها القرآن بالمرصاد لكونها تمنح البشرية العفو والغفران الرباني عما ارتكبه آدم أبو البشرية من معصية، فالقرآن لا يرفض روح الحب والتضحية والتسامح والغفران، كل ما في الأمر أن القرآن يؤكد أن المسيح عليه السلام لم يمت صلبًا على صليب، ومن مقتضى التفكير السوي أن تكون جريمة قتل المسيح أكبر من جريمة آدم في الأكل من الشجرة المحرمة، ناهيك عن دعوى اعتبارها مكفرة للخطيئة الأولى، فمكافأة الجريمة التي تمثل جوهر عقيدة الصلب ينافي أبسط قواعد العدل الإلهي، فالعدل في الغفران لا يكون إلا بالتوبة أو بنزول العقاب أو العفو.

والقرآن يؤكد أن عيسى عليه السلام لم يقتل، ولم يجعل الله لأعدائه عليه سبيلًا، فعقيدة الصلب تمثل إشكالية في منطق الإسلام، حيث أنها تهدم مبدأ المسؤولية عن العمل، وتحمل الأبناء وزر الآباء، وتقلب مفهوم التضحية من تعبير عن معاني المحبة الإيجابية الخيرة نحو المحبوب، إلى وسيلة لتبرير أعمال الشر وإضفاء المشروعية عليها، والقرآن يقرر وحدانية الله، ويبين أن الإنسان قابل للوقوع في المعصية، وأن ما أجراه الله على يد عيسى عليه السلام من معجزات لا ينفي عنه عليه السلام بشريته، وأن أساس الابتلاء هو عدم تحمل أحد وزر أحد، والعدل والرحمة لا يناقضان معاني الرحمة والعفو والغفران. (ص١٨٩-٢٠٤).

الفصل الخامس
النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية
اتجاهات جديدة للفكر والمنهجية الإسلامية

الفصل الخامس
النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية
اتجاهات جديدة للفكر والمنهجية الإسلامية[١]

صدرت هذه الدراسة في الأصل باللغة الإنجليزية وحاز بها صاحبها درجة الدكتوراه في العلاقات الدولية من جامعة بنسلفانيا، وهي بمثابة حفر معرفي في قابليات الإسلام الكبيرة في تحقيق السلام العالمي، في ضوء الخبرة التاريخية، ونواتها هي اعتبار أن النظرية الإسلامية والفلسفة التي تقوم عليها هي الأساس الوحيد الصالح كأساس للسلام في العالم المعاصر، فهي تنفرد بتقرير وحدة الأصل الإنساني والمصالح والمصير المشترك، بوصفها ثوابت لفهم الفطرة الإنسانية والتفاعلات بين البشر، التي تماثل الحلقات الدائرية المتداخلة بدءًا بالفرد ومرورًا بالقربى والجوار والعشيرة والوطن وانتهاء بالإنسان أخًا في الإنسانية وأهلًا للمودة والدعوة فيما وراء اختلاف اللغة والعقيدة والدم.

أما الفلسفات والأيدلوجيات العالمية الأخرى فتنطلق من القومية والصراع، وغاية ما تصبو إليه بالنسبة للسلام هو إدارة المنازعات والحروب والحد من أضرارها، ودرس التاريخ هو أن السلام المستقر لا يقوم إلا على موقف نفسي منطلق من الإحساس بوحدة الطبيعة والمصالح والمصير الإنساني المشترك.

ومن هنا فإن العالم المعاصر بحاجة إلى المبادئ والقيم الإسلامية وإلى الإسلام، والتخلص من الخلط بين القدرات العمرانية للإسلام وحال المسلمين الراهن، والتخلص من الأحقاد والكراهية التاريخية في النظرة للمسلمين والإسلام،

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية: اتجاهات جديدة للفكر والمنهجية الإسلامية، ترجمة: د. ناصر أحمد المرشد البريك، الرياض: مطابع الفرزدق التجارية، ١٩٩٣.

والتعاون كشركاء مع المسلمين؛ لبناء المصير الإنساني المشترك على هدي من مبادئه وغاياته. (ص١٩ - ٢٣).

وتستهل هذه الدراسة بمقدمة من آخر ما كتبه الشهيد إسماعيل راجي الفاروقي تبين أن لا شيء يعلو في الأهمية الآن على: تنوير البشرية بموضوع تهديد النظام العالمي الراهن بإبادتها، وبيان أن المسؤول عن الرعب الذي يحس به الجنس البشري هو الهيمنة الغربية على العالم خلال القرنين الأخيرين، فلقد نادت المسيحية الغربية بفكرة المجتمع العالمي والدولة العالمية، كبديل للإمبراطورية الرومانية على مدى قرون، وأسفرت حركة الإصلاح الديني في أوربا عن حركة التنوير التي نادت بدورها بفكرة المجتمع العالمي، لكن على أساس العقل وليس الدين.

ولكن حركة التنوير لم تصدق في المطابقة بين خطابها وفعلها، فحصرت مفهوم الإنسانية والعالم في منظورها في أوربا وشعوبها؛ وبذا فشلت فكرة المجتمع العالمي لحركة التنوير من البداية، وتبع ذلك تحالف بين القومية والدين على يد الحركة الرومانسية، فحلت العاطفة مكان العقلانية، بالتمركز حول مفهوم القومية والمصلحة القومية، وتأليه العقل باعتباره سيد الطبيعة والقيم المطلق على العلم، مع تهميش القيم والأخلاق والجمال كفروع للمعرفة.

وتلازمت فكرة المجتمع العالمي في أوربا الحديثة برفض الدين المسيحي وتشويه سمعته واعتباره وهمًا على المستوى الفردي وأفيونًا للشعوب، وأدلت الشيوعية بدلوها بنقد التحالف الرومانسي بين الدين والقومية، وطرح فكرة بناء المجتمع العالمي على أساس المادة والتفسير المادي للتاريخ، وحاربت الشيوعية المسيحية والقومية بعنف حتى الحرب العالمية الثانية، ثم تخلت عن تلك الفكرة لصالح روسيا والمجتمع الاستهلاكي، فلم يبق الاتحاد السوفيتي وفيًا للفكرة العالمية، ولم يساعد الصين على التغلب على تقوقعها حول نفسها؛ وبذا صارت فكرة المجتمع العالمي

فكرة جادة ميتة في الغرب وفي العالم الشيوعي على حد سواء.

ولم تنجح عصبة الأمم ومن بعدها منظمة الأمم المتحدة في الإبقاء على شكل من التوازن العالمي، ومع هيمنة القوى الكبرى على مجلس الأمن صارت قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة عديمة الأثر، ونادرًا ما عمل مجلس الأمن كجهاز موحد متكامل في ظل اختلاف المصالح القومية ووجود حق الفيتو، فكلتا المنظمتين الدوليتين – عصبة الأمم والأمم المتحدة – قامت على تعلية مبدأ السيادة القومية والمصلحة القومية، مما يقوض الأساس الذي يمكن إقامة مجتمع عالمي فعال عليه يحقق العدالة بين أعضائه، فالدول القومية تسعى لخدمة مصلحتها القومية مهما كلفها ذلك من انتهاك للأخلاقيات ومبادئ العدالة، وغاية ما طمحت فيه الأمم المتحدة هو لعب دور سلبي في وقف العدوان بين أعضائها، وهي مجرد ساحة للخطابة، تقف موقف المراقب الذي لا حول له ولا قوة في الخلافات التي تنشب بين الدول الكبرى.

ومن جهة أخرى، راودت فكرة المجتمع العالمي الولايات المتحدة الأمريكية التي نشأت من رحم حركة التنوير الأوربية، ومثلت منذ استقلالها عام ١٧٧٦ بحكم عزلتها عن أوربا والعالم، ملاذًا عالميًا يأوي إليه من يشاء مع احترام خصوصيته الدينية والعرقية، إلا أن تلك الفكرة المثالية لم تعمر طويلًا، حيث تغلبت الإرادة القومية على تلك النزعة العالمية، وصدر مبدأ مونرو: أمريكا للأمريكيين، وبرزت أمريكا بعد خروجها من العزلة بعد الحرب العالمية الثانية كوريثة للغرور الأوربي المتمركز حول الذات والمتطلع لاستعمار بقية العالم.

تلك هي المعالم الكبرى لقصة فشل الغرب بما فيه أوربا الشرقية في إقامة نظام عالمي يسوده السلام والعدل، وسر هذا الإخفاق هو أن عقل الغرب وثقافته لم يتجاوزا أبدًا حدود إطار الدولة، فالمسيحية لم تفكر في مجتمع عالمي يقوم على العدل

والسلام هنا في هذه الدنيا التي اعتبرتها مملكة للشيطان، وحصرت ذلك المفهوم في نفسها بوصفها رمزًا لمملكة المسيح، ووظف العلمانيون في الشرق والغرب تلك الفكرة لخدمة المصالح القومية، وأدت الهيمنة الثقافية الغربية في القرنين الماضيين إلى انقسام العالم إلى كتلتين على رأس كل منهما قوة عظمى قادرة على تحطيم الأخرى عدة مرات، مع التناقض البالغ بينهما في المصلحة القومية، وعدم وجود مجال لتسويات بينهما إلا على حساب بقية دول العالم، وتجسد ذلك في سلام الحرب الباردة وتوازن الرعب، وفي إنفاق هائل على التسلح، وتحريك للحروب في العالم الثالث لاختبار تلك الأسلحة وترويجها، ومد يد العون لكل أنواع الحركات التخريبية فيه لاستنزاف حكامه وعزلهم عن شعوبهم وشغلهم بحروب عقيمة عن التنمية، وبهذا الشكل تعيش الإنسانية في ظلال الرعب والإبادة، بينما تزدهر القوى الكبرى بإنتاج أدوات الدمار وتصديرها، مع ملاحظة استئثار أقلية في الدول الكبرى بالنفوذ والثروة. (ص٢٧-٤٠).

ومن الملاحظ أن الفكر الغربي المتعلق بالنظام العالمي ضحل للغاية، وينحصر في أعراف تقتصر على المعاهدات واستخدام القوة، فهو لم يعرف غير طريقين لتسوية المنازعات: تطبيق اتفاقية مبرمة والتفاوض في ضوئها أو الحرب للتوصل إلى اتفاق، وظلت فكرة القانون الطبيعي فكرة نظرية خارج نطاق التطبيق في مجال العلاقات الدولية، ولم يحاول الفكر الغربي إقامة صلة بين العلاقات الدولية والقانون، وساد منطق القوة، دون أن تدفع الحروب الإقليمية والعالمية العقل الغربي إلى التفكير في بديل آخر، ويحتاج العالم بشدة الآن إلى نظام عالمي جديد يقوم على مبدأ قوة الحق بدل منطق حق القوة، وقوام هذا النظام العالمي الجديد هو إدراك شرعية الفروق الدينية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية بين الشعوب، وتشريع قوانين؛ لتنظيم حاجاتهم المشتركة في بيئة تسودها الحرية والعدالة، وإقامة حكومة عالمية اتحادية أو فيدرالية لها جهازها التنفيذي والأمني والقضائي، بما يجعل العدالة الدولية في

متناول الجميع، ولن يتحقق السلام العالمي ما لم تتخل الدولة القومية عن سيادتها لإقامة مثل هذا النظام، والبشرية بحاجة إلى التخلص من النظام الدولي القائم الذي يضعها بين فكي تضخم ترسانات أسلحة الدمار الشامل، وتعميم مشاعر الكراهية والاستياء والسخط فيها، والخيار المطروح هو بين تغيير هذا النظام بطريقة سلمية عقلانية بالتخلي عن الجنون القومي، أو الفناء، وليس لدى البشرية تراث فكري يخص النظام العالمي إلا التراث الحضاري الإسلامي، فكل ما أثمره الفكر الغربي هو وثيقة سماها: الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، يكشف التدقيق فيها عن حقيقة كونها مجرد تعبير عن قيم غربية مقبولة من أنظمة حكم لا تمثل شعوبها ولا أخلاقياتها، وأداة للحرب الدعائية ضد الخصوم، ومجرد حبر على ورق في حال عدم توافق تلك الحقوق مع المصلحة القومية لدولة كبرى أو لحليف لها.

خلاصة القول أن العالم يعتمد على التراث الحضاري الإسلامي فيما يتعلق بالقانون والفقه والأخلاقيات الدولية، ويقوم إطار التصور الإسلامي للنظام العالمي على جملة من المحددات:

أولها: الوعي بأن النظام الدولي في أزمة لا مخرج عملي لها إلا بتأسيس نظام عالمي جديد نابع من الرؤية الإسلامية، لإنقاذ البشرية من المنافسة العقيمة وإدخالها في السلم عامة؛ وبذا فإن التزام المسلمين بنظام عالمي يسوده السلام والعدل والإخاء هو التزام ديني وأساس للشهود الحضاري.

و**ثانيها**، أن النظام المنشود يحظر الحرب تمامًا ويقوم على التزام عالمي مطلق وشامل بالسلام، وإبرام ميثاق سلام لجميع الشعوب.

و**ثالثها**: اعتبار الناظم الديني إطارًا للتكوينات الاجتماعية، ونبذ القبلية والقومية، فمن ما يحط من قدر الإنسان الذي كرمه الله تعالى تعريفه بعرقه الذي لا دخل له فيه، والأولى تعريفه بأفكاره وتصوراته وإنجازاته الإرادية، ولقد جسدت وثيقة المدينة المنورة مبدأ: الانتماء الذاتي بناء على الانتساب الديني، ويتسع هذا

المفهوم ليشمل الانتماء اللاديني، طالما كانت له مرتكزاته العرفية والقانونية، فإنسانية الإنسان ورغبته في السلام هما الأساسان الوحيدان للعضوية في النظام العالمي الإسلامي بصرف النظر عن التوجه العقيدي الديني والأخلاقي والسياسي والاجتماعي.

ورابعها: الحرية، فالناس جميعًا يولدون أحرارًا ويظلون كذلك ما دموا على قيد الحياة، والمصدر الوحيد لتقييد الحرية هو الأسر في ساحة القتال، مع فتح الباب لإطلاق سراحهم منًا أو بفداء، ولا يجوز القبض على أي شخص أو احتجازه أو حبسه دون تهمة وبحكم محكمة قانونية، ويتمتع الجميع بالحرية الدينية، وبحرية تعليم أبنائهم وتنظيم حياتهم كما يشاؤون.

وخامسها: وحدة الأرض، فكوكب الأرض هو أرض الله الواسعة ولكل إنسان حق السعي الحر فيها ابتغاء كرم الله تعالى، دون أية قيود على انتقاله وعلى نقل ممتلكاته وما هو بحوزته من مكان إلى آخر، والقيد الوحيد على هذه الحرية هو عدم ممارستها على نحو يمثل عدوانًا على ملكية وحرية الآخرين.

وسادسها: عدم التمييز بين البشر في فرص التعليم والتوظيف والعمل والأجر والتعويض، فالتمييز المسموح به هو الناتج عن الاختلاف في المعرفة وفي الجهد المبذول وفي الصلاح والتقوى، ولا يعترف النظام العالمي الإسلامي بمنع من تتوفر فيه عضوية تجمع إنساني ما ويرغب في ذلك من الانضمام إليه، مع اعتبار كافة أشكل الفصل العنصري على أسس القومية أو اللغة أو الثقافة أو الجغرافيا أو السن عدوان على الإنسانية.

وسابعها: العالمية: اعتبار الناس جميعًا إخوة في النظام العالمي الإسلامي، ولا موضع في ظل هذا النظام لقوانين المواطنة والهجرة والتجنس التي تطبقها الدول القومية حاليًا.

وثامنها: العدالة، فلا تبقى الأقليات مجبرة على العيش تحت وطأة قوانين الأغلبية، بل يعترف لكل منها بوضعية ملة مخولة بحق تنظيم حياة أعضائها وفق ما تمليه عليها خصوصيتها، ويؤمن القانون الدولي الإسلامي بالتعددية، ويقيم محاكم تفصل في الخصومات بين الملل، وبين أي منها والنظام العالمي، ويضمن للفرد الوصول إلى العدالة ورفع ظلم القوي للضعيف.

وتاسعها: حرية الإقناع والاقتناع، فالنظام العالمي الإسلامي يكفل لكل فرد بحكم إنسانيته حرية التفكير، وتقرير التبعية لأية ملة، وبالتالي تحديد القانون الذي يخضع له، ويقر هذا النظم بحرية الاختيار والقرار المسؤول للفرد، ويرفض كل أشكال الوصاية والرقابة الروحية، ويسعى إلى بيان الحقيقة (ص٤١-٥١).

ويقوم معمار هذه الدراسة على أربعة محاور: الحفر في جذور مسيرة الأمة الإسلامية من وضعية الريادة الحضارية إلى فقدان الريادة وحتى الشراكة، وتجلية النظرية التقليدية للعلاقات الدولية، وإصلاح منهجية الفكر الإسلامي، والتحول من الفكر التقنيني الشكلي إلى الفكر السياسي الموضوعي، على التفصيل التالي:

أولًا: خلفيات تحول الأمة الإسلامية من الريادة الحضارية إلى وضعية التابع:
سؤال هذا المحور مزدوج: كيف حصل هذا التردي، وما السبيل إلى تغييره؟. تلقي الدول الإسلامية بمسؤولية ذلك على الإمبريالية والقوى الخارجية، ويخفي هذا التفسير حقيقة أن تسلط الخارج مجرد ثمرة لعلة داخلية سرت في جسد الأمة عصفت بمناعتها الداخلية، وبالتالي فإن مفتاح فهم ما سببه الخارج من مضاعفات في الداخل الإسلامي هو الفهم العميق للعوامل الداخلية، فلنحفر في الخلفية التاريخية لسيرة أمتنا وصيرورتها على نور الرؤية الكلية الإسلامية.

فالإسلام دين يقدم للبشرية منهج حياة متكامل، جاء بالرسالة الخاتمة على يد النبي الخاتم، بمصدريها: القرآن وبيانه التطبيقي متمثلًا في السنة النبوية، ومع سعي

العقل المسلم إلى فهم القرآن والسنة، طور ذلك العقل منهجية فقهية تولد منها مصادر إضافية ثانوية للمعرفة، في مقدمتها: الإجماع والقياس، وظل الاجتهاد هو السمة الغالبة طيلة القرون الهجرية الثلاثة الأولى، وترسخت أربعة مدارس فقهية سنية، إلا أن التقليد بات هو القاعدة من نهاية القرن الثالث، وتواصل التدهور إلى أن بات التقليد تلفيقًا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للهجرة، بمسمى مراوغ هو (الاجتهاد الحديث) الذي هو في حقيقته مجرد إخضاع النصوص الشرعية لتفسير يتوافق مع المعايير الذاتية المقررة مسبقًا، دون محاولة بناء منهاجية متجددة ومعايير موضوعية، بتعبير آخر ساد المنهج التلفيقي النفعي العملي المصلحي التكيفي، ومن هنا خيم المنهج التقليدي والتغريبي على الفكر الإسلامي، واعتبارًا من القرن السابع عشر مال ميزان القوة لصالح أوربا، وباتت الأمة المسلمة في موضع الدفاع ورد الفعل.

وظنت السلطات الإسلامية أن الحل هو الانفتاح على العلم الأوربي والتقنيات الأوربية، فأرسلت البعثات إلى أوربا، وأنشأت المدارس المهنية والعسكرية، وتولدت من رحم ذلك مشكلة حادة في التركيبة الاجتماعية الإسلامية بشطرها إلى قطاعين: ديني وعلماني، ومهد التمسك البالغ بالتقليد والجمود من جانب علماء الدين، لغلبة العلماني على الديني عبر القرون، وأصيب العلماء الدينيون بالتهميش لافتقاد تعليمهم للبعد التجريبي المنظم ولتحصيل العلوم الاجتماعية وفهمها، وعدم إدراكهم حقيقة أن العلوم التقنية الأوربية محملة بقيم وتصورات ستؤثر بحدة على نسيج المجتمع الإسلامي وعلى النموذج الإسلامي بكامله، وتخرجت من التعليم العلماني نخبة من الإداريين المسلمين الجدد المفتقرين إلى المعرفة الإسلامية والوعي العقيدي، وتفوقت الأقليات غير المسلمة في مجال العلوم غير الدينية الاحترافية، في ظل تفاقم النفوذ الأوربي، مما ضاعف من الاستقطاب الديني

والمعرفي، وتمثلت محصلة هذا الاستقطاب في: العزلة التامة لعلماء الدين، وتوزع البيئة الإسلامية بين تعليم ديني يحمي تقاليد تاريخية جافة بالية، في مواجهة تعليم علماني يتشرب الأفكار الأجنبية عن الإسلام ويحاكيها، وأدى ذلك إلى شل فاعلية التعليم الديني والتعليم العلماني معا؛ لمجافاتهما لروح الأمة وخصوصياتها، فالأول عرف انفصال العلماء عن العامة، والثاني عرف الروتين والدواوين والحكومة المنفصلة عن الشعب، وغرق التقليديون في الماضي، وغرق التحديثيون في يم المعرفة الغربية، وتربع التقليد والتلفيق، ونضبت منابع التجديد الإسلامي، لضرورة الجمع بين الديني والدنيوي لتكوين الضمير المسلم. (ص٥٢-٦٠).

فإذا انتقلنا من رسمنا هذا لجذر التردي الإسلامي بوجه عام، إلى فحص حالة العطاء الإسلامي فيما يتعلق بالعلاقات العامة، فسنجد أن من الخطأ البحث عنه في الفقه، فلقد تضخمت صورة الفقه إلى حد النظر إليه على أنه هو الشريعة ذاتها، وليس مجرد مصدر ثانوي من مصادرها، ولا أساس من الصحة لتلك الصورة، فالشريعة هي: الإرادة الإلهية الموحى بها إلى النبي ﷺ المنظمة للسلوك الإنساني الديني والدنيوي. أما علم أصول الفقه فهو مجموعة القواعد التي صاغها الفقهاء لمعرفة طرق استخلاص الأحكام من الأدلة الشرعية، ويقتصر الفقه على العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية باستخدام قواعد أصول الفقه، ومعنى ذلك أن الفقه هو مجرد آراء وتفسيرات مستنبطة من القرآن والسنة.

وفي المقابل فإن لباب مفهوم الشريعة هو كونها منظومة من القيم والمبادئ الإرشادية الموجهة إلى المقاصد الربانية، وهي بهذا المعنى تفترق في قانونها عن القانون بمفهومه الغربي، فقانونها قانون مبادئ، يجمع بين التربية الأخلاقية والالتزام القانوني. أما القانون بمفهومه الغربي فيقتصر على القواعد والأعراف والمعاهدات والتشريعات والأحكام المقبولة من الدول.

ومن الأهمية بمكان إدراك هذا الفرق الجوهري بين القانون الإسلامي والقانون

الغربي في مجال العلاقات الدولية، ذلك أن الخلل في المنهجية الإسلامية التقليدية هو جوهر مأزق الفكر الإسلامي الحديث، وعجزه عن بناء أدبيات العلاقات الدولية من السير ومن خبرة النماذج التاريخية، وليس من الفقه، وعدم إمساكه بمفتاح الخصوصية الإسلامية المتمثل في كون أحكام الشريعة مبنية على مقاصد ومبادئ أخلاقية، وليس على توافقات وأعراف إنسانية توافقية غير ثابتة، والمقارنات التي لا تنبع من استحضار هذا الفارق تقود إلى نتائج ومفاهيم خاطئة وملتبسة، ففقه السير هو المنهل الذي يمكن منه معرفة سيرة المسلمين في التعامل مع صنفين من البشر: المشركين المحاربين، وأهل البغي، جنبًا إلى جنب مع قواعد تعاملهم مع أهل العهد، والدول والشعوب المسالمة.

وخلاصة القول أن الفقه الإسلامي هو مجرد استنباطات اجتهادية من الشريعة، ومن المهم في هذا الصدد الوعي بأن العهدين النبوي والراشد هما المرحلة المثالية التي أرسيت فيها السوابق الشرعية، ولم يزدهر الفقه إلا بعد ذلك العهد، وكانت البيئة الإسلامية قد طرأت عليها تحولات كبيرة بالفتح الإسلامي، صاحبها تحول في نوعية الحكم، وغلبة معطيات الواقع بحكم تأثر الشعوب التي انتشر فيها الإسلام بموروثهم من الأعراف والتقاليد، ونشأت مدارس إسلامية متعددة، يكشف التدقيق فيها أن اختلافاتها هي في الفروع وليس في المبادئ والأصول العامة للإسلام.

ومن الأخطاء المتوارثة الشائعة حتى الآن، اختزال العطاء الإسلامي في مجال العلاقات الدولية على الأدبيات التقليدية للجهاد، ذلك أن القراءة الفقهية للقانون الدولي الإسلامي لم تنطلق من رؤية كلية حاكمة، فاختلفت المدارس الفقهية في أمور جوهرية تمس الحياة والموت، وجاء توافقها مع الأصول جزئيًا وحسب، من ذلك أنها أجمعت على: الإجماع كمنهاجية، ولكن ظل هذا المفهوم ملتبسًا: إجماع من: الصحابة أم أهل المدينة أم أهل الحل والعقد، أم العلماء والفقهاء أم الأمة ككل؟ واختلفت تلك المدارس بخصوص: الاستحسان كدليل شرعي، فقبله الأحناف

ورفضه الشافعية بالمطلق، وفي غيبة الانطلاق من رؤية كلية جامعة، واجتهاد جماعي، ورثنا متصلات فقهية حيث تتعدد الرؤى الفقهية للمسألة الواحدة بدرجة بالغة، وأدرك البعض تلك السمة من أمد بعيد، واقترح ابن المقفع على الخليفة المنصور جمع الفقه وجمع الأمة على كتاب جامع مستخلص منه؛ لتكون الأحكام متماثلة ومنضبطة، وطلب المنصور من الإمام مالك جمع الناس على الموطأ، ولكنه رفض جعل كتابه ملزمًا للأمة، وتولى العلماء على مدى التاريخ الإسلامي القضاء بالمحاكم الشرعية والفتوى، وسعى العثمانيون إلى تقنين الشريعة؛ وبذا لم يكن الفقه طيلة التاريخ الإسلامي هو القانون، بل مجرد مصدر من مصادره.

وخلاصة القول: إن الفقه جزء من الفكر الإسلامي التقليدي صاحب ازدهار الحضارة الإسلامية من القرن الثاني الهجري حتى نهاية القرن الخامس الهجري، وبالتراث الفقهي وكتب السير المؤلفة خلال تلك القرون ثروة مهمة كمصدرين للقانون الإسلامي يحتاج اكتشافها والاستفادة منها إلى فتح باب الاجتهاد مجددًا. (ص٦١-٧٣).

ثانيًا: مقاربة في تحليل أدبيات الفقه والسير المتعلقة بالجهاد الإسلامي: يسلط هذا المحور الضوء على النظرية التقليدية للسير والمغازي والعلاقات الدولية التي تبلورت في عصر التألق الحضاري الإسلامي، على النحو التالي:

١- **خصائص النظرية التقليدية الإسلامية للعلاقات الدولية**: تتسم تلك النظرية بكونها نظرية معيارية قيمية مرجعيتها هي القرآن والسنة، وغايتها هي تقديم منظومة قيم ومعايير السلوك السياسي الراشد، وفضاء هذه النظرية رحب يتسع لرؤى متنوعة للعلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، ومن الثابت أن السلاطين والحكام لم يمتثلوا لتلك النظرية على الدوام ولا على نحو كامل، ولكنها حازت قبولًا لمرتكزاتها في تحديد السلوكيات الإسلامية، ويمكن بناء تلك النظرية من

المصادر التراثية المتمثلة في الأعمال الأساسية في الفقه والسيرة، التي تعتبر مصادر أولية وثائقية، مع ملاحظة ثانوية هذه المصادر فيما يتعلق بتحليل العقيدة الإسلامية وبنائها، فلذلك مصدران لا ثالث لهما: القرآن والسنة، ومن الخطأ قراءة الفقه بمعزل عن النظام الاجتماعي الإسلامي المتماسك كما أرسى النبي ﷺ قواعده، ودون التمييز بين الفقه، والقرارات والسياسات التي انتهجها الحكام المسلمون في أرض الواقع، ويقتضي تجنب الوقوع في هذا الخطأ إلقاء نظرة فاحصة على بعض التعريفات الفقهية لمجموعة من المفاهيم ذات الصلة بالعلاقات الدولية:

أ- **مفاهيم الجهاد والدور الثلاثة**: تتداخل مفاهيم الجهاد ودار الإسلام ودار العهد ودار الحرب في الفكر والفقه الإسلامي التقليدي، ولب مفهوم **الجهاد** هو أن من واجب كل مسلم السعي إلى إحقاق الحق ومنع البغي والظلم بقدر استطاعته باللسان واليد والقلب دون أن يخشى في الله لومة لائم، ومعنى هذا أن الجهاد ليس مجرد عمل خارجي، بل عمل جواني ساحته الأولى هي إصلاح النفس، وهو بهذا المعنى لا ينصرف بالضرورة إلى مفهوم القتال الدفاعي ولا الهجومي، وينصرف مفهوم دار الإسلام إلى الأقاليم التي يعيش فيها المسلمون أحرارًا آمنين، أما دار العهد فهي التي تربطها بدار الإسلام معاهدة. وأما دار الحرب فهي الأقاليم غير الإسلامية المعادية للمسلمين المشكلة لخطر على حرياتهم وأمنهم.

ومنبع مجانبة الصواب في بناء تلك المفاهيم من أمهات كتب التراث هو الذهول عن حقيقة أن كل ما بها هي رؤى تحتاج إلى الجمع بينها ومناقشتها والترجيح بينها، وليس إلى حصر الشرع في أحدها، فالنظر إلى أي رأي فقهي على أنه هو القانون الإسلامي، وليس على أنه مصدر أولي ثانوي له، أوقع مفكرين معاصرين في اختيار مفرط في مقاربة مفهوم الجهاد، فها هو **مجيد خدوري** على سبيل المثال يقرأ بعض نصوص القرآن والسنة قراءة تجزيئية مقطوعة الصلة بسياقها، يخرج منها بأن الجهاد يفرض على المسلمين أن يكونوا في حالة حرب نفسية وفعلية على الدوام مع غير

المسلمين، وأن أمد مهلة العهد مع غير المسلمين لا يتجاوز العشر سنين، وهو بذلك يأخذ برأي الشافعي ويهدر رأي أبي حنيفة ومالك وابن حنبل المبني على أن ذلك الأمد تحدده مصلحة الأمة التي قد تكون في الصلح أكثر منها في الحرب، كما يهدر الخبرة الفعلية التي عرفها التاريخ الإسلامي من تسامح كثير من الفقهاء مع المشركين بما فيهم الوثنيين وإفتائهم بتمكينهم من العيش في أمن وسلام، وبأن الصلح جائز دون وجود حالة ضرورة ودون تحديد مدة زمنية له، ومن هنا جاءت النتائج المخالفة لما توصل إليه مجيد خدوري بخصوص موقف الإسلام من الحرب ومن الحياد، في دراسات مثل تلك التي أعدها **محمد حميد الله ووهبة الزحيلي**، والدرس المستفاد من ذلك هو أن من الواجب التزام الحرص المنهجي في الاقتباس من المصادر التراثية الأساسية، وتحاشي التعميم المشوه والمضلل، فالجهاد فريضة إسلامية محكومة بمقاصد الشريعة الخمسة: حفظ الدين والنفس والمال والعرض والنسل، والغرض الأسمى منها هو: تغيير الإنسان لذاته والدفاع عن حقوق الآخرين؛ لتحقيق العدالة للجميع.

ويفيض معين لساننا العربي بنظائر لمفهومي (العهد والأمان) من بينها على سبيل المثال لا الحصر: الهدنة والموادعة والميثاق والصلح والحلف، ويقوم مفهوم العهد على القبول والرضا في محيط ما هو شرعي مع التزام أطرافه به، ويتسع المدى الذي يقدمه لنا التراث لكل علاقة تعاهدية لا تخالف الشرع، ولمراجعة الآراء الفقهية المتعلقة بها والترجيح بينها بوزنها بالقرآن والسنة.

وفي حين اعتبرت الهدنة أو الموادعة وإبرام اتفاقيات سياسية مع غير المسلمين حكرًا على السلطة السياسية، فإن مجال منح الأمان لغير المسلمين فيما يتعلق بالمسائل التجارية والحرفية والمهنية ترك مفتوحًا لكل مسلم بالغ عاقل وعلى مسؤوليته، مع إلزام المسلمين بأن يكونوا عدولًا وذوي خلق في معاملة من يوجد من غير المسلمين في ديارهم بعهد أمان، مما يسر التبادل والاتصال بين ديار المسلمين وديار غيرهم.

وصنف **الفقهاء المشركين في فئتين**: أهل الكتاب من النصارى واليهود، والوثنيين، وتقوم علاقة المسلمين مع أهل الكتاب على عهد الذمة الذي يتم بين السلطة الحاكمة المسلمة وغير المسلمين فيضمن لهم الإقامة الدائمة بما يترتب عليها من حقوق والتزامات مع حماية الشريعة لهم، بحيث تتكافأ أنفسهم وأموالهم مع أنفس المسلمين وأموالهم، في ظل مبدأ عدم الإكراه في الدين، ويتعين على من يقرأ التراث قراءة منهجية معايرته بمعيار الأسس والمبادئ النظرية للإسلام، وما تمخض عن الطائفية والغزو الصليبي والتتري من تأثير سلبي على رؤى بعض الفقهاء مثل **ابن القيم**، جعلهم يقرؤون مفهوم (الجزية) خارج سياق المعنى الحقيقي لروح الإسلام ورسالته، وبعدم استحضار لروح السنة الفعلية في تعامل المسلمين مع غير المسلمين في وثيقة المدينة وفي عقد الذمة بين النبي ﷺ ونصارى نجران، فما الجزية إلا جزء من عقد الذمة المرتكز على حفظ الحرية الدينية للإنسان، ومقابل لخدمة الرعاية المقدمة من الدولة الإسلامية لرعاياها غير المسلمين ممن هم في سن القدرة على القتال وفي حدود قدرتهم على أدائها، مقابل عدم إلزامهم بالمشاركة فيه، مع ترك تنظيم شؤونهم الخاصة لهم ينظمونها بما يتوافق مع دينهم، وكان رفض الدول غير الإسلامية لظهور الدولة الإسلامية ولمبادئها، والإصرار على التصدي لها هو السبب في اللجوء أحيانًا إلى الحرب دفاعًا عن النفس، آية ذلك أن الاجتهادات التي قدمها أبو حنيفة والثوري لتطوير قانون دولي تتحد العلاقات فيه على مبادئ السلام والمساواة، في عهد شوكة الدولة الإسلامية العالمية، لم يقابل بالاستجابة من فريق من غير المسلمين، حيث رفضوا مبدأ حرية العقيدة واضطهدوا من دخل منهم في الإسلام.

ب- **مفاهيم الخليفة والإمام والسلطان**: ترمز هذه المفاهيم إلى القوة والسلطة السياسية في الدولة والمجتمع الإسلامي، إلا إنه في حين جرى حصر مفهوم (السلطان) في المعنى السياسي، فإن المفاهيم الثلاثة الأخرى استخدمت بمعناها

الأوسع، فمفهوم الخليفة مفهوم قرآني، جرى صرفه إلى امتلاك الإنسان حق إدارة شأنه الدنيوي بصفة أمانة، ودفع هذا الفهم جعفر المنصور إلى القول بأنه خليفة لله في الأرض يرتدع به الظالم ويأوي إليه المظلوم، وواقع الأمر أن الخليفة مقيد بالشريعة يتولى رئاسة الأمة الإسلامية. أما مفهوم (الإمام) فينصرف إلى الرئاسة الروحية للأمة، وينصرف مفهوم السلطان إلى القوة والغلبة والقهر. (ص٧٤-١٠١).

٢- الجذور التاريخية للفكر الإسلامي التقليدي في العلاقات الدولية، وخلفياته النفسية: من الطرق الضالة الساذجة في مقاربة كثير من الكتاب المعاصرين للفكر الإسلامي الولي التقليديين إسقاط الواقع المعاصر عليه، بما يقودهم إلى رد الفتوحات الإسلامية إلى دوافع اقتصادية ديموجرافية، متغافلين عن تحليل الجذور التاريخية النفسية للواقع الذي تمت فيه، فمن المقطوع به أن ذلك الفكر نتاج للتفاعل بين الرغبة في تحقيق المثل والقيم الإسلامية السامية، وبين اعتبارات الواقع، فالعقل المسلم كان واقعًا في عصر الفتوحات تحت تأثير أمرين: الأثر النفسي للنموذج النبوي، والمخاوف من جرأة الروم على أهل الإسلام، في ترتيب تصور لعلاقته مع العالم غير الإسلامي، وتفسر جسامة تلك المخاوف ظاهرة الإفراط في دعوى النسخ، فضلًا عن النظرة التجزيئية للنصوص وغياب التحليل الكلي للنظام الاجتماعي، ومن الإنصاف وضع الأثر النفسي لما تعرض له المسلمون الأول قبل الهجرة، وفي المواجهة التي تلتها حتى فتح مكة، في الاعتبار في فهم غلبة الخوف من الخطر الفارسي والروماني على أذهانهم، وخوفهم هذا مبرر، فلقد عاشوا قبل الفتح الأكبر خبرة وصفها القرآن على نحو بالغ الوضوح والشمول في سورة آل عمران: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن

يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

فهم يكرهون القتال، ولكنهم معرضون للفتنة في دينهم، في مواجهة خصوم مصرين على قتالهم حتى يردوهم عنه فيخسرون دنياهم وآخرتهم ويحبط عملهم كله، وعرف المسلمون الأوائل تجارب تجعلهم يلتزمون الحذر في العلاقة مع غير المسلمين من بينها يوم الرجيع وبئر معونة، حيث تظاهر غير المسلمين بالإسلام للاحتيال على قتل مسلمين عزل خرجوا معهم؛ لتفقيههم في الدين، ومن بينها تآمر يهود بني النضير وتحالفهم مع قريش وغطفان في غزوة الأحزاب، وعدوان بني بكر حليفة قريش على خزاعة حلفاء المسلمين رغم إبرام صلح الحديبية وانتهاكًا له، وفي مواجهة هذا الواقع أذن الله للمسلمين في قتال المحاربين غير المسلمين بحد هو انتهاؤهم عن إرادة الفتنة، يقول الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾.

وجاءت ثمرة تغليب نفسية الخوف، على روح النموذج النبوي المجسد للقرآن في أرض الواقع عن ثمرة مؤقتة سريعة بالغة الضخامة، لكن بمقابل سلبي آجل بالغ الضخامة كذلك، حيث أن انشغال العلماء بالواقع الآني، حرمهم من استشراف المستقبل، ولم يدفعهم إلى التفكير خارج الظروف المباشرة المحيطة بهم.

ومن أخطر لبنات ذلك المردود السلبي الآجل إساءة التفسير والتنظير بتوظيف مفهوم (النسخ)، فلقد أثرت الحالة النفسية للفقهاء على دعوى النسخ التي أطلقوا لها العنان، (١٠٢-١١٠)، إلى حد دعوى البعض أن بالقرآن آية سموها آية السيف، وقالوا: إنها نسخت مئة وأربع وعشرين آية تحض على التسامح مع غير المسلمين

والصفح والعفو عنهم، ووظف مفهوم النسخ في تصوير الجهاد على أنه هو القتال مع إهمال التصور القرآني النبوي له كما تجسد في العهد النبوي، وعن سمتي التسامح ووحدة المسلمين التي اتسم بهما الفكر الإسلامي في عصر التلقي، فيما يتعلق بالعلاقة بين المسلمين وغير المسلمين، بما في ذلك وضع غير المسلمين في المجتمع المسلم، فلقد اتسمت الخبرة الإسلامية في صدر الإسلام الأول بالتسامح مع أهل الكتاب خاصة ومع غيرهم من غير المسلمين بوجه عام، ولم يعلن الإسلام الحرب إلا على الأعراب الهمج الذين لا يكفون عن العداء للمسلمين، ولا يسعون إلى الاتفاق ولا يراعون حرمة العهود، وتجسد التسامح الإسلامي في خلو التاريخ من أية محاولة لإكراه أحد على الدخول في الإسلام.

ومن هنا فإن عدم مراعاة الفقه في عصور التقليد والانحطاط، للسياق الإسلامي الكلي لمسألة الجزية وحصر أمرها في آية قرآنية واحدة، وتضييقهم لنطاق المرونة والتوازن للتسامح الإسلامي، أفضيا إلى حرمان الأمة من مجال واسع لصياغة سياسات مبتكرة وخلاقة؛ لتنظيم العلاقات الدولية، باستلهام التصور الشامل للنظام الاجتماعي الذي ساد العصور الإسلامية الأولى، ونتيجة لذلك صور مخيال بعض الفقهاء الإسلام الذي جاء رحمة للعالمين على أن فيه إذلال لقطيع من البشر، باقتطاع آيات قرآنية من سياقها، وتعميم ما ورد بشأن ترتيب العلاقة مع غير المسلم الساعي لإطفاء نور الله بالقول والفعل، على غير المسلمين كافة، دون أي اعتبار للغايات والمعاني الكلية التي جاء بها الإسلام لخدمة البشرية وهدايتها، ومما يكشف مخالفة ذلك المخيال الفقهي أن الإسلام انتشر في إفريقيا وجنوب شرق آسيا في عصر لاحق لصدر الإسلام على يد التجار وشيوخ الطرق الصوفية.

أما عن مفهوم الأمة ووحدتها، فإن هذا المفهوم قد ورد بالقرآن بدلالات تشمل: الدين والرجل الصالح والجماعة والناس والزمان، إلا أن الفقهاء النقليين صرفوها إلى المؤمنين في مواجهة الكافرين، وتولد من توجيه المفهوم وجهة عقيدية

فلسفية توليد مفهوم دار الحرب ودار الإسلام، وحين اعتبر المسلمون في عصر الاجتهاد الفكري الإسلام منهج حياة، تحقق النمو المطرد للأمة الإسلامية.

أما حين أصيب العقل المسلم بالالتباس الفلسفي فإن المد الإسلامي توقف وبدأ الانهيار، ففي الصدر الأول حرص المسلمون فور وفاة النبي ﷺ على أن تكون للأمة سلطة سياسية، وعلى الحفاظ على وحدة الأمة، وكان من اللازم بعد أن اتسعت رقعة أرض الإسلام وتنوعت الشعوب التي دخلت فيه، أن يعاد التنظيم السياسي للأمة.

فلقد حدث تناقض بين الواقع الذي عرف نشأة ولايات مستقلة وشبه مستقلة، وبين الإصرار الفقهي على مركزية السلطة، وكمخرج من هذا التناقض صرف جانب من الفقه مفهوم وحدة الأمة إلى وحدتها الفكرية الفلسفية، لا إلى وحدتها السياسية والتنظيمية، ومن جهة أخرى ربط الفقه السلطة السياسية بالقوة والإكراه، ويبدو أن الفقه الإسلامي لم يسع إلى البحث عن صيغة وسط بين الفوضى والسلطة المركزية، والتزم مثالية مفارقة للواقع غير مصحوبة بالاهتمام بالتربية والتعليم، فقهرها الواقع، وواصل العالم الإسلامي تقهقره، وزادت منازعاته وانقساماته. (ص١١١- ١٢١).

فلندقق في الصورة الإجمالية لحصاد النظرية التقليدية للعلاقات الدولية، فلقد انتشر الإسلام من المحيط الأطلسي غربًا إلى مشارف الصين شرقًا، وأحدث تحولات فكرية وعلمية هائلة، وأرسى مبادئ جديدة في واقع العلاقات الإنسانية شملت الاستقلال القانوني المذهبي لغير المسلمين في دار الإسلام، بيد أن هدف الإسلام في المساواة الإسلامية الكلية بين الشعوب الإسلامية، لم يتحقق إلا بشكل جزئي، تحت تأثير المؤثرات الثقافية غير الإسلامية والمنهج الفقهي الجزئي، ولا يزال هذا القدر من النجاح قابل للبناء عليه في بناء علاقة طيبة موافقة للفطرة بين

المسلمين وغير المسلمين، وألح الفكر التقليدي على وحدة الأمة، مما كان له أثره البالغ في مؤازرة الشعوب المسلمة في نزاعاتها الداخلية وفي مواجهة العدوان الخارجي، ومهد افتقار مفهوم وحدة الأمة للوضوح لنجاح الهجمة الأوربية على العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر.

ومن المهم الإشارة هنا إلى التأثير السلبي للقراءة المعاصرة غير المنهجية لتلك النظرية التقليدية الإسلامية النابعة من القرآن والسنة برؤية كلية، وتصور أنها نتاج تأملات فقهية في لحظة بلوغ الحضارة الإسلامية أوج ازدهارها، التي عاش فيها مؤسسو المدارس الفقهية السنية والشيباني والماوردي ومن بعدهم ابن تيمية وجمال الدين السيوطي، فلم يدقق الكتاب المعاصرون في منهجية أولئك الفقهاء الكبار ولا ملابسات الواقع الذي عاشوا في ظله بتحدياته ومستجداته، بل حاولوا نقدهم بمنهاجية غربية تنطلق من فرضيات خاطئة، وبالمثل نسب إليهم المسلمين المعاصرين المسؤولية عن ضعف الأمة الإسلامية، مع حقيقة كونه مجرد كاشف عن ذلك الضعف ونتيجة مترتبة عليه.

ودعونا نؤكد مرة أخرى، استحالة فهم التحولات الحادة التي يمر بها العالم الإسلامي، دون الحفر في جذور الخلفية التاريخية وسيرتها وصيرورتها، فلقد تردد رد الفعل الفكري الإسلامي على الهجمة الأوربية في القرن العشرين بين توجهين: توجه اعتزازي يسعى إلى ترضية الخصم الغالب المهيمن بتبني الليبرالية والمبالغة في التسامح من جانب النخبة الحاكمة ومن تربوا على الثقافة الأوربية والتكيف مع السيطرة الغربية بترويج تصور مسالم للجهاد، وتوجه احتجاجي ثوري رافض للوجود الأجنبي في العالم الإسلامي، وسعى أصحاب التوجه الأول إلى الإصلاح الشامل لحال الأمة من مدخل التربية والتعليم مع الحفاظ على العلاقات الودية مع القوى الغربية، وساهم ذلك في تثبيت أقدام الاستعمار الغربي.

أما أصحاب التوجه الثاني فتبنوا فهمًا للجهاد يحتم على المسلمين ردع الشر

ويفرض عليهم محاربة الكفرة المعتدين، إلا أن ذلك كان بمثابة وضع العربة أمام الحصان لعدم توفر مقومات الاستجابة الفعالة للقيام به، فلم تفلح القيادات التقليدية في تحقيق الاستقلال بالجهاد العسكري في القرنين التاسع عشر والعشرين، وبالمثل أخفق التوجه الليبرالي في إقامة نظام حكم ديموقراطي حر وعلاقات دولية مع الغرب قائمة على السلام والتعاون، ولم يفلح انضمام العرب إلى الحلفاء ضد تركيا في الحرب العالمية الأولى في تحقيق الاستقلال، بل أوقعهم تحت الانتداب الأوربي، وبعد الحرب العالمية الثانية فقد العرب فلسطين، وفي ظل الثنائية القطبية وتعويل بعض العرب على المعونة السوفيتية، تسلل الفكر الماركسي إلى العالم الإسلامي، وكانت محصلة تلك الخبرة هي فشل كافة مقاربات السلام والتسامح والجهاد الدفاعي والهجومي وحروب التحرير الوطنية في توفير أساس قوي لمشاركة إسلامية في العلاقات الدولية لعدم تناغمها جميعًا مع الضمير الداخلي والوجدان الذاتي للأمة الإسلامية، ولاعتمادها على التقليد للغرب أو لنظم تاريخية تختلف ظروفها عن الحاضر، وعدم الرجوع المنهجي إلى الأصول الأولى للفكر الإسلامي. (ص١٢٢-١٣٥).

ثالثًا: إصلاح منهجية الفكر الإسلامي: يدور مفهوم المنهجية الإسلامية حول أصول تنظيم السلوك الإنساني للشعوب الإسلامية في العلاقات الداخلية والخارجية، وهي بهذا المعنى تتطلب تجنب التقليد والتلفيق ورد الفعل إليه دون أصالة سلبي، فثمة حاجة إلى نظرية إسلامية حديثة محددة الأهداف والوسائل حتى لا يظل المسلم عميلًا مقلدًا للحضارة الغرب، ومفتاح الأصالة المنهجية هو الفهم الكلي للإسلام الذي يمكن من خلاله فهم الفكر السياسي الإسلامي على مدى التاريخ وغربلته وتوليد إطار مرجعي للعلاقات الدولية، يجمع بين الأصالة والحفاظ على الثوابت الإسلامية والتكيف مع المستجدات، وتتمثل معضلة الزمان والمكان في حقيقة أن كل واقع يحتاج لفقهه ولفقه تنزيل النصوص الشرعية عليه،

وعدم إخضاعه لفقه أنتجه واقع آخر.

وتتمثل أصول الفكر الإسلامي في مصدرين أساسيين: القرآن والسنة، ومصادر فرعية تشمل: الإجماع، والاجتهاد، والقياس، والاستحسان، والعرف، والمصالح المرسلة.

وفيما يلي إطلالة على أثر الأصول الأساسية على الفكر الإسلامي توطئة لمناقشة أصول الفقه الإسلامي والمآخذ الكامنة فيها:

١- **أثر الأصول الأساسية على الفكر الإسلامي**: القاعدة المنهجية الأم هي وجوب رد كافة أصول الفقه إلى الرؤية الكلية للقرآن والسنة، كأساس لتقرير شرعية أية فكرة أو مؤسسة أو تصور، ومن قبيل تفعيل هذا المحك المنهجي نبذ محمد رشيد رضا لمقولة الإجماع على ما يسمى: حد الردة، مستندًا إلى عدم وجود نص على ذلك في القرآن، بل وجود نص فيه يحرم الإكراه في الدين، وما دام الإجماع قد خالف الأصل الأعلى فهو جدير بالرفض، وحاز اجتهاده هذا قبولًا، وعلى العكس من ذلك فإنه حين لم يفعل تلك القاعدة، وأفتى بجواز الفائدة المصرفية بدعوى الضرورة، لم يفلح هو ولا من نسج على منواله في حسم تلك المسألة، مما ترك النظام المصرفي والاقتصادي الإسلامي على أرضية غير مستقرة.

ومع عدم اجتياز الأفكار والنظم والمؤسسات الحديثة في اختبار المعايرة بهذا الأصل، فإنها عجزت عن التعايش مع الذاتية الإسلامية، واحتاجت باستمرار إلى ذريعة مبدأ الضرورة، وبالتالي إلى التلفيق، ومع عدم بذل الفكر الإسلامي الجهد الكافي لحل هذه المعضلة، فتح الباب لاستعارة الأفكار والأيدلوجيات والنظم الأجنبية، في ظل انقسام المفكرين إلى علماء تقليدين ومثقفين غربي الثقافة، ومن هذا الجذر نبعت أزمة الفكر الإسلامي الحديث.

٢- **المآخذ الكامنة في أصول الفقه**: جرى العرف على تقسيم أصول الفقه إلى أصلين أساسيين: (القرآن والسنة)، وأصلين فرعيين: (الإجماع يليه القياس)،

وتشمل السنة في تعريف الفقهاء لها كل ما صدر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو موافقة ضمنية، ويقوم القياس على إلحاق واقعة مستجدة بواقعة سابقة لتساوي الواقعتين في علة الحكم، غير أن الملاحظ أن الفقهاء توسعوا بشكل مطرد في الاستناد إلى مبدأ المصلحة في تجاوز النصوص، وعدم تحري تفهم أثر عاملي الزمان والمكان بجعل القياس كلي في مجالات التفاعل الاجتماعي، مؤسس على القيم الاجتماعية القرآنية المشكلة للضمير والوجدان الإسلامي.

وتجسد ذلك على سبيل المثال في حصر مفهوم القوة القرآني في مسألة العدد والتوازن المادي، رغم اتساع مدلوله ليشمل القوة المعنوية والأخلاقية والمادية في كل المجالات، والمثال الصارخ الآخر هو إهدار قيم الصفح والتسامح بدعوى النسخ والوقوف عند ظاهر كل آية على حدة، على نحو توصل معه البعض إلى القول بأن الحرب هي الأصل والسلام هو الاستثناء في علاقة المسلمين بغير المسلمين.

ومن البدهي أن الإجماع يجب أن لا يتعارض مع القرآن والسنة النبوية الصحيحة، والمتدبر في التراث الفقهي يكتشف أن الإجماع المطلق بهذا المعنى متحقق بالنسبة لأركان الإسلام وحسب، وما عدا ذلك فهو مجال تتعدد فيه الرؤى الفقهية، ولا تعرف ما هو أكثر من الإجماع النسبي، وتحتاج آلية الإجماع إلى تطوير في العصر الحديث؛ لتعقد القضايا وتشعب التخصصات المرتبطة بجوانبها، وسرعة التغير في مجال العلاقات الدولية.

ومن العيوب التي اكتنفت المنهجية الإسلامية التقليدية أنها التزمت المنهج التجريبي في بناء العلوم الطبيعية، ولم تلتزم به في بناء العلوم الاجتماعية، وربما لا نجد استثناء على ذلك في الفكر الإسلامي غير ابن خلدون، ولا يزال التعليم الإسلامي يعاني حتى الآن من غياب المنهجية التجريبية، والرؤية الكلية للعلوم الاجتماعية والإنسانية. (ص١٣٦- ١٨٣).

رابعًا: من الفكر القانوني الشكلي إلى الفكر السياسي الموضوعي: تتمثل أزمة الفكر الإسلامي الحديث في عجزه عن قراءة الواقع الدولي المعاصر على نحو فعال، فالطرح الجهادي القتالي غير مجدٍ في ظل وضعية التخلف والضعف الفكري والسياسي والتقني الراهنة، والطرح الليبرالي المسالم غير موضوعي في عالم تشتد فيه الحاجة إلى التحرر السياسي والاجتماعي والاقتصادي، ويعاني الفكر الإسلامي الحديث من داء من اثنين: عدم الوعي بطبائع النفس المسلمة والوجدان الإسلامي، والانفصال عن الواقع العالمي الذي يعيش فيه المسلمون.

ويقتضي ذلك الاجتهاد في بيان كيفية للجمع بين الروح والضمير والوجدان الإسلامي، والتكيف مع معطيات العصر، وإعادة قراءة الخبرة التاريخية الإسلامية في مجال العلاقات الدولية بمنظور اجتماعي إسلامي مرجعي كلي.

ونطرح هنا خطوطًا عامة لتصور العلامة عبد الحميد أبو سليمان لكيفية تحقيق ذلك:

١ - **إعادة بناء تاريخ سياسة النبي الخارجية:** يتضح من المعالجة السابقة أن الفكر الإسلامي أخفق في ابتكار صيغة اتحادية دينامية للسلطة في الداخل، مما أعاق تعميق حقوق الإنسان والمشاركة الفعالة للأقليات غير المسلمة، وهو ما انعكس على الصورة الإدراكية لآفاق التعاون البناء بين المسلمين وغير المسلمين، ويتحمل الفكر الإسلامي نصيبًا من عداء غير المسلمين لهم، لما شابه من تصورات خاطئة في قراءة أحداث تاريخية في العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين.

ولبيان هذه النقطة سنلقي إطلالة خاطفة بمنهاجية نظر كلية، على أربعة تصرفات تتعلق بالسياسة الخارجية في العهد النبوي: الموقف من أسرى بدر، والموقف من اليهود في الجزيرة العربية، والسياسة اللينة في التعامل مع قريش، والتسامح المتواصل مع أهل الكتاب واحترامهم. (ص١٨٤-١٩٠).

فلقد تحقق النصر الإسلامي في يوم بدر بعد معاناة المسلمين على مدى اثني عشر

عامًا، وقرأ المفكرون المسلمون المعاصرون تلك الغزوة فيما يتعلق بالأسرى على ضوء قراءة جزئية لآية واحدة بسورة محمد هي قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.

فبقراءة لا تراعي الوحدة البنائية للقرآن الكريم والفهم الكلي له، قال كُتَّاب مسلمون أن هذه الآية تحدد مصير أسرى الحرب، وأن آيات سورة الأنفال: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ليست تشريعًا دائمًا.

وتغافلت تلك القراءة عن حقيقة أن آيات الأنفال توجه إلى وجوب عدم الإكثار من الأسرى في لحظة كان المهم فيها تعزيز شوكة الإسلام، وهي لا تخالف في شيء توجيه الآية الأخرى لقبول الفداء من الأسرى، مع التمييز بين الأسرى ومجرمي الحرب، والتأثير النفسي على المحاربين المشركين بالتلويح في الشدة في القتال، وليس في تسوية تبعات ما بعده، ولا تخفى دلالة تضمن الآيات عبارة (حتى تضع الحرب أوزارها).

وحكم منطق التعامل مع بني قريظة اتخاذ إجراء صارم؛ لتحقيق غايات نفسية وأمنية في مواجهة نقضهم للعهد مع المسلمين بالتحالف مع قريش وغطفان في غزوة الأحزاب، والرغبة في تجنب تحالفات مماثلة في المستقبل.

ويصف القرآن في سورة الأحزاب حال المسلمين نتيجة هذا الغدر، ونكث العهود أثناء محاصرة الأحزاب للمدينة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ

جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾.

ومعنى ذلك أن حالة بني قريظة كانت تمثل عدوانًا مركبًا لا نظير له، فحق للمسلمين الردع النفسي عن محاكاته، ويفسر ذلك انتهاج سياسة التسامح والعفو تجاه غيرهم من اليهود، ومن المشركين العرب رغم نكثهم بالعهود في ظروف كان المسلمون فيها لا يواجهون خطر الفناء، آية ذلك موقف المسلمين من قريش بعد نكثهم لعهد الحديبية، حيث خططوا لفتح مكة بالحرب النفسية، واتخذوا كل الإجراءات الكفيلة بصيانة مكة وأهلها بعد الفتح بـ(اذهبوا فأنتم الطلقاء) وبالسعي لتأليف قلوبهم.

هكذا كان السلوك الإسلامي في لحظة التمكن والقوة، وحدد القرآن والسنة النبوية أساس العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين بالبر والإحسان والتقوى والنصيحة الأمينة وذمة الله ورسوله، والتجنب المطلق للإكراه في الدين، بل كان التصدي للمنافقين الذين ابتغوا الفتنة نفسانيًا في المقام الأول لكبح نشاطهم التآمري، ولم تكن الحرب التي خاضها المسلمون على عهد أبي بكر، والتي عرفت بحروب الردة، حربًا لمصادرة حرية الاختيار والفكر والعقيدة والتعبير عن الرأي، بل كانت ضد البغي الجماعي المسلح على مبدأ وحدة الأمة (ص ١٩١-٢١٢).

وخلاصة القول: إن خبرة صدر الإسلام تكشف عن حقيقة أن المجتمع الإنساني يحتاج إلى الجمع المتوازن بين الحلم والكرم والعفو والتواضع من جهة، وبين القوة والحزم من جهة أخرى، فالمعاملة بالحسنى والصبر لا ينفيان الحاجة في ظروف استثنائية عند الضرورة إلى القتال النفسي والمادي الأخلاقي.

ولبناء الوعي المنهجي بهذا الجمع المتوازن، يتعين مراجعة القراءة التجزيئية غير السياقية للقرآن التي وقعت فيها كثير من الأدبيات الإسلامية، مما أفضى بها إلى التبسيط المفرط، والتعميم المبهم لمسائل واردة بالقرآن على نحو يغفل أخذ عاملي الزمان والمكان في الاعتبار، والتركيز على التفصيلات على نحو غير منضبط بالإطار القرآني الكلي، وعدم مراعاة الظاهرة الاجتماعية على نحو يؤدي لسوء فهم وظائف المجتمع الإسلامي.

ومفتاح القراءة السياقية للقرآن هو إدراك دلالات ومضامين قول الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

فالمقصد من إرسال النبي الخاتم هو كونه رحمة للعالمين، والمفتاح الثاني لها هو آيات الممتحنة: ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾.

ويرجع ما أصاب بعض المسلمين من تعصب تجاه غير المسلمين إلى عاملين: الأثر النفسي لعداء غير المسلمين لهم، وتوهم إمكانية تماثل الجزاء الإنساني الإسلامي للجزاء الرباني لغير المسلمين، وهو ما يمثل خطأ فادحًا، فالله تعالى يخاطب البشر عن علم مطلق وسلطة مطلقة، بينما لا يملك المسلمون غير علم نسبي، وسلطة نسبية مقيدة بشرع الله تعالى، وبالقرآن أدلة تفوق الحصر على توجيه المسلمين إلى الصفح، وإلى بث الأمل في نفوسهم بتحويل الله تعالى بقدرته حالة العداء بينهم وبين غيرهم إلى مودة، وتزويدهم بنماذج من سلوكيات الرسل والأنبياء تفيض بالحرص على نصيحة غير المسلمين والبلاغ المبين لهم، وتفويض أمر هدايتهم من عدمه إلى الله،

ودعوتهم إلى الصفح وتجنب العدوان. (ص٢١٣-٢٢٧).

ومن المهم هنا بيان لبنات الإطار القرآني للعلاقات الدولية المتضمن للقيم والمبادئ الرئيسة الحاكمة لعلاقات المسلمين مع غير المسلمين، وتتمثل تلك اللبنات في: التوحيد، والعدل، والسلام، والتعاون المتبادل، واجتناب الفرقة، والجهاد (بمدلوله القرآني المتسع للجهاد في الوالدين ولبذل غاية الجهد في إقامة أمر الله ونهيه على نحو مسؤول متناغم مع الإطار الإسلامي، وعدم تقزيمه في القتال الدفاعي أو الهجومي، والربط فيه بين فقه النصوص وفقه الواقع)، والوفاء بالعهود، والالتزام بالقيم والمثل العليا الأساسية (لا عدوان، ولا طغيان، ولا فساد، ولا إسراف). (ص٢٢٨-٢٤٥).

٢- **نحو بناء إطار لتحليل العلاقات الدولية في العالم المعاصر**: ثمة توجهات ثلاثة لفهم السياسات والمواقف الإسلامية في العلاقات الخارجية المعاصرة:

أولهم: الفهم الفقهي التقليدي للعلاقات الدولية المعاصرة، الذي بينا فيما سبق جموده، وسطحيته، وعجزه عن ترشيد السياسة الخارجية الإسلامية في العصر الحالي.

و**ثانيهم**: فهم الحداثيين المتأثر بالغرب، وبضغوط البيئة الخارجية المعاصرة، وهو بدوره عاجز عن إبراز الطاقة الكامنة في الشعوب الإسلامية وتعبئتها.

و**ثالثهم**: الفهم التجديدي، الذي يتصدى لمعضلة إخراج العقل المسلم من أسر كل من الفكر الجامد والفكر القائم على التقليد والتلفيق، ويتجسد هذا الفهم في السعي إلى صياغة إطار إرشادي لصناع السياسة الخارجية الإسلامية خال من أوجه القصور التي تكتنف التوجهين الآخرين، ومفتاح صياغة هذا الإطار الإرشادي هو وضع عامل الزمان والمكان والتحليل التجريبي المنظم في الاعتبار بحكم التفاعل بين العقيدة والبيئة، وتأسيس السياسة الخارجية على العقيدة الإسلامية، بحكم أن ذلك هو شرط إمكانية تحريك الشعوب الإسلامية وإظهار طاقاتها الكامنة.

والإطار الإرشادي الذي يقدمه هذا التوجه التجديدي ليس وصفة جامدة بل هو: منظومة من المبادئ الأخلاقية والمعنوية التي يدعو صانعي السياسة في البلدان الإسلامية إلى الاسترشاد بها بمرونة تحكمها **ثلاثة** عوامل:

أولها: مبادئ الإسلام، وقيمه الأساسية.

و**ثانيها**: نوعية التحديات بما تمثله من تهديدات ومن فرص بالنسبة لتحقيق الأهداف الإسلامية.

و**ثالثها**: ميزان القدرة النسبية بين المجتمعات المسلمة وحلفائها وخصومها.

ويمثل هذا الإطار التجديدي نقلة نوعية، تتجاوز كل من: الإطار التقليدي الجامد (الذي يقسم العالم إلى دار إسلام ودار عهد ودار حرب)، والإطار العلماني (القائم على دولة حديثة تعيش في بيئة دولية، تمثل في ظلها هي والإطار العلماني التقليد التلفيقي مركزًا لاستقبال كل من: ضغوط مصالح وسياسات القوى الكبرى، والفكر الليبرالي والماركسي، ويقوم الإطار الإسلامي التجديدي على: القيم والمبادئ الإسلامية الأساسية، التي تبلورها حكومات إسلامية في سياسة إسلامية يتسع فضاؤها في كل المجالات للتفاعل مع البيئة الدولية، للتعاون والحياد والمخاصمة.

ويجمع هذا التوجه في رسم معالم ذلك الإطار الإسلامي التجديدي بين الحفر المعرفي في خبرة العلاقات الدولية الإسلامية عبر التاريخ، وقراءة الواقع المعاصر، ومنهجه في هذه القراءة هو تحليل ثلاثة أنماط من السياسات الخارجية:

أولها: نبذ الحرب، وسبق تحليل ذلك النمط، وتبين أن الأصل هو السلام، ولكن يبقى الحرب استثناءً واردًا بوصفه الملاذ الأخير عند الضرورة الملجئة.

و**ثانيها**: سياسة التبادل الدبلوماسي والتحالف مع الدول غير الإسلامية،

ولخبرة التجربة العثمانية أهميتها البالغة في هذا المضمار، فلم تعول الدولة العثمانية على الدبلوماسية في لحظة قوتها، وأفرطت في الاعتماد عليها في لحظة ضعفها، ولم يشفع لها كل ما قدمته من تنازلات وامتيازات، وانتهى مآلها إلى هزيمة منكرة في الحرب العالمية الأولى، وجاءت الكمالية عقب زوال دولة الخلافة العثمانية وتقسيمها، لتواصل التبادل الدبلوماسي مع القوى الغربية، مع التخلي عن الإسلام كأساس في إدارة العلاقات الخارجية.

ولقد تعرضت تلك التجربة العثمانية لظلم بين في تقويم الكتاب المعاصرين لها، فثمة من دمغها بعدم تمثل النظام القيمي الإسلامي، ونبع هذا الحكم الظالم من تقويم السياسة الخارجية العثمانية، عبر اتخاذها الفقه الحنفي مذهبًا لها، واعتمادها عليه في إبرام معاهدات مع غير المسلمين لمدة تزيد على عشر سنوات، وصور هؤلاء الكتاب تبني مذهب فقهي أو العدول عنه على أنه بمثابة انحراف عن الإسلام.

وغفل هؤلاء الكتاب عن حقيقة بدهية هي أن الفقهاء لا يلزم أن يكونوا على صواب والسلطة الحاكمة على خطأ حالة الاختلاف بينهم وبينها، فالفقهاء عرضة لعدم الوعي بمعطيات الموقف السياسي التي قد تحتم عدم أخذ السلطة برؤى فقهية تراها متشددة، والأمر الذي لا يجادل فيه إلا مكابر أنه كان للعثمانيين توجهًا إسلاميًا، وما التهمة الموجهة إليهم بالافتقار إلى التوجه الإسلامي، إلا نتاج تشدد فقهي يرى أن أي انحراف عن التجربة الإسلامية الأولى يمثل بدعة ضلالة.

والتحليل المنصف لخبرة التعاون بين السلطة العثمانية والقوى الأوربية في لحظة اختلال ميزان القوة بينها لصالح القوى الأوربية، يكشف عن حقيقة أن ذلك التعاون ليس هو الخطأ الذي ارتكبته السلطة العثمانية وقاد إلى زوال دولتها، بل الخطأ هو: سعيها إلى الإصلاح من معين الفكر الأوربي، مما فتح الباب على مصراعيه لمزيد من التغريب والعلمنة، والعجز بالتالي عن تحريك الفكر والضمير الإسلاميين،

فخطؤهم بعبارة أخرى هو: اختيار الإصلاح الشكلي بدلًا من القيام بأعمال أصيلة للإصلاح من معين إسلامي.

وتكررت نفس التجربة التركية بعد زوال الاستعمار التقليدي وقيام الدول القومية المستقلة في العالم الإسلامي، فلقد توزعت تلك الدول وفق رؤية كل منها لمصلحتها القومية وللتحديات الخارجية، بين تبني سياسة التحالف مع الغرب أو مع الشرق، وبين الأخذ بسياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز، وأسيء فهم شعار (الحياد الإيجابي) .

فلقد حتمت التطورات التاريخية على بعض الدول العربية التعاون مع الاتحاد السوفيتي في مواجهة التحديات الغربية، وفي ذات الوقت كان المكون الإسلامي لهذه الدول يستدعي حذر السلطات الحاكمة فيها من تسلل الأفكار الماركسية إليها، وكان المخرج هو فكرة (الحياد الإيجابي وعدم الانحياز) وهي الصيغة التي أمكن في ظلها لعبد الناصر على سبيل المثال الجمع بين الحصول على معونات سوفيتية في سباق التنافس الأمريكي السوفيتي على النفوذ في العالم العربي والإسلامي، مع الانقضاض على الحزب الشيوعي المصري.

والأهم من ذلك أن شعار الحياد الإيجابي لم يمثل السياسة الخارجية الكلية للدول التي أعلنت تبنيه بحيث تباينت سياساتها وموقفها تجاه الدول العربية والإسلامية الأخرى، ولم تدرك حركة الحياد الإيجابي عقم تلك السياسة بعد نهاية الحرب الباردة الأولى، وقيام حالة الوفاق والتعايش السلمي بين الكتلتين الشرقية والغربية، والحاجة إلى تبني سياسة التعاون بل التكامل بين الدول الإسلامية، وفي حين ظهرت تجمعات إقليمية في أوربا وآسيا، فإن الدول العربية والإسلامية لم تتحرك نحو إقامة تجمعات مماثلة، بل زادت الصراعات داخلها وفيما بينها، ومع سقوط الاتحاد السوفيتي، وتفكك المنظومة الاشتراكية في أوربا الشرقية، أصبح

المسلمون في مواجهة تحدي الاختيار بين التبعية لهيمنة العولمة الأمريكية، وبين السعي للتعاون والتكامل والتنسيق بين الدول الإسلامية.

ولا تنقص العالم الإسلامي القدرات، كل ما يحتاجه هو: الإصلاح الجذري من مرجعية إسلامية إنسانية جامعة تقوم على التوحيد، والخلافة، ووحدة الإنسان والمصير الإنساني المشترك، والجمع بين الروحي والمادي والأخلاقي والعملي وبين الوحي والعقل وبين الغيب والشهادة.

وخلاصة العبرة المستفادة من تلك الأنماط الثلاثة للسياسة الخارجية الإسلامية على مدى التاريخ، أن مفتاح إسلامية سياسات الدول الإسلامية ليس السعي إلى تطابقها مع الترتيبات والرؤى الفقهية التاريخية، بل: توخيها للغايات الإسلامية والتزامها بالمبادئ والقيم الإسلامية. (ص٢٤٦- ٢٦٨) .

الفصل السادس
نظرية الإسلام الاقتصادية
الفلسفة والوسائل المعاصرة

الفصل السادس
نظرية الإسلام الاقتصادية
الفلسفة والوسائل المعاصرة (١)

لا يقول الإسلام إلا بالعدالة الخلاقة، الكفيلة بتحقيق الإبداع والتكافل في المجتمع، على أساس من التوحيد الذي لا يعطي غيره للفرد والمجتمع معنى الحياة ومعنى الوجود، ورؤية الوجود كله، وكافة قضايا الاقتصاد بمنظور التوحيد الإسلامي، تكشف عن حقيقة أن تحريم الإسلام للفائدة على رأس المال، أمر يترتب على المساس به المساس بكيان الاقتصاد كله: فلسفته، ونظامه، وأركانه.

فالربا كله محرم لكونه كسبًا لا عوض له، لا فرق فيه بين أن يكون المقترض فردًا أو شركة أو مؤسسة، والاقتصاد هو البيئة المادية للإنسان التي لا رأي في ظلها لجائع، وبالتالي يقتضي تحقيق الخير العام للمجتمع والفرد تنظيم تلك البيئة المادية بشرع الله تعالى، فنظام الإسلام وفلسفته يفوقان كل ما تتفتق عنه قرائح البشر في كل زمان ومكان.

ومرتكز الأهداف الاقتصادية البشرية في المنظور الإسلامي هو: الرفاهية المستظلة بالعدالة والحرية والمساواة، فلا يمكن فهم موقف الإسلام من الاقتصاد إلا عبر تسكينه في رؤية كلية قائمة على تلك المبادئ، ويلبي هذا الموقف الفطرة الإنسانية المحبة للحياة الرغدة بدرجة لا يضاهيها حبها لأي شيء آخر، فالإنسان يسعى إلى مزيد من الإنتاج المحقق للرفاهية بأقل جهد ممكن.

أما عن أمنيته في مجال توزيع الإنتاج فهي: العدالة في التوزيع، وفي الفرص، وعدم أخذ أحد بجريرة غيره، وأن لا يكون كسب المال على حساب حرية الإرادة الإنسانية، وأن يكون العمل هو أساس الكسب، والجمع بين الملكية الفردية

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. نظرية الإسلام الاقتصادية: الفلسفة والوسائل المعاصرة، القاهرة: دار مصر للطباعة، مؤسسة الخانجي بمصر ١٩٦٠. وتقع الدراسة في ١٢٥ صفحة.

والجماعية؛ تحقيقًا لحافزية الإنتاج لدى الفرد والتضامن، وإعادة توزيع عوامل الإنتاج في المجتمع في حال اختلال التوازن العادل. (ص٧-١٥).

أولًا: أسس العدالة الاقتصادية الإسلامية: في حين يرى الاقتصاد الحديث أن عوامل الإنتاج ثلاثة: الأرض، ورأس المال، والعمل، فإن المنظور الإسلامي يقصرها على الأرض ورأس المال، ومرد هذا الاختلاف، أن الفلسفة الاقتصادية الوضعية الحديثة تعتبر (**الإنتاج**) غاية بحد ذاته، يسخر له الإنسان والأرض ورأس المال، لصالح النخبة المحظوظة، وتحدد أجر العامل بـ (**حد الكفاف**) الكافي لبقاء قدرته على العمل، وعلى الإنجاب لتوليد عمال يخلفونه، بينما تقوم الفلسفة الاقتصادية الإسلامية على اعتبار الغاية هي تحقيق **حد الكفاية والرفاهية لكل إنسان**، بضبط استعمال الأرض ورأس المال بمبادئ: العدل، والحرية، والمساواة.

والأصل في ملكية أدوات الإنتاج هو: المجتمع، فالإنسان يولد غير مالك لشيء غير قدرته على العمل، التي لا تنمو ولا تصقل إلا بالتعاون مع أفراد المجتمع، وبحكم المساواة في الوضعية عند المولد، فإنه لا يحق لأحد التحكم في وسائل الإنتاج، ولا التصرف على نحو لا يتمشى مع مصلحة المجتمع، فحقوق الأفراد على الموارد الطبيعية متساوية، إلا أن التفاوت بين الأفراد في القدرة على العمل والجدية فيه تجعل البعض يستخدم أكثر من نصيبه من قوى الإنتاج، بينما يحصل البعض الآخر على أقل من نصيبه منها، وبما أن كل فرد يستحق ثمرة عمله، فإن الأفراد يتفاوتون في الثروات بتفاوت الكسب المتحقق من العمل، ولكنه يظل مسؤلًا عن سد حد الكفاية لمن عجزوا عن العمل لأمر خارج عن استطاعتهم.

وبذا يتلخص الشأن الاقتصادي في ثلاثية: الحق المتساوي في أدوات الإنتاج، والتفاوت في قدرات العمل مما يؤدي إلى التفاوت في الدخول، وحق المجتمع في مال صاحب الكسب الأعلى من كفايته لسد حاجة المعوزين، وبهذا التصور تتقرر

حقوق المجتمع بكل أفراده، وعدم شرعية استخدام الفرد لعوامل الإنتاج ضد مصلحة المجتمع، ولا السماح لعدوه باستعمالها.

وملكية الفرد لوسائل الإنتاج هي وسيلة الكسب للاستهلاك ولسد الحاجات الآجلة اللازمة للاستثمار وللطوارئ.

والسؤال الوارد هنا: من أين جاءت إذن فكرة الملكية الخاصة وما هي دوافعها وحدودها؟ أساس الملكية الخاصة هو الرغبة في ضمان متطلبات العيش وتحديد المسؤولية، وهي لا تتعارض مع الأصل في جماعية ملكية وسائل الإنتاج، ما دامت مرتبطة بحياة المجتمع ودوافعه وأهدافه، والوفاء بحق التضامن الاجتماعي، بوصفه حقًا للمحتاجين وليس منة من الأثرياء، وهذا هو مقتضى العدل، والمقابل لاستعمال الأقدر على العمل لحصة من نصيب العاجزين عنه في وسائل الإنتاج.

ولا ريع ولا فائدة، فالكسب مصدره هو العمل، ويمكن تعريف العمل بأنه كل جهد عضلي أو فكري أو أخلاقي، له نفعه عند الآخرين يجعلهم يدفعون مقابلًا له من كسبهم وإنتاجهم، ولابد أن يكون ذلك المقابل عادلًا، وإلا اعتبر العمل تسخيرًا واستعبادًا للعاملين، كما ينبغي مراعاة الادخار للاستثمار في تعزيز أدوات الإنتاج وسد الحاجات الطارئة ومراعاة حق الأجيال القادمة، والريع والفائدة يتناقضان مع العدالة والإنسانية، فهو يؤدي إلى احتكار القلة وتزييف إرادة المجتمع، وتوسيع الفجوة بين الأغنياء والفقراء، وتقرير حق الكسب للعمل وحده هو المبدأ الذي يكفل العدالة وتحرير الإرادة وتحقيق الحافزية، ويحول دون تراكم الثروة في يد قلة، ويصب نظام الوراثة في تعزيز ذلك التوازن ومنع تركيز الثروة، ومراقبة من بين يديه الثروة من جانب من يرثونه؛ لمنعه من التبذير وتبديد المدخرات وعوامل الإنتاج، ويجب إعادة توزيع عوامل الإنتاج إذا ما اختل التوازن العادل، نتيجة سوء استعمال عوامل الإنتاج، أو نتيجة لهجرات وكوارث طبيعية. (ص ١٦-٣٣).

والموجه الإرشادي لتلك الفلسفة الاقتصادية الإسلامية بكاملها هو: إرادة الخير الواضح، والعدالة الشاملة، فالله تعالى سخر للإنسانية كل ما في السماوات والأرض، وأمر المؤمن بالأكل من الطيبات وشكره، وأفاض على البشرية بنعم لا تعد ولا تحصى، وجعل الأرض بساطًا، ومكن لبني آدم في الأرض وجعل لهم فيها معايش لعلهم يشكرونه.

ومعنى ذلك، أن الله تعالى جعل عوامل الإنتاج في خدمة البشر، وليس العكس، والطيبات حق لكل من يمشي في مناكب الأرض، ويستخدم وسائل الإنتاج، ومن الأدلة على أن الأصل في ملكية عوامل الإنتاج في أي مجتمع، إنما ترجع إلى المجتمع، نص القرآن الكريم على وحدة أصل الإنسان، وعلى أن كل ما في السماوات والأرض ملك لله تعالى، وأنه هو الرزاق العليم، الذي استخلف الإنسان في الأرض، وأمره بأن يأكل من الطيبات، وأن يؤتي المعوزين حقهم المعلوم من مال الله الذي آتاه، وأمره بأن لا يؤتي السفهاء المال الذي جعله سبحانه وتعالى قيامًا للناس جنبًا إلى جنب مع الأمر برزقهم منه وكسوتهم، وقول معروف لهم.

وعدم تيمم الخبيث في النفقة، ووعد الله تعالى من يعطي ويتقي ويصدق بالحسنى بتيسيره لليسرى، وتوعد من يفعل عكس ذلك بتيسيره للعسرى، وبينت السنة النبوية أن كل البشر لآدم وآدم من تراب، وأن الرازق هو الله، ووجهت من له أرض إلى زراعتها، فإن لم يستطع فليمنحها لأخيه المسلم بلا أجرة، وأرشدت السنة إلى تحري ترك الورثة في غنى عن التكفف بجعل سقف الصدقة ثلث المال، ومن حقوق المجتمع فيما بيد الفرد: منع الإسراف وحقوق الوراثة والشفعة، وإرادة الخير للجميع.

وخلاصة القول: إن الملكية الخاصة في المنظور الإسلامي لها حدود تتمثل في: كونها ساحة للعمل، وطلب الرزق، وليس للاستغلال والتسخير، وجوهر الملكية العامة هو التضامن الاجتماعي بوصفه حقًا للمحرومين، ينالونه مما رزق الله تعالى به

القادرين من مال وكسب بعجز المحرومين وضعفهم عن استخدام نصيبهم من عوامل الإنتاج، ولما كان أساس الكسب هو العمل، فإنه يحرم تأجير الأرض بجزء من الزرع والسماح بتأجيرها بالذهب والفضة، وكذا المزارعة، وسقاية الأرض مقابل جزء من الزروع، والربا بكل صوره وأشكاله.

ويطرح ذلك سؤالًا مهمًا: ما الحكمة في تحريم الإسلام الربا والربح على عنصر الأرض، مع حل الربح لرأس المال في المشاركة؟ فلنتعمق في قراءة النصوص القرآنية قراءة كلية، غير تجزيئية ولا سطحية، فلقد حرص الإسلام على حفظ ثمرة العمل الفردي، فأمر بكتابة الديون، وبين أن الإعسار لا يسقط الدين بل يوجب فقط الانتظار إلى ميسرة، وجعل من الممكن سداد دين المعسر من بيت مال المسلمين، وبين أن الدين لا يسقط بوفاة المدين، فلا تركة إلا بعد سداد الدين والوفاء بالوصية، ولما كان شراء الأرض وتجهيز ها للزراعة يستهلك جانبًا من كسب صاحبها، فإن حصوله على عائد نقدي من تمكين آخر من استغلالها هو العدل بعينه، والإيجار في تلك الحالة ليس ريعًا من الأرض بل هو مقابل لاستهلاك ما أنفق عليها من رأس المال.

وعلى العكس فإن المزارعة تقوم على مقابل غير معلوم، فقد يهلك الزرع، وقد يسلم مما يتحمل بإمكانية أن تكون المحصلة غير عادلة لأحد طرفي تلك المعاملة، وكما يحرم الإسلام أن تلد الأرض ذاتها ريعًا يحرم أن يلد رأس المال ذاته عائدًا، ويعتبره ربا محرمًا، بينما يحل المشاركة برأس المال على الربح والخسارة؛ حتى لا ينال فرد كسب غيره دون عوض. (ص٣٤-٥٣).

ثانيًا: الريع والفائدة في تعامل المجتمعات: تفيد خبرة صدر الإسلام أن النبي ﷺ أقر أهل خيبر عليها يعملون فيها على شطر من ثمارها، ويستدل من ذلك على مشروعية المزارعة بين المجتمعات، حال ملكية مجتمع للأرض ومساهمة المجتمع

الآخر بزراعتها، فيحصل الأول على ربع الأرض والثاني على مقابل عمله فيها، بعكس الحال بالنسبة لذات المعاملة بين طرفين ينتميان لنفس المجتمع، ويساهم نظام الوراثة في تحقيق العدالة وحفظ التوازن في توزيع عوامل الإنتاج في المجتمع الواحد، على نحو يحول دون تركيزها في يد قلة.

ومن أساليب إعادة توزيع عوامل الإنتاج في المجتمع في المنظور الإسلامي: الميراث، والمؤاخاة، والفيء، والغنائم، والشراكة في الطعام عند عدم كفايته، ومن الهدي النبوي أن يعود من عنده فضل ظهر على من لا ظهر له، ومن عنده فضل زاد على من لا زاد له، ومعنى هذا أن المطلوب من الفرد في الظروف الطبيعية هو أن يأخذ حقه ويؤدي واجبه.

أما في الأحوال الطارئة فإنه يمكن للمجتمع إعادة توزيع عائد تشغيل عوامل الإنتاج، أو إعادة توزيع عوامل الإنتاج ذاتها حسب متطلبات الموقف بما يحفظ بقاء المجتمع، فلقد نزل الأنصار للمهاجرين عن شطر أرضهم وثمارها، ولما وجد فيء خص النبي ﷺ المهاجرين بمعظمه ورد للأنصار أرضهم؛ وبذا حدث توازن في توزيع عوامل الإنتاج لا ينقسم المجتمع فيه إلى فريقين: فريق فقير ذليل، وفريق غني طاغ، (ص٥٣-٦٣)، ويقوم التوازن على ركيزتين: الملكية الفردية لرأس المال، والتعاون والتخطيط المنظم.

ثالثًا: الصلاحية التنفيذية للنظرية الاقتصادية الإسلامية: برهنت الخبرة الواقعية عن حقيقة تناغم النظرية الاقتصادية الإسلامية وتكاملها، على صعيدي التنظير والتطبيق، فهي لا تقبل الواقع السيئ على علاته ولا تسعى في نفس الوقت إلى تغييره إلا بوسائل منسجمة مع الطبيعة البشرية وفي حدود الاستطاعة البشرية، وعلى نحو يحقق أفضل استعمال ممكن للقدرات المادية والمعنوية.

وتقوم تلك النظرية الاقتصادية الإسلامية على تحليل الأنظمة الاقتصادية

الأخرى من حيث ما بها من مزايا ومن قصور، وما لها من غايات، وتحدد غاية لها هي أن تكون بديلًا يجمع مزاياها ويتخلص من عيوبها جميعًا، ويحدد غايته بما لا يخالف الشرع الإسلامي، وفي واقع المجتمع الاقتصادي الإنساني الحديث ثلاثة أنواع من النظم: نظام نظري لم تعرفه أرض الواقع هو الشيوعية، ونظامان متقابلان هما: الرأسمالية، والاشتراكية، وكل نظام يدعي أنه هو الأصلح والأنفع للإنسان، ولا يرى في النظام الآخر غير مساوئ.

فالنظام الاشتراكي يرى أن نظيره الرأسمالي يبدد الثروات بفوضى نظام السوق الحر، ويمكن لاستغلال البعض للبعض وللحروب، وفي المقابل يرى أنصار النظام الرأسمالي أن النظام الاشتراكي يصادر حرية الإنسان ويؤدي إلى طغيان الدولة على المجتمع، ويقتل الحافز والإبداع الفردي النابع من الملكية الخاصة، وواقع الأمر أن الرأسمالية محملة بعيوب في مقدمتها افتقارها إلى التخطيط وإلى التكافؤ في توزيع الفرص، وهي والنظام الاشتراكي لا يحققان العدل والحرية والمساواة، والتناغم بين الفرد والمجتمع.

وفي المقابل تبين خبرة مجتمع صدر الإسلام بالمدينة المنورة أن الفلسفة الاقتصادية الإسلامية أنشأت مجتمعًا لا محل لمقارنة نجاحه بأي مجتمع آخر على مدى التاريخ، فلقد أقام مجتمعًا مماثلًا للبنيان الواحد المتماسك الذي يشد بعضه بعضًا، فعرف هذا المجتمع قيام أحد كبار التجار بالتصدق بتجارته في مخمصة ألمت بالمدينة مسوغًا ذلك بأنه برضى الله عنه يحصل على عشرة أمثال ثمنها على أقل تقدير، وطبق هذا المجتمع أنظمة مبتكرة في زمن الشدة من قبيل: نظام المؤاخاة، والقرض الحسن، والمشاركة على مبدأ الغنم بالغنم، والغرم بالغرم، ومنحة الأرض حال العجز عن زراعتها مع دفع مقابل لما عليها من مرافق، واستعادة الأرض حال التمكن من زراعتها، والتمليك بإحياء الأرض الموات، وقام ذلك المجتمع على ركيزة الوعي الإيماني، وشخصية استخدام وسائل الإنتاج وعوامله.

والآن صار المجتمع الصناعي الحديث أكثر تعقيدًا من مجتمع المدينة المنورة، فهل لا تزال الفلسفة الاقتصادية الإسلامية هي البديل الأمثل له؟ الفلسفة الاقتصادية الإسلامية لا تركز على وسائل بعينها، بل على غاية، تسعى إلى ابتكار أنسب الوسائل لتحقيقها وفق معطيات كل زمان ومكان، فهي لا تستوجب تغيير المؤسسات القائمة ولا الوسائل المستخدمة، بل تطلب توجيهها لغاية إسلامية هي الاقتصاد العادل القائم على الحرية والعدالة والمساواة والتناغم بين حقوق وواجبات كل من الفرد والمجتمع، وهي بذلك ترحب بالطبيعة العلمية الموضوعية المؤسسية للمجتمع الحديث، ولكنها تختلف معها بخصوص الريع والربح.

فالفلسفة الاقتصادية الحديثة غير الإسلامية تربط حافز الربح بسوء توزيع عوامل الإنتاج في المجتمع، وحاجة العامل إلى عوامل الإنتاج، وتحكم أصحاب رأس المال فيها، وبعدم اعتبار العمل العقلي والعضلي والأخلاقي مصدرًا وحيدًا للكسب، تفتح أبواب الظلم الاقتصادي والرشوة والاحتيال على مصراعيها، وتقترب وضعية الشركات المساهمة في ظل الفلسفة الاقتصادية الوضعية من نظام الاقتراض بفائدة، مع الاستئثار بمعظم العوائد وتوزيع الفتات على المساهمين وعلى العمال، مع تغييب مبدأ المخاطرة وإمكانية الربح والخسارة، وهذا اللون من المشاركة لا يتمشى مع أهداف الإسلام؛ لكونه يحقق الربح على حساب ظلم العمال وتحميل الدولة والمجتمع عبء خسائر الشركات الضخمة بدعوى كونها مؤسسات قومية.

ويعني ذلك حاجة المجتمع الرأسمالي والاشتراكي الحديث إلى دور حيوي للدولة في التخطيط الاقتصادي وتحقيق العدل الاقتصادي، وتقديم المشورة العلمية والفنية، وتمكين المجتمع من الحصول على حقوقه الاقتصادية بوسائل مثل: الضرائب التصاعدية والتأميم وملكية الدولة لعوامل الإنتاج والبنوك والائتمان، والإسلام يعتبر تلك الوسائل مقبولة في حالة الضرورة فحسب وليس في الظروف الطبيعية.

وتقوم الفلسفة الاقتصادية الإسلامية على انتقاء أفضل الوسائل من النظامين الاشتراكي والرأسمالي مع تعديل وظائفها وأهدافها، فهي تسلم بضرورة وجود أجهزة تنفيذية علمية لمراقبة سير الحياة الاقتصادية، وتوفير قاعدة بيانات اقتصادية، وإنشاء أجهزة إحصائية وائتمانية وضريبية وعلمية استشارية، مع ضمان الدولة لعوامل الإنتاج، وتخطيط كل من الاستهلاك والادخار والاستثمار، والسعي إلى تعزيز الوعي الاقتصادي الشعبي والحكومي، بالتربية والتدريب.

وتفسح تلك الفلسفة المجال أمام تكامل الدور الاقتصادي لكل من الفرد والمجتمع والدولة، فالنظام الإسلامي يمنح الدولة حق التخطيط والتوجيه والإشراف والتنفيذ لصالح المجتمع، ويعطي المجتمع حق الرقابة، ويقوم على ملكية أفراد المجتمع لعوامل الإنتاج، فلا تطغى الدولة، ولا تبدد ما بيدها من أموال، وفي ظل هذا التوازن يتعزز ميل أفراد المجتمع للادخار وللاستثمار، وتترسخ روح المسؤولية الجماعية عن الرشد الاقتصادي. (ص٦٤-٩٨).

رابعًا: أساسيات عدالة التوزيع: ترتكز عدالة التوزيع في ظل مبدأ (الكسب للعمل) على حصول الفرد على حقوقه وصون حقوق الآخرين، وإقامة التبادل والتوزيع على أسس عادلة قدر المستطاع، بالاستعانة بأحدث الوسائل العلمية المتاحة، في صياغة معيار للتقييم والتقويم، يقوم على أربع ركائز: العدالة بإعطاء كل ذي حق حقه، وبذل أقصى الطاقة في تنمية الإنتاج، وتنمية ملكات الإبداع والابتكار، وتحسين مستوى المعيشة.

وبالتدقيق في الأنظمة الاقتصادية في المجتمعات الحديثة، نلاحظ أنها قد تترك الحرية للسوق، على نحو يخدم القلة الثرية ومن يستغلون الظروف الطارئة العامة، وفي هذه الوضعية لا يكون هناك مقياسًا حقيقيًا للعمل، وفي المقابل تقوم الأنظمة الاشتراكية على ملكية الدولة لرأس المال واحتكارها لفرص العمل؛ مما يوقع الظلم

بأفراد المجتمع ويقتل إرادتهم. أما في ظل الفلسفة الاقتصادية الإسلامية فإن العبرة تكون بصافي القيمة أو الدخل، وليس بإجماليه المتضمن لاستهلاك رأس المال وحق المجتمع، وتحديد القيمة على هذا النحو ينبثق من اعتبار الإنسان مخلوقًا مكرمًا مسخر له الطيبات، والقيمة تحدد وفق إرادة المجتمع والعرض والطلب في بيئة اقتصادية متوازنة محفزة للابتكار، ولاستقرار الأجور والأسعار، وتتعزز عدالة التوزيع في النظام الإسلامي بتحريم الربا وبفريضة الزكاة بعمقها الاقتصادي والروحي والاجتماعي (ص١٠٠-١٢٠).

الفصل السابع
إشكالية الاستبداد والفساد
في التاريخ الإسلامي

الفصل السابع
إشكالية الاستبداد والفساد
في التاريخ الإسلامي (١)

يحدد أبو سليمان مقصد هذه الدراسة بترشيد حراك شباب الأمة في الآونة الأخيرة الرافض للفساد والاستبداد في بعض الدول الإسلامية؛ حتى (لا تتكرر الأخطاء ويجهض الحراك وتوجهات الإصلاح على يد من يحسبون أنهم يحسنون صنعًا) (ص١٢) .

ويقوم معمار الدراسة على محورين، يحلل أولهما: إشكالية الفساد والاستبداد، ويحدد الثاني الموقف المطلوب من الجماعات والحركات الإسلامية المعاصرة.

أولًا: تحليل إشكالية الفساد والاستبداد: السبب في تردي الأمة الإسلامية من حالة التألق الحضاري إلى حالة الوهن والاستضعاف هو تقزيم مفهوم الشورى، فلقد جرى حصر ذلك المفهوم في: إسداء النصيحة للحاكم، رغم اتساع فضائه الدلالي القرآني، فهو مفهوم منظومة جامع متمثل في (مؤسسة سياسية اجتماعية معبرة عن إرادة الأمة وقراراتها، وليس عن إرادة السلطة الحاكمة)، ولا مخرج من الوضع الراهن إلا باستعادة مؤسسة الشورى وتفعيلها في واقع النظام السياسي المدني الإسلامي، فمفهوم الشورى وعائلة المفاهيم المرتبطة به هو حجر الأساس لبناء مؤسسات النظام الاجتماعي الإسلامي المعاصر الفعالة، بما فيها المؤسسة التربوية والدعوية.

والسؤال الذي يفرض نفسه بالتالي هو: ما هو مفتاح تحقيق هذا المطلب؟ المفتاح هو استلهام تعدد أدوار النبي الخاتم ﷺ، فدور النبوة انتهى بوفاة النبي ﷺ ولكن

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. إشكالية الاستبداد والفساد في التاريخ الإسلامي، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٢. وتقع هذه الدراسة في ٨٠ صفحة.

الصوفية والشيعة سعوا بكل حدة لاستدامة هذا الدور فيما سموه كرامات الأولياء والمشايخ والمعصومين، وكان من الواجب فصل دور النبي ﷺكداعية معلم عن دور السلطة السياسية الحاكمة، ولذا فإن من الضروري فصل مهمة الدعوة والتربية عن السلطة السياسية التنفيذية وإبقائها بيد الأمة؛ حتى لا يوظف الدين في خدمة السلطة، وعرف التاريخ الإسلامي توزع العلماء بين فريق اعتزل الشأن العام، وفريق ربط مصالحه بمصالح السلطة واستبدادها، وتمخض ذلك عن عزل الدين ومقاصده عن الحياة السياسية.

والفساد والاستبداد متلازمان، وبابهما معًا هو إضعاف وعي الأمة، وتسطيح ثقافتها، وتغييب دور المؤسسات الحارسة لقيمها، وعبر تلك البوابة تنطلق دورة الفساد والاستبداد بتعميق قناعات صورية مضللة تسوغ الظن بقصور الأمة، وتجعل من السلطة السياسية خصمًا وحكمًا ووصيًا على الجماهير، ولا مخرج من ذلك بعد الوقوع فيه غير استعادة الوعي وحسن تربية النشء وتأهيله، وفق رؤية كونية حضارية إسلامية منهاجية، وينطلق القضاء على متلازمة الاستبداد والفساد من بناء الوعي بالعناية بالأسرة، والأدبيات الوالدية، وتربية وجدان الطفل، واستقلال دور التربية والتعليم والدعوة. (ص ١٣-٢٢).

ويتمثل الأساس القرآني في وجوب إسناد أمر الدعوة والتربية والدعوة والتعليم الدينية إلى مؤسسة اجتماعية تربوية مستقلة، هو قول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، وقوله في سورة التوبة: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾، ومفهوم الأمة هنا يعني فئة أو جماعة أو بلغة العصر: هيئة أو مؤسسة مستقلة (ص٢٣).

وبالتالي يجب أن تقام تلك المؤسسة المستقلة التي تتولى مسؤولية مناهج الدعوة، والتربية والتعليم، والإعلام، والثقافة الدينية الاجتماعية، ويناط بالأمة وممثليها المؤهلين المنتخبين اختيار قيادات تلك المجالات والمسؤولين عن التوجيه الحضاري فيها، ولا تكون للسلطة التنفيذية أية سلطة عليها؛ وبذا توضع الأمور في نصابها بأن تعود للأمة سلطة الأمر والتوجيه لسلطات الدولة السياسية التنفيذية، ففصل مؤسسة الشورى بهذا المعنى الواسع عن مؤسسة الحكم هو مفتاح تجفيف منابع الاستبداد والفساد.

فلقد انقلب نظام الأمة حين صورت جماهيرها على أنها لا تعلم ولا تفقه، وصورت السلطة السياسية على أنها تعلم وتفقه، ووصية على الأمة، وتلك دعوى فاسدة لا أساس لها، فالقرآن يقرر أن أمر المسلمين شورى بينهم، وحق من يجهل أن تتاح له فرصة المعرفة والتربية لا أن تفرض عليه الوصاية.

وفي مقابل انفتاح صفوة صدر الإسلام على القرآن والسنة بسليقة فطرية على مقاصد الشرع ومبادئه، مع الاهتداء بالشورى إلى البت في كافة تفصيلات حياة الأمة على هدي منها، والتنقيب عن السنن الكونية لإتقان الفنون المهنية، غرق العقل المسلم المعاصر في لجة ألوف المتون والحواشي والمختصرات النظرية، ومن المهم هنا بناء الوعي بالفرق الجوهري بين فصل الدين عن السياسة وهو الخطأ بعينه، وبين فصل الدين وشؤون الدعوة والتعليم والتربية الدينية والثقافية عن السلطة الحاكمة؛ لمنع تسلطها عليها، ومنعها من تشويه الدين ومن الاستبداد والظلم، زد على ذلك أن من الضروري التخلص من تقزيم مفهوم الدولة بحصرها في السلطة الحاكمة، التي هي مجرد واحدة من مؤسسات الأمة. (ص٢٣-٢٩).

ومن الضروري على نحو بالغ الإلحاح في عصر الهجمة الفكرية العنكبوتية الغربية، مراجعة الفكر الإسلامي عامة والفكر السياسي الإسلامي بوجه خاص

بمنهجية تنطلق من الرؤية الحضارية للأمة والمقاصد والمفاهيم القرآنية، وفهم نموذج العهد النبوي بقيمه ودلالاته الإنسانية؛ لتتمكن الأمة من إنتاج فكر يواكب تحديات العصر، ويجتهد بوعي بالثوابت والمقاصد الإسلامية في تجديد خطابها وإعادة بناء مؤسساتها، المعبرة عن إرادتها الحرة، ذلك أن الفرق بين الأمة العاجزة والأمة الفاعلة هو خضوع الأولى لإملاءات فوقية وتزييف إرادتها واستيلاء السياسي على الديني، مقابل وضع الثانية برامجها وترتيباتها بإرادتها المستقلة الحرة بمؤسسات الدعوة، والتربية والتعليم، والثقافة، والإعلام المستقلة عن السلطة.

وينطلق منطق إبعاد الدين عن سطوة السلطة التنفيذية من حقيقة قابلية البشر للضعف والانحراف، والبون شاسع بين اتخاذ الدين وسيلة للحب والحق والخير، وبين جعله وسيلة للقهر والاستبداد، ومن نماذج الخلط المفاهيمي في هذا الصدد ترويج مقولة: «أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»؛ لتسويغ قهر السلطة وتسلطها على الرعية، مع أن الله تعالى بين في القرآن أن النبي ﷺ رحمة للعالمين، وأمر بأن تكون الدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وفي هذا الخلط انحراف بوظيفة الدولة من إقامة العدل وحفظ مقاصد الشريعة في مواجهة من لا تردهم الدعوة عن البغي إلى التسلط والوصاية، ومن أساسيات ضمان عدم انحراف السلطة إقامتها على مبدأ اللامركزية والتخصيص، فليس لأحد بعد النبي ﷺ أن يجمع أدوار السلطة جميعها في يده، فتلك واحدة من خصوصياته.

وبهذه الرؤية المنهجية يكون نظام الأمة معبرًا عن مقاصدها الإسلامية، ويجعلها أمة حية لها حكومة ونظام مدني إسلامي معبر عن وجدانها، وعن التوافق بين مواطنيها المتساوين في الحقوق والواجبات، فالإسلام يقيم حكومة: **إسلامية** من منطلق قيامها على مقاصده وقيمه وتحديد هويتها به، ومدنية من منطلق رعايتها للهويات الفرعية، وقبول مواطنيها من غير المسلمين، لقيمها ومقاصدها بحكم

الفطرة، والعقل، وجوهر الدين، وتبلور أسس تلك الحكومة بوثيقة توافقية على غرار وثيقة المدينة المنورة تقيم دولة مدنية التنظيم، إنسانية إسلامية المحتوى.

ويؤشر ذلك على الفارق الجوهري بين النظام السياسي العلماني الديموقراطي والنظام السياسي الإسلامي الشوري، فالأول رأسمالي في مجال الاقتصاد، ليبرالي في المجال الاجتماعي، ديموقراطي في المجال السياسي، ورغم وجود أوجه تشابه بينه من قبيل مرجعية الأغلبية والفصل بين السلطات، فإن الفلسفة التي يقوم عليها تقف على طرف نقيض من فلسفة النظام السياسي الإسلامي، ففلسفته تقوم على فكر مادي يجعل الإرادة الإنسانية معيارًا للحق والصواب والخير، بما يجعل الحقيقة قضية ذاتية إنسانية، فهو نظام يقوم على التوافق بين إرادات ذاتية.

وتولدت عن ممارسات ذلك النظام وفق فلسفته إشكالات، أولها أن الحرية صارت تعني: الفوضى الاجتماعية الأخلاقية، فانهارت القيم والمبادئ والقيود الأخلاقية وسادت الشهوات والأهواء الذاتية، وعصف ذلك بالدور التربوي للأسرة بوصفها محضنًا لتربية الأجيال وسد حاجاتهم الروحية والنفسية والعاطفية والمادية، وصارت مجتمعات ذلك النظام على شفى وضعية أمم بائدة مثل قوم لوط وعاد وفرعون.

وفي المقابل فإن نظام الشورى الإسلامي يقوم على مقاصد القرآن، ومع أنه يلتزم خيار الأغلبية فإنه ينطلق من الوعي بأن الحق حقيقة موضوعية غير ذاتية، وأن الحقيقة الكونية الكلية ليست في متناول البشر، وأن الإنسان محتاج إلى الرؤية الكونية الكلية، وتلك الرؤية رؤية قيم ومبادئ يلزم غرسها في وجدان المسلم، وهي متناغمة مع الفطرة الإنسانية يرتوي بها العقل والروح والوجدان، وتمثل إطارًا ثابتا لحياة إنسانية روحية أخلاقية إعمارية خيرة، ومن حق الإنسان أن يرفض تلك الرؤية الكلية بكامل حريته فيكون غير مسلم. أما إن قبلها فلا يكون له الحق في التغيير والتبديل في ثوابتها.

ويقوم النظام السياسي الإسلامي على قيم وثوابت تلك الرؤية الكلية، وهو بذلك نظام ديموقراطي يلتزم رأي أغلبية المواطنين، لكنه ديموقراطي إسلامي شوري، وليس ديموقراطيًا ماديًا علمانيًا، وتلتزم الأحزاب والفئات السياسية بالتنافس ببرامج تقوم على رؤية الأمة وأولوياتها، وخلاصة الفرق بين النظامين أن النظام العلماني الديموقراطي يقوم على فلسفة الحق للقوة، بينما يقوم النظام الشوري الإسلامي على فلسفة القوة للحق، وينعكس هذا الفرق على كافة المؤسسات والترتيبات والقرارات.

وتكشف الخبرة التاريخية أن خروج أمتنا من أزمتها لن يتحقق بمحاكاة عمياء للديموقراطية المادية، فالأخذ بالشورى بمضمونها القرآني هو مفتاح إصلاح السلطة البرلمانية والسلطة التنفيذية أيًا كان شكلها، طالما تم الأخذ بمبدأ عدم تركيز السلطة في يد واحدة، ووجود رقابة دستورية، وإخضاع للسلطة الحاكمة لإرادة الأمة، ومقتضى المنهجية الإصلاحية هو تجنب العنف في حسم الخلافات التي تنشب بين مكونات الأمة في المجتمع المسلم والدولة المسلمة، فالمقاومة المشروعة إسلاميًا هي المقاومة المدنية الجماعية السلمية، وحدها حالة الصراع العرقي المسلح بين طائفتين هي التي توجب حال استنفاد كل إمكانيات التوفيق والصلح بينهما إلى رد الطائفة الباغية بالقوة إلى حد التوقف عن البغي، والسعي إلى التوفيق والتصالح.

ويتطلب توحيد صفوف الأمة أن تكون لها مؤسسات أمة، تتولى التشريع والتنفيذ والمراقبة والمحاسبة، فالأفراد الإصلاحيون غير معصومين وقابلين هم أنفسهم للوقوع في فخ الاستبداد والفساد.

وإذا كان تزييف الإرادة الشعبية بوسائل شتى أمرًا يحدث في النظم غير الإسلامية، فإن النظام الشوري الإسلامي يأباه؛ لتعارضه مع فلسفته القائمة على قوة الحق، ومفتاح السير على طريق استعادة هذا النظام وتفعيله هو: التربية الإسلامية.

ومن البدهي أن تحرص الأنظمة القائمة على تثبيت الوضع القائم والوقوف ضد إرادة تغييره، ومن هنا فإن التعويل في التغيير يجب أن ينصب على فطرة الآباء والأمهات في الحرص على مصلحة أبنائهم بالتركيز على التنشئة الوالدية الإسلامية للطفل. (ص٣٠-٥٢).

ثانيًا: دليل إرشادي للجماعات والحركات الإسلامية المعاصرة: السؤال المطروح في ظل ما عرف بثورات الربيع العربي هو: ما المطلوب لكي تبني الأمة نظامًا إسلاميًا شوريًا يولد المناعة من التبعية، ويجفف منابع المساعي الخارجية لمزيد من الإضعاف والتفريق للأمة الإسلامية، ويتجنب بريق العائد الآني السريع غير المحمود العواقب، ويقطع الطريق على توظيف أعداء الأمة المتربصين بها لثورة الأمة، على نحو يكفل عودة الاستبداد على نحو أنكى وأمر؟.

مفتاح الإجابة على هذا السؤال المركب هو الوعي بخبرة دروس التاريخ وخلاصتها أن: مقابل الحرص على فتات المكاسب الانتهازية هو تكبيد الأمة الثمن أضعافًا مضاعفة، فأعداء الأمة لا يكفون عن التخطيط لصراعات وحروب بين مكوناتها، و على الجماعات والحركات الإسلامية أن تعي ضرورة التحرك في هذه اللحظة الفارقة بخريطة المقاصد القرآنية والنظرة الإسلامية للإنسان؛ لتنزيل مفاهيم الرسالة ومبادئها على واقع الزمان والمكان المتغيرين، ومفتاح الوفاء بهذا المطلب هو تفعيل مبدأ (الشورى) بفضائه المعرفي الواسع والعميق المعبر عنه في سورة الشورى بقول الله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ (٣٧) وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ (٣٨) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.

والمفتاح الثاني هو الفهم الصحيح لطبيعة العمل الدعوي والعمل السياسي ومناهج ووسائل ومجالات كل منهما، فمجال الدعوة هو التربية والتعليم القيمي الاجتماعي الباني للوعي بثوابت الدين وقيمه ومقاصده، وبخطاب الحب في الله ولله، وبغض ما يبغضه، وهو يرتبط بسد حاجة المحتاجين وبتنمية المهارات الحياتية.

أما العمل السياسي فيتعلق ببرامج إدارة الحياة العامة لصالح كل الفئات دون إجحاف بأي منها، والعمل الدعوي بمعناه سالف الذكر المحرر من سيطرة السلطة الحاكمة عليه، هو الأهم؛ لكي تستعيد الأمة حقها وواجبها في حرية العمل والاختيار والعقيدة والفكر والدعوة المقاصدية، فذلك هو طريق الإصلاح الحقيقي الإنساني القائم على رسالة خير أمة أخرجت للناس في الدعوة إلى الإسلام بوصفه دين الإنسانية، وهو الطريق لاستعادة وضعية (الأمة الوصية) على السلطة السياسية الحاكمة، ومعيار الحكم على إسلامية أي حركة أو حزب هو: عدم التمييز بين أفراد الجمهور والأعضاء الراغبين في الانضمام إليه، والتسليم بحق الأكفأ في الترشح للمنصب المتنافس عليه، وفتح باب العضوية فيه لغير المسلمين القابلين لتوجهه الإسلامي ولمبادئه، ويمكن أن تتعدد الأحزاب السياسية بتعدد الرؤى والتفاوت في قدرات خدمة مصالح الأمة.

والتجربة التركية درس يحتذى في هذا المقام، فلقد حافظت تلك التجربة على وضع مؤسسة الأوقاف والتعليم الديني بيد الشعب ورجال الدعوة، وتوجت التجربة السياسية التركية بالوصول عبر مراحل إلى إقامة حزب ملتزم بمنهج الدولة الإسلامية المدنية العضوية مفتوحة فيه للمسلم وغير المسلم، وبرنامجه قائم على المقاصد والكليات الإسلامية، والجذر التأسيسي لهذا الإنجاز المؤسسي هو الحركة النورسية.

والمطلوب من الحركات الإسلامية في ضوء ذلك هو التركيز على العمل الدعوي، وترك المجال السياسي؛ ليتنافس فيه شبابها مع بقية أطياف المجتمع،

ويخطئ الإسلاميون إن هم ظنوا أن مطلوب أمتهم هو وصولهم إلى السلطة، فمطلوب الأمة هو: إصلاح الفكر ومناهج الدعوة، وهو المفتاح الذي يتم بامتلاكه حل كافة المعضلات التي تهدد الأمة.

والسبب في إخفاق كثير من الحركات الإسلامية ليس تصدي القيادات العلمانية الحاكمة لها، بقدر ما هو: إخفاقها في بناء رؤية كونية للمجتمع المسلم مغايرة للرؤية الكونية الغربية المادية، تخرج الفئات المنبهرة بالنموذج الغربي في الحكم وقضايا الاقتصاد والمرأة من أوهامها وما تعاني منه من تشوه فكري وثقافي، فدور الحركة الإسلامية يجب أن ينصب على بناء النموذج المعرفي الحضاري الإسلامي البديل للنموذج الحضاري الغربي السائد.

وأمامنا نموذج الأقلية الصهيونية التي استطاعت السيطرة على مقدرات الغرب عبر السيطرة على الفكر وعلى الإعلام والمؤسسات المالية، بما مكنها من تزييف الوعي الغربي، ودفع الحكومات الغربية إلى تبني سياسات لا تخدم شعوبها.

ولقد كشفت استطلاعات الرأي العام أن الجميع في المجتمعات العربية يؤمنون بقيم الإسلام، وبالتالي فإن مخالفة سلوكهم لهذا الإيمان راجع إلى قصور في التوعية الإسلامية وفي الفكر وفي تنزيل الشرع الإسلامي على الواقع المعاصر، وبقدر ما تحقق مؤسسات الدعوة من استقلال، وتجديد فكري دعوي، تنجح الأمة في العمل السياسي والاقتصادي والمادي الحضاري؛ فسنة الله تعالى أنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وأمتنا الآن أمام مفترق يستدعي الفصل بين الدعوي والسياسي، وبناء وعيها بالفرق بين (المدنية الإسلامية) و(الليبرالية العلمانية)، فالعلمانية المطلقة جديرة بنبذ المسلم لها لما تحمله من تغريب وحجر على الإسلام ودعوة إلى التحلل الخلقي، إلى افتقاد مرجعية الهداية الإلهية بثوابتها الروحية والعقلية والفطرية.

ولباب ما آل إليه حال الغرب بالليبرالية العلمانية المادية بكافة أشكالها الرأسمالية والاشتراكية هو: وضعية اللاأدرية الدينية، فلم تعد المسيحية هي دين الغرب، بل أصبح دينه هو الرؤية المادية الطينية الحيوانية، وقانونها هو قانون الغاب، وهي نقيض للرؤية الكونية الاستخلافية الإنسانية الإسلامية.

وما تمخض عنه تطبيق تلك الرؤية ليس الحرية، بل الفوضى الاجتماعية، والافتراس الاقتصادي للضعيف اللذان أوديا بحضارات سابقة، فللغرب دين ولنا دين.

ويفسر هذا سر رفض الاتحاد الأوربي انضمام تركيا إليه رغم كل ما تبنته من وسائل ديموقراطية وما أنجزته من تقدم اقتصادي، كما يفسر ضيق الغرب بالأقليات المسلمة وحرمانه لها مما يعتبر في دينها حقًا لها، ويستوجب هذا استبدال مفهوم المدني بمفهوم العلماني في وصف النظام الإسلامي، ولب مفهوم (المدنية الإسلامية) هو رفع يد السلطة عن التعليم الديني وعن الدعوة؛ حتى لا يتمكن رجال السلطة من تشويه مبادئ الدين، وتوظيفه في السيطرة على الجماهير، واحتكار السلطة والثروة، وتفشي الاستبداد والفساد. (ص٥٣-٧٨).

الفصل الثامن
الإنسان بين شريعتين رؤية قرآنية
في معرفة الذات ومعرفة الآخر

الفصل الثامن
الإنسان بين شريعتين
رؤية قرآنية في معرفة الذات ومعرفة الآخر [(١)]

تقوم هذه الدراسة على ثلاثة مفاتيح معرفية هي: حاجة العلم إلى الرشد، والإنسان بين شريعة الحق للقوة وشريعة القوة للحق، والمعرفة المنهجية بوصفها هي مفتاح التعامل مع الآخر، وفيما يلي إطلالة على مفاصلها الرئيسة:

أولًا: حاجة العلم إلى الرشد: فهم منطلقات الرؤية القرآنية الكونية شرط لمعرفة أمتنا بذاتها وبالآخر، والسير مجددًا على طريق تنقية ثقافتها وتفجير مكنون طاقتها الحضارية، ومواجهة تحديات العصر، وإصلاح مسيرة الإنسانية باتجاه نور الحق والعدل والسلام، فلا علاج لأبناء أمتنا من الأمراض النفسية للانحراف والتخلف دون وضوح للرؤية وفهم للذات وتنقية للفكر والثقافة وتوقف عن التقليد الأعمى وفهم الآخر الغربي ومعرفة سبل التعامل الفعال معه.

وأساس هذا الرشد المعرفي هو الوعي بالتعريف القرآني للإنسان، فهو مخلوق ميزه الله تعالى بتعليمه الأسماء كلها بتزويده بالقدرة على الإدراك والتمييز وعلى تجريد المشتركات التي تضم المفردات، وتوليد الأفكار والمبتكرات، فمفهوم (تعليم آدم الأسماء) يعني تزويده بقابليات، لغوية وإدراكية وعقلية، هي أصل قدرته العمرانية الحضارية الاستخلافية، بجعله يثير بفطرته الأسئلة الكلية النهائية.

والمصدر الوحيد الذي يمكنه التوصل منه لإجابة يقينية عليها هو الدين، لعجزه

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد: الإنسان بين شريعتين: رؤية قرآنية في معرفة الذات ومعرفة الآخر، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٠٧. وتقع هذه الدراسة في ١٠٩ صفحة. وانظر طرحًا موجزًا لمحاور تلك الدراسة في: د. عبد الحميد أبو سليمان، الإنسان بين شريعتين: رؤية قرآنية في معرفة الذات ومعرفة الآخر، مجلة إسلامية المعرفة، العدد ٢٨، ربيع ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢، ص ١٢٣- ١٤٨.

عن إدراك الكلي والمطلق وغير المحدود بعقله، فتلك هي ساحة البعد الروحي القلبي في الإنسان.

وإلى جانب الإيمان الفطري الوجداني النابع من الدين المنزل في معرفة مصدر الوجود ومعناه وغايته ومصيره، سعى الإنسان إلى البحث العقلي عن إجابة لتلك الأسئلة فنشأت الفلسفة والفلاسفة في حدود منطق إدراك العقل ومنطقه، فإذا أدرك الإنسان المفكر الفيلسوف محدودية منطقه وإدراكه الجزئي بشأن تلك الأسئلة، فإن جهده العقلي يستنير بنور الممكن من المعرفة، بما يعزز الإيمان الفطري الديني، وتلك هي المعرفة الرشيدة التي قادت الملائكة إلى الإيمان والطمأنينة، بخصوص القابليات الفطرية والروحية والعقلية للإنسان في لحظة خلق الله آدم وتسويته والنفخ فيه من روحه وتعليمه الأسماء كلها.

وعلى العكس من ذلك فإن غرور إبليس بعلمه الجزئي أعماه عن قابليات آدم العمرانية، وعلى دربه يسير العلماء الجهلة الملحدون بظنهم بأنهم يملكون بعلمهم المحدود الحقيقة ويحيطون بالأسباب، ومعنى هذا أن للعلم الراشد ركيزتين: سؤال الفطرة وسؤال العقل المستنير بنور الله، الواعي بمحدودية إدراكه وعلمه بالكلي، فالإيمان صنو الثقة والاقتناع، وهو بالتالي يتعزز بالتفكر العقلي الرشيد، والعلم الراشد مدعاة للإيمان.

وفي الأنفس والآفاق مجال هائل للتفكر يعمق الإيمان في الذات مع ثبات الوعي بمحدودية الإنسان وإدراكه ومنطقه، وبعظمة الخالق والخلق وخيرية غاية الوجود.

وأهم حقيقة في عالم الإنسان هي وجوده، واعتماده على منطقه الجزئي المحدود يقوده إلى حتمية عدم وجوده أصلًا، فلا يوجد في منطقه وإدراكه في البدء شيء من لا شيء، ولعل القصور في هذا المنطق أن الوجود لا يخضع لمنطق الإنسان المحدود، بل لمنطق كلي أعلى من منطقه، ومن الشواهد المحسوسة التي تقرب هذا المعنى عجز

الحيوانات عن إدراك المعادلات الرياضية، ليس لكونها غبية، وإنما لكون منطقها وإدراكها أكثر محدودية من إدراك الإنسان ومنطقه، وعدم إدراك الحيوانات لتلك المعادلات لا يعني عدم وجودها.

ومن الشواهد على ذلك أيضًا أنه كلما اكتشف الإنسان جديدًا في خصائص المادة تبين له أن من غير المنطقي نفي وجود ما يجهل وجوده، واستدل على محدودية منطقه وإدراكه قياسًا بعلم الله تعالى الكلي المطلق الظاهر للإنسان في إحكام خلق الكون ودقته.

وثبات المنطلقات شرط للبحث العقلي الراشد، ويمكن في ظل هذا المحدد المنهجي إثارة السؤال التالي: كيف نفسر ظاهرة دورة الحياة التي تقوم على افتراس بعض الكائنات لبعض الكائنات الأخرى من أجل البقاء على قيد الحياة؟ وما الحكمة الكامنة فيها؟ القراءة العلمانية بالمنطق الإنساني العقلي المحدود الإدراك أوصلته إلى القول بأن الوجود قائم على الصراع وشريعة الغاب والبقاء للأقوى. أما النظر العقلي المدرك لمحدودية منطقه فقد يفسر الحكمة في ذلك بضرورة توازن الأنواع فيما لو سلم بعدم إمكانية تحقق ذلك إلا بالترتيب والتنظيم القائم لدورة الحياة على الأرض.

وقد يفسر البعض ذلك بالدور الحيوي للألم في الحياة، إلا أن ثبات المنطلقات في البحث يطرح على العقل الذي يميز بين انبثاق الإيمان من الكليات، وانحصار دوره في سؤال نابع من التفصيلات والجزئيات، نفس السؤال من منطلق قدرة الله المطلقة على إقامة توازن لدورة الحياة دون افتراس ومعاناة، مع عدم تأثر إيمانه بتوصله لكشف تلك الحكمة أو الإخفاق في التوصل إليها والإحساس بحاجته لبذل مزيد من التدبر والتأمل، فالإيمان لا ينفي واجب التفكير والبحث طالما لم يشوبه كبر وغرور.

وهنا توصل **أبو سليمان** إلى إجابة قدمها **ابن الجوزي** من قبل لهذا السؤال،

استراح ضميره لها نسبيًا وإن بقي السؤال مطروحًا، منطوقها هو: (إذا لم تهتد إلى جواب محسوس أو معقول مقنع، ففوض الأمر إلى الله وأنت على ثقة بحكمة بالغة فيه تخفى عن منطقك وإدراكك المحدود القاصر). (ص٣-٣٦).

وأجد لزامًا علي هنا أن ألفت النظر إلى وقوع كثير منا في فخ التصديق على مقولة إبليس أن النار خير من الطين، واتهام الحيوان والطين معًا بأنهما هما البعد المتسبب فيما يقترفه الإنسان من شرور، في مقابل البعد الروحي الذي ينبع منه ما يصدر عنه من عمل صالح، فالإنسان كائن مبتلى بالاستخلاف في الأرض، وتكريمه مرهون باستقامته على صراط الله، وانحرافه عنها يهوي به في دركات تجعله أضل من الأنعام.

وما التسخير إلا قابلية الأشياء لمطاوعة إرادة الإنسان في استخدامها فيما خلقها الله له، فإن هو استخدمها في غير ما خلقها الله له، فهو معتد عليها وباغ ومفسد في الأرض، والقرآن يقرن النار غالبًا بالضرر والعقاب، في حين يقرن الطين بالقابلية لتلقي الماء والإنبات من كل زوج بهيج، ومن جهة أخرى فإن من الخطأ التحرر من فخ زيف المقولة الإبليسية بحق الطين، بمحاكاتها بالحط من قيمة النار، فهي قد تتصل بالنور.

وهي لدى إحسان استعمالها تحقق الدفء، وتذهب خبث المعادن، وتصنع المواد الرابطة بين لبنات البناء، وتعين الإنسان على صنع المتاع والزينة، على سبيل المثال لا الحصر. أما النور فهو خير كله. وأما الظلمات الإنسانية فهي شر كلها، ولذا فإن مقولة أن (الطين راكد خامد منحط القدر والمقام) مقولة تحتاج إلى مراجعة جذرية، فهي مفتاح لغبش تحقير جسد الإنسان والحيوانات.

فلنعد إلى الدراسة الإنسانية لنطالع فيها أن الإنسان نور وطين، أو هو كائن فريد تلتقي فيه الروح السامية وحمأة الطين الخامد المنحط، وهو الكائن الوحيد في الأرض الذي تلقى نور وحي الشرائع الربانية؛ لترشيد حياته، على غير شريعة الغاب

وقانونها الذي يحكم طبع الحيوان (ص٣٦) ومرة أخرى نستشعر حاجة ذلك القول إلى مراجعة جذرية، فالوحي المنزل لم يأت للإنسان وحده بل للثقلين، والمخلوقات الأخرى لم تحرم من نور الهداية والرعاية الربانية، بل علمنا القرآن أنها أمم أمثالنا.

ومن الحكمة استعادة إجابة ابن القيم على الواجب حين يظل السؤال الذي يطرحه العقل مفتوحًا، وعدم ترتيب تحليل معرفي على ما يتم تحصيله لكونه لم يتعد مستوى الظن الذي أوصانا الله تعالى بترك كثيره لكون بعضه إثمًا، ولا تكون الحياة الدنيا صراعًا بين الروح والجسد إلا حين يفتقر القلب إلى الإيمان والعقل إلى الاستنارة بنور الوحي المنزل، والوجود المادي ليس منحطًا، بل هو طيبات، ما لم يفسد الإنسان المادة ويوظفها في غير ما خلقها الله له، فالمادة ومنها الماء أداة للتطهر ولستر العورة وسد الحاجة الإنسانية، فيما لو طهرت هي بهدي الوحي المنزل (ص٣٧-٤٦).

ثانيًا: شرعة الغرب المادي العنصري الاستعماري: نواتها هي: الحق للقوة، والدرس المستفاد من الطرح السابق أن الإنسان مزود بقابلية روحية للارتقاء وبقابلية شهوانية للانحطاط، والجذر الأساس لشرعة الغرب المادية هو الفلسفة الداروينية الفاسدة القائمة على فرضية عشوائية الخلق، ونفي البعد الروحي في الإنسان.

وتنكرت تلك الفلسفة الداروينية التي يقوم عليها الفكر الغربي المعاصر للرؤية الكلية المسيحية المحرفة، وأسست لمقولة الحق للقوة، التي ترسخت في الغرب ولدى من نسجوا على منواله، وغيبت تلك الفلسفة معاني الإنسانية والرحمة والتكافل لصالح التمركز حول الذات القومية العنصرية في التعامل مع الآخر بروح الظلم والعنصرية والاعتداء الذي وصل حد استئصال شعوب بكاملها، وسلب أرض الشعب الفلسطيني وتشريده، فالغرب انحرف عن شريعة النور وأنكرها وحرفها وتبنى شريعة الغاب، فانهارت أخلاقيات مجتمعاته وسلوكياتها إلا من النذر القليل مما تبقى من أثر القيم المسيحية.

وعرف الغرب نوعًا من العبث المفاهيمي اعتبر معه الظلم مهارة سياسية، والانحلال الأخلاقي حرية، ووظف مفهوم حقوق الإنسان في ابتزاز الآخر، جاعلًا منها كلمة حق أريد بها باطل.

وتنبه الدراسة إلى أن هذا الوصف لشرعة الغرب يختص بالنخب الحاكمة والدوائر ذات النفوذ وليس بالشعوب المغلوبة على أمرها والمغرر بها، والتي توجد في أوساطها رغم ذلك توجهات مناهضة لشرعة الغاب، غير مؤثرة حاليًا، لكنها قد تكون بذورًا للإصلاح في تلك المجتمعات في المستقبل، والقومية هي الوجه الآخر للتضامن العنصري في الغرب الذي نبع منه الاستعمار وسياسة القوة والهوس بالتسلح وباحتكاره وبتدمير الشعوب الأخرى، إلا أن ذلك كله هو عواقب التخلي الغربي عن نور الوحي المنزل الذي يجعل القوة للحق.

وتشمل تلك العواقب النهم الاستهلاكي غير القابل للإشباع وتحلل الأخلاق وانهيار القيم، والنظر للإنسان على أنه حيوان غاية وجوده هي الإشباع المادي، والتقى في هذه الحضارة الغربية الشيطان مع الهوى والغرور الإنساني والغطرسة والتسلط الاستعماري العالمي المعاصر المستهدف للمستضعفين المظلومين. (ص٤٧-٦٦) .

ثالثًا: شريعة الروح والنور والعدل: تلك هي شريعة أمة القرآن، ونظرًا لكون تلك الشريعة قارة في وجدان المسلمين فإنهم فشلوا في التتلمذ على يد الغرب بعكس اليابان، وأخفق مسعاهم للتقدم المادي بمحاكاة الغرب، ولم تحرك مساعي ما يسمى الإصلاح على الطريقة الغربية الطاقة الكامنة في شعوبهم، ولو فهم المسلمون ذاتهم ومنطلقاتهم وبنية ضمائرهم، لأدركوا أن المادة لا تصلح لأن تكون غاية للوجود.

ولكون المسلم غير مقتنع بحكم تكوين ضميره بكون المادة غاية للحياة فإنه كان وسيظل فاترًا في تقليد الغرب، وعلى العكس من ذلك فإن انطلاق المسلم من الرؤية الكونية القرآنية الكلية يتوافق مع فطرته ووجدانه وضميره، ويجعله يدرك أهمية المادة كوسيلة لتحقيق المقاصد والقيم، وليس كقيمة بحد ذاتها، وفهم المنطلقات

العقدية دون غبش يساعد المسلم على توظيف المادة في تحقيق غايته الكبرى وهي بناء حضارة قوة الحق.

أما في حالة عدم معرفة المسلم ذاته، فإنه يصير كالتائه في الصحراء العادم للوجهة والعزم، ولن يحسن مثل هذا المسلم التائه اختيار الجديد المناسب له مما لدى غيره، ولا تحريك طاقاته الكامنة، ورسالة الإسلام محفوظة بحفظ الله لها، والإنسانية في أمس الحاجة إليها، والأمة المسلمة مسؤولة عن استعادة وعيها بذاتها والقيام برسالتها في إنقاذ البشرية من شريعة الغاب، والتعاون بين عقلائها وعقلاء الأمم الأخرى لوقف العدوان الذي ازداد ضراوة مع بداية القرن الواحد والعشرين.

والقوة قاسم مشترك بين شريعة الحق وشريعة الغاب؛ ولذا فإن أتباع شريعة النور بحاجة إلى إعداد القوة لكونها وسيلة لا غنى عنها في التدافع الإنساني وإقامة مجتمع دولي إنساني حقيقي، قائم على فلسفة الإسلام في السلام والأمن والعدل ووحدة الإنسانية في دوائر الولاء المتداخلة، لا على الأساس القومي العرقي التسلطي، وعلى أتباع شرعة النور أن يعوا أن مرد انسلاخه عن الرسالة السماوية هو ما جنته مؤسساته الدينية من تحريف للمسيحية، وبالتالي فإن من حق الشعوب الغربية تبصيرها بالرؤية الكونية القرآنية وبحاجتها إليها في التخلص من مآلات الدمار التي أفرختها شريعة الغاب، وفي التحول إلى شريعة النور والرحمة والعدل. (ص٦٧-٨٦).

رابعًا: مفتاح التعامل مع الآخر: المعرفة المنهجية ومراكز وأقسام دراسة الغرب: أنشأ الغرب الدراسات الاستشراقية بهدف فهم الشعوب الأخرى، لكن بروح قانون الغاب لافتراسها وقهرها وتسخيرها لهوى الغرب ومطامعه، وعلى مفكري أمتنا إنشاء مراكز للدراسات العلمية، وأقسام علمية، وبرامج لدراسة الغرب والفكر الغربي، بهدف يتناغم مع شرعتهم، بالسعي إلى فهمه وتوجيهه وجهة خيرة لصالح شعوب الإنسانية كافة، ويجب أن تفك تلك المراكز التزييف والتضليل

الغربي ومجابهة الافتراس الغربي الصهيوني.

ومن الوهم ظن البعض أن الغرب سيقبل التخلي طواعية عن شريعة الغاب، فالغرب بمثابة صياد، والفريسة التي يسعى لاصطيادها هي العالم الإسلامي؛ ولن يقبل الصياد من الفريسة أن تقوم بدور كلب الصيد، فتعويل البعض الناتج عن حالة الضعف التي هم عليها على الوسائل الدبلوماسية والدعائية المجردة في صد التعديات والمظالم والجرائم الصهيونية والاستعمارية عن الأمة هو بمثابة أوهام، لن تؤثر بأي حال في مسار العلاقات الدولية المعاصرة، والأسلوب الوحيد للتأثير السلمي هو جهود تبذلها الجالية المسلمة، ضمن قواعد اللعبة السياسية الداخلية بالتعاون مع من يؤازرهم من غيرهم ممن لا تزال فيهم بقية من نور القيم السماوية والضمير الحي، إلا أن ثبات تلك القواعد غير مضمون في ظل شريعة الغاب لأية أقلية بما فيها الأقلية اليهودية.

والمخرج المنهجي للأمة وللإنسانية من أزمتها الوجودية الراهنة هو الإصلاح النابع من رؤية كونية قرآنية تعرف بها الأمة المسلمة ذاتها، وتحرك كامن طاقاتها حتى تصير ندًا للدعوة وشريكًا داعمًا لقوى الخير والصلاح.

ولقد بدأت الجامعة العالمية الإسلامية بماليزيا وضع لبنات برامج وتخصصات في الدراسات الغربية لفهم الغرب، ومن المأمول أن تحذو جامعات أخرى بالعالم الإسلامي حذوها لبناء أساس لحوار الحضارات وتكاملها، ووضع نهاية لصراع الحضارات وتظالمها. (ص٨٧-٩٢).

وما أجمل لقاء الروح والنور مع المادة والطين في كيان الإنسان، وتتجسد معاني الطهر والنور والحق والعدل والجمال في المادة الطينية، في ظل اعتبار الوحي المنزل والسنة المتواترة مصدرًا للعلم اليقيني عن عالم الغيب، والمرجع والقول الفصل الذي يهتدي به العقل الإنساني في التفكير فيما هو جزئي وتفصيلي. (ص٩٣-١٠٢).

الفصل التاسع
العنف وإدارة الصراع السياسي
في الفكر الإسلامي بين المبدأ والاختيار: رؤية إسلامية

الفصل التاسع
العنف وإدارة الصراع السياسي
في الفكر الإسلامي بين المبدأ والاختيار: رؤية إسلامية [١]

العنف في المجتمع الإنساني ليس بالأمر النادر، وكثيرًا ما تقترن المنعطفات التاريخية في الذاكرة الإنسانية بالعنف، وعرف تاريخ أمتنا الكثير من ممارسات العنف، ولم تنج حركات الإصلاح السياسي والاجتماعي من الوقوع في العنف وفي التفكير في إدارة الصراع، ويلفت النظر توجيه نبوي روي في سنن أبي داود وابن ماجه ومسند أحمد يدعو إلى اجتناب المشاركة في العنف السياسي، إلى حد عدم الدفاع عن النفس في مواجهته.

ويثير هذا التوجه الدهشة لمغايرته لأصل شرعية الدفاع عن النفس ومقاومة الفساد والانحراف بكل الوسائل المادية والمعنوية، ويستدعي ذلك مقاربة هذا الحديث بمنهجية كلية توضح الحكمة منه في ضوء الصورة الكلية التي يندرج في سياقها.

والمفتاح الذي يمكن الإمساك به في بداية هذا المسعى المعرفي الاجتهادي هو ملاحظة: كثرة الثورات والصراعات والفتن الدامية في التاريخ الإسلامي، مع فشل كل محاولات الإصلاح السياسي الإسلامي في تحقيق مقاصدها حتى الآن.

والمنهاجية المناسبة لمقاربة هذا التوجيه النبوي وسبر أغواره هي المنهجية الكلية،

---

(١) أبو سليمان، د. عبد الحميد. العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي بين المبدأ والاختيار: رؤية إسلامية، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٧. دراسة تقع في ١١٠ صفحة. ونشرت دراسة موجزة عن نفس الموضوع بمجلة إسلامية المعرفة بعنوان: العنف في الإسلام بين المبدأ والاختيار. انظر: د. عبد الحميد أبو سليمان، العنف في الإسلام بين المبدأ والاختيار، العدد ١٥، شتاء ١٤١٩هـ ١٩٩٩، ص ٨٩-١١٩.

التي تركز على الجوهر ولا تتوه في التفصيلات، وتزن التفصيلات بالصورة الكبرى لموضوعه وبالعلاقات بين مكوناتها كمًّا وكيفًا في دائرة الزمان والمكان، وتحفر تلك المنهجية في الصورة التاريخية الكبرى لصدر الإسلام والكيفية التي أدار النبي ﷺ الصراع السياسي العقدي الإصلاحي بها.

وغاية هذه المنهجية الكلية هي تجنب التسطيح والتبسيط والإحاطة قدر الإمكان بكل أبعاد صورة النموذج النبوي في إدارة الصراع في العهدين المكي والمدني على مستوى الداخل ومع الخارج، وتوصلت الدراسة بهذه المنهجية إلى نتيجة بالغة الأهمية، فحواها هو: ثبات الأهداف والمبادئ مع مرونة الخطة والسياسة وفق طبيعة الموقف الذي تواجهه لتتجاوب معه وتؤثر فيه، فما هو سياسي في أي مجتمع لا يحل بشكل إيجابي إلا بما هو سياسي، دون إضفاء أية شرعية على أي حل يستند على الإكراه والقهر، من جانب السلطة أو أي فصيل من المحكومين.

فالإصلاح الذي يؤتي ثمرة تدوم هو الذي يتحقق بالوسائل السلمية وبالصبر، والمجتمع الذي يستقر ضميره على التغيير بالوسائل السلمية ينجح في التمكين للشورى وللحضارة، أما إذا خرج الحاكم أو أي فصيل عن تلك القاعدة، ولجأ إلى العنف والعدوان على دعاة الإصلاح السلمي الصابرين، فإنه يتوجب على رحم الأمة أن يدفعوا عدوانه ويضعوا حدًّا له.

ومن الأهمية بمكان تأصيل الموقف الإسلامي من العنف في ضوء رؤية هذا التوجيه النبوي ضمن الصورة الكلية لموقف الإسلام من العنف، في الوقت الذي تشهد فيه الكثير من الدول العربية والإسلامية عنفًا يستنزف طاقاتها، ويغذيه الإعلام الغربي بشعارات الديموقراطية، التي تتجاوب معها قطاعات من أمتنا بحسن نية، الذي يتخذ الغرب منه ذريعة؛ للتدخل لتحقيق الهيمنة الثقافية والاقتصادية الغربية، وتحرير هذه المسألة له أهميته البالغة في تفسير فشل حركات الإصلاح السياسي في

تاريخ الأمة، وانتهائها في وقوع الأمة في استبداد وقهر وفساد أشد من الذي قامت لمجابهته، فما يجب التركيز عليه في ضوء درس التاريخ هو: بناء إنسان الاستخلاف والهداية والعمران، والالتزام بالوسائل السلمية الشورية. (ص٤-٨).

وتدور محاور هذه الدراسة حول: الفهم الكلي المنهجي لإشكالية العنف على ضوء الهدي النبوي في صدر الإسلام، ودروس من تاريخ الدعوة والمقاومة السلمية، والعنف في النزاعات السياسية الدولية، وأهمية الإصلاح التربوي، وأخطاء التعامل مع العنف السياسي في العالم الإسلامي، وداء العنصرية الاستعلائية الحيوانية وعلاجه.

وفيما يلي إطلالة على هذه المحاور:

أولًا: الفهم الكلي المنهجي لإشكالية العنف: يقوم هذا الفهم على منهجية النظر في كل النصوص القرآنية والنبوية ذات الصلة جنبًا إلى جنب مع ما تقرره الدراسات السياسية لتجلية جوهر الإشكالية محل البحث، على أساس من الوحدة والتكامل المعرفي بين المصدر الحاكم لها، وهو القرآن، وما صح من السنة سندًا ومتنًا، وبين ما يصل إليه العقل حول سنن الاجتماع وطبائع الأنفس. (ص١٠٦-١٠٨).

١- مراوحة العنف في الفكر السياسي الإسلامي بين المبدأ والاختيار: بعد مرور قرن من نهاية الخلافة الراشدة، أفتى رجال مدرسة المدينة المتبنية لنموذج السنة النبوية والخلافة على منهاج النبوة والرافضة للنزعات العرقية والطبقية القبلية والشعوبية الاستبدادية، بتحريم الفتنة والخروج على السلطان ولو كان ظالمًا، ولم يكن ذلك قبولًا منهم للظلم، وإنما تمثلًا لدرس فشل الثورات والحروب الأهلية في تغيير الأنظمة المستبدة، وتبنت تلك المدرسة العزلة والمعارضة السلمية لحقن الدماء وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من داخل النظام السياسي القائم، ونجحت تلك المدرسة في توجيه المسائل الشخصية للفرد المسلم، وتركت مرغمة شؤون الحكام للملوك

والسلاطين، وأسفر ذلك بصرف النظر عن فرض الظروف له، عن إضعاف البعد الاجتماعي التكافلي العام في نفسية المسلم.

وكان وراء التذبذب في الموقف من العنف على مدى التاريخ الإسلامي بين الاستسلام والمقاومة المدنية والمقاومة المسلحة للنظم المستبدة هو الخلط بين قضايا الصراع السياسي داخل الأمة، وبين الأمم المتقابلة، وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فموقف الإسلام من العنف ليس متساويًا في تلك المجالات الثلاثة.

ولم يترسخ في الوعي الإسلامي من بداية الأمر حقيقة أن العنف داخل الأمة محظور من حيث المبدأ، أي على نحو ثابت في كل الأحوال، وليس كمجرد اختيار استراتيجي موقفي، فضلًا عن وجوب التمييز بين العنف السياسي داخل الأمة وبين المواجهة السياسية داخل الأمم، وبين التصدي لمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولازالت المراوحة في أمر اللجوء إلى العنف في تلك المواقف الثلاثة قائمة حتى الآن.

وتحتاج تلك الإشكالية إلى دراسة منهجية كلية، على ضوء المبادئ والمنطلقات المنظمة لها؛ حتى تتضح معالم بنيانها الكامل، لفهم أنواع العنف ومستوياته وديناميباته، ووضع حد لسوء استعماله في المجتمعات المسلمة، والمساهمة في وضع موجهات إرشادية للحد من الظلم والاستبداد، فالقرآن والسنة يفرقان بين قضايا النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين قضايا السياسة، ويعتبران اللجوء للعنف فيها من باب الفتن، بما يوجب عدم الاشتراك فيها حتى بدعوى الدفاع عن النفس، بينما يأمران بالجهاد ودفع العدوان والانتصار للمستضعفين في الأرض، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين المسلمين، مما يعني وجود قواعد حاكمة للجوء إلى العنف في كل حالة من تلك الحالات على حدة. (ص٩-١٥).

فلنقرأ بمنهاجية كلية التوجيه النبوي الوارد في أمره ﷺ لأبي ذر حين سأله عن

ما يفعله في حالة الفتنة والعنف السياسي في المجتمع أن يلزم بيته، فقال له: (أرأيت إن دخل علي بيتي؟ قال: فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فألق ثوبك على وجهك يبوء بإثمه وإثمك).

ولن تقف هذه الدراسة عند مجرد تحليل مجمل النصوص ذات الصلة والسعي لفهم دلالاتها، بل ستجلي التجربة النبوية بجملتها لتجلية المنهج النبوي في إدارة عملية الإصلاح، ومعالجة الصراع السياسي داخل كيان الأمة، وفيما بين الأمم والدول، وضبط مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على المستويين الفردي والجمعي.

وأول خيط هذا التحليل هو ملاحظة النهي النبوي في أحاديثه فيما عرف بأحاديث الفتن، عن المشاركة المسلحة في الفتن، على ضوء الإشارة القرآنية لأول واقعة قتل تعرفها البشرية تقع بين أخوين: هابيل وقابيل.

يقول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

وصبت أحاديث نبوية عديدة في هذا الاتجاه محذرة من فتن داخل المجتمع المسلم، ومن أن المسلمين إذا التقيا بسيفيهما فإن القاتل والمقتول في النار، وأن القتال

المشروع هو لصد المشركين عن فتنة المسلمين في الدين، وليس للصراع على السلطة السياسية، وأن على المسلم في حال الصراع السياسي الداخلي أن يكف يده، ويلتزم الصبر.

والمتأمل في الخبرة العملية لصدر الإسلام في العهد النبوي يجد ما يعمق دلالة تلك التوجيهات النبوية، فلقد أكد القرآن والهدي النبوي طيلة العهد المكي على الإصرار على الدعوة إلى الحق مع الالتزام المطلق بعدم الرد بالقوة على ما ارتكبه القرشيون من حصار وتعذيب وقتل بحق المسلمين، وكان التوجيه القرآني الحازم للنبي ﷺ ومن معه في سورة غافر أن ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾.

ونلاحظ أن ذلك النهج تغير بعد أن صارت للمسلمين دولة مستقلة بالمدينة المنورة، حيث أذن الله تعالى للمؤمنين بالدفاع عن النفس، بل أمرهم به، واستخدم المسلمون كافة وسائل الدفاع عن النفس ضد خصمهم الخارجي بما في ذلك قريش، وبين القرآن أن الفتنة أكبر من القتل، وأن دفع الله الناس بعضهم ببعض ضرورة وجودية، وأنه سيكون من غير المسلمين فريق يصرون على مقاتلة المسلمين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا، وأمر بمقاتلة المشركين كافة كما يقاتلوا المسلمين كافة، وحدد حد هذا الأمر بالقتال بأن يجنح المحارب غير المسلم للسلم، ويلقوا إلى المسلمين السلم، ونلاحظ ثالثًا أن النبي ﷺ نهى بشكل قاطع عن العنف، وعن الرد على العنف في معالجة ما نشب من خلافات في المدينة المنورة.

ومن المجانب للصواب دعوى وجود نسخ في القرآن، فالقرآن هو كلمة الله الواحدة المطلقة التي تقرر مبادئ لا زمانية ولا مكانية حاكمة للعلاقات الإنسانية في كل زمان ومكان، والمواقف الثلاثة السابقة متكاملة؛ لأن كل حالة منها تخضع لمبدأ قرآني ناظم لها، ولابد من الوعي بعلاقة التشريع القرآني بالعصر النبوي المحدد زمانًا

ومكانًا، والذي هو أحد صور تنزيل القرآن على الواقع الإنساني، وبالتشريع القرآني العام للإنسانية عبر الزمان والمكان المحيط بحاجات الإنسان على تعدد أحوال المجتمعات في المكان الواحد عبر الزمان، وتعدد أحوال المجتمعات عبر الزمان والمكان.

والسر في القول بدعوى النسخ هو المنهجية الجزئية التي لم تدرك أن ذات المبدأ طبق على الصراع الداخلي في المجتمع في مكة وفي المدينة على حد سواء، والملاحظة المهمة هنا أن المسلمين كانوا على وعي بوسائل الرد على العنف بمثله وهم في مكة بدليل ما أبدوه من جهوزية له حين أذن لهم بالقتال وهم بالمدينة، مما يدل على أن موقف الإسلام من العنف داخل المجتمع المسلم هو تحريمه ليس كمسألة اختيار، بل كمسألة مبدأ.

فمن الثوابت المبدأية الملزمة الالتزام بالسلم في منهج التغيير والإصلاح الإسلامي داخل المجتمع الذي يكون المسلمون جزءًا منه، والمثابرة على الدعوة إلى الخير والمعروف والنهي عن الظلم والطغيان والمنكر بوسائل سلمية، بوصف ذلك هو أسمى درجات الإصلاح السياسي.

فمجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واسع ومتعدد المستويات، يشمل: الإصلاح الاجتماعي على المستوى الفردي السلوكي والمستوى السياسي العام بالنصيحة والحض على مكارم الأخلاق والحض على فعل الخير ومنع الظلم قدر الاستطاعة، بالوسائل السلمية السياسية والمدنية.

ومن هنا يظهر عمق التوجيه النبوي إلى أن أفضل الجهاد (كلمة حق) عند سلطان جائر. أما استخدام العنف تحت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا يترك للأفراد، بل هو من أمور شورى الأمة التي يختص بالبت فيها أهل الحل والعقد وأهل الشورى، ويجب التضامن معهم للمصالحة بين المقتتلين ولرد بغي

الفئة الباغية عن بغيها.

يقول الله تعالى في سورة الحجرات: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

فصبر المظلوم من دعاة الحق هو المحرك للأمة ولأهل الحل والشورى فيها لحق الرحم فيهم لصد العدوان، ولا يصح أن ينصب الأفراد ولا الفئات أنفسهم حكامًا غير شرعيين في المواقف السياسية يمزقون الأمة باللجوء إلى العنف، ويجعلون من أنفسهم فصائل سياسية متناحرة باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فضرر ذلك أكبر من نفعه، وحق الخلاف السياسي في الأمة هو معالجته بأساليب سياسية، والقرآن يوجه أمتنا إلى وجوب أن تكون منها أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر.

ودور تلك الأمة هو كف العدوان سواء وقع من فئة من المجتمع على السلطة السياسية أو وقع من تلك السلطة على المجتمع بكف يد الأمة وقطاعاتها مساندة الحاكم الظالم بالوسائل التي تراها مناسبة، ومعنى هذا أن التوجيه القرآني والنبوي لعدم اللجوء إلى العنف داخل المجتمع المسلم ليس دعوة للقول بالظلم والاستبداد، بل هو بيان لأنجع سبيل لرده دون خلق ذرائع أمام المتربصين ودعاة الفتنة. (ص١٦-٢٥).

٢- المناقشة المنهجية لعاملي الزمان والمكان في بعض النصوص المتعلقة بالفتنة:
من الأهمية بمكان تحديد القواعد المتعلقة ببعد الزمان والمكان، ووضعها في الاعتبار في التعامل مع النصوص عامة ومع الأحاديث النبوية بوجه خاص، فعدم ملاحظة هذا البعد يفضي إلى الخلط وسوء الفهم، وثمة قواعد أربع حاكمة لهذا البعد يجب

استحضارها في فهم النصوص الشرعية المتعلقة بالفتنة، وهي:

أ- **حاكمية المبادئ العامة**: رأس القواعد المنهجية الضابطة للفهم والتحليل والاستنتاج، هي: حاكمية المبادئ والمفاهيم العامة الأساسية والفهم المقاصدي لروح الشريعة، لكل ما هو دونها من الفروع والقضايا والأحكام والحوادث.

ب- **الاستحسان**: هو أداة منهجية يتم اللجوء إليها حين يغم على الباحث الأمر ولا يتوصل إلى فهم يتسق مع مبادئ الشريعة وروحها ومقاصدها العامة.

ج- **المعرفة بطبيعة الأمر محل البحث**: تتعلق هذه القاعدة بقدرة الباحث على معرفة البعد الزماني والمكاني للموقف الذي تعلق النص به، وما توخاه من جلب للمصالح ودرء للمفاسد على كافة المستويات الحيايتة الفردية والجماعية.

د- **البعد المعرفي للطبائع والسنن**: ترتبط هذه القاعدة بمدى إلمام الباحث بالسنن الكونية وطبائع النفوس والاجتماع الإنساني ذات الصلة بالقضية التي يقوم بتحليلها ويسعى إلى فهمها، وبقدر العجز في إدراكه وعدم التزامه بمنهجية قراءة سياقية كلية للقرآن والسنة النبوية تكون قابليته للخطأ في التحليل والتفسير، ومن أكبر ما ابتليت به أمتنا من أمد طويل إصابة مناهجها التعليمية بأحادية المعرفة وجزئيتها وضعف الضبط المنهجي.

تلك هي العدة المنهجية التي لابد من استكمالها للتأهل للفهم الصحيح، وفي غيبتها أو قصورها يقع التخبط والتناقض في الرؤى والانتقائية في الاستشهاد.

ولقد عانت أمتنا من أمد طويل ولا تزال تعاني من نقص تلك العدة المنهجية، مما تسبب في تمزق شعوب الأمة ماديًا وفكريًا، ومما يجب الوعي المنهجي به أن القرآن يقدم توجيهات إرشادية كلية لتنظيم شؤون الحكم والسياسة، ويترك التفصيلات لترتيبها وفقًا لها حسب الظروف الزمانية والمكانية للأمة، وعلى العكس من ذلك فإنه يتضمن ثوابت الوحدات الاجتماعية الأساسية وفي مقدمتها العلاقات

والترتيبات الأسرية، ولعل هذا هو السبب في تحرز كبار الصحابة ونهيهم عن الخوض في الأحاديث النبوية دون ضبط ووعي بهذه الأبعاد الكلية.

فرأس المعالجة الكلية المنهجية المنضبطة لمضامين أحاديث الفتنة، هو مراعاة حاكمية القرآن، وربطها بالمبادئ والمفاهيم القرآنية، وفهم الظرف الزماني والمكاني المحيط بتلك التوجيهات والغايات التي توختها على صعيد درء المفاسد وتحقيق المصالح، فالقراءة السياقية للأحاديث النبوية التي تحض على طاعة السلطة السياسية، تبين أن الداء الذي كانت تتصدى له هو الروح القبلية التي كانت لا تزال مستشرية، والتي كشفت عن مدى حدتها فور وفاة النبي ﷺ، وتغلق باب أية ذرائع للصراع والتنازع والتشرذم النابع من رفض الخضوع لسلطة اجتماعية حضارية منظمة.

ولابد من مراعاة البعد الزماني المكاني لتلك التوجيهات النبوية، بتطبيق قاعدة حاكمية المبادئ القرآنية الحاكمة الناهية عن قبول الظلم والاستبداد السياسي، والآمرة بالتصدي له بجهد منظم بقيادة أهل الحل والعقد وأهل الشورى، والتزام طاعة السلطة السياسية في طاعة الله ومعصيتها في معصيتها لله، والتزام البيعة، والنصح لكل مسلم، ورفع الإثم عن من كره وأنكر انحراف السلطة السياسية، وبيان أن الإثم يقع فقط على من رضي وتابع فيما تقع فيه من انحراف.

وروح تلك التوجيهات النبوية جاءت ردًا على أسئلة وجهها أصحابه له حول كيفية التعامل مع انحراف محتمل للسلطة السياسية في المستقبل، أن لا تكون أية نقائص متصورة في السلطة السياسية ذريعة للجوء إلى ما كان شائعًا في البيئة القبلية من اعتبار العنف والتغالب وسيلة لتسوية المنازعات، أو أن يعتبر العنف وسيلة لإدارة التدافع والصراع السياسي في المجتمع الناشئ؛ وبذا فإن تلك التوجيهات النبوية لا تتوجه مطلقًا إلى عدم المواجهة المدنية السلمية لتعديات السلطة.

والمبدأ العام أن للأمة وأهل الحل والعقد مواجهة انحراف السلطة بتجفيف

منابع طاعة جمهور الأمة لانحرافها، وإدارة أمرها وفق ما تمليه مصلحة الأمة، لكن هذا الحق لا يوضع بيد أفراد ولا فئات؛ لكونه في تلك الحالة يمزق الرحم ويشل إرادة الأمة، ودون استخدام الوسائل السلمية على هذا النحو المنظم، فإنه لا يصلح للأمة حال ولا يقر لها قرار، والناظم للمسألة محل البحث برمتها هو باليقين أن الإسلام يفرض التزام العدل والإصلاح والشورى في نظام الحكم، وواجب مقاومة ممارسات الظلم والقهر والاستبداد، فذاك هو لب المقاصد الشرعية للدين ونظامه الاجتماعي.

فالطاعة للسلطة واجبة في المعروف ومنهي عنها في المعصية، وعدم الأخذ على يد الظالم يؤذن بعقاب رباني يعم الأمة كلها، وجوهر التوجيهات النبوية والقرآنية بهذه القراءة السياقية هو توجيه الأمة إلى الالتزام بالجماعة وضبط النفس واللجوء إلى الوسائل السلمية المدنية والسياسية للتصدي للظلم، وليس إباحة الظلم ومنع مقاومته، والأمة قادرة على دفع ظلم السلطة السياسية وبغي طائفة على أخرى داخل المجتمع السلمي، فيما لو تعززت الوسائل السلمية بتربية سياسية، وبمؤسسات الأمة .

وخلاصة هذا الطرح أن الإسلام دين الإخاء والتراحم والعدل والتكافل والشورى والإصلاح والسعي إلى الفلاح المادي والروحي المسؤول في الدنيا والآخرة، وهو لا يقر الظلم والعدوان والفساد بأي حال، وهو في نفس الوقت يحرم العنف في سياسة المجتمع.

والتنشئة الإسلامية السليمة هي زاد الأمة الأهم في التصدي لانحراف السلطة، ذلك أن النظم الحاكمة تعبر في نهاية المطاف عن مدى عافية الأمة في فكرها ووجدانها ومناعتها الحضارية، وإذا شئنا استعادة المجتمع السلمي الشوري الحضاري المستقر، فإن السبيل إلى ذلك هو بناء قناعة عامة برفض الإسلام للعنف في الحياة السياسية الإسلامية، وإطلاق برامج للتنشئة على الشورى بدءًا من الأسرة،

والتزام الحركات الإسلامية بنبذ العنف، ليس كاختيار سياسي، بل بوصف ذلك أمر مبدئيًا في حركتها وفي تكوين كوادرها. (ص٢٧- ٤١).

فعدم اللجوء إلى العنف في حل النزاعات السياسية داخل المجتمع المسلم هو أمر مبدأ لا أمر اختيار، والقاعدة السياسية الإسلامية المنهجية العامة التي يمكن استخلاصها من المنهج النبوي على مدى النهج النبوي في مكة والمدينة فهي: أن النزاع السياسي داخل المجتمع الواحد يجب أن لا يحل إلا بحل سياسي، وأن على المظلوم أن يعري الباغي أمام المجتمع.

وعلى الأمة والسلطان الشرعي وأهل الحل والعقد والشورى الذين هم رحم الأطراف المتنازعة، وضع حد للبغي أيًا كان مصدره، إما بالتخلي عن مساندته أو بالتصدي له حتى يكف عن بغيه، وواجب كف يد الباغي فرض على كل فرد في الأمة بالتضامن والتعاون على ذلك، فإن هم تقاعسوا عن تحمل تلك المسؤولية الجماعية، فإن الإثم يقع عليهم جميعًا، ولا يصح أن يحول من يرى أنه مظلومًا أو داعية الإصلاح المضطهد إلى جعل نفسه خصمًا وحكمًا وصاحب سلطان؛ لأن ذلك يعني الرد على جريمة الظلم بكارثة الفتنة والاقتتال.

ونستخلص مما سلف أن رحم الأمة يوجب بحكم الانتماء المشترك لأبناء الأمة الواحدة عدم الوقوف موقف المتفرج في مواجهة البغي على الصابر المحتسب من أهل الرحم؛ وبذا فإن رحم المجتمع هو سبيل العدل والوئام فيه، ولعل الصبر والثبات على تضحيات استخدام الوسائل السلمية وتعرية الباغي المعتدي وصدق دعوة الإصلاح يوفر شرط تحريك رحم الأمة و توحيد الصف ضد البغاة، وإذا لم يكن للفئة المضطهدة رحم يعتد به في المجتمع، وانعدم الخير في المجتمع، فالحل هو الهجرة والمفارقة، ويظل العنف هو الخيار الخاطئ من الضعيف المضطهد منكور الحق مقطوع الرحم (ص٤٢-٤٣).

٣- دروس خبرة الحركات الإسلامية والمقاومة السلمية: تبرهن الخبرة العملية لمآلات دعوات الإصلاح الكبرى على مدى التاريخ الإنساني على سلامة الأساس الذي بيناه فيما سلف بالتحليل العقدي النظري، باعتبار العنف خطًا أحمر يلزم تجنب حركات الإصلاح السياسي الاقتراب منه في داخل المجتمع الواحد مهما كانت الذرائع والمبررات، والتزام الوسائل السلمية السياسية والمدنية في معالجة البغي والظلم، مع مأسسة تلك المقاومة السلمية، فالتزام المسيحيين الأوائل للمقاومة السلمية المحتسبة للطغيان الروماني على مدى قرابة ثلاثة قرون، انتهى إلى دخول الدولة الرومانية في المسيحية.

وفي ذات الاتجاه وعلى نحو أنصع منه وأكثر وضوحًا، جاء الدرس المعرفي التاريخي للمقاومة السلمية المحتسبة للنبي الخاتم ﷺ ومن آمن معه بالإصرار على الدعوة الإصلاحية ضد فساد النظام المكي واستبداده، مع قبول التضحيات، فلقد كان من ثمارها المباركة: **تحريك** بعض الرحم المكي ضد الطغيان القرشي، بمناصرة بعض الهاشميين وبعض القيادات المكية للمسلمين، و**خلخلة** القيادة المكية بدخول عناصر من خيرتها في الإسلام، مما صدع بناءها وسندها الأدبي، وإنهاء الحصار والمقاطعة بمعارضة من داخلها، وقيض الله دارًا للهجرة والنصرة لتلك الفئة المحتسبة في الحبشة، ثم في المدينة المنورة.

وكان مآل تلك المقاومة هو الفتح الأكبر ودخول الناس في دين الله أفواجًا، وفي العصر الحديث عرفت أمتنا نموذجًا ثالثًا يبرهن على الإمكانيات الهائلة للمقاومة السلمية المنظمة المحتسبة للطغيان السياسي، فلقد أدى الالتزام المبدئي من المعارضة الإيرانية الإسلامية لنظام الشاه الإمبراطوري، إلى أن وجد الجيش الذي هو قاعدة النظام نفسه في موقف لا يحسد عليه حين يضرب جموع بني جلدته تنفيذًا لتعليمات الشاه؛ فتحركت فيه روح كونه جزءًا من رحم أمته، فعصى الأوامر الصادرة له.

فانتصرت حركة المقاومة السلمية، فسقوط الشاه هو نتيجة للمقاومة السلمية المبدئية، رغم ثبات الولايات المتحدة على دعم نظام الشاه وعدم التخلي عنه إلا بعد إجماع الإرادة الإيرانية على التخلص منه.

وفي ذات الاتجاه يأتي درس عاقبة تجاهل كل من نظام صدام ونظام خوميني للرحم الإسلامي والاحتكام للعنف المسلح في تسوية ما بينهما من خلاف، وجر كل ما ترتب على ذلك من خسائر بشرية ومادية جسيمة، ليبرهن على سفاهة عدم العض بالنواجذ على المقاومة السلمية المرتكزة على صلة الرحم الإسلامي، فالتخلي عنها باب للدمار لكل من يدخل فيه غالبًا أو مغلوبًا.

وفي ذات الاتجاه يصب درس الحركة الإسلامية الإصلاحية التركية المعاصرة، بعد أن أقام كمال أتاتورك الجمهورية التركية العلمانية، فلقد التزمت تلك الحركة وسائل العمل المدني السلمي أداة للإصلاح باعتباره مبدأ لا تحيد عنه وتنشئ كوادرها عليه وتلزمها به، وكانت النتيجة أن الضغوط والأذى والملاحقات لتلك الحركة من جانب النظام الحاكم أسفرت في نهاية المطاف تأييدًا متناميًا لها داخل الرحم التركي على الدوام.

وتقدم الخبرة الجزائرية نموذجًا يبرهن على سوء عاقبة عدم البدء بالتنشئة الوالدية على اعتبار المقاومة المدنية السلمية للطغيان السياسي داخل المجتمع الواحد مسألة مبدأ لا يقبل المساومة على المستوى الفردي والجمعي، وليس مجرد خيار سياسي تحدده الملابسات الموقفية، فحين ظهر أن الشعب الجزائري يريد الإصلاح والتغيير، ووقعت المواجهة بين النخبة الحاكمة وبين المعارضة، وأبدت الأخيرة مؤشرات على رفض العنف المسلح، جاءت النتيجة لصالحها بكل جلاء، ثم وقعت الكارثة حين قبض النظام الحاكم على قيادة الحركة وتركتها دون قيادة واعية توجهها وتلزمها بالمقاومة السلمية وتجنب العنف، فانحرفت بعض فصائل المقاومة الشعبية

إلى العنف، لتدخل الجزائر في مسلسل عنف ودمار، ثمرته المرة هي خسارة شعب وأمة بكل فئاتها.

والدرس المستفاد من ذلك أن التنشئة على مبدأية نبذ العنف في تسوية الخلافات السياسية داخل المجتمع الواحد كانت هي البعد الغائب الذي لم تحرص قيادات تلك الحركة على تحقيقه، والذي لو وجد لجعل بالإمكان خروج قيادة بديلة لتلك التي غيبها النظام في السجون، ملتزمة مبدئيًا بنبذ العنف مهما كانت التضحيات.

أما كوارث كردستان والصومال وأفغانستان فهي براهين على الأهمية الوجودية لمبدأ نبذ العنف في الصراعات السياسية داخل المجتمع الواحد ظاهرة بذاتها وغنية عن التحليل.

وبالاعتبار بخبرة السير في الأرض التي يمكن الاستئناس بها، نجد أن أساس الاستقرار في الأنظمة الديموقراطية المعاصرة هو: التزام المنهج السلمي المدني المؤسسي في الإصلاح والتغيير.

وخلاصة هذا التحليل، أن من أولويات ما تحتاجه أمتنا، إطلاق برامج للتنشئة على نبذ العنف داخل المجتمع الواحد، والتعويل على أثر المقاومة المدنية والسياسية السلمية في تحريك رحم المجتمع نحو نصرة دعاة الإصلاح السلميين المحتسبين، ومن الأهمية بمكان أن تتجاوز تلك التنشئة غرس هذا المبدأ في النشء على مستوى كل مجتمع مسلم، إلى مستوى العلاقة بين المجتمعات والشعوب والأقطار المسلمة بحكم وحدة رحم الأمة الإسلامية الواحدة.

يقول الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾، وفي **سورة المؤمنون**: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾، وفي **سورة الأنعام**: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾، وفي **سورة آل عمران**: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا

تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

فثمن التزام الوسائل السلمية مثمر. أما ثمن العنف فهو: الفتن، فهو دواء أنكى من الداء، وعاقبة العنف في المدى الطويل هي الخسران.

ولابد من التأكيد هنا على دفع وهم قد يخامر الذهن، بأن المقاومة السلمية تعني تلافي البطش والآلام، فهي تقوم على اعتبار الصبر جزءًا من المدافعة، وعلى قبول التضحيات الجسيمة، كل ما في الأمر أن تكلفتها في الأغلب الأعم تكون أقل من العنف، وثمرة تضحياتها هي إزالة الخبث ووحدة الصف وإحقاق الحق. أما ثمرة تضحيات العنف فهي تفريخه في دوائر مغلقة مفرغة، وهدم روح التضامن والشورى في المجتمع وقطيعة الرحم.

ثانيًا: العنف في النزاعات الخارجية بين الأمة المسلمة والأمم الأخرى: يتعين في مستهل هذا المحور التأكيد على مبدأ وحدة (الأمة الإسلامية) وتعدد (المجتمعات والأقطار والشعوب الإسلامية) التي تمثل روافد لها يفرض الإسلام عليها أن تكون بمثابة أجزاء الجسد الواحد الحي، ولكل مجتمع وشعب وقطر إسلامي رحم فرعي يتعين نبذ العنف في مقاومة البغي السياسي في نطاقه، ويجمع بينها جميعًا رحم الأمة الواحد الجامع الذي يجب التزام مبدأ نبذ العنف على نطاقه فيما بينها.

وبالتالي فإن مفهوم الأنظمة السياسية المستقلة لا ينطبق - في المنظور الإسلامي - على ما يسمى بالدول القومية التي قامت في العالم الإسلامي في عصر ما بعد الاستعمار الأوربي التقليدي، فمجاله هو العلاقات الدولية بين تلك الدول والدول غير الإسلامية، وفي المجال الأخير ترد إمكانية إخفاق الوسائل السلمية في تسوية

المنازعات، وانحياز شعب لقيادته ضد شعب آخر، وعدم إمكانية إحداث تغير سياسي إلا عبر الصفوات الحاكمة ومؤسساتها، وهنا ترد إمكانية اللجوء للقوة للدفاع عن النفس ورد البغي، مع الالتزام المبدئي بمبدأ التدافع المحكوم برفض أن يكون: الحق للقوة، بل تكون القوة للحق، ومرد إجازة الإسلام للجوء للعنف بين تلك الكيانات المستقلة هو عدم وجود علاقة انتماء بينها على عكس المجتمع الواحد والأمة الواحدة.

ويبقى مع ذلك تأكيد الإسلام على ضبط اللجوء للقوة بضوابط صارمة من جانب واحد، تراعي وحدة الرحم الإنساني وعدم العدوان، والعفو عند المقدرة، والتعارف بين الشعوب، والرد بالتي هي أحسن بما يحول حالة العداء إلى علاقة مودة. يقول الله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

و يكشف الهدي النبوي من بداية الدعوة طبيعة العلاقة بين الأنظمة وسبل التغيير وما تمارسه الصفوات الحاكمة من تأثير على شعوبها وتطويعها وفق مصالحها، ومن هنا جاء توجيه النبي ﷺ رسائله إلى الملوك داعيًا إياهم إلى الإسلام ومحملهم مسؤولية الحيلولة بين شعوبهم وبين حرية العقيدة، من ذلك خطابه إلى كل من هرقل عظيم الروم وكسرى عظيم فارس والمقوقس عظيم القبط والنجاشي عظيم الحبشة.

ومن الملاحظ أن الإسلام لم يطلب من الآخرين أمرًا لم يأخذ نفسه ونظامه به، فالمبدأ الإسلامي الحاكم داخل المجتمع الإسلامي وفيما بينه وبين المجتمعات غير الإسلامية هو: لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، ويؤازر الإسلام كافة

المواثيق الدولية الداعية لاحترام العدل وحقوق الإنسان والسلام والأمن الدوليين، وخضوع الكيانات الدولية المستقلة لحكم القانون والوفاء بالعهود. (ص٤٤-٥٨).

ثالثًا: العنف والأنظمة التابعة المقهورة: يدور هذا المحور حول موقف الإسلام من العنف في حالة خضوع الصفوة الحاكمة الوطنية لصفوة أجنبية متسلطة كما كان الحال في أوربا الشرقية ووسط آسيا في عهد ما يسمى: الحرب الباردة، وفي أفغانستان في ظل الاحتلال الروسي والأمريكي، وفي المستعمرات والمحميات في عهد الاستعمار التقليدي سابقًا.

وعرف تاريخ أمتنا لجوء الفئات التي ينالها الظلم في مثل تلك الحالة، إلى العنف ضد الصفوة الحاكمة من بني جلدتها، المتعاونة مع الصفوة الأجنبية المتسلطة، وعدم استهداف مصالح الأجنبي صاحب القرار الحقيقي في ظلمهم، لعدم ظهوره في الصورة بشكل مباشر، وهذا اللجوء إلى القوة يعتبر خطأ لكونه يدور داخل رحم الأمة وبين فئاتها بما يضعفها ويمكن لأقدام الصفوة الأجنبية، ويمكنها من خدمة مصالحها وبغيها في كل المجالات بأقل تكلفة؛ لذا يجب الالتزام في مقاومة النخبة الحاكمة المحلية المتسلطة المنتمية لنفس الرحم، بالوسائل السلمية المدنية والسياسية، ومعنى ذلك أن أي صراع سياسي بين الفئات الحاكمة والفئات المعارضة داخل رحم شعوب الأمة غير مشروع.

ومن النماذج التي تبدي التزاما بهذا المبدأ: حركة المقاومة الفلسطينية الإسلامية، في مواجهة أكبر مأساة إنسانية عرفها العالم المعاصر على مدى قرابة قرن حتى الآن، ضمن مسلسل الاستعلاء القومي الغربي الصهيوني المعاصر، الذي يستوجب عدم الوقوع في وهم زخرف شعاراته عن الديموقراطية وحقوق الإنسان، والتركيز على التنشئة التي تستعيد المجتمع الإسلامي المتراحم، وتقود إلى وحدة الأمة، وتحرك طاقاتها الكامنة لإقامة نظام عالمي إنساني عادل تدخل البشرية في ظله في السلم كافة.

ولقد اتضح في ذهن المقاومة الفلسطينية الإسلامية صحة منطلق التركيز على مقاومة الاحتلال الاستيطاني على نحو مبدئي، وتبقى ضرورة تحريك الطاقة الكامنة في رحم الأمة الإسلامية؛ لتبني خيار التحرير والمقاومة الطويلة المدى، فتلك هي سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير.

وخلاصة القول: إن حالة الصراع السياسي بين الأمم في ظل خضوع الصفوة الحاكمة الوطنية لصفوة أجنبية متسلطة، تستوجب توجيه الصراع بكل وسائله ضد الأجنبي وليس ضد المحلي الوطني المتعاون معه المغلوب على أمره في حقيقة الأمر بسبب ضعفه، وهنا يكون اللجوء للعنف على شاكلة الصراع بين الأمم والصفوات المتواجهة، مسألة: خيار سياسي استراتيجي، حسب ما تمليه المصلحة وواقع الحال.

ويبقى خيار اللجوء للعنف محكومًا بعدم استخدامه إلا بقدر الضرورة وبالالتزام الكامل بقواعد استخدام القوة في الإسلام، بما يجلب المصلحة ويمنع الضرر، فضبط النفس وعدم الإسراف في ممارسة المسلم حق الدفاع عن النفس واجب ديني شرعي وأدبي وأخلاقي.

وما يجب الحذر منه كل الحذر هو إتاحة الفرصة للأجنبي المتسلط لزرع فتيل الفتنة بين الصفوات الحاكمة الخاضعة له والصفوات المعارضة لها؛ لأن ثمرة ذلك لن تكون غير شغل كل منهما بالأخرى وإضعافهما معًا، بما يصب في التحليل الأخير في مصلحة الأجنبي وحده.

وخلاصة هذا الطرح أن من أهم ما ابتليت به أمتنا على مدى التاريخ، الخلط بين المواقف التي يحرم اللجوء فيها إلى العنف من حيث المبدأ، والمواقف التي يكون فيها اللجوء إلى العنف خيارًا سياسيًا محسوبًا، ووراء هذا الخلط غلبة المنهج المعرفي الجزئي، وبقايا موروث الأمة الجاهلي. (ص٥٩-٦٥).

رابعًا: الهجرة الدينية كوسيلة للمقاومة ولدفع عجلة الإصلاح: تعتبر هجرة

المستضعفين أحد وسائل وخيارات التعامل بين أطراف الصراع داخل المجتمع الواحد، وتلك الهجرة في جوهرها هي ترك الوطن إلى بلد آخر حين يفوق الاضطهاد طاقة دعاة الإصلاح المضطهدين وينتفي الرحم المجتمعي أو يضعف، وهذه الهجرة مختلفة عن الهجرة السياحية والاقتصادية التي تتم لاعتبارات معيشية، فهي هجرة المستضعفين غير القادرين على الصبر على الظلم الذين يخشون الفتنة في دينهم، وهي واجبة على القادرين عليها. وإليها يشير قول الله تعالى في سورة النساء: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

وتلك الهجرة هجرة ترقب على غرار هجرة المسلمين إلى الحبشة؛ للخروج من دائرة سطوة الطغاة ودرءًا للخسائر وترقبًا لانتصار الحق والعودة في ظروف أفضل، وقد تكون تلك الهجرة هجرة مفارقة ومقارعة على غرار الهجرة إلى المدينة المنورة، وجوهر الهجرة بمعناها الأخير كما بين النبي ﷺ هو الجهاد والنية، يقول ﷺ فيما ورد بصحيح البخاري قَالَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ فَتْحِ مَكَّةَ : «**لَا هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا**».

ويتعين هنا الإشارة إلى رحابة مفهوم (هجرة الجهاد والنية). فهي الهجرة إلى الله تعالى. يقول النبي ﷺ فيما رواه الشيخان: عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**»، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، وفي العمق

التاريخي لهذا المفهوم تأتي خبرة انتشار الإسلام في جنوب شرق آسيا وإفريقيا على يد القوافل التجارية والدعاة المسلمين.

ومن رحم هذا النموذج يمكن تصور هجرات لإنشاء نواة إسلامية نموذجية في كل بقعة من بقاع الأرض التي تحتاج إلى نموذج حي تعايشه لمعرفة الإسلام، ويمكن للمجتمعات المسلمة في الغرب فيما لو انطلقت من مفهوم (الهجرة إلى الله) ولم تتوزعها الأرحام القومية العصبية، أن تكون قاطرة للتعريف الحي بالإسلام، وللعمل السلمي المبدئي للحد من طغيان النخب العلمانية الحاكمة في الغرب على النخب الحاكمة في العالم الإسلامي وعلى الشعوب الإسلامية، وللضغط السلمي على الأنظمة الحاكمة في الداخل الإسلامي للكف عن البغي، ولفتح أفق الحوار والتعارف الحضاري بين الشعوب، ولوضع لبنات في صرح نظام عالمي قائم على دخول البشرية فيه في السلم كافة.

ويفرض الإسلام على هؤلاء المهاجرين الحرص على المحافظة على كيان الأمة واستجلاب رحمها، بنبذ العنف كمسألة مبدأ، وليس كاختيار سياسي في التعامل مع المجتمع الأصلي الذي أتوا منه، ومع المجتمع الجديد الذي انتسبوا إليه وحصلوا على مواطنته، وأن يتحاشوا أن يكونوا سببًا في العنف.

وشتان بين الهجرة الدينية بهذا المعنى والهجرة اليهودية الصهيونية التي تتعاون على الظلم والعدوان وتسعى لإبادة الشعب الفلسطيني وتشريده واقتلاعه من أرضه. (ص٦٦-٦٩).

خامسًا: التدافع بين الأمم والحضارات والشعوب: تتعد أشكال ذلك التدافع، فمنها ما هو سلبي وما هو إيجابي، ومنها ما هو سلمي وما هو عسكري، ومنبع التدافع السلبي هو سعي الأقوى فيما لو كان المنطق المحرك له استعلائيًا يقوم على حق القوة، إلى الهيمنة على من هو أضعف منه، بالتزييف وبالقهر النفسي

والعسكري، ومنبع التدافع الإيجابي هو تحرك القوي بمنطق قوة الحق، وفي ظله يتم التمازج الحضاري بأساليب سلمية وبالحوار.

ومعنى هذا أن الأمم والشعوب تعرف نوعين من التدافع: تدافع سلمي توافقي يحقق الإصلاح والارتقاء المعزز للفطرة التي فطر الله الناس عليها والمحقق للتوازن والتلاقح الحضاري، وتدافع عسكري إكراهي يزيد من الاختلالات الحضارية الإنسانية.

ونحت الفكر الغربي مؤخرًا مفهوم (صراع الحضارات) واتخذ منه عنوانًا للعلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي، وواقع الأمر أن ذلك ليس بالأمر الجديد، فلقد مرت علاقة العالم الإسلامي بمرحلتين: مرحلة التدافع السلمي التوافقي في لحظة التألق الحضاري الإسلامي، ومرحلة التدافع الإكراهي الغربي الاستغلالي الذي أخذ صورة الاستعمار التقليدي والاستعمار الاستيطاني واستهداف دولة الخلافة الإسلامية وتفكيكها، ومواصلة مساعي الهيمنة على العالم الإسلامي.

والإنسانية أحوج ما تكون إلى تغيير اتجاه التدافع السلبي بين الحضارتين الغربية المادية الاستعلائية والحضارة الإسلامية الإنسانية التراحمية، ذلك أن القوة المادية الجزئية التي يتفوق فيها الغرب بحاجة إلى القوة الكلية الروحية التوحيدية القيمية؛ ليتحقق التوازن الحضاري البناء، ويحل التفاعل الحضاري البناء بين الشرق والغرب، محل الصراع.

وللسلام والتعاون والرفاه الإسلامي ثلاثة أسس إسلامية لابد أن يدركها الغرب والإنسانية جمعاء:

أولها: إقامة العلاقة بين الأمم على مبدأ وحدة النفس البشرية بما تفرضه من انتماء إنساني مشترك بينها، يجعل التنوع روافد للتعاون والتكامل والإبداع، وليس للتعصب والاستعلاء.

وثانيها: العدل ولو على النفس والأقربين ولو لإحقاق لحق الخصم. فبدون العدل لن يكون هناك أمن ولا سلام.

وثالثها: حس المسؤولية، فمن أمن المساءلة والعقاب يضعف ضميره ويميل إلى الظلم.

وما لم يتم تفعيل هذه المبادئ الإسلامية الثلاثة في عالم اليوم الذي جعلته الثورة الاتصالية بمثابة القرية الكونية، فإن التقدم التقني وشدة التلاحم بين الأمم سيكون عامل تكريس للظلم بما يهدد مستقبل الإنسانية والحضارة على الأرض، وبالإسلام كثير من الكليات والضوابط الكفيلة بضبط نظم الاجتماع الإنساني يحتاج الغرب إلى التعرف عليها لمعرفة حدود الحرية الإنسانية والاجتماعية الكفيلة بحماية إنسانية الإنسان، ويجب على عقلاء أمتنا ومفكريها إدارة حوار بناء مع الغرب لكسبه من الداخل بتعريفه بآفاق إيجابية الرؤية الكونية الإسلامية في تحقيق توازنه الحضاري، وتجفيف منابع سير حضارته بسنن التاريخ نحو الهاوية.

وخلاصة ما سلف أن المخرج لأمتنا، وللإنسانية بالتبعية، من المأزق الحضاري الراهن هو تلمس سبل الفهم المنهجي الكلي للقرآن والسنة، ولسنن الأنفس والآفاق، ولدروس الخبرة التاريخية، وتحقيق استقرار مبدأ عدم شرعية اللجوء للعنف داخل المجتمع المسلم في ضمير المجتمع المسلم ونخبه المتعارضة.

ولابد أن تؤدي مقاومة الشعوب المقهورة للمعتدي الباغي الأجنبي الصابرة على تكاليفها، إلى رفع كلفة تأمينه لمصالحه، وكفه عن ظلمه بالتكافل بين كافة الأطراف الحضارية الإنسانية في هذا العصر.

وميزان الحروب تحكمه الغايات والقيم الإنسانية وليس نوعية الوسائل التكنولوجية، والصحيح على الدوام أنه مهما تطاولت يد الظلم والعدوان، أن العدل هو أساس الأمن والسلام.

ومما يتعين التحذير منه النظر إلى الإصلاح والتغيير على أنه مجرد تطلعات وتنظيمات وترتيبات هيكلية وإدارية، إنه بالأحرى قضية فكرية عقدية تربوية تستقر في ضمير الأمة وتجري فيه مجرى الدم في العروق، فيما لو غرست في أبنائها من نعومة أظفارهم. (ص٧٠-٨١).

وإلى أن تنجح الأساليب التربوية في إرساء معالم الشخصية الإسلامية الفردية والجماعية الرشيدة، ستظل ظاهرة تفجرات العنف السياسي تهز كيان أمتنا، فهي تعاني الآن من المعالجة السطحية لأزمتها، فدعاة الإصلاح الإسلامي لا يتحركون برؤية قرآنية كلية منهجية على النحو الذي بيناه في هذه الدراسة، والنخب الحاكمة فيها لا تهتم بغير تحويل عبء المسؤولية عن إخفاقها على كاهل غيرها، وتعزف عن الإقدام على الإصلاح الجاد للتردي الحاصل في كافة المجالات، والأدهى والأمر أن كل من النخب الحاكمة والنخب المعارضة تسعى إلى توظيف الإسلام لخدمة مآربها ومصالحها، ومن واجب النخب الحاكمة أن تتحلى بضبط النفس في مواجهة المعارضة، ولا تعاقب جموعًا خفيرة بتهمة الانتماء الفكري أو الاجتماعي أو التنظيمي لحركات المقاومة السلمية، فمن الخطورة بمكان أن يرتد العنف والآثار المترتبة عليه إلى هوية الأمة وثوابتها، ولا يعود العنف هو الجرم، بل الجرم هو الهوية والانتماء، فتنكب الأمة في صميم كيانها ويتمزق نسيجها، من هنا توصي هذه الدراسة بالإجراءات **السبعة** التالية:

أ- التزام كافة الصفوات السياسية والعقدية والفكرية بنبذ العنف وشجبه بكل وضوح، فالخلاف السياسي لا يحل إلا بحل سياسي.

ب- توقف النخب الحاكمة عن المبالغة في الرد على العنف بالعنف وإيقاف أخذ الناس بالهوية والانتماء، والتزام ضبط النفس بقصر الإجراءات العقابية على المتورطين في العنف دون سواهم وبمحاكمة قضائية نزيهة ومنصفة .

ج- التخطيط والعمل الجاد المنظم المستمر؛ لإزالة أسباب الشكوى والمعاناة

بتوفير مستوى حياة كريمة لكافة المواطنين.

د- جعل رفع مستوى التعليم والتدريب وترشيد الشعوب على رأس أولويات برامج الحكم.

هـ- تجنب الخلط بين جهاد الشعوب ضد الاستعمار الاستيطاني والتسلطي لتحرير أراضيها واستعادة إرادتها وكرامتها، وبين استخدام الأفراد والفئات للعنف لفرض مطالبهم السياسية في بلدانهم بالقوة، ويتطلب ذلك التصدي لخطة الإعلام الاستعماري المضادة للشعوب وللسلام العالمي بالخلط بين جرائم الإرهاب وبين المقاومة والجهاد ضد الأجنبي المتسلط حيلة وغيلة، فمن العجيب أن يسيء التزييف الإعلامي إلى الإسلام الذي هو دين السلام، والإخاء، والتوحيد، والعدل، والمسؤولية، وأشد من ذلك عجبًا أن يأتي الاتهام من حضارة غربية مصابة بداء العنصرية الاستعلائية الحيوانية.

و- سعي الأقليات المسلمة بالخارج سواء كانت تنتمي إلى دول ليست طرفًا في البغي على المسلمين، أو في دول طرف في البغي على المسلمين أو على غيرهم من الأمم، ببذل غاية ما باستطاعتها في استخدام الوسائل المدنية والسياسية السلمية لعون الشعوب المضطهدة المسلمة وغير المسلمة، من باب التعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان، وعليها أن تجتنب العنف بالكلية وتلتحم بشعوبها رحمًا ومواطنة والعمل معها وبها لما هو أنفع لشعوبها ولأمتها وللإنسانية.

ح- بناء الوعي بحدود مفهوم (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، فهذا المفهوم يتعلق بعامة الناس وأفراد المجتمع، وجوهره هو بذل الجهد الإيجابي المعين على الخير وإسداء النصيحة والعمل بالوسائل المدنية المناسبة المقبولة والمشروعة سرًا وجهرًا لنصح الغافل ومساعدة المحتاج ودفع المصر على البغي، ولا مجال في ظل هذا المفهوم للعنف ولا للتطاول على الآخرين ولا لتمزيق وشائج الرحم ولا لإثارة الفتنة. (ص٨١-١٠٥).

الفصل العاشر
انهيار الحضارة الإسلامية وإعادة بنائها
الجذور الثقافية والتربوية

الفصل العاشر
انهيار الحضارة الإسلامية وإعادة بنائها: الجذور الثقافية والتربوية [(١)]

مفتاح هذه الدراسة، كما تصرح به صيغة استهلالها هو التذكرة بأنه لا يمكن تغيير ما بالبشرية بما يسمى الهندسة الإنسانية، فالتغيير جمعي وتابع لما بالنفس بالضرورة، وهو يقوم على ركيزتين: استصحاب خمائر الفطرة التي فطر الله الناس عليها بالفقه في الإسلام، والمخاطب بهذا المفتاح يمتد من جيل الآباء إلى الأبناء، إلى كل مرب مثقف، لتحقيق غاية إنسانية رفيعة هي أن يحمل (رجال الأمة ونساؤها زمام المبادرة لحمل الرسالة وأداء الأمانة؛ ليرسوا لأبنائهم وللأمة وللإنسانية قواعد غد أهدى وأفضل، وبشائر مستقبل إنساني كريم).

ويقوم معمار الدراسة على: مقدمة، وستة فصول، تبدأ بفصل في رسم معالم قضية الإنسانية الراهنة، وتشخيص دائها، وتمحور الحل في تربية الطفل وبناء الطفولة وتأسيس الأسرة المسلمة، وتختتم بخطة عمل مقترحة لتحقيق ذلك.

أولًا: القضية الإنسانية الأم المعاصرة: تبلور الدراسة تلك القضية في سؤال جد جوهري: كيف نفسر مرور قرابة تسعة قرون على مساع لإصلاح الأمة الإسلامية بدءًا بأبي حامد الغزالي، ومرورًا بالكواكبي وأمثاله دون أية بادرة لنجاح المشروع الإصلاحي الحضاري الإسلامي وتحقيق التغيير المطلوب في الأمة؟

وتفترض أن العلة هي عدم التركيز على بذرة التغيير وتحريك طاقات الأمة المتمثلة في: الطفل، ولو صحت تلك الفرضية فإن سؤال إحياء الأمة يصير هو: كيف نؤسس لخطاب تربوي إسلامي يبني الطفل المبادر المبدع المتمتع بنفسية

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. انهيار الحضارة الإسلامية وإعادة بنائها: الجذور الثقافية والتربوية، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان: مركز معرفة الإنسان للدراسات والأبحاث والنشر والتوزيع، ٢٠١٦. دراسة في ٢٨٧ صفحة.

يتكامل فيها المعرفي والنفسي والوجداني؟

ويرتبط هذا الخطاب بإصلاح تربوي لمؤسسات التربية المجتمعية، وفي الصدارة منها: الأسرة، فالبشرية بحاجة إلى (الأسرة سيناء) للمعالجة الجادة لأزمات ثلاث متراكبة: أزمة العقل والمنهج، وأزمة الفكر والثقافة، وأزمة الوجدان والتربية، بتوظيف دوافع الأبوة والأمومة الفطرية، التي هي المفتاح الأهم لحركة التغيير السلمي الوجداني، من أجل تحقيق شروط نجاح المشروع الحضاري الإسلامي الذي تحتاج إليه الإنسانية بشدة في ظل مظالم العولمة المادية واستكبارها. (ص١٣-١٦).

والمستبطن في هذا المفهوم المنحوت هو أن الأمة وقعت في حالة تيه شبيهة بتلك التي أصابت بني إسرائيل، وتجسدت في ردهم على فضل الله عليهم بالنجاة من العبودية لفرعون، بعبادة عجل جسد له خوار، والخشية من الناس أكثر من الخشية من الله، فكتب الله عليهم التيه جيلين، حتى تتم تنشئة جيل حر في سيناء.

١- **في الحفر المعرفي في جذور قضية اعتلال الأمة والسبيل إلى استعادة العافية الحضارية**: السبب في اعتلال الأمة وفقدانها المناعة الحضارية هو: إسقاط الطفولة من مشروع الإصلاح، والجذر الكامن وراء ذلك هو الخلل في منهج الفكر الإسلامي بتغييب التنقيب في السنن الإلهية في الأنفس والآفاق، فللتربية والتنشئة سنن إلهية حاكمة للرؤية الكونية الاجتماعية لكل أمة، يتوقف على الوعي بها وغرسها في الطفل التوجيه الإيجابي لطاقاته، وبموجب تلك السنن يحتاج الطفل إلى التأسيس المعرفي والنفسي الوجداني معًا، بما يصحح انحرافات الذات والمجتمع.

ومعنى هذا أن مرد عجز الأمة عن إصلاح ما أصابها، هو: القصور والتشوه المنهجي للفكر الإسلامي، الذي تجسد في عزوف قادة الفكر عن المشاركة السياسية والاجتماعية، وإيثار العزلة، مما أفسح المجال للضمور المعرفي بسنن العمران وبخبرة الأمم الأخرى.

ومن هنا تظهر محورية السعي إلى إعادة بناء النفسية المسلمة، فالإسلام رسالة إلهية سامية تحتاج إليها أمة مسلمة مستضعفة لا يقتصر ضرر تخلفها عليها بل يطال الإنسانية المعذبة المتصارعة بكاملها، التي تئن من استعلاء الرؤية الكونية المادية الجاهلية العنصرية ومن شريعة الغاب، وتنقية تراث الأمة مما أصابه من تلوث وانحراف باستعادة فهم القرآن هو مفتاح تصحيح مسار الإنسانية.

ويدعو القرآن إلى منهاجية النظر الموضوعي في السنن الإلهية في الكون والكائنات بمنظور كلي يجلي الصورة بكاملها دون إفراط ولا تفريط، ويتجنب مثالب الرؤية الجزئية المولدة لخيالات مقطوعة الصلة بالواقع وبملابسات الزمان والمكان، وتحذر تلك المنهاجية من الخشية من النقد البناء، الذي لا مخرج بدونه من المعالجات السطحية الانفعالية المزيفة، فغياب روح النقد تروض المفكر على أن يصير هو نفسه حارس سجنه وكاهن معبد تخلفه وعجزه.

فكوابح الثقافة التراثية استولت على العقل المسلم بما يجعله فريسة للخوف من ردة فعل نفسية غير عاقلة، فيحجم عن إبداء الرأي إلا في حدود المتوارث، ويحتاج العقل المسلم كذلك إلى مراعاة تعدد أبعاد الظواهر الاجتماعية وتعقد شبكاتها الرأسية والأفقية وتفاعلاتها، وإلى التمييز بين جذور الظواهر وأعراضها ومضاعفاتها، فالتصدي للمضاعفات لا يغني عن التصدي لأصل العلل وللأساسيات، والتمييز بين الثوابت والمتغيرات، في ظل الاتساع المطرد للفجوة في القدرة الحضارية بين الأمة المسلمة والأمم المتقدمة، رغم تعدد وتنوع حركات الإصلاح على مدى القرون الثلاثة الأخيرة.

ومن الملاحظ أن حركات الإصلاح المتأخرة في الأمة انطلقت من البداية من مدخل المحاكاة والتقليد إما باتجاه ماضي الأمة برموز عاطفية، أو باتجاه تقليد الأجنبي الغالب، والتقليد والمحاكاة تلفيق لا يحرك طاقات الأمة، وتراث الأمة يختلط فيه الثمين والزائف.

فلقد امتزج الفكر الإسلامي بموروثات الشعوب التي دخلت في الإسلام بما فيه من أساطير ومن رؤى قبلية وشعوبية على نحو لازالت الأمة تعاني من تركته حتى الآن، ويتطلب ذلك منهاجية؛ لتدارك أخطاء التلاقح الفكري، على نحو منظومي، يستلهم سنة الله في كون كل ما فيه منظومات من الذرة إلى المجرة، إلى نفس الإنسان، بحيث يتناغم ضمير الأمة مع فكرها وحركتها، مسترشدًا بخبرة الصدر الأول للإسلام.

بتعبير آخر تحتاج الأمة إلى بناء نسق معرفي تخرج به من التفاعل العشوائي مع الآخر الذي وقعت فيه من قبل مع الفكر اليوناني وحاليًا مع الحضارة الغربية، وهو الانفتاح غير المنهجي الذي جنت منه بعض الثمار في العلوم الطبيعية، لكن على حساب روحها الحضارية ورؤيتها الكلية التوحيدية، وغلب إرث الإسرائيليات على عقل الأمة فأورثه الخرافة والجمود.

ومن مقتضيات تصحيح هذا الخطأ المنهجي السعي لتربية الطفولة على فكر إسلامي منهجي منظوم نقي، يخرج جيلًا مبرءًا من التشوهات والانحرافات والشعوذة، وليس في هذا الطرح تسفيه للتراث، ولا محاكمة الماضي بواقع الحاضر ومعطياته، بل دعوة إلى انتقاء مطايبه واستكمال ما به من نقص، واستعادة روح التألق الحضاري الإسلامي الأول بالعودة إلى الهدي الإسلامي في شؤون الروح والأخلاق والاجتماع.

فأمتنا في أزمة رغم كل ما بحوزتها من موارد قيمية ومادية هائلة، ورغبتها في الصلاح والإصلاح، لكونها تتحرك من موقع رد الفعل، لا المبادرة، ولا تستحضر رسالتها العالمية في توضيح الكليات للبشرية جميعًا وإمدادها بالقيم والمبادئ الهادية للسعي الإنساني، ودرس عبرة العالمية الإسلامية الأولى أن تفعيل قيم الرسالة ومبادئها ولد تراكمًا في البناء العمراني المادي، عمر لأمد مديد، وهو غير مصحوب

بتلك الروح، ولم يظهر أثر اضمحلال تلك الروح إلا بعد أن كان الظلم والفساد قد بلغ من كيان الأمة مبلغًا نضبت معه منابع المبادرة والتجديد فيه، ومعنى ذلك، أن الأمة عجزت عن تحقيق التوازن بين الارتقاء المادي وبين قوة الدفع الروحية، فتحقق الأول على حساب الثانية، مع غلبة روح الأعراب على روح الأصحاب.

ويتمثل جذر الانحراف عن الرؤية الإسلامية الكونية وقيمها ومبادئها، في عدم الاهتمام الواجب بتربية أبناء الشعوب المفتوحة؛ مما أسفر عن تغير طبيعة الجيش الإسلامي والشعوب المسلمة؛ وبذا تسربت كثير من المفاهيم الموروثة إلى هياكل المجتمع المسلم ومؤسساته، وفي مقابل جيل حضاري فعال ورائد، تربى بالوحي المنزل على يدي النبي الخاتم ﷺ، تضاءل دور الرساليين في التربية في الأجيال اللاحقة، من جراء تهميش مشاركتهم السياسية والاجتماعية وانزوائهم بالمساجد والمدارس واستمرائهم للزهد، في بيئة تعج بسلبيات كانت أحوج ما تكون لتفاعلهم معها وترشيدها، ومع العزلة عن الواقع، حدث انفصام بين الفكر والحركة، وأصيب الفكر بالجمود ووهنت حاسة الاجتهاد، وانجرف العقل المسلم في متاهات الفلسفة الوافدة.

ومن هذا الجذر ولدت توجهات غنوصية واستبدادية في الفضاء الإسلامي العام والخاص، وتبددت القدرة على الحفاظ على الثوابت والتكيف مع المستجدات بما تأتي به من فرص وما تطرحه من تحديات، ذلك أن المفاصلة بين الفكر والحركة، جعلت الصفوة المثقفة مزجاة البضاعة في الممارسة العملية وفي التعرف على السنن والطبائع والوقائع، فصار فكرها هامشيًا، غايته هي التوجيه الشرعي للشأن الفردي مع إغراق كل صغيرة وكبيرة فيه بالفتوى، دون الاهتمام بالتفكير للأمة، وكانت النتيجة هي تغييب البعد المجتمعي، وتسلط النخب وانهيار المؤسسات، وغلبة الاستبداد بكل أشكاله.

وفي حومة تبعات الانفصال بين الفكر والحركة، غاب الإحساس العلمي المنهجي بأن لا سبيل للإصلاح إلا من داخل الأمة بإعادة التربية، وساد وهم إمكانية الإصلاح عبر بوابة العنف والصراع، بثمرة مرة لم تزد عن تمزيق نسيج الأمة والتمكين للاستبداد، وتراجع روح الحضارة والإبداع وطاقة الفكر فيها، حقيقة أن إصابة الأمة بتلك العاهات لم تكن متماثلة في كل البلدان ولا في كل العصور، ولم تخل الأمة من عناصر مبدعة ومجتهدة، إلا أن ذلك كان مجرد أثر متبق من قوة الدفع الحضاري الأولى، لم ينهض إلى مستوى القدرة على استعادة الإحياء الحضاري للأمة، ولم يخرجها من غيبوبتها الحضارية، ولم يعفها من افتراس الاستعمار الغربي القديم والجديد لها. (ص١٧-٤٦).

ثانيًا: في تشخيص داء الأمة: سؤال هذا المحور هو: تحليل داء الأمة المعاصرة الذي يتوقف على التعافي منه عودتها لوضعية الأمة الخيرة المخرجة للناس التي تحترمها الأمم الأخرى، وتنصت إلى ما تدعوها إليه من مبادئ وقيم.

١- **مصفوفة تشوهات فكر الأمة**: تعاني الأمة من **خمسة أنواع** من التشوهات الفكرية، ألا وهي:

أ- **تشوه الرؤية الكلية الإسلامية**: لعل هذا هو أخطر موارد الخلل، فالرؤية الكلية تمثل الإطار المرجعي للأمة التي قامت بالأساس على التوحيد بكل شموله وإيجابيته، على ثلاث ركائز: الإيمان بالغيب، والاستخلاف المسؤول في الأرض في هذه الحياة الدنيا، والبعث والجزاء الحق في الآخرة؛ وبذا تلازم الإيمان والعمل الصالح في الرؤية الكونية القرآنية، فغاية الإيمان هي العمل الصالح، المتسع لكل أعمال جوارح الإنسان، المنضبط بالنية والإتقان والخيرية والإحسان، كشرط للتوفيق والتمكين في الأرض بسنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير.

هذه الرؤية الكونية الواضحة الشاملة أصابها تشوه بالغ على يد جمهرة المفكرين

المنعزلين بحسن نية عن الواقع المنقطعين للبحث النظري القاصر على حاجات الفرد، ومع تطاول الأمد ذبلت روح الإسلام وقوة دفعه في رؤية الأمة، ودبت فيها روح الوهن والزهد في التجديد والميل إلى التقليد والمحاكاة، على نحو غاب معه معنى الجماعة.

والمتأمل في جل ما أنتجه علم الفقه وعلم الكلام يلاحظ بجلاء انطلاقه في التكوين التربوي والنفسي للفرد المسلم من رؤية فردية غير جماعية، فالعلماء حددوا علاقتهم بالعامة على نحو يحصرها في تجلية الشؤون الشخصية، دون الشؤون العامة، فقل في تراثهم ما ينظم الحياة العامة للأمة بكل أبعادها.

وفي حومة ذلك وقع تقزيم لمفهوم العبادة ولمفهوم الذكر بحصره في الشعائر الفردية مع التوسع والتحزب فيها إلى حد الإغراق، مقابل عدم بيان فقه المعاملات.

والأدهى من ذلك أن الفصل بين العبادات والمعاملات، حرم الأخيرة حتى على مستوى فقه الفرد من البعد الروحي، ورسخ النظر إليها على أنها مجرد سعي دنيوي، في مقابل كون العبادات سعي أخروي.

ولا صلة تذكر بين تلك الرؤية الفقهية وبين الرؤية الكلية القرآنية التي لا تفرق بين مسؤولية الفرد في حفظ مقاصد الشريعة على المستوى الفردي وعلى المستوى الجمعي بحفظ المجتمع والأمة روحيًا وماديًا، فحياة الإنسان كلها الخاصة والعامة، في منظور الرؤية الكلية الكونية القرآنية ذكر وجهاد وعبادة، وهي كل لا يتجزأ في قصد الخير وترشيد السعي اتباعًا لأمر الله ونهيه، فالصلاة والنسك والمحيا والممات لله وحده، وشتان بين تلك الرؤية الصافية المنفتحة، وبين الرؤية المدرسية الانعزالية المنكفئة التي أفرزت نزعة فردية أنانية جزئية سلبية في الممارسة العملية. (٤٧-٥٢).

ب- **تشوه المنهج**: لباب هذا التشوه هو نزوع الفكر الإسلامي نحو وجهة الاستغراق في التأمل النظري غير المكترث بفقه الواقع وبالتنقيب فيه بالملاحظة

واتخاذه معملًا لاختبار الأفكار وتجريبها، وأسفر ذلك عن عقم منهجي جعل المعرفة قاصرة على الاستظهار والمحاكاة بمنأى عن مدارسة السنن واعتبارات الزمان والمكان، وتمثلت مصادر ذلك التشوه في توجه العزلة عن المجتمع، والتأثر بالفكر الفلسفي الإغريقي بمنطقه الصوري، على حساب الدعوة القرآنية للسير في الأرض والتنقيب عن السنن الكونية والتوليد المعرفي، وكانت عاقبة ذلك هي العجز عن تأسيس علوم اجتماعية تتجاوز مجال فقه الفرد إلى فقه الأمة.

وغلب ذلك المناخ العام، بحيث حيد إبداع عناصر مثل **عبد الرحمن بن خلدون،** في علم العمران والمعرفة الإنسانية الاجتماعية، فلم يهتم علماء العصور المتأخرة بكتابات ابن خلدون وأمثاله، ولا بالبحث في آيات الله في الأنفس وفي الآفاق، ولا بالمعرفة السننية الحية، ومن هنا وقع العقل المسلم في أسر المعرفة الاجتماعية الغربية المعاصرة، وظل الخطاب الديني أسيرًا لضيق المدخل الفقهي الذي قزم مفاهيم مفتاحية مثل مفهوم (الطهارة) في طهارة الجسد، بدل معالجته في كليته الشاملة للصحة العامة وللطهارة الروحية والمجتمعية، والانفتاح على مختلف روافد المعرفة بمنهجية كلية تستدعي وحدة المعرفة وتحررها من التجزئة، والحرفية، ومتاهات الحواشي والمختصرات، والتجريد الجدلي والسفسطة، والوقوف عند الفهم اللغوي للنصوص غير اليقينية، ومن تغليب الكم المعرفي على النوعية المعرفية، ومن مخاطبة المخاطبين بها بما لا تحتمله قدراتهم العقلية والنفسية.

فمن الخطورة بمكان حشو عقل الطفل بسيل من المعلومات التي لا جدوى منها في ترشيد تعامله مع الواقع، على حساب بنائه النفسي السليم، فمرحلة الطفولة هي المرحلة التي يتم فيها البناء العقلي والنفسي للطفل وتتشكل مفاهيمه ووجدانه، فالمعلومات ليست غاية بل يجب النظر إليها على أنها وسيلة إلى غاية هي الرشد العقلي والنفسي والوجداني. (ص٥٣-٥٩).

ج- **تشويه المفاهيم:** أسفرت عزلة العلماء عن تشوه المفاهيم، حيث ساد خطاب الترهيب من النقد، وبدل إرشاد العامة إلى التفكر، قيل لها أن عليها أن تستسلم لمتابعة العلماء وقبول طروحاتهم المعزولة عن الواقع، ولم يكن من الممكن أن يطوع العلماء العامة لقبول ذلك المطلب إلا بتشويه الكثير من المفاهيم الإسلامية الأساسية، ومن أخطر المفاهيم المفتاحية التي تعرضت للتشويه، الذي امتد أثره بحيث شوه عشرات المفاهيم المحورية الأخرى، مفهوم (العبودية)، فالعبث الذي طال هذا المفهوم هو الجذر الرئيس لاستحكام القهر النفسي وفقدان العقل الناقد، وغلبة الفكر العاطفي الحالم.

فالمضمون القرآني لهذا المفهوم هو: صورة الإنسان كخليفة مكرم، يستمد عزه وكرامته من العبودية لله وحده لا شريك له، بأن يكون عبدًا لله مخلصًا في البحث عن الحق والسعي إلى اتباعه، فيكون معبدًا ومهيئًا للاستقامة، ونظيره المفهوم القرآني لـ (الذل) للوالدين، وللمؤمنين، بمعنى: التذليل والتسيير، وليس من المذلة والمهانة والاستعباد.

ومع الخلط بين الخطاب القرآني للكافر المكابر الجاحد المحارب لله ورسوله، وبين خطابه للمؤمن المعبد المقبل على ربه، تولدت مضامين ربط مفهوم العبودية بالوعيد والتحقير، ومن المفارقات غير السوية المقارنة من الأساس بين المخلوق النسبي المحدود وبين الخالق المطلق.

وانفتح السبيل من تلك المقارنة المغلوطة للتهوين من شأن العقل الإنساني المسلم، وقهر حقه في السؤال وفي التمحيص وفي نقد الفكر الديني الذي هو نفسه نتاج رؤية عقل إنساني في النصوص، وزاد الطين بلة أن تلك الرؤية الاستعلائية لطلبة العلوم الدينية صاحبها قلة بضاعتهم في العلوم الإنسانية، وتأثرهم بالفلسفة الإغريقية، على نحو كرس وهمًا بصراع بين العقل والنقل.

وطال العبث بمفهوم العبودية مفاهيم مفتاحية عديدة من بينها: التوحيد والإرادة والاستخلاف والتزكية والعمران، فمفهوم التوحيد تم جره إلى الخوض في أوصاف مجردة للذات الإلهية، بدلًا من التركيز على كونه مبدأ دينيًا ناظمًا للحياة الإنسانية، وإطارًا لضبط علاقة الإنسان بالكون كله، ومؤشر على وحدة الخالق ووحدة الخلق وغائية الخلق والكون وتكامله، وقصد الخير فيه دون استعلاء ولا استبداد؛ وبذا يقوم الاستخلاف على الغائية الخيرة والإرادة الإنسانية الحرة المسؤولة، بمنظومة قيم ورؤية تجعل العبودية لله سنام الحرية الإنسانية الحقة.

ويقرر القرآن في هذا الصدد أن وحدانية الله هي أساس صلاح الكون، فلو كان فيه آلهة إلا الله لفسد، وتحري الإنسان التعبيد والإحسان يرتبط بإرادة وجه الله بالعمل الصالح القائم على التوحيد، والصلاح عبر هذا التحري هو سبيل العزة في الدارين، وعمران التمكين في الأرض. (ص٦٠-٦٤).

د- **تشوه الخطاب**: تمخض الانفصام بين النخبة الفكرية والنخبة السياسية، عن تشوه بالغ للعقل والوجدان والنفسية المسلمة، إذ تحول الخطاب من خطاب فكر اجتهادي متدبر ومدبر ومستجيب لمتغيرات الزمان والمكان، إلى خطاب قهر قمعي، يعتمد على ركام من الروايات الأحادية القابلة للدس والغفلة والتدليس وسوء التأويل والاختلاق الروائي، ومن هذا المدخل سحب الخطاب الوعظي الترهيبي كثيرًا مما خوطب به الجاحدون لدين الله على المؤمنين به على نحو سحق روح العامة.

من ذلك على سبيل المثال العبث بمفهوم المال بإحلال مفهوم (مال الله) محل مفهوم (مال المسلمين) كذريعة للتملص من مبدأ المحاسبة من جانب الأمة، وبالمثل بحثت السلطة السياسية عن مسوغات موهومة للاستبداد مع إضفاء هالة من القداسة الشرعية عليها بلوي عنق النصوص.

ورافق ذلك خطاب ديني ترهيبي من أهوال القبر ويوم الحشر ونار جهنم التي

تترصد بالمسلم في كل حركاته وسكناته، على نحو أثمر خمود روح الأمة وسلبيتها، فلقد ركز الخطاب على الموت أكثر من تركيزه على الحياة، وربط الفلاح بهيئة الفرد المسلم وجلبابه ولحيته، أكثر من عمله وصلاح معاملاته، محولًا ما هو هامشي إلى جوهر، وما هو جوهري إلى هامش، بجعل اللحية واللباس مسألة إيمان وكفر وطاعة ومعصية للسنة النبوية بتوظيف عشوائي للنصوص المقدسة.

ولا غرابة في أن التربية على مثل هذا الخطاب، ولدت ضمورًا في أثر التعليم الديني على النشء، لكونه يخالف ما كانت عليه أساليب التربية النبوية من استثارة الإحساس بالكرامة والمروءة والشورى والاجتهاد والتجديد، ومن المقولات التي تتلخص فيها سمات خطاب الإملاء والقهر الديني المعاصر عبارة (من علمني حرفًا صرت له عبدًا) عوضا عن: (من يعلمني حرفًا أصير به حرًا) ؛ وبذا فشت عقلية الشعوذة والخرافة في أمة القرآن، الذي جاء للدعوة للاجتهاد المعرفي السنني وللإتقان والإحسان، وطلب الأمور بالأخذ بالأسباب.

ومن العجيب أن تسري تلك العقلية في أمة كتابها هو القرآن وقدوتها هو النبي الخاتم ﷺ الذي تمثل سيرته كلها نموذجًا في التدبر والتدبير والأخذ بالأسباب في إدارة السلم والحرب، وهكذا حل التواكل محل التوكل، بمظنة أن الدعاء يصح دون أن يسبقه العمل والكد وبذل الجهد المستطاع، فمجال الدعاء هو العون الإلهي فيما وراء الأخذ بالأسباب وما هو في طاقة الإنسان، والاكتفاء بالدعاء دون الأخذ بالأسباب ضرب من الشعوذة والقعود والعجز والكسل بالمخالفة لسنة الله في الوجود، والاستبداد هو التربة المناسبة للخرافة والشعوذة لكونه يولد الإحساس بالعجز والقابلية للإصغاء للتأويلات والقصص والأساطير، مع عدم القدرة على دفعها نتيجة الجهل والعطب العقلي والنفسي والوجداني.

ومن أبشع الكوارث توظيف الدين في خدمة الخرافة والشعوذة لخداع النفوس

والأبصار واسترهابهم، وبين القرآن أن الله قد حكم أزلًا على سعي الساحر بالخسران وعدم الفلاح، ومع أن رسالة النبي الخاتم ﷺ جاءت للعالمين، فإنه لم ير الجن، بل فقط استمعوا إليه، فلم يتصل عالمه بعالمهم، وبين القرآن أن الشيطان لا يستطيع أن يوسوس إلا إلى من يصغي إلى وسوسته مختارًا، فهو لا سلطان له على المؤمنين المتوكلين على الله، وسلطانه وحسب على من يتبعه من الغاوين، ومعنى ذلك أن القرآن بين أن الإنسان في ظل الرسالة الخاتمة عبد لله وحده، لا سلطة عليه من عوالم أخرى ولا من أشباح تنفي مسؤوليته أو تسلب إرادته.

بيد أن تلك الرؤية القرآنية التي تزن بميزان الذرة من الخير والشر، وتدعو للتدبر والتفكر والاجتهاد في السعي، اضطربت بعد أن عكر صفوها فكر القهر والتقليد عبر تأويل مغلوط لبعض الإشارات القرآنية والأحاديث النبوية، وأكداس من النصوص الضعيفة والموضوعة التي تسللت من خلال غفلة الصالحين وكيد المغرضين.

وكانت ساحة هذا العبث هي الخوض في عوالم الغيب التي لا مجال لحواس الإنسان وعقله للإحاطة بها، والمخرج الوحيد هو العودة إلى المقاصد القرآنية وضبط ذلك التراث ومحاكمته بها، ولو التزم المسلمون بضبط المرويات بالمبادئ والمقاصد والتواتر، لما وقع العقل المسلم في غياهب الخرافة والشعوذة التي قادت الأمة إلى دركات الوهن.

وبدل أن يكون الدعاء والرقية علاقة وجدانية بين الإنسان وخالقه دون أية واسطة، إذا بها تتحول إلى مهنة يحترفها البعض وإلى تألي على الله، وسبيل لأكل المسلمين أموالهم بينهم بالباطل، بل الأدهى أن طلب البعض ممن يتوسم فيه الصلاح الدعاء، صار تكئة للعزوف عن التوبة التي تجعل طالب الدعاء نفسه أهلًا لأن يكون مستجاب الدعوة.

وخلاصة القول: إن الأمة بحاجة ماسة إلى تحرير المفاهيم مما لحق بها من غبش،

وإلى تنقية التفاسير والتراث بوجه عام مما دخل فيه من معطوب وخاطئ، ومفتاح تلك المراجعة هو السعي إلى تحرير العقل المسلم من المنهجية الجزئية اللغوية والنصية الحرفية التقليدية التاريخية المبتوتة الصلة بكل من السنن الكونية والواقع المعاصر، ولا مخرج إلا بمنهجية كلية.

فلقد تفرقت السبل في تراث أمتنا إلى درجة يستحيل معها حل أي جزئية من إشكالية الأمة بالجمع بين ما هو به من رؤى لها، دون الخروج بصور مشوهة وتلفيقية، وحدها المنهجية المقاصدية التي تركز على المقاصد والثوابت والكليات هي التي يمكنها تحرير العقل المسلم من أسر الزمان والمكان، والوقوف على الجوهر الذي يمكن به معالجة تحديات الواقع والنهوض من جديد.

وفي ظل تلك المنهجية يعتبر ترويج فكر الخرافة وكتبه جريمة بحق الدين والأمة، فالتراث يجب إخضاعه للمدارسة في حلقات علمية للمتخصصين بغية تنقيته واستخلاص جوهره. أما الترويج له وطرحه على علاته لعامة أبناء الأمة، فهو ضرب من الدجل باسم التراث وباسم الدين، فكثير من التراث نسب بغير وجه حق عند التمحيص العلمي إلى أئمة أجلاء بهدف ترويجه، وكثير مما صحت نسبته إلى أئمة السلف يعبر عن سقف زمانهم المعرفي، ويحتاج إلى المراجعة وإعادة النظر لاستصحاب خلاصته وعبرته في ضوء السقف المعرفي والواقع المتغير في العصور اللاحقة.

والسمة الرئيسة للرسالة الإسلامية الخاتمة هي عدم التعويل على المعجزات والخوارق، والتمكين لهداية الوحي والعقل، ومن الواجب حماية الأمة عامة والنشء خاصة من قصص الخوارق، وتحصينهم بالعقيدة الصحيحة والعلم الصحيح في كل قنوات التنشئة التربوية والتعليمية والإعلامية، فبالتراث مواد سامة ضارة ينبغي حفظها لدى أصحاب الاختصاص بعيدًا عن متناول الصغار والجهال،

ولابد من مراعاة حق اختلاف الواقع الإنساني عبر الزمان والمكان في ترشيده بالوحي المنزل وبالتفكر في السنن الكونية، برؤية منهجية كليه تقوم على الجمع بين فقه النص وفقه الواقع والتعرف على سؤاله وأنسب الإجابات الممكنة له (ص٦٥-٨٣).

ورغم محورية تربية الأطفال، فإن وعي الآباء هو أساس البناء، وأيًا كانت الثمرة الإيجابية المرجو تحققها من وراء التنشئة على الخرافة، فإنه يجب على الآباء تجنبها في تربية أطفالهم.

خذ مثلًا غرس مقولة أن في ثمرة الرمان حبة من الجنة بغية تحقيق حرص الطفل على عدم التفريط في أي حبة منها، كوسيلة لعدم وقوع بعضها على ثوبه بما يحدث به بقعًا تصعب إزالتها، فمثل تلك الخرافة قد يكون لها أثر وقتي مهم، لكن بثمن آجل بالغ السوء، ومن قبيل توظيف الأمهات للخرافة كذلك السعي لإشباع حاسة الخوف على الطفل من البعد عنهن في عتمة الليل من شياطين الإنس، بمقولات خروج الجن على هيئة آدميين لهم أرجل حيوانات في الظلام.

فمثل هذه الخرافة المرعبة كفيلة بترسخ صورة في ذهن الطفل تمنعه من مغادرة عتبة البيت في الظلام، وتربي فيه الخوف الدائم من الوحدة ومن الظلام وتربيه على الخوف والجبن، من هنا تأتي أهمية بذل الجهد لتحرير المفاهيم الأساسية لتحرير العقل المسلم من الخرافة، على أسس متينة تليق بأمة (العلق والقلم والحديد)، فالقضية ليست قضية وجود عوالم أخرى في الكون.

ما يعنينا هو تصحيح صورة علاقة هذه العوالم مع الإنسان وتأثيرها فيه وفق ما ورد بالقرآن من تقرير لحرية الإرادة الإنسانية ولمسؤولية الإنسان، وللأخذ بالأسباب، ولوجوب التمييز بين الغيب الجزئي الذي يتم اكتشافه باطراد بالتدبر في السنن الكونية وبين الغيب المطلق الذي استأثر الله بعلمه.

فالعلم يكشف الغيب النسبي، والشيطان لا سلطة له على الإنسان، والسحر

والخرافة تهويمات لا ظل لها من الحقيقة، ولو كان السحرة والدجالون على شيء من الحقيقة لنفعوا أنفسهم، وموجب الاستخلاف هو أن يتحكم الإنسان في عالمه ويتحمل مسؤولية أفعاله فيه، لا أن ينشغل بالتكلم في عوالم الغيب التي هي خارج دائرة رسالته في الأرض وفوق استطاعته، ولا خير يرتجى مطلقًا من وراء الخرافة والسحر، بل الضرر المحض للإنسان. (ص٨٤-٨٩) .

هـ- **تشوه دعوى العرقية المنتنة**: بمنظور **ابن الحرم**، يقرر **عبد الحميد أبو سليمان** أن نشأته في مكة، التي تأوي إليها قلوب البشر بكل أطيافهم جعلته يشعر بتعبيره بأنه منهم وهم منه إنسانية ووطنًا ودينًا، لا يفرق بين واحد وآخر إلا ما يحمله بين جوانحه من صفات وخصال، فلقد نشأ في المنزل والمدرسة وبيت الله العتيق في حضن القرآن وجملة من أمهات نصوص السنة النبوية المبينة لوحدة الإنسان وإخاء المسلم وبر الرحم، وعلى أن الكل لآدم وآدم من تراب، وعلى أن العبرة يوم التلاق على الأعمال وليس على الأنساب، وعلى أن المسلم للمسلم كالبنيان وكالجسد الواحد.

وفي مقابل هذا النبع الصافي، كان ذاك الطفل المكي يقرأ بحيرة وضبابية في تاريخ الأمة وصراعاتها، دون أن يعي خياله معنى العصبيات والقبليات والشعوبيات والعرقيات، وبعد عهد الطفولة وبراءتها، ساح ذلك الشاب في أرجاء الجزيرة العربية والعالم العربي ومشارق الأرض ومغاربها، ورأى عمق مأساة الأمة الإسلامية المتمثل في حقيقة أن الإسلام الذي أوجدها من الأساس يقوم على وحدة الإنسان وعالميته، في مجتمع التوحيد المنزه عن نتن الجاهلية العرقية والقبلية والشعوبية، الذي يزن الإنسان بالتقوى وتحمل المسؤولية وأداء الأمانة.

ويعتبر ما عدا ذلك مجرد فروق شكلية هامشية لا وزن لها، وفي ظل هذا التصور الإسلامي تتلاحم دوائر الانتماء الإنساني من النفس الواحدة إلى الرحم والأهل والدين والإنسانية بروح البر والعدل الشاملة للإنسان كل الإنسان، وعرفت البشرية

ذلك النموذج في أبهى صورة له في مجتمع الأنصار والمهاجرين بالمدينة المنورة.

وعلى ضوء ذلك تعد العنصرية العرقية بمثابة تلوث عقدي ثقافي خطير، ويتعين هنا التمييز بين صلة الرحم الإنسانية الإسلامية القائمة على التواصل والعطاء والإيثار، وأخذ القوي بيد الضعيف والكبير بيد الصغير، والعدل والإحسان والإخاء الإنساني، وبين العصبيات العنصرية القائمة على الحيوانية أو الظلم والفرقة.

ولا سبيل لاستعادة روح الإسلام ووحدة الأمة وسمو الرسالة دون تنقية عقل الأمة من نتن العرقية وأمراضها، فالعرقية تؤسس لحق القوة، مقابل تأسيس الإسلام لقوة الحق حتى في التعامل مع الأعداء، ومن هنا فإن العرقية تولد سياسة الافتراس بدعوى المصلحة القومية بما يلحق بالغ الضرر بمفهوم الإنسان الكوني، وليس العيب في القوة ذاتها بل في استعمال العرقيات لها في الباطل وفي الظلم وفي استعباد الخلق للمخلوقين، بدل استخدامها لصالح الخير والعدل وتعبيد الخلق للخالق، وللشجرة الطيبة (شجرة التوحيد) ثمار هي: الإخاء، والعدل، والتكافل، والتراحم الإنساني، وللشجرة الخبيثة (الاستعلاء العرقي) ثمار تتمثل في طغيان القوة وغشمها، وبعد أن كانت أمة القرآن واحدة، فإنها تلوثت بنتن التمايز العنصري والعرقي، ونشأت أجيالها عليه.

ولا استعادة لحس الأمة ومفهومها، وتخليصها من الفرقة والصراع والتمزق، إلا الشروع في تنقية ثقافتها وتربيتها من سموم التمايز العنصري العرقي الظالم والمستكبر، فبذلك وحده تعود الأمة المتراحمة المترابطة المتناصرة بكف يد الظالم وبمد يد العون للمظلوم، بدءًا من الفرد والأسرة مرورًا بالأهل والشعوب والأقوام وصولًا إلى الأمة والإنسانية.

ويتعين الوعي بأن النزعة العرقية ورثت الأمة خللًا في بنائها النفسي يتجاوز الصراع بين النخبتين الفكرية والسياسية، والانكباب على فقه الفرد دون فقه الأمة،

إلى تعدد الولاءات وتصارعها، ونخر هذا التعدد الصراعي في مؤسسات الأمة التربوية التعليمية، بما أفسح المجال للعنف وجعل عامة أبناء الأمة حطبًا للصراع بين النخب الفكرية والسياسية، مما مهد للتمكين للاستبداد، ولعل إهمال الإصلاح التربوي هو السبب في إخفاق مساعي النهضة الإسلامية في العصر الحديث، في مقابل نجاح النهضة الأوربية رغم قيامها على رؤية علمانية (ص ٩٠-٩٨).

ثالثًا: مفتاح التعافي من داء الأمة المعاصر: ذاك هو الطفل، ورغم ما أصاب الأمة من وهن فإن روح الإسلام ظلت سارية في أوصال الأمة، وهي التي تفسر ما بقي في كيانها وهويتها من قيم وغايات سامية لقرون عديدة، لكن ذلك لا يمنع من القول بضرورة تقويم واقع الأمم للتعرف على سر انحطاطها إلى درك تحكم أمم أخرى في مقاديرها على النحو الراهن، توطئة للبرهنة على محورية تربية الطفل كنقطة انطلاق وإقلاع حضاري جديدة على بينة.

ففي القرن الخامس الهجري، سعى **أبو حامد الغزالي** إلى تصحيح مسار الفكر الإسلامي بتخليصه من تهويمات الفكر الفلسفي الإغريقي الذي ضلله، فكان كتابه (تهافت الفلاسفة) مقاربة في التخلية، أعقبها بمقاربة في استعادة الطاقة الروحية للأمة بكتابه (إحياء علوم الدين)، وتوالت من بعده حركات إصلاحية كثيرة عابها جميعًا الافتقار إلى منهجية كلية تضع يدها على أس البلاء ومنبع البلاء، فلم تحرك كوامن طاقة الأمة، وجذر ذلك الخلل المنهجي أنها لم تنطلق من تنشئة الطفل، الذي كان ولا يزال بمثابة الجندي المجهول، الذي هو بوابة إعادة تأهيل الفرد المسلم والمجتمع المسلم والإصلاح المنهجي للمعرفة الإسلامية.

والمتأمل في الخبرة التاريخية المستفادة من ماضي أمتنا، يلاحظ أنها قصرت ما أولته من اهتمام بتربية الطفل على أبناء الخاصة، الذين أسندت مهمة تربيتهم وتعليمهم إلى مؤدبين راعوا في تربيتهم الرفق والحفاظ على كرامتهم وتوجيههم

لشغل مراكز الحكم والرياسة في المجتمع، وطريقة التعليم هذه هي التي جرى توثيقها ونقلها إلينا.

أما أبناء عوام المسلمين فتربوا في الكتاتيب حيث يقتصر التعليم على حفظ القرآن وبعض مبادئ الحساب، مع عدم توفر الحد الأدنى من المتطلبات المادية والمعنوية للتعلم، مما أدى إلى انحطاط المستوى المعرفي للعامة، ورافق هذين النوعين من التعليم نوع ثالث؛ لتخريج موظفين من بين النابغين في التعليم الكتاتيبي، يمول عن طريق الأوقاف، وتواصلت تلك الازدواجية في نوعية التعليم ومستواه في البلدان المسلمة حتى اليوم حيث توفر المدارس الخاصة والأجنبية من وسائط التعليم وإمكانياته ما لا نظير له في مدارس تعليم العامة، وأفرز ذلك عقلية متغربة لدى جل شاغلي المناصب العامة تحتقر العامة وتجنح إلى القهر والاستبداد.

ولقصور الثقافة الإسلامية أصبح الطفل هو الحلقة المفرغة التي يدور في رحاها عجز الأمة عن تغيير أحوالها وتجديد طاقتها، ولعل من أهم الأخطاء التي وقعت فيها أمتنا، الحفاوة ببذل الجهد في مخاطبة البالغين، مع إهمال العناية بنموهم في الصغر الذي هو سن التكوين المعرفي والنفسي والوجداني، فالطفل عود غض يشب معوجًا بإهماله في طفولته، فلا ينفع معه نداء ولا دواء بعد أن يصير عوده يابسًا معوجًا.

ولابد من التنبه هنا إلى حقيقة أن الإدراك العقلي لدي البالغين لا يكفي بالضرورة للتفاعل وتحريك الوجدان، فكم من جبان يحفظ دواوين شعر الحماسة، ومن مدخن شره يعرف أضرار التدخين علم اليقين، وكم من ملايين من البالغين يعرفون سقم ما تدعوهم إليه وسائل الإعلام وينكبون على متابعة خطابها، وسبب هذه الظاهرة المرضية هو إهمالهم في مراحل تكوينهم المبكرة، وتبديد فرصة بنائها، فالانفعال الوجداني والإبداع لا يكون إلا باللغة الأولى، وهنا تأتي خطورة عدم تمكين الطفل من لغته الأولى، فاللغة الثانية تعتمد في نفس الإنسان على الترجمة، فلا يمكنها تحريك الوجدان والمشاعر.

ومن أبلغ العبر ما حكاه القرآن عن بني إسرائيل، فنشأتهم في ظل الاستعباد الفرعوني، جعلهم عاجزين حتى بعد التحرر بهبة ربانية لا دخل لهم فيها، عن تحمل تبعات البناء وتضحياته ومبادراته، فظلوا متمسكين بالسلبية وعدم المبادرة وإلقاء العبء على الغير والقعود، ويوازي ذلك في هذا العصر كثرة مطالبة المسلمين للحكومات وللمجتمع الدولي وللأمم المتحدة برفع الظلم عنهم ومنحهم حقوقهم، فتلك هي ذهنية العبيد المأمورين.

ويبين النموذج القرآني في معالجة عقلية العبيد لدى بني إسرائيل وجوب عدم تعجل الثمرة، بتعريضهم لعملية تربية في بيئة ليس فيها كثير من الشواغل لمدة أربعين عامًا، ومعنى هذا أن التعويل على الخطاب الوعظي للبالغين وإهمال اعتبار الطفل محورًا في مشروع الإصلاح التربوي العلمي للأمة هو سر إخفاق كافة مساعي الإصلاح في الأمة على كثرتها في العصر الحديث. (ص٩٩-١١١).

ورغم تعدد أزمات الأمة فإن أنكاها الأزمة الفكرية، فبعد أن كان الأصل هو الإخاء والترابط بين المسلمين صار الواقع هو الفرقة ووهن أواصر المحبة بين الجيران وأولي الرحم، ومع أن الإسلام هو مصدر ما تبقى في الأمة من خير، فإن النخب الحاكمة في البلدان الإسلامية باتت تستلهم رؤيتها لأمتها ولهويتها وتاريخها من الغرب الطامع فيها ومن أدبياته الصليبية، وما الاستعمار إلا عرض لمرض لا يمكن التخلص من القابلية له دون إزالة أسبابه الكامنة في كيان الأمة.

ولعل النظر في أحوال أمم أخرى يقيم الدليل على ذلك، فها هي الصين تعرف الوحدة رغم احتضانها لما يوازي عدد سكان العالم الإسلامي، وتعدد تركيبتها اللغوية والعرقية، ومرورها في تاريخها بإرث حافل بالحكم الإمبراطوري والإقطاعي والاستعماري، ورغم كل هذا فإنها عرفت وحدة الثقافة والدولة.

وتمثل الهند نموذجًا آخر بالغ التنوع يتعدى حجمه السكاني المليار، ومر بخبرة

استعمارية وباستبداد وعسف منقطع النظير، وفي المقابل فإن بنجلاديش تعتبر عيدها القومي يوم انفصالها عن باكستان، كما تعاني باكستان من الصراعات بين مكوناتها على نحو يثير القلق على مستقبلها، في مقابل الرفض الهندوسي الجمعي لمبدأ انفصال أي جزء من الكيان الهندي الموحد، والمثل الثالث هو أوربا المعروفة بصراعاتها وتعدد ثقافاتها ولغاتها وأعرافها وأعراقها، ومع ذلك فإنها قطعت شوطًا كبيرًا على طريق الوحدة، وغلبت مصالح الحاضر على عداوات الماضي التاريخية.

وحده العالم الإسلامي ظل ساحة للصراع وسط تكتلات دولية عملاقة، ومن المفارقات الغريبة أن العالم الإسلامي شهد إبرام اتفاقيات تعاون محاكية لتلك التي أبرمت بين الدول الأوربية، ولكنها ظلت مجرد حبر على ورق.

ويطرح هذا سؤالًا محوريًا: إذا كان ديننا وعقلنا ومصلحتنا يأمروننا بالوحدة ونبذ الصراع فيما بيننا، فلم نفعل العكس؟ السبب هو تشوهات الجانب الجمعي في شخصية الإنسان المسلم، والخلل الجمعي في ثقافة الأمة، وفاقد الشيء لا يعطيه، ذلك أن الجانب النفسي الوجداني في مرحلة الطفولة أهم في بناء الشخصية الإنسانية من الجانب المعرفي، ودرس التاريخ الإسلامي هو أن إيجابية المجتمع وسلبيته تتوافق طردًا وعكسًا مع قوة البعد الجمعي في الفكر الإسلامي وضعفه.

ففي صدر الإسلام كان ذلك البعد قويًا فتألقت الأمة والدولة والمجتمع، بذهنية عبر عنها الصديق أبو بكر حين تبرع بكل ماله بقوله: تركت لأبنائي الله ورسوله، وليس من رأى كمن سمع، وكل إناء ينضح بما فيه، فلم يفهم منظرو العزلة مقولة أبي بكر على أنها ليست مجرد توكل إيماني عاطفي، بل ثقة أيضًا في التكافل بين المسلمين. أما حين تدهور البعد الجمعي فإن المال صار دولة بين الأغنياء، ولم يعد المجتمع يعول على الفرد ولا الفرد على المجتمع، فانهارت مؤسسات الدولة وتمزق نسيجها، وفشت ظاهرة التسول والفساد الاجتماعي ومرض التخلف

عن حماية مصالح الأمة، واستشراء روح التعصب العرقي والقبلي، وفقدان ثقة ضمير الأمة في مؤسساتها، وتوهم أن العنف يمكن أن يكون طريقًا إلى الإصلاح، والتحصن بالرفض الصراعي والتقوقع السلبي، وبالفكر الغنوصي الخرافي.

وكانت الكارثة أن تأصلت على يد النخبة الفكرية دون وعي رؤية كلية نابعة من واقع الأمة المريض، ينزوي فيها البعد الجمعي، رغم غزارة موارد الأمة المادية والروحية والقيمية، ذلك أن خطاب البالغين لا يغير قواعد بناء أنفسهم، وقصر الخطاب على البالغين لا يحدث التغيير التربوي الضروري في نفس الناشئة، ولقد كان الخطاب الإسلامي في الصدر الإسلامي الأول متعددًا بتعدد المخاطبين به.

أما في عهد الانحطاط فإن الخطاب صار أحاديًا، ووقع خلط بين مرتكزات إدارة الصراع داخل المجتمع، وإدارته بين المجتمعات، وبين اقتصاد الداخل الإسلامي والعلاقات الاقتصادية مع الخارج، فوضع السيف في غير موضعه.

فحق الخطاب أن يتعدد بتعدد المخاطبين به وبتعدد أبعاد الوجود والاحتياجات والمقاصد والقدرات، ومع تقديس الخطاب الأحادي ترسخت نفسية العبيد المستسلمة للقهر التي تهرول للبكاء في جنازات جلاديها، واستهدف ذلك الخطاب جمهور البالغين وأهمل النشء، وغاب الخطاب التربوي لصالح الخطاب القانوني والعقابي، وأفسح ذلك الخطاب المجال أمام تربية الأطفال على القهر عوضًا عن التعويد والترغيب باتخاذ العقاب وسيلة أساسية للتربية بدل ترويض الأطفال ومخاطبتهم على قدر عقولهم، وعدم تصيد هفواتهم.

وغاب في ظل ذلك نماذج للأسوة النبوية في تربية الأطفال على غرار معاملته ﷺ للحسن والحسين حتى وهو بالمسجد، واتخاذ النبي ﷺ من عدم تقبيل الطفل معيارًا على قسوة القلب ونزع الله الرحمة منه، ونموذج تعليم النبي ﷺ لعبد الله بن عباس أن حفظ الله له مشروط بحفظه هو - وهو لا يزال طفلًا يافعًا - لله، وبأن لا يسأل

إلا الله ولا يستعين إلا به ويوقن أن النفع والضر كله بيد الله.

وحرص النبي ﷺ على إلقاء السلام على الصغار كلما مر عليهم، بل إن النبي ﷺ اعتنى بالطفل قبل أن يوجد بالحث على نكاح الصالحين والصالحات والتخير للنطف، وتقوم هذه النماذج التربوية النبوية على التمكين لعلاقة ود ومحبة بين الطفل وربه، وتغرس فيه روح الإقبال والمسؤولية والمبادرة القلبية والعقلية، ولما غفل المسلمون عن هذه النماذج التربوية واستبدلوها بخطاب الاستهانة، والقهر، والترهيب، وإهمال قابليات الطفولة، ذلت شعوبهم وخمدت مكامن الطاقة فيهم واحتاجوا إلى دفاع غيرهم عنهم (ص١١٢-١٤٧) .

رابعًا: معالم على طريق بناء الطفولة: مع أن أصل أزمة الأمة كان سياسيًا اجتماعيًا ناجمًا عن صراع التوجهات والعصبيات، فإنها تحولت إلى أزمة ثقافية حضارية، ثم إلى أزمة وجدانية تربوية تتوارثها أجيالها، وباتت الأمة تواجه تحديات تتوقف نهضتها على رسم معالم طريق التغلب عليها، يتصدرها تحدي: عدم امتلاك القدرة العلمية التكنولوجية، وتفاقم الفجوة المعرفية التقنية في ظل العولمة، ومواجهة هذا التحدي لا تكون باستيراد المعدات ولا بسوق الشباب في غرف الدراسة، بل بتطوير العقلية العلمية وتنمية القدرة النفسية الإبداعية، فذاك لا ينتج غير نزعة استهلاكية وجيوش من البطالة المقنعة؛ لأن التحدي ثقافي تربوي وليس تحديًا كميًا ماديًا، مفتاحه هو توفير الشروط المنهجية والتربوية لامتلاك القدرة العلمية التقنية، بفض المعارك الوهمية وتصحيح المفاهيم على نحو ما يتطلبه الإسلام الذي هو دين العقل والاقتناع والعلم وتربية الوجدان والضمير.

ومن نماذج هذا التصحيح المفاهيمي تبين أن الردة لم تكن مسألة إيمان واقتناع بل فتنة يهودية للناس في دينهم، فالإسلام لا يكره أحدًا ولا يتدخل في نظام عقيدة أحد، ومن الأهمية بمكان التخلص من عواقب خطاب فصيل من رجال الدين

الذي يرد على التخوف من الهجمة الثقافية الغربية بخطاب ترهيبي أفضى إلى التنابذ بين الخطاب الديني والعلماني، على نحو صرف العلماني والمدني عن معرفة مكنون دينه، وصرف المتدين عن معرفة ما حققته الحضارة الإنسانية من معارف؛ مما جعل الأمة مشلولة ممزقة بين مدرسة تغريبية علمانية ومدرسة دينية حرفية تقليدية، وكلا المدرستين تعاني من خوف وعجز وجهل، يعتبر التخلص منه شرطًا لحوار بناء بينهما لبناء المشروع الحضاري للأمة، والمعركة بين المدرستين ناتجة عن القصور المنهجي لكل منهما، فجل المدنيين المثقفين يؤمنون بالله ورسوله، وبالسنن وبكرامة الإنسان وهدي الوحي وبضرورة السعي لامتلاك القدرة المادية والمعنوية، لكن الغائب هو التأهل للحوار البناء، الذي يحول دونه إصرار كل من الديني والمدني على استدامة الجهل بالآخر، وفي ظل ذلك تتعمق الخلافات، وتنضب فرص الحوار المثمر، فضلًا عن تنشئة جيل من العلماء يجمع بين علم الوحي وعلم الشهادة.

وينبغي على الجامعات ومراكز البحوث في العالم الإسلامي أن تركز على الإصلاح المنهجي الفكري الكاشف عن التناغم بين التفكير السنني والإيمان بالغيب في مقابل زيف التأويل الحرفي الجامد جنبًا إلى جنب مع القبول بالتبعية للمستعمر الغربي.

ومقتضى هذه المنهجية تنقية التراث الديني مما اعتراه من تشوهات باستخدام الإمكانات الحديثة في نقد المتون والسند وفرز الصحيح من المرويات من السقيم، ذلك أن جل المرويات، عدا العشرات من الأحاديث والسنن الفعلية التي تواترت عليها أجيال الأمة، لا ترقى إلى مقام اليقينية، وتتلبس بالقابلية لسوء الفهم والتأويل والتوظيف السياسي والمذهبي.

ومن الأهمية بمكان استحضار منطق عزوف الصدر الأول عن الإكثار من المرويات، وتركيزهم على كليات الهدي النبوي، وعلى التدبر ومعايرة المرويات

بميزان المقاصد القرآنية الحاكمة، ورد كل ما يتعارض معها، فلا موضع في ظل الرسالة الخاتمة للخرافة والكهانة والشعوذة والدجل والسحر، وكل علم يثير فتنة للناس في دينهم ويركن إلى الخديعة والإيهام بها لا حقيقة له. (ص١٤٨-١٧٥).

وخلاصة القول: إن أمتنا بحاجة إلى معالجة الإشكال التربوي، فمع انحطاط الفكر التربوي تتلوث الرؤية الاجتماعية الكلية والتفكير السنني، وتتربع المفاسد الاجتماعية والسياسية، والتراجع الحضاري، وبتدقيق النظر في تراثنا التربوي نجد أنه انصب على التأمل النظري وأدب النصيحة، مع تفشي ظاهرة التعليم الخاص والأجنبي على نحو يولد انحطاط ثقافة العامة، مع تغييب تأسيس المناهج التربوية على جوهر الأسوة في سيرة النبي الخاتم، حيث نجد نموذجًا خاليًا من قهر الرئيس لمرؤوسيه، وداعيًا إلى الرفق في الأمر كله، وإلى الرحمة وإلى تيمم مكارم الأخلاق والحب، وتكوين شبكة علاقات بين الإنسان وربه وبينه وبين المخلوقات قائمة على التواصل والعدل والإحسان.

واعتبار العنف والسطو باليد أو باللسان علامة عجز وقصور في التربية، فالحب قوة ودافع يتناغم مع النظام والحرية، ومن الخطأ الخلط بينه وبين التدليل المفرط، والحرية قوة شريطة أن تكون لها حدود وضوابط، فهي ليست إلقاء الحبل للطفل على الغارب، بل هي منظومة مركبة لها قواعدها وثوابتها، وليس لأحد أن يحرم أحدًا من الحرية المسؤولة، أو أن ينقب عن سرائر الناس وعوراتهم وهفواتهم.

والإسلام هو الرسالة الإلهية الوحيدة المحفوظة بحفظ الله لها، التي يمكن للبشرية استنباط نظام لشبكة علاقاتها كلها منها، على نحو يثبت الثوابت ولا يحول المتغيرات إلى ثوابت، ويضبط الهوى الإنساني، ويرحم البشرية من التخبط ومن التفسخ ومن العنف؛ ولذا فإن الغرب وكذا الأمة الإسلامية بحاجة بالغة إلى الإسلام للجمع بين الحرية والنظام والكرامة والمسؤولية.

ومن الخطأ البين التعويل على العقوبات في تربية الطفل واستضعافه والاستهانة بكرامته، وما تغليب الاهتمام المعرفي بالطفل وعدم الاهتمام ببعده النفسي الوجداني إلا علامة خلل في التربية، ويمر الطفل بمراحل طفولة تتطلب كل منها أسلوبًا مناسبًا لها في التربية، فقبل سن السابعة يستجيب الطفل للمناغاة والتعويد والأنس بمربيه، وفي مرحلة التمييز يحتاج الطفل إلى مناخ الثقة والمودة والولاء والصبر في تعويده على مكارم العادات والأخلاق.

ومع بلوغه سن العاشرة ينضج الطفل جسديًا ونفسيًا ويبدأ المربي في تعويده على تحمل المسؤولية والمبادرة الإيجابية والاستكشاف المعرفي، وفي مرحلة المراهقة يستولي على الطفل حب المعرفة وطلب البرهان، وتدفع به التحولات الجسدية والوجدانية إلى شيء من القلق والانطواء أو العصيان، ويحتاج في هذه المرحلة إلى التواصل ورعاية مشاعر استقلاله.

ومع النضج وبلوغ سن الشباب يتعين إفساح المجال أمامه لتحمل المسؤولية والسير في الأرض والإبداع بما ينمي البعد الجمعي في شخصيته بتربية جامعة للعقول والأنفس، ويحتاج المربي الناجح إلى التسلح بالمعرفة والحب للمتعلم، ورعاية فطرته عن علم وبصيرة وعدل وصبر (ص١٧٦-١٩٥).

خامسًا: الأسرة منبع الوجدان: للتربية الإسلامية غاية واحدة هي: بناء المؤمن الصادق، المستخلف الراعي، القوي الأمين، وكل هذه الخصائص تبنى في الطفولة في حاضنتها الرئيسة وهي الأسرة، من هنا كانت حفاوة القرآن البالغة بالأسرة كنواة للمجتمع ومحضن تربوي للطفل، وفي هذا السياق يأتي الربط القرآني بين اعتبار النكاح آية من آيات الله محفوفة بالمودة والرحمة المتبادلة وبقرة العين من الأزواج ومن الذرية، وبالتنشئة على التوحيد والإحسان للوالدين وشكر نعمة الله والعمل الصالح، وحث السنة على تخير الزوجة المتدينة وتمييزها عن الزوجة التي تنكح لحسبها أو

لجمالها الجسدي أو لمالها، وتقرير مبدأ الرعاية المتبادلة على مستوى الأسرة والأمة.

ومن غير الممكن فهم التشريعات الإسلامية للأسرة بمعزل عن الجوانب الفطرية السننية في تكوينها ووظيفتها وتكاملها ومحورية الأمومة، كنواة لكافة الأنساق الإنسانية الأخرى.

ولقد أدى الخلط بين دور الفرد في الأسرة ودوره في المجتمع إلى كثير من سوء الفهم وتنازع الأدوار وإهدار الطاقات والتعدي على الحقوق، فمقام كل فرد في الأسرة يتعلق بدوره فيها. أما مقامه في المجتمع فيتوقف على دوره في الشأن العام في مؤسسات الأمة، والعلاقة في الأسرة تحكمها الهوية الأسرية، ويتعين مراعاة دور للرجل ودور للمرأة في المجتمع يتناسب مع القابليات الفطرية لكل منهما التي تميل لصالح المرأة في رعاية النشء وتدبير الشأن المنزلي، ولصالح الرجل في مجال العمل خارج البيت.

وفي الخروج على هذا المنطق الإسلامي بتقليد الغرب إرهاق للمرأة وتحويلها إلى أداة للتسلية، والخروج عنه بتحكيم التقاليد والعادات في بعض المجتمعات مدعاة لقهرها وهضم حقوقها، ومن المفارقات العجيبة تخصيص مكان هامشي ضيق للنساء في أغلب مساجد العالم الإسلامي، وإحاطة موضع صلاتها بحجب تحول دون حضورها ومشاركتها الوجدانية، وهن في أكثر حالاتهن حشمة وطهرًا، مع خروج الجميع بعد الصلاة إلى الأسواق والأعمال.

ومن العجب أن لا يسمح للمرأة بحضور صلاة الجمعة والسماع للخطبة، وكأن الذكر والشأن العام أمر لا يخص المرأة، ومن الحيف ما ابتليت به الأمة في هذا العصر بإخراج المرأة للعمل بنفس شروط الرجل وتقليد الغرب حذو القذة بالقذة، مما أدى إلى إرهاقها وإلى تفكك الأسرة، وعدم مراعاة خصوصية المرأة ومقاصد الشريعة، وعلى حساب دور الأمومة الحيوي للمجتمع.

ومن المهم منح المرأة أولوية في التعليم في مرحلتي الروضة والابتدائي وتوفير فرص العمل المرن الذي يتيح لها القيام بدور الأمومة، مع تمكينها من التعليم حتى سن العشرين، ومن العمل بعد سن الخامسة والأربعين، مع احتساب فترة قيامها بدور الأمومة ضمن سنوات خدمتها الوظيفية، ويقتضي ذلك الكف عن تقليد الغرب في المتاجرة بالمرأة وبأنوثتها (ص١٧٧-٢١٢).

سادسًا: معالم الطريق في سيناء العصر: خلاصة الطرح السابق هي أن العناية بالطفولة وبمناهج التربية وتنقية التكوين الثقافي المفاهيمي للطفل من صغره لم تحز الاهتمام الكافي لدى أهل المعرفة والقرار في عالمنا الإسلامي، وأن من الصعب تصور أن تكسب الأمة معركة تربية وتنشئة النشء في ظل موروثها الثقافي المشوه الراهن والتبعية الفكرية للغرب وانبهارها بالإعلام الأجنبي وباستسلامها للقهر الاستعماري، فلقد بات من غير الممكن التعويل على الأنظمة والنخب السياسية في تحقيق الإصلاح التربوي التعليمي من منطلق إسلامي، لارتباط مصالحها ببقاء الوضع على ما هو عليه.

ويصدق هذا على مؤسسات الدول السياسية والإعلامية والثقافية، ويزيد من صعوبة المخرج بالنسبة لدعاة الإصلاح التربوي من منظور إسلامي عدم وجود (سيناء) يمكن عزل النشء فيها حتى يتم تربية أجيال فيها تربية إسلامية خالصة، فمحاكاة عملية التنشئة التي قام بها موسى وأخيه هارون في سيناء جزيرة العرب من قبل، غير ممكنة في عصر العولمة والاتصال الفضائي الإليكتروني والتفوق الثقافي الغربي، ولامناص من الخضوع لحكم الواقع المعاصر والقيام بعملية التنشئة في المجتمع، وتحت أعين الأنظمة، ووسط قوى التخلف التغريبي والتقليدي.

ومن هنا فإن مفتاح الحل هو التعويل على الدافع الفطري في خلق كل طفل مسلم راغب في تلك التربية (لسيناء خاصة به بين جوانحه) يعيد بها تشكيل ذاته

وتربية أجياله، فدافع فطرة الأبوة والأمومة هو مفتاح تشغيل التغيير الاجتماعي، وطوق النجاة في عصر العولمة هو الدافع المسلم الذاتي المولد لسيناء العصر، وهذا الطوق والمفتاح السيناوي هو الأسرة التي هي محضن الطفل ومصنع بناء عقله ونفسيته ووجدانه، ومن هنا فإن مفتاح الدور الفعال للمدرسة هو تقديم برامج تربوية للآباء والأمهات، وتركيز التعليم العالي على مقررات إلزامية لإعداد الشباب لتكوين الأسرة الناجحة، والتكامل بين الأدوار بين الأسرة والمجتمع ودور التعليم في تنشئة الأطفال.

ويتطلب ذلك معالجة القصور في برامج التعليم والإعلام، والتمكين لدور ريادي للأسرة في توجيهها؛ لتخليص الطفولة من النزعة المادية الغربية الاستهلاكية الوافدة، وتنمية روح الاستخلاف الجمعية فيهم، بمراجعة كاملة لكل مكونات العملية التعليمية، وضبط الفتوى، والعناية بأدبيات الأبوة التربوية.

وخلاصة القول أن الأسرة والأبوة والأمومة هي سيناء العصر والأمة، ويجب أن يوجه علماء التربية خطابهم إليهم. (ص ٢١٣-٢٣٥) .

سابعًا: خطة عمل تربوية: تختتم هذه الدراسة بتصور مقترح لخطة عمل لاستعادة البعد الغائب في العملية التربوية للنشء وربطها بالأسوة النبوية، ويبدأ خيط تلك الخطة بتوعية المثقفين والمفكرين بأبعاد إشكالية التربية وتحدياتها ومكانة الطفل فيها، وتنمية الفكر الإسلامي الاجتماعي الناقد، والربط بين التنظير والواقع المجتمعي، والعناية بأدبيات الأسرة التربوية مع تنقيتها وتطويرها، وإصلاح التعليم العالي، وتفعيل خطة مدرسة إسلامية المعرفة في التأصيل الفكري على نحو منهجي مخطط، والتعاون بين كافة المؤسسات المتخصصة في دراسات الطفولة ورعايتها، ونشر ما أنتجته هذه المدرسة في حضن المعهد العالمي لفكر الإسلامي من أدبيات أسرية، ومن تجارب في إعداد الكوادر البديلة بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا

ومؤسسة تنمية الطفولة، وتقوم تلك الخطة على خطوات متتابعة تبدأ بإصلاح الفكر وتنقية الثقافة، توطئة لإصلاح الأسرة وعلاقات الوالدية، وصولًا إلى تحويل الأسرة من مجرد معين للحب والثقة والأمن إلى محضن منهجي تربوي إيجابي، وصولًا إلى تمكين دور التعليم من امتلاك أسباب الإبداع التربوي، ولقد آن الأوان للتفكير في مؤتمر عالمي للصفوة من مفكري الأمة لإخراج إعلان مبادئ منهجية وفكرية يحدد المقاصد والكليات والمبادئ والثوابت والأولويات والتحديات التربوية؛ حتى تعلم الأمة وتعمل. (ص٢٣٧-٢٦٧).

الفصل الحادي عشر
دليل مكتبة الأسرة المسلمة

الفصل الحادي عشر

دليل مكتبة الأسرة المسلمة [1]

في ظل طوفان التحدي الثقافي الذي يواجهه العقل المسلم في عصر العولمة، بما يتضمنه من معلومات مقروءة ومسموعة ومرئية تقدم على نحو معسول ومموه، يغدو من الأهمية بمكان تحصين القارئ المسلم والأسرة المسلمة من غي المذاهب البراقة الخادعة، وفتح أفقه على مصادر للفكر الصحيح في كل المجالات، بما يحقق الوحدة الفكرية والعقدية والروحية بين أفراد الأمة قدر المستطاع، وفي هذا الاتجاه يأتي إعداد الدليل الذي بين أيدينا لمكتبة الأسرة المسلمة، المفتوح دائمًا للحذف ولإضافة الجديد النافع إليه، فهو ذو طابع موسوعي ودوري متجدد، ومن هنا يأتي تصديره بالإفصاح عن أنه ليس مسؤولية من أعدوه، بل مسؤولية الأمة كلها، وبمناشدة للقارئ أن يساهم بتنبيه القائمين على إعداده ومراجعته وتجديده بما يعن له من ملاحظات منهجية أو فكرية، أو مقترحات بالحذف والإضافة، أو توجيه لسبل إثراء الحوار حوله وتفعيله، أو للتعريف بمرجعيات تثري ما به من أبواب المعرفة وتجودها، وتم تطبيق ذلك بمراعاة كل ما أخذ على الطبعة الأولى والثانية من الدليل من ملاحظات، وتداركها في الطبعة الثالثة التي هي بين أيدينا، والتي تنعقد العزيمة على مراجعتها وتجويدها وتزويدها بأهم جديد المصادر المعرفية في الطبعات القادمة.

ويأتي هذا الدليل في سياق مهمة المعهد العالمي للفكر الإسلامي المتمحورة حول: بناء الرؤية الإسلامية الكلية وتعميم الوعي بها، واستعادة الهوية الفكرية والثقافية والحضارية للأمة الإسلامية، وإصلاح مناهج الفكر الإسلامي المعاصر، وبناء العقل والنفسية والوجدان الإسلامي، وتتصدر آليات تحقيق تلك المقاصد الإسلامية العناية بالتربية الوالدية وبالأسرة وبمكتبتها التي تمكن الآباء والأمهات

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. (خطة وإشراف)، دليل مكتبة الأسرة المسلمة، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨، دراسة في مجلدين، يقعان في ١٠٨٠ صفحة.

من اختيار أجود المواد التربوية والفكرية والثقافية في عملية تنشئة أبنائهم، وتحصينهم من سيل المطبوعات والفضائيات الغربية، مع تحريك طاقتهم الكامنة للبعد عن التقوقع، والنهوض الواعي لمواجهة تحديات العولمة، بالارتقاء إلى السقف المعرفي الإنساني المعاصر (ج١ ص٩ - ١٩).

وتقوم فكرة الدليل على اختيار مجموعة من الكتب الموثوقة في مختلف فروع المعرفة التي تحتاج إليها الأسرة المسلمة، مصنفة في فصول حسب موضوعاتها، تؤمن الحد الأدنى المشترك؛ لتكوين ثقافة متكاملة، تمنح أفراد الأسرة حصانة فكرية وتعزز خبراتهم ووعيهم وقدرتهم على التطوير المتواصل لأنفسهم، والمأمول أن يكون هذا الدليل مرشدًا لكل الأطراف التي تشارك في التنشئة الحضارية بالأسرة ودور التعليم والمؤسسة الدينية والمؤسسة الإعلامية.

فالغاية من إصدار هذا الدليل هي التصدي لضعف ثقافة الناشئة المسلمة ومواجهة الغزو الثقافي، وتحقيق أكبر قدر ممكن من الوحدة العقدية والفكرية للأمة، وتزويد العقل المسلم بالمفاهيم الإسلامية الصحيحة.

ويقوم معمار خطة هذا الدليل على انتقاء أربعة وعشرين موضوعًا تتكامل فيما بينها، يحتاجها التكوين الفكري للمسلم، مع اختيار عدد من الكتب في كل موضوع، واستعراض محاور كل كتاب منها والهدف منه، والمرحلة العمرية المناسبة لقارئه، والتعريف بمؤلفه، وإيراد بيانات توثيقه ونشره، وقسم الدليل المراحل العمرية للقارئ بأربع مراحل: أطفال المرحلة الابتدائية، والناشئة بمرحلتي الإعدادي والثانوي، والشباب الجامعي، والآباء والأمهات والمعلمون.

كما يميز الدليل بين كتب تناسب المرأة بوجه خاص، وكتب تناسب المتخصصين وأصحاب المستوى الثقافي العالي، واختتم كل فصل بأسماء مجموعة من الكتب لمن يرغب في التوسع في موضوعه، ولم يرتب الدليل الكتب الواردة بكل فصل حسب

الأهمية، بل وفق الترتيب الهجائي، ولا يعني ورود أي كتاب في الدليل الموافقة على كل ما ورد به من أفكار، بل الموافقة على مجمل ما ورد به، كما لا يؤشر على تبني بقية كتب مؤلفه، ولا يعني عدم وجود كتب مهمة بالدليل أكثر من كونها لم يتيسر لمن أعدوه الاطلاع عليها. (ج١ ص٢٠-٢٧).

فلنستهل الإضاءة المعرفية التي نود تقديمها هنا عن هذا الدليل بإطلالة بفهارسه التي اختتم بها المجلد الثاني منه، فيكشف الفهرس العام للكتب الواردة فيه عن احتوائه على تعريف ٤٣٨ كتابًا (ج٢ ص٩٤٩-٩٧٠)، ويبين تصنيف الكتب حسب مستويات القراء عن احتواء الدليل على سبعين كتابًا مناسبًا للناشئة، ومتوسطي الثقافة (ج٢ص٩٧١-٩٧٤)، سبعة وثلاثين كتابًا مناسبة للمرأة (ج٢ ص٩٧١-٩٧٦)، ومئة وثلاثة كتب مناسبة لأرباب الأسر والمعلمين (ج٢ ص٩٧٧- ٩٨١)، ٢٦٤ كتابًا مناسبة للجامعيين ومن في مستواهم (ج٢ ص٩٨٢-٩٩٤)، ١٣٤ كتابًا مناسبة لأصحاب الثقافات العليا والمختصين (ج٢ ص٩٩٥-١٠٠٢) .

وتمثل كتب العقيدة وتفاسير القرآن والحديث النبوي والسيرة النبوية والفقه وأصوله والتربية وتنمية الفكر الإبداعي، قاسمًا مشتركًا بالنسبة لكافة الفئات، بينما يرد التركيز على الدراسات الأدبية والدراسات الترويحية في مرحلة **الناشئة ومتوسطي الثقافة**، وعلى التربية والأسرة والقصة بالنسبة **للمرأة**، وعلى التربية والدعوة ومناهجها وحاضر العالم الإسلامي والأسرة والاقتصاد والدراسات الأدبية، وتزكية النفس، بالنسبة **لأرباب الأسر والمعلمين**، وعلى التربية والفكر الإسلامي والحضارة والتاريخ وحاضر العالم الإسلامي والأسرة والاقتصاد والإعلام والحركات والمذاهب والدراسات الأدبية، **بالنسبة للجامعيين ومن في مستواهم**، وعلى الفكر الإسلامي والحضارة والاقتصاد والإعلام والدراسات الأدبية بالنسبة لأصحاب **الثقافات العليا والمتخصصين**.

ويقدم الدليل دليلًا بعناوين دور نشر ما ورد به من كتب، والبالغ عددها مئة وإحدى وستين دار نشر، مع ذكر الكتب المنشورة بكل منها الواردة بها تحت عنوانها، بما ييسر التواصل معها (ج٢ ص١٠٤٩ -١٠٨٠)، فضلًا عن ذكر الروابط الإلكترونية لأهم المواقع الإسلامية على الشبكة الدولية للمعلومات (ج٢ ص٨٢٩-٨٤٦)، وقائمة بأسماء وعناوين أهم الصحف والمجلات الإسلامية، وبيانات ناشريها (ج٢ ص٨٤٩-٨٦١).

ويقدم الدليل تعريفًا بمؤلفي ما ورد به من كتب، وعددهم **٢٣٩** مؤلفًا، بما يتيح للراغبين في تكوين مكتبة أسرة مسلمة التعرف على أولئك المؤلفين، وعلى عناوين أهم المؤلفات الأخرى لكل منهم التي لم ترد بالدليل (ص٨٦٢-٩٤٦).

ودعونا نعود بعد هذه الإطلالة الكاشفة للأهمية المعرفية البالغة لهذا الدليل لكل المعنيين بالإصلاح التربوي المعرفي، التي تجليها منظومة فهارسه، أن نلقي إضاءة معرفية خاطفة على مضمون أبوابه الخمسة والعشرين، الذي يبرهن بحق عن عمق استهلال المشرف عليه له بوصفه بأنه (خطوة عملية لتقديم الثقافة الفعالة الحيوية الصحيحة لأبناء الأمة وشبابها من أجل البناء القويم لمستقبل الأمة الإسلامية على صعيد مهم جدًا هو القضية الفكرية والتربوية) (ج١ ص٥).

ويقوم معمار الدليل على أن **العقيدة** هي سنام ما يجب بناؤه والأساس الركين لكافة مناحي المعرفة الأخرى، والمصدر الرئيس لبناء الشخصية المسلمة هو **القرآن** وعلومه، ثم **الحديث الشريف** وعلومه والسيرة النبوية، ثم يأتي **الفقه** وأصوله والدعوة وأصولها، ويمكن وصف تلك الموضوعات بكونها ركائز المعرفة الإسلامية، التي تقوم عليها مجالات تلك المعرفة، التي تبدأ **بالتربية**، وتواصل مع كل من: الفكر الإسلامي والتراجم والسير والحضارة والتاريخ وحاضر العالم الإسلامي والمرأة والاقتصاد والإعلام ومقارنة الأديان، ويغطي المجلد الأول من

الدليل تلك المصادر وتلك المجالات.

أما **المجلد الثاني** فيقدم إضاءة على أهم مصادر التعرف على: الحركات والمذاهب، والدراسات اللغوية والأدبية والنقدية،، والشعر والمسرحية والقصة، والترويح وتنمية الفكر الإبداعي، تزكية النفس، فضلًا عن التعريف ببرامج الحاسوب الإسلامية، وبالمواقع الإسلامية في الإنترنت وأسماء أهم الصحف والمجلات الإسلامية، على ما سلفت الإشارة إليه، وفيما يلي مس يسير لعطاء هذا الدليل في كل باب من أبوابه المشار إليها:

أولا: العقيدة: يستهل هذا المحور بكتاب في التوحيد يبين أصوله وحقيقته، بروح جديدة تتسم بالعصرية مع التزام الدقة والموضوعية، ويلي ذلك كتب في بناء مفهوم الإيمان وأركانه وحقيقته ونواقضه، وخصائص التصور الإسلامي ومقوماته، وظاهرة الغلو في الدين، وأساسيات عقيدة المسلم، والعلاقة بين العلم والإيمان واليقينيات الكونية والوجود الحق، ويختتم هذا المحور بالإشارة إلى خمسة عشر مرجعًا إضافيًا لمن يريد التوسع في موضوع العقيدة الإسلامية (ج١ ص٣١-٥٧).

ثانيًا: القرآن الكريم: علومه وتفاسيره: تفصح الكتب المختارة في هذا المحور عن توجه من أعدوا الدليل إلى التعريف بالقرآن وبيان أسس المنهج القرآني في بحث العلوم الطبيعية، وآداب حملة القرآن والتفسير الموضوعي للقرآن، وقواعد التدبر فيه والتعامل معه، والانفتاح على توجهات متعددة في التفسير، والتعرف على أصول التفسير، وشملت قائمة القراءات الإضافية لمن يريد الاستزادة ستة وثلاثين مرجعًا تجمع بين تفاسير تراثية وحديثة، مفصلة وميسرة (ج١ ص٦١-٩٥).

ثالثًا: الحديث الشريف وعلومه: يستهل هذا المحور بالأربعين النووية للنووي، وينطلق من ذلك إلى مصادر تعرف بأنواع الحديث النبوي، وتيسير مصطلح الحديث، وحجية السنة النبوية ومكانتها في التشريع الإسلامي، ومعالم وضوابط

التعامل مع السنة، والتعريف بما اتفق عليه البخاري ومسلم، وكتاب في التعرف على الأحاديث الموضوعة، ويذيل هذا المحور بقائمة بعشرين مرجعًا في الحديث النبوي (ج١ ص٩٩-١١٦).

رابعًا: السيرة النبوية: يتضمن هذا المحور: تهذيب سيرة ابن هشام، وحياة محمد لمحمد حسين هيكل، ودراسة في السيرة لعماد الدين خليل والتعريف بحياة النبي ﷺ وفقه سيرته، ويختتم بقائمة بعشرة كتب في السيرة والشمائل والدروس والعبر المستفادة منها (ج١ ص١١٩-١٣٦).

خامسًا: الفقه وأصوله: يضم هذا المحور كتابًا في الفقه الحنفي، وآخر في الفقه الشافعي، وثالث في الفقه المالكي، ورابع في الفقه الحنبلي، وخامس فيم أجمع عليه الفقهاء من المسائل، ويضم الباب أيضًا: كتبًا عن: أحكام الزكاة، و المقارنة بين القانون الوضعي والتشريع الجنائي الإسلامي، وفقه الصلاة والحج والعمرة والعبادة في الإسلام، ومبدأ رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، وأساسيات علم أصول الفقه والفتاوى، والفقه على المذاهب الأربعة، وفقه النوازل المعاصرة، ويذيل بقائمة تضم أربعة عشر كتابًا في الفقه وأصوله (ج١ ص١٣٩-١٦٦).

سادسًا: الدعوة ومناهجها: تلي المصادر المتضمنة في هذا المحور: الاتجاهات الفكرية عند المسلمين في مصر في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري (الاتجاه الصوفي والعقلي والتغريبي وتوجه الجمعية الشرعية وحركة الإخوان المسلمين، والاتجاه التوفيقي والاتجاه التأصيلي)، وثقافة الداعية، والثوابت والمتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي والدعوة الإسلامية، وأصول الحوار، والدعوة إلى الإسلام، ومنهاج التغيير الإسلامي، ويختتم هذا المحور بقائمة تضم أربعة كتابًا في فقه الدعوة وأصولها (ج١ ص١٧٠-١٨٦).

سابعًا: التربية: كل مولود يولد على الفطرة، ويتعرض الطفل لقنوات تنشئة

عديدة تشمل الأسرة والرفاق والمؤسسة التعليمية والمؤسسة الدينية والمؤسسة الإعلامية، وتركز الكتب المختارة في هذا المحور على: أدب الاختلاف في الإسلام وأدب الأطفال المسلمين، وأزمة التعليم المعاصر وحلولها الإسلامية، وأهداف التربية الإسلامية وغاياتها، وتربية الطفل المسلم، والتربية الأسرية، ورعاية المسنين في الإسلام، وأسس بناء الشخصية الإسلامية، ومنهج التربية النبوية للطفل، وتجمع قائمة الكتب التي ذيل بها هذا المحور لمن يريد الاستزادة بين اثنين وعشرين كتابًا تراثيًا وحديث في أصول التربية الإسلامية (ج١ ص١٨٩-٢٢٤).

ثامنًا: الفكر الإسلامي: يركز هذا المحور على مصادر تجلي أزمة العقل المسلم، والأسس الأخلاقية للحركات الإسلامية وصورة الإسلام في المخيال العالمي، وحالة الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه، والعلاقة بين الإسلام والحضارة الغربية، في العصر الحديث، وإسلامية المعرفة، وفقه الأمة وتجديد الفكر الإسلامي، وعبثية الحلول المستوردة ومحورية الحل الإسلامي وصلاحيته لكل زمان ومكان، وعالمية الدعوة الإسلامية وقيامها على الحرية وعلى السنن الإلهية في الأمم، وبيان شروط النهضة الإسلامية، كما تتعرض مصادر هذا الباب لفقه الأولويات والشورى ومقاصد الشريعة، ولتحليل ظاهرة العنف في المنظور الإسلامي في الداخل الإسلامي، وفيما بين المسلمين والأمم الأخرى المستقلة في العلاقات الدولية، ويختتم هذا المحور بقائمة بستة وعشرين مرجعًا حديثًا في الفكر الإسلامي المعاصر (ج١ ص٢٢٧-٢٩٤).

تاسعًا: التراجم والسير: يسعى هذا المحور إلى تقديم مصادر تبني الوعي المسلم بنماذج الأسوة الإسلامية عبر التاريخ الإسلامي، ومن بين تلك النماذج الفذة: الإمام أحمد بن حنبل، وأبي الأعلى المودودي، وأبي حنيفة، وعمر بن الخطاب وابنه عبد الله، ثم تعرض تلك المصادر إلى أزمة الإرادة والوجدان المسلم، والتعريف بأبرز أعلام الصحابة والصحابيات والخلفاء الراشدين، وبنات النبي ﷺ وأمهات

المؤمنين، والسلطان عبد الحميد الثاني والسلطان محمد الفاتح، والإمام الشافعي ومالك بن أنس، وشهداء الإسلام في عهد النبوة، وصلاح الدين الأيوبي، وأعلام الدعوة الإسلامية المعاصرة، ويذيل هذا المحور بقائمة بأربعة وعشرين مصدرًا في السير والتراجم لمن يرغب في الاستزادة (ج١ ص ٢٩٧-٣٥٣).

عاشرًا: الحضارة: تعيد المصادر المختارة بهذا المحور وعي المسلم بالازدهار الحضاري الإسلامي في القرون الأولى من العصر الإسلامي، والقابلية لاستعادة هذا الدور في بناء الحضارة الإنسانية، وتجلي هذه المصادر أثر العلماء المسلمين في الحضارة الإسلامية، وفضل الإسلام على الإنسانية، ودوره في بناء الوعي الحضاري، ونقد الحضارة الغربية المادية، وتقييم التراث الإسلامي بميزان الشرع والعقل، وسنن القرآن في قيم الحضارات وسقوطها، وخصائص الحضارة الإسلامية وروائعها، ويذيل الباب بقائمة من خمسة مصادر لمن أراد التوسع في معرفة الحضارة الإسلامية والإنسانية بوجه عام (ج١ ص ٣٥٧-٣٧٩).

أحد عشر: التاريخ: تفتح المصادر الواردة بهذا المحور العقل المسلم على الذاكرة التاريخية للأمة.

وتدور تلك المصادر حول تاريخ الإسلام عامة، والفتوحات الإسلامية، وتاريخ الدولة العثمانية بوجه خاص، والحركة الصليبية، والعلاقة بين العرب واليهود عبر التاريخ، ويذيل هذا الباب باثنين وعشرين مرجعًا في التاريخ الإسلامي (ج١، ص٣٨٣-٤١١).

ثاني عشر: حاضر العالم الإسلامي: يتضمن هذا المحور مصادر تستهدف إيقاظ العقل المسلم على مدى حالة التردي التي أصابت أمته، في حاضرها المعاصر، ويتضمن الباب تعريفًا بأطلس دول العالم الإسلامي، والأقليات المسلمة في العالم، والقضايا السياسية المعاصرة للأمة الإسلامية، ومستقبل الصحوة الإسلامية،

والعدوان الصهيوني على فلسطين، ومحنة المسلمين في كوسوفا، وحالة المسلمين في روسيا الاتحادية وفي أوربا وأمريكا، والواقع المعاصر، ويختتم بقائمة من عشرة مراجع عن الأقليات المسلمة والقضايا الإسلامية المعاصرة (ج١ ص ٤١٥-٤٤٠).

ثالث عشر: المرأة والأسرة: يمهد الدليل لذكر المصادر التي اختارها في موضوع المرأة والأسرة بمقدمة هي الأطول من بين مقدمات كافة أبوابه، مبينًا أن علاقة المرأة بالرجل كأم وزوجة وأخت وابنة وعمة وخالة هي علاقة تكامل، فالنساء شقائق الرجال، والإشكال الذي تعاني منه المرأة المعاصرة نابع من عدم فهم هذه المتغيرات في بناء المجتمع الإنساني من حيث الحاجات والإمكانيات والتحديات، وضرورة مواكبة التشريعات لتلك المتغيرات.

ومن المؤسف أن كثيرًا من المجتمعات المسلمة المعاصرة لم يطور نموذجه الاجتماعي بما يتناغم مع المتغيرات، ويرافق ذلك تلك الهجمة الشرسة من الحضارة الغربية القائمة على الداروينية الصراعية، وما يرتبط بها من تحلل أخلاقي وقيمي، ويهدف هذا الدليل هنا إلى تزويد الأسرة المسلمة بمجموعة من الكتب الكاشفة للفكر الإسلامي المعاصر فيما يتعلق بحقوق المرأة وتنظيم علاقتها في ضوء احتياجات العصر وإمكانياته وتحدياته، مع مراعاة تكامل الأدوار وتوازنها بين المرأة والرجل، ومحورية دور الأمومة لدى المرأة من سن العشرين حتى الخامسة والأربعين، وتنظيم حقوقها وواجباتها في العمل وخدمة المجتمع على نحو لا يضر به.

وتشمل عناوين الكتب المختارة بهذا الباب: الإسلام والمرأة المعاصرة، وأهداف الأسرة في الإسلام، وتحرير المرأة في عصر الرسالة، وحقوق المرأة في الإسلام، وقضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، والرؤية الإسلامية للعمل السياسي النسوي، ويذيل هذا المحور بقائمة بواحد وعشرين مصدرًا إضافيًا في موضوعه. (ج١ ص٤٤٣-٤٦٩).

رابع عشر: الاقتصاد: الاقتصاد هو عصب الحياة، وتسلط الكتب المختارة بهذا المحور الضوء على أسسه وقواعده والحل الإسلامي لمعضلاته والتعريف بأساسيات الاقتصاد الإسلامي والمقارنة بينه وبين النظم الاقتصادية المعاصرة، والتعريف بالنظام المصرفي الإسلامي، والتصور الإسلامي لإقامة نظام نقدي عادل، وفقه الزكاة، والعدالة الاجتماعية في الإسلام، ويختتم هذا المحور بقائمة من أربعة عشر كتابًا حديثًا في الاقتصاد الإسلامي. (ج١ ص٤٧٣-٥٠٥).

خامس عشر: الإعلام: الإعلام مصطلح حديث، قديم المضمون له تأثيره البالغ في عالم اليوم، وتسلط الكتب المختارة في هذا المحور الضوء على الإعلام الإسلامي في صدر الإسلام، وتأثير الإعلام على البيت المسلم، والتليفزيون الإسلامي ودوره في التنمية، ومتطلبات تطويره، والدور التربوي المنشود للإعلام الإسلامي، والمسؤولية الإعلامية في المنظور الإسلامي، ويختتم الباب بثمانية مراجع حديثة في الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية وقضاياه. (ج١ ص٥٠٩-٥٢٣).

سادس عشر: مقارنة الأديان: التدين فطرة فطر الله الإنسان عليها، إلا أن الأديان تنوعت بين أديان باطلة من صنع العقل البشري، وأديان منزلة من عند الله تعالى، والأخيرة لم يبق منها دون تحريف مصدره غير الإسلام، وتدور المراجع المختارة في هذا المحور حول التعريف بأديان الهند الكبرى، والبحث عن الحقيقة الكبرى، ودراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، والمقارنة بين الإسلام وكل من اليهودية والمسيحية، ويختتم هذا المحور بتسعة مراجع إضافية تدور جميعًا حول أسطورة تجسد الإله في المسيح، والرؤية النقدية المقارنة للمسيحية (ج١، ص٥٢٧-٥٤٣).

سابع عشر: الحركات والمذاهب: يركز الدليل في هذا المحور على الحركات والمذاهب التي تشكلت حول منظومات مفاهيم مشوهة ومفخخة للتوعية ضدها،

والحيلولة دون الوقوع في شراكها، ونقطة البداية في هذا المحور هي تعرية القراءة اليسارية لشخصية أبي ذر الغفاري ولأفكاره، وتفكيكًا لأساطير اليهودية المؤسسة، وتجلية أسرار الماسونية ومزاعمها، والتنقيب في عمق إستراتيجية تنصير المسلمين التي صيغت في مؤتمر كولورادو عام ١٩٧٨، الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية في مصر، والتعريف بالحركات الباطنية في العالم الإسلامي وبحقيقة البابية والبهائية، والخطر اليهودي على كل من الإسلام والمسيحية، وتفكيك العلمانية، ونقض الاشتراكية الماركسية، ويختتم هذا المحور بقائمة من ستة وعشرين كتابًا عن أبرز المذاهب والحركات الضالة المعاصرة. (ج٢ ص ٥٥١-٥٩٨).

ثامن عشر: الدراسات اللغوية والأدبية والنقدية: اللغة هي أرقى وسيلة للتعبير، وإتقان اللغة العربية التي هي لغة القرآن تساعد على حسن فهم القرآن والسنة النبوية، ومن هنا يركز الدليل في هذا المحور على تزويد مكتبة الأسرة المسلمة بمجموعة من الكتب المنتقاة، تدور حول: شعر إقبال، والتصوير الفني في القرآن، وتحليل القصة القرآنية والتعريف بتاريخ الدعوة إلى العامية ومخاطرها، والموقف الإسلامي من الحداثة الغربية، ثم تقدم تلك المصادر قراءة نقدية إسلامية لمذاهب الأدب الغربي وللمعاجم الحديثة، والهجوم على الإسلام في الروايات الأدبية، ويذيل هذا المحور بقائمة تضم واحد وأربعين مرجعًا في اللغة والأدب والنقد. (ج٢ ص٦٠١-٦٣٤). ويولي الدليل اهتمامًا خاصًا بالأدب وفنونه فيخصص لها خمسة من أبوابه الخمس والعشرين.

تاسع عشر: الشعر: يقدم الدليل مجموعة من الكتب والدواوين الشعرية لمكتبة الأسرة المسلمة، يستهلها بالأعمال الشعرية الكاملة لمحمد غزيل، وأغاني الغرباء لنجيب الكيلاني، وتضم الكتب عناوين تتعلق بشعر الحماس وأناشيد الأطفال، وشعر التعبير عن جراح الأمة المعاصرة، والتعريف بأهم شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، ونماذج من الشعر الإسلامي الحديث، ويختتم هذا المحور بذكر

عناوين أربعين كتابًا في الشعر بين دواوين وأعمال كاملة لشعراء مسلمين معاصرين (ج٢ ص ٦٣٧-٦٦٨).

عشرون: القصة: يسعى الدليل في هذا المحور إلى وضع مجموعة من القصص الهادفة التي تحمي العقيدة في كل بيت مسلم، وتشمل تلك القصص المختارة قصصًا اجتماعية عن مناهضة عناصر مؤمنة للفساد في بيئتها وتمكنها من معالجته، وتعريف النشء بأخلاقيات الأنبياء، وبمقومات التنقيب عن جذور الهوية والذاكرة التاريخية للأمة، وبمن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وبسيرة النبي ﷺ، وبصحيح القصص القرآني والديني، ويذيل هذا المحور بعناوين ست وثلاثين قصة لمن يريد الاستزادة من القصص الإسلامي الحديث (ج٢ ص٦٧١-٧١٥).

واحد وعشرون: المسرحية: ورد هذا الفن الأدبي المؤثر إلى العالم الإسلامي من الغرب، الذي يوظفه لغير صالح أمتنا، مما يستدعي توجيه الأسرة المسلمة إلى ثلة من المسرحيات النظيفة البناءة الجامعة بين الخير والمتعة والجمال، ومن المسرحيات التي انتقاها الدليل، مسرحية (إله إسرائيل) الكاشفة لخسة الشخصية اليهودية على مدى التاريخ، ومسرحية (الآيات الثلاث) التي تحكي سيرة الصحابي سلمان الفارسي بدءًا بإسلامه وتحريره من أسر العبودية، ومسرحية (البعد الخامس) التي تروي مأساة الحضارة الغربية الحديثة وعوامل سقوطها، ومسرحية (دار ابن لقمان) التي تحكي إحدى مراحل الحروب الصليبية، ومسرحية (الحاكم العادل) عمر بن عبد العزيز، ويختتم هذا المحور بقائمة بعشر مسرحيات إسلامية.

اثنان وعشرون: الترويح: يحتاج الإنسان المسلم إلى قدر من الترويح الذي يسري به عن نفسه، ولسد تلك الحاجة يقدم الدليل في هذا المحور مجموعة من الكتب من بينها: أخبار الأذكياء، وأخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي، وكتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، فضلًا عن كتب: أنيس الجليس وأنيس المسافر وسلوة الحاضر،

والبدائل الإسلامية لمجالات الترويح المعاصرة، وأدب الفكاهة وكليلة ودمنة، ويختتم المحور بقائمة بثلاثة عشر كتابًا إضافيًا في فن الترويح عن النفس (ج٢، ص٧١٩-٧٥٨).

ثلاث وعشرون: تنمية الفكر الإبداعي: من واجب الأمة رعاية المبدعين والموهوبين، وانطلاقًا من ذلك يقدم الدليل الذي بين أيدينا مجموعة من الكتب يرى تضمينها في مكتبة الأسرة المسلمة؛ لتنمية الإبداع الفكري، وجل تلك الكتب من تأليف كُتَّاب أجانب، مما يعكس عدم اهتمام المؤلفين المسلمين بهذا الجانب بالقدر اللائق، والحكمة ضالة المؤمن على كل حال أنى وجدها فهو أولى الناس بها.

وتشمل قائمة الكتب الواردة بهذا المحور كتاب (اثنتا عشرة خطوة للتطوير الذاتي) من تأليف مايك كرسب، وكتاب (اكتشف نفسك) لسام لويد، و(تدريب العقل وكيف تنمي قدراتك العقلية) لهاري ألدير، وكتاب (دع التسويف وابدأ العمل) لجيس شرمان، ومن الكتب التي ألفها مسلمون في هذا المجال: (ثلاثون طريقة لتوليد الأفكار الإبداعية) من تأليف علي الحمادي، و(حق الابتكار في الفقه الإسلامي المقارن) لفتحي الدريني، و(العادات العشر للشخصية الناجحة) لإبراهيم بن حمد القعيد، و(فصول في التفكير الموضوعي) لعبد الكريم البكار. ويختتم هذا المحور بقائمة إضافية من عشرة كتب، يتناصفها كُتَّاب أجانب وكُتَّاب مسلمون. (ج٢ ص٧٦١-٧٨٢).

رابع وعشرون: تزكية النفس: النفس البشرية تولد صفحة بيضاء قابلة لملئها بالخير أو بالشر، ويقدم هذا المحور مجموعة من الكتب التي تساعد على تجنب التدسية وتحقيق التزكية للنفس المسلمة، ويضم هذا المحور كتبًا في الزهد والرقائق، وتزكية النفس، وخلق المسلم، والمواعظ والحكم، والقصص، والورع، ويختتم هذا المحور بقائمة كتب إضافية من أحد عشر كتابًا عن التواضع والصبر واجتناب الخبائث (ج٢ ص٧٦١- ٧٩٣).

وتدور المحاور الثلاثة الأخيرة في هذا الدليل تباعًا حول: برامج الحاسوب الإسلامية الذي يضم نماذج إليكترونية من كافة المحاور سالفة الذكر، ويليه محور عن التعريف بالمواقع الإليكترونية الإسلامية على الشبكة العالمية للمعلومات، وأخيرًا ملحق بأسماء الصحف والمجلات الإسلامية (ج٢- ص ٧٩٧-٨٦١).

الفصل الثاني عشر
رؤى في الاجتهاد المعاصر
في إسلامية المعرفة

الفصل الثاني عشر
رؤى في الاجتهاد المعاصر في إسلامية المعرفة

يتضمن هذا الفصل مجموع مساهمات أبو سليمان في طرح رؤى اجتهادية للحوار بباب (الرأي والحوار) بمجلة إسلامية المعرفة، ومحاضرات بالمواسم الثقافية بمركز الدراسات المعرفية بالقاهرة وتشمل: **أسس** الحكم الشرعي في التصوير والتجسيم، **ورؤية** لإسلامية المعرفية في السنوات العشر القادمة، و**إسلامية** المعرفة مهمة باقية، **حوارات** منهجية في قضايا نقد متن الحديث الشريف، و**العلاقة** بين المنهجية والأداء التربوي، ومعارف الوحي: المنهجية والأداء، **استفتاء** علماء الأمة بشأن مواقيت الصلاة وصوم رمضان، و**استفتاء** علماء الأمة بشأن أيام الحج، و**الحجاب** والنقاب في المنظور الإسلامي، ومطلوب العصر فيما يتعلق بالتربية والرؤية الكونية، و**الإصلاح** التربوي، و**بناء** مفهوم ضرب المرأة من القرآن، و**القرآن** وإعادة بناء وعي الأمة، و**العقيدة** الحضارية، و**الرؤية** الكونية القرآنية بين الأصحاب والأعراب، ومنهجية دراسة النص في ضوء سنن الفطرة وتغيرات الواقع الاجتماعي، ومفهوم التزكية في القرآن.

(١) أسس الحكم الشرعي في التصوير والتجسيم[١]:

قضية التصوير الذي يعد أهم أداة للإعلام واحدة من أهم إشكاليات الفكر الإسلامي المعاصر، حيث تتعدد الرؤى بشأنها إلى حد وصول بعض العلماء بها إلى مستوى الإشكال العقيدي، وجذر الإشكال هو تفسير بعض النصوص التي تنهى

(١) ونشرت تلك الدراسة أيضا في: د.عبد الحميد أبو سليمان، أسس الحكم الشرعي في التصوير والتجسيم، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد ٤٠، ربيع ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥، ص٢٠٧-٢١٦. وكانت تلك الدراسة موضوع محاضرة عام ٢٠٠٧. انظر: د. عبد الحميد أبو سليمان، أسس الحكم الشرعي في التصوير والتجسيم، القاهرة: الموسم الثقافي بمركز الدراسات المعرفية، ٢٠/ ١٠/ ٢٠٠٧ محاضرة في ١٣ ورقة.

عن التصوير وعن النحت، وينقسم العلماء حول هذه القضية بين قائل بالتحريم؛ أخذًا بظاهر تلك الأحاديث النبوية، وبين قائل بالحل؛ جلبًا للنفع ودرءًا للضرر، وبين مبيح للتصوير الضوئي وحسب على أنه مجرد حبس للضوء، وحجة الفريق الأولى هي سد الذريعة، ودفع شبهة الوقوع في الوثنية، وحجة الثاني هي رعاية المصلحة المعاصرة ودفع الأضرار التي تترتب على القول بالتحريم لحاجة الأمة إليه في الحياة المعاصرة. ويرد الفريق الأول على الثاني بوجوب تقديم النقل على العقل عند التعارض، ويتجادل الطرفان حول أمور نظرية تتعلق بمعنى الحاجة والضرورة والاعتبارات العقيدية الفقهية النظرية، على نحو لا علاقة له بواقع الأمة الآن.

أما الفريق الثالث فيرى أن التصوير الضوئي مجرد حبس للضوء لا علاقة له بالأحاديث النبوية المحرمة للتصوير، ويبدو هذا الحل الذي جاء بعد قرن كامل من ظهور التصوير الإليكتروني غير مقنع لكثيرين.

وأساس هذا الإشكال هو القصور المنهجي في التعليم الشرعي في مؤسسات الأمة، الذي يحتاج لتداركه بإصلاح مناهج التعليم وإعادة رسم خرائطه، حتى يتمكن الفكر الإسلامي من التعامل الفعال مع مستجدات العصر وتحدياته، فالطريقة التي يتم إعداد كوادر التعليم الديني بحاجة إلى إعادة نظر جذرية، ومفتاح التفكير في حل هذا الإشكال هو استحضار الرؤية الكلية الإسلامية ومناقشة مسألة التصوير في ضوئها، وما لا يختلف عليه اثنان من المسلمين أن الرسالة الإسلامية نابعة من القرآن، وبالتالي فإنها صالحة لكل زمان ومكان لكل إنسان. أما السنة النبوية فإن كثيرًا من نصوصها تتعلق بتطبيق المبادئ والقيم والمفاهيم القرآنية على واقع بعينه محدد زمانًا ومكانًا، فالتطبيقات دائمة هي إنزال المطلق القرآني على واقع حياة الإنسان النسبي؛ وبذا تتعدد التطبيقات بتعدد الواقع، بعكس النصوص القرآنية التي هي مطلقة لا زمانية ولا مكانية.

هنا يكون من دواعي الخلل المنهجي في النظر أن يقوم التعليم على نحو يخرج نوعين من الخريجين: مفكرين ومثقفين متخصصين في العلوم المدنية الطبيعية والإنسانية معرفتهم خالية من العلم بالمقاصد والمبادئ والقيم والمفاهيم ذات الصلة بعلومهم، وعلماء دين معرفتهم خالية من العلم بالواقع وتحدياته وأحوال العمران ومستجداته.

ونتيجة ذلك تكون معرفة كل من الفريقين عرجاء لا تساعدهم على الاجتهاد الفكري المقاصدي في التطبيق، فكلا المفكرين المدنيين وعلماء الدين المعدين على هذا النحو يعانون من عجز معرفي وغياب المنهج العلمي الحضاري الفعال، مما يجعل فكر الفريقين مصدر إحباط للأمة وسببًا في الجمود وعقلية التقليد.

وأقرب تصوير لعلاقة الكوادر الدينية والمدنية في واقع الأمة الإسلامية هو حال الممثلين وجمهور المسرح، وقد يكون فيما يقدمه الممثلون ما يسلي المشاهدين، لكنه في النهاية لا علاقة له بحالهم، ولا دور لهم فيه، ولا يعدو تأثيره أن يكون مؤقتًا،وهذا هو سر عجز الخطاب العلماني والديني التقليدي معًا في عدم تحريك طاقات الأمة الكامنة على مدى عدة القرون. (ص٢٠٧-٢١٣).

وأساس حل هذا الإشكال الفكري المنهجي يكمن في وجوب وحدة استعادة وحدة فكر الأمة في كل مجالات الحياة، ووحدة مصادر المعرفة الإسلامية: الوحي والعقل والكون والوقائع، وجمع المفكر المسلم بين فقه الشرع وفقه الواقع، حتى يتسنى تطبيق العقائد والقيم والمبادئ والمفاهيم اللازمانية واللامكانية على الواقع النسبي الزماني المكاني، بما يؤهل الأمة لاستعادة الريادة الاستخلافية، فبوحدة المعرفة والمنهج الفعال تنشئ الأمة فقيه الدين المبصر والمدني المنتج القادرين على استلهام مبادئ الرسالة وخبرة صدر الإسلام.

وبالإمساك بهذا الأساس لحل إشكالية التصوير يتضح أن الأصل الحياتي

الشرعي هو الإباحة، وإدراك بعد الزمان والمكان يوصلنا إلى حقيقة نفي الإشكال أصلًا، فالأحاديث النبوية تتعلق بواقع مختلف عن الواقع المعاصر، ومفهوم (التصوير) ومفهوم (التماثيل) يختلفان في دلالاتهما المعاصرة عنه في العهد النبوي، وعدم إدراك هذا الفرق ووحدة المعرفة ووحدة مصادرها، وقصور مناهج الفكر، هو السبب في التخبط الفكري في هذه المسألة وفي كثير من إشكاليات الفكر الإسلامي المعاصر المماثلة، فالتصوير المسطح والتصوير المجسم المعاصران يختلفان عن التصوير والنحت المشار إليهما في الحديث النبوي.

فلم يكن للصورة المرسومة والمجسمة (الأصنام) على العهد النبوي هدف غير الغاية الدينية؛ لذا فإن النبي ﷺ لم يأبه حين وضعت الصورة في مواضع لا تتعلق بالغرض الديني، ولا بالصورة المجسمة التي صنعت لتسلية الصغار، ولا يختلف مسلمان في حرمة استخدام الصورة المجسمة وغير المجسمة لغرض ديني، ولا تستدعيها عقيدتهما، والصورة التي يدور اللغط حولها الآن ليست لغرض ديني، وإنما لغرض علمي تعليمي إعلامي ترويجي، ولا علاقة لها بالتالي بالأغراض الدينية ولا بالأحاديث النبوية، ولا بالغاية التي توختها تلك الأحاديث.

ومن الواجب عدم النظر في تلك المسألة باستدعاء حرفي لغوي للنصوص، بل بقراءة مقاصدية لها، وأي عاقل يدرك أن أمتنا بحاجة إلى التصوير، وبخوض غمار العلوم والتقنيات العصرية والاستفادة منها بحسن استخدامها، والمطلوب ليس الخوض في حرمة التصوير وحله، بل وضع برامج تربوية لكفالة دفع ما يحيط بها من أضرار قد تنجم عن سوء استعمالها، فالتصوير سلاح ذو حدين، مثله مثل السكين التي يمكن أن تستخدم في تزكية الذبيحة وقد تستخدم في القتل، وبهذه المنهجية العلمية المقاصدية الكلية يتبين أن التصوير -والفنون عامة - حلاله حلال وحرامه حرام، فالشريعة لا تحرم ما هو مفيد ونافع إلا حين يصبح خبيثًا ضارًا.

وعلينا أن نسعى لتخليص العقل المسلم من المنهاجية المعرفية الأحادية القاصرة التي لم تجن الأمة من ورائها إلا الإحباط، ولنتذكر قول الشيخ محمد الغزالي: (الفنون حلالها حلال وحرامها حرام)، يعني: العبرة هي بالنظر في مآلها: هل هي ضارة أم نافعة، فتصوير الأنبياء والرسل في أفلام هابطة لا يزال واحدًا من صور الاستخدام الديني المحرمة للصورة، ويضاف إليها الصور الرامية لتحريك الشهوات وللدعوة للعقائد الضالة، والفنون الهابطة الماجنة التي تحض على الرذيلة والانحطاط السلوكي، والعكس صحيح بالنسبة للفنون الباعثة لمعاني السمو والجمال في النفوس، فالعبرة هي بجوهر القضايا في السياق الصحيح لها (ص٢١٣- ٢١٦).

(٢) إسلامية المعرفة: رؤية للعشر سنوات القادمة [(١)]:

تحدد هذه الدراسة الغاية منها بمراجعة ما تم إنجازه على طريق الغاية التي نذر المعهد العالمي للفكر الإسلامي نفسه لها، وهي: الوقوف على ثغر الإصلاح الفكري الحضاري الإسلامي المعاصر، فالأمة تحاول النهوض في مواجهة الهجمة الغربية على مدى ثلاثة قرون، لكن جهودها في الواقع شبيهة بحال الغريق الذي يتردد بلا رؤية ولا وجهة بين محاكاة الغالب القاهر، وبين اجترار ذكرى أطلال التاريخ.

ومن هنا انشطر عقل الأمة بين ثقافة مدنية أجنبية وثقافة دينية تاريخية نظرية عاجزة عن الإجابة بأصالة على أسئلة العصر وتحدياته، وكان الفشل هو مآل مشاريع الإصلاح المدنية الوافدة، ومشاريع الإصلاح التقليد التراثي، مع رمي أنصار كل توجه الآخر بالقصور، وتلقي اللوم بسلبية وعجز وببحث عن كبش فداء، ووسط هذا الوضع فكر فصيل من شباب الأمة مزود بالمعرفة الدينية والعلمية في البحث عن التكامل المعرفي العلمي المدني الإسلامي وحماية هويته

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. إسلامية المعرفة: رؤية للعشر سنوات القادمة، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية، ٢٠/ ١٠/ ٢٠٠٧. دراسة في ٣٢ صفحة.

وتعميق وعي شباب الأمة بمنطلقاتها الحضارية، وكانت جمعية الطلبة المسلمين هي المحضن الأول لرواد هذا التوجه الجديد، الذي يعد امتدادًا طبيعيًا للوعي المبكر لدى علماء الأمة بالعجز المعرفي والجمود الفكري الذي تسلل إلى عقلها وثقافتها، ونلمس بواكير هذا الوعي في مؤلفي أبي حامد الغزالي (تهافت الفلاسفة) و(إحياء علوم الدين).

والجديد في توجه مدرسة إسلامية المعرفة أنها وعت درس قصور وفشل حركات الإصلاح الإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين، التي سعت إلى الإصلاح بحلول أنتجت لعصور ماضية عرفت تحديات مختلفة عن نظيرتها المعاصرة، جنبًا إلى جنب مع درس فشل حركات الإصلاح السياسية والثقافية المحاكية للتجربة الأوربية القومية الحديثة، فكلا التوجهين لم ينجحا في تحريك طاقة الأمة، ولم يمنع تحول وضعها من سيء إلى أسوأ، فوعود التغريب زائفة، والحلول التراثية أقرب ما تكون إلى أحلام اليقظة، وفي عصر ما بعد الاستقلال دارت الحركات القومية العرقية والتراثية الإسلامية والليبرالية الرأسمالية والاشتراكية اليسارية في حلقات مفرغة، لتعاملها مع أعراض داء الأمة، والبحث عن حلول جاهزة له من الغرب أو من تراث الأجداد.

وعلى ضوء دروس الخبرة التاريخية للأمة هذه، جاءت مدرسة إسلامية المعرفة، التي وجدت في الغرب بيئة تسمح بالحرية الفكرية، ويوجد بها ألوف الشباب المثقف الباحث عن المعرفة، الجامع بين أساسيات المعرفة الدينية والمدنية المتنوع التخصصات، وشخصت تلك المدرسة أزمة الأمة في: تشوه الرؤية الحضارية الإسلامية الكلية وأزمة الفكر ومناهجه، ورأت أنه لا أمل في الإصلاح في أي مجال دون بناء تلك الرؤية وإصلاح تلك المناهج، بفتح الملف الفكري على مصراعيه.

وأكد مفهوم إسلامية المعرفة على وحدة مصادرها وتكاملها، وضرورة تحرير

العقل المسلم من كوابحه ومن الخرافة والتمكين للعقلية العلمية القائمة، على التكامل بين الوحي والفطرة وثوابت المقاصد الإسلامية، واستعادة الوصال بين الفكر وحركة المجتمع، فحركة إسلامية المعرفة حركة منهجية ناقدة، تأبى تلهية الأمة بأمجاد السلف، والتلفيق العشوائي بين الموروث والمستورد، فوجهتها هي الدعوة المنهجية إلى التجديد والمراجعة والتنقية وإعادة بناء الأساسيات، والتخلص من مصادر التشويه والجمود.

وتلتزم هذه الحركة من تاريخ نشأتها في النصف الثاني من العقد السابع من القرن العشرين بإقامة جمعية اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة وكندا بإنشاء منظمة فكرية ثقافية مستقلة في أدائها ومواردها، لا علاقة لها مطلقًا بالصراعات الحزبية والقومية الآنية، وتحقق ذلك بإقامة المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالولايات المتحدة؛ ليكون مؤسسة فكرية ثقافية مستقلة متفرغة لخدمة الفكر والثقافة الإسلامية.

وتمثل حصاد المعهد العالمي للفكر الإسلامي خلال العقدين الأولين من عمره في إنجازات على رأسها اتساع نطاق مقبولية الدعوة إلى المراجعة والإصلاح الفكري بين المثقفين والجامعيين، وإنتاج ما يزيد على ثلاثمئة كتاب في الإصلاح المنهجي الفكري، وعقد العديد من المؤتمرات العلمية الإقليمية والمحلية، وإتاحة منبرين للتجديد المعرفي: المجلة الأمريكية للعلوم الإسلامية والاجتماعية، والتي تصدر باللغة الإنجليزية، ومجلة إسلامية المعرفة التي تصدر باللغة العربية.

ويرد هنا السؤال: ما القدر الذي تحقق فعلًا من مشروع إسلامية المعرفة؟ إن إسلامية المعرفة ليست كتابًا يكتب أو مؤتمرا يعقد، إنها مهمة فكرية لانهاية لها فيما لو أمكن الاقتناع بها والتمكين لتوجهها، وإرساء قواعدها وتنقية العوائق من أمامها، حتى تؤتي ثمارها في فكر الأمة وواقعها، وهي قطعت والحمد لله مشوارًا ليس بالهين

على طريق تنقية الفكر، وبناء منهاجية التفكير، وتحرير العقل المسلم من الخوف والسلبية إلا أن المعهد واجه في التسعينيات معضلة ضحالة الموارد وندرة الكوادر وميل أكثرها إلى الانشغال بالقضايا الآنية عن العمل على الصناعات الفكرية الثقيلة، مما دفعه لعدم إتمام بعض مشروعاته (ص١-١٢).

وعلى ضوء هذه الخلفية، ما الذي تريد حركة إسلامية المعرفة تحقيقه خلال العقد الثالث من عمرها للمراكمة على ما تم إنجازه على صعيد المجالات الفكرية والقضايا الأساسية والوسائل؟

أولًا: أولويات الخطة في المجال الفكري: تتصدر تلك الأولويات توسيع نطاق الوعي بما تم إنجازه، وتوسيع دائرة العمل خاصة في الجوانب التطبيقية، ومراجعة ما تحقق لتحديد ما يحتاج منها إلى استكمال، والاجتهاد في مواجهة المستجدات بمواصلة إزالة التشوه الذي لحق بمفاهيم الأمة وإعادة بناء فكرها ومؤسساتها ومعالجة قضاياها الحياتية، فلابد أن يكون للتأصيل الفلسفي والبحث المدرسي غاية عملية حية في ترشيد الرؤية، وإصلاح الفكر والمفاهيم وأنماط السلوك والتكوين العقلي والوجداني، ومعرفة الأنا والآخر، وتعميق أساسيات المنهاجية المعرفية الكلية المتكاملة، واختبارها في مواجهة التحديات المعاصرة.

وتقوم الخطة العشرية الثالثة للمعهد على مواصلة الالتزام بعدم صرف جهوده إلى القضايا الحركية والسياسية اليومية والاهتمامات الجزئية والحزبية، وعدم التعجل والتركيز على القضايا الإستراتيجية طويلة الأمد في إعادة بناء عقل الأمة وفكرها وتنقية تراثها، وانتشالها من الفكر الفقهي التراثي والفكر التغريبي، ومن سوء التوظيف للسنة بالقراءة الجزئية لها، والبحث عن سبل وقف طواحين الرواية، بالخروج من النظرة الجزئية إلى النظرة الكلية للإصلاح الحضاري.

ومن الأهمية بمكان غرس الوعي بضرورة الاكتفاء من السنة بما صح سنده

ومتنه من كل الوجوه وإن قل كمه، ففي القرآن الموثق المفصل الشامل ما يتكفل بهداية الأمة، وهو الحكم والمرجعية المعصومة، ويكفي معه الصحيح من السنة الفعلية والقولية بفهم صحيح للأدوار المتعددة للنبي الخاتم ﷺ، التي ينفرد بها عن أي إنسان آخر، وإنجازات المبدعين من السلف يجب أن تكون مجرد لبنات يبنى عليها ويضاف إليها، لا أن تكون هي الحد الذي يجمد عليه العقل المسلم رغم تغير معطيات الزمان والمكان، فللأمة ثوابت يلزم الحفاظ عليها، ولها متغيرات يلزم عدم تحويلها إلى ثوابت، ويجب توظيف السقف المعرفي المعاصر في تصنيف التراث ونقده وتنقيته.

ولابد من فتح ملف مناهج دراسة السنة والتراث على مستوى إمكانيات العصر وتحرير منهج فهمهم والتعامل معهم، وإعادة مركزية العقيدة والتشريع إلى القرآن الكريم، والتاريخ لا يعيد نفسه؛ لذا يجب أخذ الأسوة من النموذج النبوي، بفقه للواقع المعاصر يبني العقل والنفس المسلمة وينقذهما من الجمود، واستعادة مؤسسات الشورى والتجديد والاجتهاد (ص١٣-٢٢) .

والشورى والحرية تنظيمًا وتربية هما الأساسان اللازمان لإطلاق طاقات الإبداع والاجتهاد وإصلاح أمر الأمة، عبر دراسة منهجية في القرآن والسنة والفطرة الإنسانية والسنن الاجتماعية، ولا يزال المعهد يعمل على إخراج: دليل المثقف المسلم في التعامل مع الفكر الغربي، الذي يعرض أمهات هذا الفكر ومناهجه ومنظومته الفلسفية والقيمية وخلفياته التاريخية وخصوصياته الذاتية، جنبًا إلى جنب مع تعريفه بالنموذج المعرفي الإسلامي؛ ليفتح باب التلاقح الفكري الحضاري، والتعرف على ما يمكن للمنظومة الفكرية الإسلامية أن تقدمه لإصلاح المنظومة الفكرية الغربية.

ويأتي الإصلاح التربوي على رأس اهتمامات المعهد؛ لأنه لا قيمة للإصلاح المعرفي إذا لم يتم تربية الأنفس وعقول الأطفال به، وتأخذ الأسر والوالدان نصيب

الأسد من هذا الاهتمام، لمعقولية الاعتماد على فطرة الآباء ودافعيتهم لتغيير عقلية الأجيال القادمة ونفسيتهم بإخلاص؛ ولذا فإن المعهد فتح باب ملف التربية أمام الهيئات الجامعية وكون فرق للعمل العلمي المنهجي في هذا المجال، وفرق عمل في مجال النظام الاجتماعي ومؤسساته (ص٢٣-٢٦).

ثانيًا: الوسائل: من تلك الوسائل: الندوات والمؤتمرات والاستكتاب والنشر والدوريات والوسائط الإليكترونية، وفكر المعهد في إنشاء المجلس العلمي؛ لتتضح الرؤية وتتسع دائرة التعاون المعرفي ويتسع نطاق التواصل مع العلماء، ونشر المعرفة بين جمهور الأمة، ويتم تعميق كفاءة الأداء في مؤسسات المعهد بعمل مؤسسي دائم العطاء، وتقوم إستراتيجية توسيع دائرة المتعاونين مع المعهد على دعم شباب الدراسات العليا وفتح قنوات للتواصل معهم وإشراكهم في المؤتمرات والندوات وفرق البحث، وتشجيع المبادرة والحوار وتقديم الرؤى والبدائل الفعالة، وهم المعهد أن يكون مؤسسة ثقافية إصلاحية مفتوحة للأمة بكل أطيافها، بحيث يصير الإصلاح الفكري والتربوي قضية أمة (ص٢٧-٢٩).

(٣) إسلامية المعرفة: مهمة باقية[١]

تدهورت الأمة على مدى قرون، ولم تفلح جهود الإصلاح في وقف تمزقها وتراجعها أمام منافس حضاري ملك من المعرفة والقدرة والفاعلية والمبادرة ما لم تتمتع هي بمثله، وانشطرت ثقافة الأمة بين ثقافة مدنية أجنبية مستلبة وثقافة دينية منقطعة الصلة بأسئلة العصر وتحدياته، وفشلت مشاريع الإصلاح المدنية الوافدة، ومشاريع الإصلاح النابعة التراثية التقليدية في تحريك طاقات الأمة الكامنة، وفي النصف الثاني من القرن العشرين عرفت أمتنا توجهًا فكريًا بين الطلبة المغتربين الذين

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. إسلامية المعرفة: مهمة باقية، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي العدد ٥٢، ربيع ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨ ورقة في ست صفحات.

يدرسون بالغرب لتشخيص دائها والبحث عن علاج له، على نحو أكثر عمقًا وشمولية.

وفي هذا السياق ولدت حركة إسلامية المعرفة، التي شخصت الداء بكونه أزمة فكر ووجدان، ومفتاح التخلص منها هو استعادة التكامل بين علوم الوحي والعقل بقراءة جامعة لفقه الوحي وفقه الواقع، وأكد مفهوم إسلامية المعرفة على ضرورة الوعي بمصادر المعرفة وبتكاملها، ومراجعة التراث المعرفي للأمة وللإنسانية، وفهم الثوابت والمتغيرات واستحضار أثر الزمان والمكان، وعملية إسلامية المعرفة تعرف نقطة انطلاق، لكنها لا تعرف نقطة نهاية في ترقية عقل الأمة ووجدانها، وهي رغم أهمية ما أنجزته حتى الآن، فإن أمامها الكثير مما لم ينجز بعد نتيجة تفاقم الأزمات وتواليها على الأمة وشراسة الهجمة الفكرية والثقافية والتربوية الغربية عليها (ص٧-١٢).

(٤) حوارات منهجية في قضايا نقد متن الحديث الشريف[1]

تنبع كثير من الإشكاليات المثارة في ساحة الفكر الإسلامي المعاصر من اختلاط المفاهيم، مما يطلق العنان لمعارك وهمية بين فئات المثقفين والمفكرين من أبناء الأمة، ومن بين هذه الإشكاليات المنهاجية الجزئية في التعامل مع الحديث النبوي، وأحادية المعرفة، والفهم الحرفي للنصوص، وغياب الرؤية المقاصدية الكلية للحديث النبوي، وما لم يواجه علماء الأمة هذه الإشكالية بمنهاجية علمية وبصراحة، فسيظل الحوار الفكري عقيمًا يدور في حلقات مفرغة لانقسام مفكري الأمة بين تقليديين دينيين وعلمانيين مدنيين، فخوفًا من الهجمة الغربية على الدين، بالغ التراثيون المتدينون في الهجوم على المدني العلماني؛ مما أدى إلى استقطاب، صار المدني العلماني في

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. حوارات منهجية في قضايا نقد متن الحديث الشريف، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد ٣٩ شتاء ١٤٢٦ / ٢٠٠٥، ٢٢٩-٢٦٠.

ظله جاهلًا بأصوله الحضارية، وصار التقليدي الديني منعزلًا عن واقعه، وفي هذا المناخ غاب الفكر العلمي الكوني السنني.

ومن هنا فإن نقطة البداية الصحيحة هي السعي إلى كلمة سواء بين الدينيين التقليديين والعلمانيين على ثوابت مشتركة بينهم، وانفتاح كل منهما على ما عند الآخر، وتزويد جمهور الأمة بمعرفة متكاملة جامعة بين علوم الوحي والعلوم الاجتماعية والإنسانية، في لحظة تمكن فيها ذلك الجمهور من الانفتاح بشكل غير مسبوق على المعرفة نتيجة ثورة المعلومات والاتصال.

وتتوفر في هذا العصر إمكانيات كبيرة للمراجعة المنهجية للحديث النبوي ونقده من حيث المتن والسند، فما روي عن النبي ﷺ لا يزيد على المئة ألف حديث، مع تعدد الروايات بزيادة أو بنقص واختلاف في اللفظ، وقد تتعارض الروايات، كما أنها لا تستوي في درجة الصحة، ففيها الصحيح والضعيف، وفيها ما هو موضوع لا أساس له من الصحة، ومن الشواهد على ضخامة عدد المرويات التي لا يستقر لها الضمير العلمي، أن الإمام أحمد أثبت في مسنده عُشر الأحاديث التي استقرت بين يديه فقط.

وظل في المسند مع ذلك ما هو ضعيف، ويوضح ذلك هول وضخامة حجم المرويات المكذوبة، ومعنى ذلك، أن كثيرًا من الإسرائيليات وموروثات الشعوب وجدت طريقًا بالدس والكذب إلى ساحة النسبة إلى النبي ﷺ، فالأمة عرفت في لحظة تدوين الحديث حرصًا بالغًا على توثيق المرويات وتدوينها دون تحري الدقة والتمحيص البالغ في المتون.

ويفسر ذلك ظاهرة قلة عدد الأحاديث النبوية المتواترة وأحاديث السنن الفعلية، وعدم اختلاف الأمة بشأنها، بعكس مرويات الآحاد، كما تعرضت المرويات لتأويلات تعكس ملابسات الزمان والمكان، وكثر لدى المتأخرين الإكثار

من روايات الآحاد، وسوء الفهم الجزئي لها، ولم يهتم من دونوا الحديث النبوي بتصنيف الحديث وفق كل دور من الأدوار المتعددة التي كان يقوم النبي ﷺ بها في الأمة، فمن تلك الأحاديث ما يتعلق بالحكم وبناء الأمة. ومنها ما يتعلق بإدارة الدولة والمجتمع وتسيير شؤون الرعية، ومنها ما يتعلق بالتعليم والتربية والتنوير. ومنها ما يتعلق بتسيير شؤون الرعية. ومنها ما يتعلق بمعالجات حالات فردية خاصة.

والنبي ﷺ يؤكد أنه فيما عدا الشأن الديني الموحى به، أنه هو بشر، ومن المهم التركيز على مقاصد الحديث النبوي وكلياته، ولعل هذا هو السبب في نهيه ﷺ عن كتابة حديثه.

فلقد تعهد الله تعالى بحفظ القرآن، ولكنه لم يتعهد بحفظ حديث النبي ﷺ، ولابد أن تكون لذلك حكمة تخطئ إن لم ندركها، فقيمة مجمل السنة والسيرة النبوية وتاريخ عهد الرسالة والخلافة الراشدة تكمن في كونها دليلًا عمليًا دامغًا على أن قيم القرآن ومقاصده ممكنة التحقيق في أرض الواقع الإنساني، وعلى البشر اتباعها على كافة مستويات الأنساق المجتمعية.

ويحتاج النقد الفعال إلى دراية الناقد بالموضوع، وهو شرط لا يتوفر في كثير من كوادر المتأخرين المتخصصين في الدراسات الإسلامية، الذين تربوا على البرامج الدراسية الرسمية التي تقتصر على جوانب لفظية وشكلية وقواعد يحفظونها عن ظهر قلب، مما أصابهم بضعف في ملكة الدراية والنقد والتدبر، إلى حد التغافل عن معايرة متن الأحاديث بالقرآن الكريم المحكم الذي لم يفرط الله فيه من شيء، وغلبت مناهج الفهم الحرفي عندهم على الاحتكام لمقاصد الشريعة والرؤية الإسلامية الكلية، وكثر في ساحة العلوم الدينية من يتجرؤون على الفتوى بغير

علم، والجهلة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية، وأهل الأهواء والمصالح الخاصة.

وبات المسلم الآن يحكمه الأموات والخرافات والأشباح، ويساق إلى قضايا غيبية يستحيل على العقل الإنساني حسمها، وليس وراء حسمها حتى لو أمكن عمل، على حساب فقه الربط بين الوحي والواقع المعيش، والقرآن يبين بكل جلاء أن لا مجال في منظوره لكل ذلك في عهد بلوغ الإنسانية مرحلة الرشد السنني الإسلامي، وعلى مفكري الأمة أن يحكموا مقاصد القرآن ومبادئه وكلياته، في الحديث النبوي متنًا وفهمًا. (ص١٢٩-٢٤٩).

فلا مجال في عالم اليوم للخرافة باسم الإسلام، والمعوذتان كافيتان لوضع حد قاطع لأية هواجس نفسية عند كل من تسيطر عليه مخاوف من أضرار مادية أو معنوية من مخلوقين مثله، فحتى التخييل يقرر القرآن أن الماهر به لا يضر إلا بإذن الله، ويبين أنه شر يتعين الأخذ على يد فاعله من الدجالين، فالمعوذتان حصن للمسلم، وهما دعاء لله تعالى بوقاية العقل والنفس من التدليس ومن الأوهام والأمراض النفسية والشرور والأضرار، وهما وسيلة للحماية الربانية، فسورة الناس دعاء قرآني يستعيذ به الإنسان بالله من وساوس الشيطان والسائرين على خطاه من الجن والإنس، بما يلقونه في العقول والقلوب من الميل إلى المعصية، وهم في وسوستهم هذه ليس لهم سلطان إلا على من يسايرهم باختياره الحر الذي يدعو له هو المسؤول الأول عن عاقبته.

وسورة الفلق دعاء قرآني يستعيذ الإنسان فيه بالله من شرار الخلق من المشعوذين الدجالين الذين يتوارثون أساليب التغرير بالبسطاء، ولئن كان للمعجزات والخوارق مجال ما في عصر ما قبل الرسالة المحمدية، فإنه لا محل لها البتة في عالم ما بعد تلك الرسالة الخاتمة. (ص٢٥٠-٢٦٠).

(٥) العلاقة بين المنهجية والأداء التربوي[١]:

نواة هذه الدراسة هي بيان أن فهم العلاقة بين الرؤية الكونية ومناهج المعرفة والتربية، يساعد على إعادة صياغة تلك الرؤية وتلك المناهج بما يتوافق مع واقع الأمة، بما يمكنها من مواجهة التحديات، وإعادة بناء عقل ونفسية ووجدان أبنائها، بمنهاجية فهم كلي لشبكة علاقاتها.

وترى الدراسة أن الأمة الإسلامية تعاني من أزمة وجود حضاري، فمجمل إنتاجها مجتمعة أقل من ربع الإنتاج الياباني، رغم صغر حجم اليابان وضآلة مواردها الطبيعية، ومن علامات تخلف أمتنا تخصصها في تصدير المواد الخام بثمن بخس، واستيراد المواد المصنعة بتكلفة باهظة، والفرق بين منتجات موادنا ومواد الغرب المتقدم تقنيًا وعلميًا هو: فعل العقل الحضاري المبدع في مجالات العلم والمعرفة والتقني، وتعاني الأمة من تخلف يضعها في موضع حرج في كل المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية، ولا يبقي لها من مقومات الأمة غير شعارات مموهة، لا تغني عنها شيئًا في مواجهة الهجمة الغربية المعاصرة.

ومن هنا يجيء سعي حركات الإصلاح في الأمة إلى الغوص في مكنون تراثها، ومراجعة الكيفية التي تحولت بها من الصدارة بين الأمم إلى تلك الوضعية الراهنة، ولا يكفي أن تسعى حركات الإصلاح هذه إلى رفع معنويات الأمة، واستعادة وعيها بنفائس تراثها وماضيها، بل يلزم تشخيص داء الأمة والتنقيب عن علاج له بمنهجية علمية سننية كلية نقدية.

وبالتدقيق في خبرة تاريخ الأمة يتبين أن تخلفها نابع من سيادة المنهجية الأحادية

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. الإصلاح التربوي: العلاقة بين الرؤية الكونية والمنهجية والأداء التربوي، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، خريف ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠، ص ١٠١- ١٢٣.

الجزئية التي لا ترى الجزئيات في ضوء الصورة الكاملة للظواهر الاجتماعية والإنسانية، ولا تعرف التكامل بين الفكر والحركة، والتنقية المتواصلة للمعرفة من الدخيل ومن سوء التأويل، ومفتاح التخلص من تلك المنهاجية القاصرة والمبددة لطاقات الأمة، هي استكشاف المنهاجية القرآنية الكونية المقاصدية التي سادت في عصر الرسالة وعصر الخلفاء الراشدين، والنموذج النبوي ونموذج الخلافة على منهاج النبوة؛ للتعرف على آفاق التخلية التي تتخلص بها الأمة من عوامل الركود الحضاري، وعملية التحلية التي تستكشف مقومات وشروط تحقيق استعادة الإقلاع الحضاري.

وفي الصدارة منها التوقف عن المحاكاة والتقليد، والتمكين لملكة الاجتهاد الحضاري البناء في كل مجالات الحياة، واستحضار العمق الروحي للعلاقة بين أركان الإسلام وبين المعاملات، واستعادة التكامل المعرفي بين الوحي بوصفه مصدر المعرفة الكافية والفعالة عن عالم الغيب، وبين قراءة الكون المنظور، وبلورة برامج تربوية تجفف منابع الاستبداد والفساد، وتعيد إرساء قواعد أمة الشورى وجوهر الإصلاح التربوي هو: العمل على التخلص من ثلاثة مصادر للتخلف الحضاري: أولها: الرؤية العقيدية الكونية الاجتماعية المشوهة.

وثانيها: المنهج الفكري الجزئي القاصر. وثالثها: المنهج التربوي الترهيبي التقليدي الاستظهاري.

وعلى المفكرين أن يقصدوا بالخطاب وبالإقناع صاحب المصلحة الحريص على النشء، وهو الوالدين بحكم الفطرة وحس الأبوة والأمومة، وتوفير الثقافة السليمة للوالدين وتخليصهم من الثقافة المشوهة، وإنتاج أدبيات تربوية تساعد المعلمين، والإعلاميين، وترشد السياسات التربوية الحكومية، وتبني وعيًا عامًا في الأمة بمختلف مكوناتها، ومع أن ثغرات الأمة السياسية والاقتصادية والتعليمية

والدعوية لها أهميتها، ومن الواجب تقدير جهود الساعين إلى سدها، فإن الثغرة التربوية تظل هي الأهم، وهي مفتاح النجاح في جهود سد ثغرات واقع الأمة المعاصر الأخرى. (ص١٠١-١٢٣).

(٦) معارف الوحي: المنهجية والأداء[1]:

الإصلاح المنهجي هو جوهر القضية الفكرية في العصر الحديث، وتقارب هذه الدراسة تلك القضية من منظور كلي، وليس من الزاوية الأكاديمية الفنية التفصيلية، التي لا يعنيها غير بيان الحد الأدنى والأعلى المتعارف عليه في منهجية البحوث المتخصصة، بما يعني التركيز على بقاء الوضع القائم بنظرة جزئية للواقع الإسلامي الراهن، فالمقصد البحثي لهذه الدراسة هو: الإلمام بمعالم الصورة الكبيرة للمنهاجية وقضاياها الكبرى المتعلقة بالإشكالية الحضارية.

وعلة البحث في مسألة إصلاح علوم الشريعة، ذات ثلاث شعب، **أولها**: الطموح والرغبة في تحقيق القدرة على ممارسة ما نعتقد أنه حق، المنبثق من قناعة بأن ما نمارسه في الواقع لا يمثل في جملته جوهر أمتنا الحضاري والعقدي.

و**ثانيها**: السعي لإصلاح واقع المسلمين السيئ في جملته والذي لا يقبل عاقل ببقائه على ما هو عليه، وضرورة السعي الجاد للتخلص من غلبة النزعة المادية وسيطرة المنهج العلماني الغربي على عقلها.

و**ثالثها**: الرغبة في استعادة الدور القيادي للأمة المعبر عن خصائصها وطبيعة رسالتها الحضارية. (ص٨٥-٨٦).

والمتأمل في واقع الأمة يلاحظ أنها عرفت استقلالًا صوريًا تبلور في معاهدات أبرمتها الدول الاستعمارية مع مستعمرتها لدى تحويلها إلى دول قومية مستقلة، ومع

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. معارف الوحي: المنهجية والأداء، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، رمضان ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦، ص٨٥-١٠٩.

نشأة منظمة الأمم المتحدة ومنظومة المنظمات الأخرى مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي للإنشاء والتعمير ترسخت الهيمنة الغربية على العالم الإسلامي بخطط تخدم المصالح الغربية، وتسوغ كل الاستبداد وانتهاكات حقوق الإنسان طالما كانت تصب في مصلحة الغرب، وانبهر كثير من المثقفين المسلمين بالأنظمة الغربية وقلدوها رغم تكرار ثبوت عدم جدوى ذلك في استنهاض طاقات الأمة، وبات من الضروري التنقيب في هوية الأمة وخصوصياتها، وسبل تخليصها من المنهجية السطحية الجزئية وتنقية تراثها، بنظرة تجاوز الاهتمام باللحية والجلباب، وتغوص في أغوار النفس ومناهج التربية.

وثمة شروط ثلاثة للتغيير الحضاري الفعال يؤثر عليها جميعًا فهمنا للشريعة وتمثلها في تربية الأجيال وتنظيم المجتمعات، وهذه الشروط هي:

١- **قوة البناء النفسي والشجاعة النفسية**: درس التاريخ هو أنه لم تقم لأمة قائمة إلا إذا تحلت بالشجاعة النفسية والبناء النفسي المتين، من هنا جاء الأمر الإلهي لسيدنا يحيى عليه السلام بأن يأخذ الكتاب بقوة، والكتاب رمز للحضارة والإصلاح وأساس لهما، والقوة تشمل كل ألوان القدرة التي تنبع من القوة النفسية للأمم. أما الأمم التي تصاب بالضعف النفسي؛ فتقع فريسة للقابلية للذل وللاستعباد.

٢- **سلامة منهج التفكير الحضاري**: لا سبيل للتقدم والتدافع الحضاري إلا بمنهج سليم في التفكير يتصف بالكلية والدقة في التحليل والاتساق وتحري الأسباب، والوعي الكامل بتأثير عاملي الزمان والمكان على الواقع الإنساني المتغير، وإنعام النظر في الأنفس والآفاق، فالفكر المنكفئ على نفسه عقيم ومهزوم بالضرورة، وعرضة للخرافة ولتربية روح الخوف، ومفتاح سلامة منهج التفكير هو إعادة اكتشاف حقيقة تعدد الخطاب القرآني بتعدد المخاطبين به، مع إيلاء الأسرة اهتمامًا تفصيليًا خاصًا.

٣- **نهج الخلافة المنطلق من رؤية حضارية نابعة من روح الحب وقصد الخير للبشرية جمعاء:** إذا كانت القوة النفسية ونجاعة النهج الفكري شرطين لدفع الحركة في التدافع الحضاري، فإن سلامة الرؤية الحضارية وإيجابيتها، شرط لتحرك الأمة في اتجاه الخير والإصلاح، فالغلبة والقهر والسيطرة تكفي لتحقيقهما الشجاعة وسلامة منهج الفكر، ولكنهما لا يفيان بمتطلبات الأداء الحضاري الإنساني، ولا يكفلان استمراريته، وهكذا كان مصير الشعوب البربرية القوية على مدى التاريخ، وما نراه الآن من مقاومة للحضارة الغربية هو رد فعل طبيعي على عنصريتها القومية المادية وسعيها للغزو الثقافي والهيمنة، وعلى العكس من ذلك تكون الحضارة المنطلقة من المحبة وقصد الخير وتعزيز مؤسسات المحبة وفي المقدمة منها مؤسسة الأسرة.

ومفتاح تحقيق هذه الشروط الثلاثة هو تنقية المفاهيم الإسلامية، فمفاهيم التوحيد والخلافة والعبودية والتقوى حين تبنى من القرآن بمنظور كلي تكون مصدر عزة وبناء للعقل والنفس والوجدان المسلم، ويتطلب عملية تنقية المفاهيم الإسلامية إعادة النظر في أسلوب دراسة علوم الوحي الإسلامي والتنقية المنهجية لها مما أصابها من شطط القرون المتأخرة، التي صيرت التوحيد لاهوتًا، والعبودية انسحابًا من الحياة، والتقوى هلعًا، وليس يقظة وصحوة ودليلًا لسلامة الطريق، فالتقي هو من يتسلق الجبل، وعلى العكس منه الهلوع الذي يخشى العوالي، فهو مريض، وليس متحلي بتقوى الله، وتعاني معارف الوحي الإسلامي في دراستها وتدريسها من عدم الفهم العميق للنفس الإنسانية عامة ولنفسية الطفل بوجه خاص، فضلًا عن عدم مراعاة وجوب اختلاف أساليب تربية الصغار وتنشئتهم على مقاصد الشريعة ومفاهيمها، عن أسلوب عرضها على الكبار وتمثلهم لها، فالتهديد يولد الخوف في نفسية النشء ويقتل معاني الإيجابية والإقدام وروح المبادرة فيها، ويقوي معاني العزلة والسلبية؛ طلبًا للسلامة.

خلاصة القول: أن عجز منهج المعرفة الإسلامية هو سبب عجز فكر الأمة، والأسلوب الذي تعرض به العقائد الإسلامية هو أهم أسباب حالة السلبية والضعف النفسي لدى أبناء الأمة، وما لم يتم إصلاح فهم العقائد وتصفيتها من الإسرائيليات والأساطير والخرافات، بحيث لا تقبل في تأسيس العقائد وأخبار الغيب، غير القرآن والسنة المتواترة؛ فلن يستقيم بناء الأمة النفسي أبدًا.

وتحتاج الأمة أيضًا إلى تدارك حقيقة تركيز الفقه على حياة الفرد وتركه الشؤون العامة للأمة ومؤسساتها للسلطة السياسية، فالفقه بوضعه الراهن يوجه خطابه إلى الفرد ويربيه فردًا في عباداته ومعاملاته، من مولده إلى أن يقبض ملك الموت روحه.

ويفسر هذا النهج تفكك الأمة الإسلامية وسيرها في طريق التجزؤ، في حين تتجه الأمم الأخرى إلى مزيد من التكامل والتوحد، فكل ما تشقى منه الأمة في حاضرها الآن نتاج لاختلال وقصور المنهج العقلي والفهم المشوه للدين وتنشئة أجيال الأمة عليها، وتحتاج الأمة للتخلص من ذلك القصور والتشوه إلى اجتهاد جماعي علمي يستند إلى فكر منهجي مبدع في كل المجالات.

وتتطابق معارف الوحي مع معارف الكون والطبيعة والإنسان، وتتكامل تلك المعارف في تحقيق غاياتها الكلية في قصد الخير ونشره على الدوام، وتساعد كثير من الإمكانيات المنهجية العلمية التي توصل إليها العقل الإنساني في العصر الحديث في سبر أغوار التراث الديني والقراءة المقاصدية الكلية له، ولابد من التمييز بين مصدر القانون الإسلامي المتسم بالإطلاق والقداسة، وبين القانون الإسلامي الذي هو اجتهادات الفقهاء في فهم النصوص الشرعية.

فذاك القانون قابل للمراجعة على الدوام، وهو بحاجة شأنه شأن القوانين الوضعية إلى توظيف مستحدثات العصر في تبويبه، وتنظيمه على نحو يجعله قانونًا حيًا يستجيب لمتطلب الحفاظ على الثوابت والتكيف الإبداعي مع المستجدات، وفق

رؤية كلية كونية إسلامية جامعة، والأمة الحية القوية هي تلك التي تجعل المنهجية الاجتهادية مدرسة وأسلوبًا علميًا عامًا. (ص ٨٧-١٠٤).

ولقد عرفت أمتنا في تاريخها بعد أن استقر نظامها السياسي والاقتصادي على نحو يتضمن مزيجًا من القيم الإسلامية والروح القبلية، تشوه الفصل بين العقيدة وبين أنظمة المعاملات، وانصرف علم أصول الدين إلى ساحة البحوث النظرية المجردة غير المرتبطة بالواقع، ولم تظهر خطورة هذا المنحى في بدايته، إلا أنها ترتبت عليها مع تطاول الزمن لا تثمر إلا في حال بقاء الصورة الكلية ثابتة لا تتغير، وبانصراف علم الكلام إلى البحث النظري تغيرت معالم مهمة من الصورة الكلية للعقيدة، ولم يدرك علم أصول الفقه لانفصاله عن علم الكلام، تبعة ذلك، فعجز عن مسايرة المستجدات، ولم يعد يمثل أداة منهجية حية تولد الأحكام وتعين على تطويرها.

ومن هنا يجب إعادة النظر في أسلوب دراسة الدين وأصوله بعد تنقيته من الإسرائيليات مع مراعاة فقه تأثير الزمان والمكان، كما يتعين إعادة النظر في مجال الفقه الإسلامي؛ ليشمل ممارسات الأفراد وشؤون الجماعة وليكون دليلًا لتربية المسلم فردًا في جماعة؛ ليصير الفرد المسلم فردًا صالحًا وعضوًا صالحًا في الجماعة والأمة الإسلامية وشرط تحقيق ذلك هو إصلاح فلسفة التعليم والتربية ومناهجهما، وتحرير عقل الدارس المسلم من المعرفة الأحادية دينية كانت أم دنيوية (ص١٠٥-١٠٩).

(٧) استفتاء علماء الأمة بشأن مواقيت الصلاة وصوم رمضان[1]:

من الشواهد على شمول مفهوم الأمة الإسلامية في ذهن **عبد الحميد أبو سليمان**

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. استفتاء علماء الأمة بشأن مواقيت الصلاة وصوم رمضان، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، صيف ١٤٣٦ هـ/ ٢٠١٥، ص١٩٣ - ٢١١.

لكل مسلم يعيش في أي بقعة من بقاع المعمورة إثارته لإشكالية تحديد مواقيت الصلاة وصوم رمضان في المناطق التي يتفاوت فيها طول النهار والليل تفاوتًا كبيرًا، وتلك التي قد يستمر النهار أو الليل شهورًا فيها، وهو يدعو علماء الأمة في هذا المقام إلى الاجتهاد في تلك القضايا المستجدة بما يحقق مقاصد الدين ويحقق الحكمة المنشودة من التشريعات الإسلامية، وهو يلاحظ أن القرآن فصل ثلاثة أركان من أركان الإسلام: الشهادتين وصوم رمضان، في حين أورد كليات ركني الصلاة والزكاة وحسب، وصلت أجيال الأمة وأقامت ركن الزكاة على هدي السنة النبوية الفعلية المتواترة.

ومع أن وجهة فريضة الصلاة هي توحيد الأمة، فإن الأمة انقسمت في أدائها إلى مذاهب، وانقلب شأن التوحيد إلى تشدد وتعسير وانشغال بأمور ثانوية مثل هيئة وضع اليدين في الصلاة، وللصلاة التي تتكرر خمس مرات في اليوم والليلة غايات روحية وحياتية يتعين السعي إلى تحقيقها، ومن جوانب الحكمة الحياتية: حكمة توقيت الصلاة، وإحاطته بأحكام تجعل أداء الصلاة أمرًا ميسرًا في كل الأحوال.

فتوقيت الصلاة يحقق غاياتها الروحية والحياتية بالنسبة للمسلم، وفي جزيرة العرب كان تحديد مواقيت الصلاة يعتمد على الحركة الشمسية على مدار اليوم والليلة، والآن امتد الوجود الإسلامي بحيث لا تكفي حركة الشمس لتحديد تلك المواقيت التي هي كافية في المنطقة الاستوائية والمدارية، بينما لا يكفي ذلك في المناطق القارية القطبية.

والسؤال محل الاجتهاد المطلوب هو: كيف تنظم مواقيت الصلاة على نحو ينظم حياة الفرد وحركته الحياتية في مثل تلك المناطق؟ من الحلول الاجتهادية التي طرحت التسوية بين تلك المناطق وأقرب البلاد التي يستوي فيها الليل والنهار، ولكن تلك الإجابة لا تسوي الإشكال تسوية جذرية، ففي بلاد مثل بريطانيا التي

تعيش فيها جالية مسلمة كبيرة قد يصل طول النهار ١٨ ساعة في الصيف، فهل يمكن الاجتهاد بتطبيق قاعدة تساوي الليل والنهار أو المعايرة على طول النهار والليل في مكة، أو اعتماد خط الاستواء محددًا لليل والنهار، وتحريك مدة الصيام شمالًا وجنوبًا بما يتوافق وطاقة البشر في تلك المناطق المتطرفة؟ وهل يمكن الاجتهاد في ثبوت رؤية هلال رمضان بعدم التركيز على الرؤية البصرية والاعتماد على الوسائل الفلكية الحديثة؟ (ص١٩٣-٢١٢).

(٨) استفتاء في قضية تختص بتجديد فهم الدين: ما هي أيام الحج في العالم المعاصر؟[1]:

يثير أبو سليمان سؤالًا مهمًا في استفتائه هذا لعلماء الأمة لتنزيل حكمة الهدي النبوي على الواقع المعاصر، في ضوء الزيادة الهائلة في عدد المسلمين، بحيث لم يعد عدد حجاج بيت الله الحرام كل عام بالألوف بل بالملايين، ويتحكم ضيق المكان في عدد من يؤدي تلك الفريضة، مما يدفع السلطات في الحرم إلى فرض تدبيرات تجعل عدم استطاعة أداء تلك الفريضة غير عائد لضيق ذات اليد، والسؤال: هل من المعقول أن يفرض الله فريضة لا يمكن القيام بها، ويرى أبو سليمان فيما يسميه محاولة للاستنارة في ظل ظروف العصر وإمكاناته، تنطلق من التسليم بأن مثل هذه المسألة لا يفتى فيها برأي شخص بل باجتهاد العلماء وإجماع الأمة، أن الدين هو الوحي ولا شيء غير الوحي، وأن القرآن لم يفرط الله فيه من شيء وهو تبيان لكل شيء. أما التطبيقات النبوية والراشدة وما تلاها، فأهم ما يستفاد منها هو حكمة تنزيل مفاهيم الدين وقيمه ومبادئه على الواقع المتغير عبر الزمان والمكان، وأن التجديد واجب على العلماء بالاستفادة من حكمة تنزيل الرسول الدين على الواقع

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. استفتاء في قضية تختص بتجديد فهم الدين: ما هي أيام الحج في العالم المعاصر؟ مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد ٧٨، خريف ١٤٣٥ هـ/ ٢٠١٤، ص ١٣٣-١٤٧.

في صدر الإسلام، بمعنى آخر أن مطلوب العصر هو استلهام المرجعية القرآنية في فريضة الحج والانطلاق منها، وتلك المرجعية تفسح المجال لأداء كل مسلم الحج مهما كان عدد الراغبين في ذلك، فالحج في هذه المرجعية: أشهر هي شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة في رأي بعض العلماء وتلك الشهور الثلاثة كاملة في رأي البعض الآخر، فالحج أشهر معلومات، وفي شهر رجب يتوجه الحجيج إلى بيت الله الحرام وفي شهر المحرم يعودون إلى ديارهم سالمين غانمين، وتلك هي الأشهر الحرم.

فهل يحصر الحج في الأيام من التاسع إلى الثاني عشر من ذي الحجة، مهما تغير الواقع الإنساني؟ أم يتم الاجتهاد في ضوء تلك المفاهيم القرآنية؟، ومن تلك المفاهيم القرآنية المرتبطة بالحج (الحج أشهر معلومات) و(ذكر الله في أيام معلومات) بصيغة (التنكير لا التعريف)، فهل يمكن الاجتهاد باعتبار أن كل من يحج أربعة أيام من تلك الشهور الثلاثة يكون قد أدى فريضة الحج، وسيرافقه في ذلك ألوف من البشر وتتحقق حكمة التعارف بين الشعوب على امتداد أشهر الحج الثلاثة؟ وهل يمكن التمييز بين (يوم النحر) الذي ينحر فيه الحجيج الهدي، وبين يوم (عيد الأضحى) الذي هو اليوم العاشر من ذي الحجة وهو عيد المسلمين جميعًا في كل بقاع الأرض؟ أليس التفكير في هذا الاجتهاد فيه توسعة على أهل الحرم، وتيسير على الراغبين في أداء فريضة الحج في المجيء إلى البيت الحرام وفي أداء الشعائر؟، وفي ظن أبي سليمان أن النص القرآني وبناء قواعد اللغة لا يمنعان من هذا الاجتهاد بل يؤيدانه (ص ١٣٣-١٤٨).

(٩) لتعارفوا بين الحجاب والنقاب[1]:

نواة هذه الدراسة هي: التوافق بين الفطري والشرعي، فالفهم العلمي للطبيعة

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. لتعارفوا بين الحجاب والنقاب، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد ٧٥، شتاء١٤٣٥ هـ/ ٢٠١٤، ص ١٤٥-١٥٩.

الإنسانية وللقضايا الاجتماعية والحياتية يسهم في الوصول إلى حالة معرفية يتناغم فيها فهمنا لتوجيهات الوحي وللفطرة الإنسانية السوية؛ وبذا تصبح قيم الطبيعة الإنسانية السوية مسألة التزام ديني، وليس مجرد اختيار إنساني، فالله تعالى ألهم النفس البشرية فجورها وتقواها، وجعل الفلاح لمن يزكي نفسه، والخيبة على من يسديها، وكفى بالمرء حسيبًا على نفسه، والله عند حسن ظن عبده به، وبه يحصل سعادة الدارين أو شقوتهما.

والوحي الإلهي متناغم مع الفطرة الإنسانية السوية، وأي توهم لتناقض بينهما يكون مصدره سوء الفهم، والانحطاط الحضاري، ومسألة عورة كل من الرجل والمرأة مسألة من المهم التدبر في الحكمة في اختلافها، فالله لم يخلق الرجل والمرأة ليقوم كل منهما بدور ماثل لدور الآخر بل ليتكامل دورهما في الحياة، والبشرية انقسمت طرائق شتى في مسألة ما يغطى من جسد المرأة والرجل، ووصل هذا الانقسام إلى حد التردد بين نقيضين: تغطية جسد المرأة كله بما فيه غطاء وجهها بالنقاب، والعري بأنواعه.

وبين هذين الطرفين يوجد الموقف الإسلامي الوسط الذي يحافظ على العفة ويمكن كل من الرجل والمرأة من القيام بدورهما في الحياة دون مشقة، فعورة الرجل من السرة إلى الركبتين حتى لا يؤثر عريه على نفسية المرأة وحفاظها على عفتها، مع تمكينه من العمل. أما المرأة فتتحدد عورتها بمراعاة نفسية الرجل بكامل جسدها عدا الوجه والكفين، فيما يعرف في هذا العصر بالحجاب، فعقلية المرأة شبكية لأن حاجات الأطفال والبيت تحتاج منها القيام بأكثر من عمل في وقت واحد بعكس الرجل الذي يقوم بعمل واحد وفي ظروف صعبة أحيانًا تقتضي البساطة في ملبسه، وهو بستره ما بين السرة والركبة يستطيع القيام بالعمل مع عدم التأثير على قرار المرأة وخياراتها تجاه نفسها وأبنائها. أما من تبدي مفاتنها لغير محارمها فإنها ترسل رسالة جنسية إلى الرجل.

ومن هنا فلأن حماية المرأة وتمكينها من القيام بمسؤوليتها تقتضي جعل جسمها كله عورة باستثناء الوجه واليدين؛ لأن الوجه هو (شخصيتها) واليدين هما وسيلة قيامها بأعمالها، ومع تقدم المرأة والرجل في السن بعد انقطاع الحيض عن المرأة تزيد هرمونات الذكورة في الإناث ويرافق ذلك تغير في شخصية المرأة، وتصير قادرة على العمل مثلها مثل الرجل، ويصير الرجل جدًا لينًا رفيقًا يداعب أحفاده، ومن هنا يجب أن لا يكون عمل المرأة خارج البيت في مرحلة الإنجاب والأمومة على حساب دورها الأسري الأهم، ويمكن للمرأة التي يتجاوز سنها الخمسين أن تشغل أعلى درجات السلم الوظيفي وتقوم بمسؤولياته. (ص١٤٥- ١٥٠).

وكثيرًا ما تثار قضية الحجاب والنقاب وينقسم المجتمع المسلم بخصوصها إلى فريقين: فريق يحرص على قيم الحشمة والعفة والطهارة، ينقسم بدوره إلى توجهين توجه متشدد ينكر الكثير من حقوق المرأة ويلزمها بالنقاب، ويطالب بالفصل المطلق بين الذكور والإناث من الطفولة، وتوجه يدعو إلى الاعتدال والفهم الكلي للشريعة وللفطرة الإنسانية السوية. أما الفريق الثاني، فيدمر الأسرة والأمومة وينطلق من مرجعية غربية لا ترى للعفة والطهر قيمة، ويدعو إلى تبرج المرأة إلى حد العري.

وليس الصواب في عزل المرأة الكامل بالنقاب، بل في تواصلها المحتشم، فالحجاب يسمح للمرأة بالحفاظ على حقوقها والتعبير عن ذاتها، مع الاحتشام، بعكس النقاب، ومن الهدي الإسلامي تحريم لبس المرأة النقاب والقفازين وهي تؤدي شعائر الحج، ولم يثبت أن النبي ﷺ أمر المرأة بالنقاب، بل الثابت أنه أمرها حين تبلغ المحيض بستر جسدها عدا الوجه واليدين، وكانت المرأة المسلمة تشارك في الغزوات وفي الحسبة في الأسواق، وتجلس مجالس العلم وتفقه الرجال.

وخلاصة القول: أن الحجاب إلزام، أما النقاب فهو خيار لا علاقة له بالدين، ويرى المتشددون معاقبة المرأة على جمال وجهها بالقول بوجوب النقاب على المرأة

الجميلة بذريعة أن لا تفتن الرجال، بدل حض الرجال على غض البصر وعدم النظر إلى الحرمات، ثم إن الجمال مسألة نسبية، وهناك من يرى أن امرأة ما جميلة، فقولهم هذا يعني إلزام جل النساء المسلمات بالنقاب، وحتى لو وجد بالمجتمع شباب مستهتر، فهل من يجب معاقبته ووضع حد لسلوكياته غير السوية هو أولئك الشباب أم المرأة؟ فالرجل السوي حين يرى امرأة محجبة محتشمة لا يعرض لها بأذى.

ومن الإشكاليات التي أخطأ كثيرون في فهمها، ما سمي(آية الحجاب) التي فسر مفهوم الحجاب فيها بأنه يعني الخمار، وظن كثيرون أنها تأمر بالنقاب أو حتى بالحجاب، مع أنها لا صلة لها بأي منهم، فهي تتعلق بستار البيت أو باب الدار، الذي يجب على الأجنبي طرقه للاستئذان بالدخول، والخمار يعني تغطية المرأة لشعر الرأس والصدر ولا علاقة لذلك بغطاء الوجه، والخمار يعين المرأة على إسداله على ثديها؛ لتتمكن من إرضاع صغيرها حتى أمام محارمها.

وحجاب الحج هو (لتعارفوا)، وفرض الله على المرأة في الحج أن تكون سافرة الوجه للتعارف بين الحجيج، فإذا نقبت المرأة وجهها في يوم عرفة فإن التعارف لا يتم في يوم التعارف، ومن العجيب أن يكون حكم الإسلام أن تكشف المرأة عن وجهها بعرفة في حضور ملايين البشر، ثم يقول أحد من الناس بوجوب النقاب عليها في غير موضع الحج.

ويبقى القول بأن من حق المرأة إن أرادت حرة مختارة أن تلزم البيت أو أن تلبس النقاب، لكن بوصفه اختيارًا شخصيًا، لا على أنه إلزام ديني، وروح الشرع الإسلامي تقضي بتربية بناتنا على أن الخمار التزام ديني لموافقته للشرع وللفطرة السوية وحفاظه على شخصية المرأة (ص١٥١-١٦٠).

(١٠) مطلوب العصر: الرؤية الكونية الحضارية القرآنية مع التربية العلمية[1]:

يتوقف حسن تربية الأبناء وإعادة بناء أمة الإسلام ومجتمعاتها على أن يكون أبناء الأمة عامة والوالدين والدعاة وأئمة المساجد بوجه خاص على وعي معرفي بالمفاهيم الاجتماعية، على مستوى معرفة غاياتها ومقاصدها ومنطلقاتها الفلسفية. من هنا تأتي ضرورة الإدراك الواعي للرؤية الكونية الحضارية القرآنية التي هي بمثابة البنية التحتية للبناء التربوي، وهي رؤية متناغمة مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها لبناء أمة العدل والمساواة والإخاء والتكافل والتراحم الإنساني، في كون خلقه الله على نحو لا تفاوت فيه، ولغاية وحكمة بالغة، وجميع مكونات عالم الإنسان المستخلف تتكامل ولا تتماثل، ولكل إنسان حق في الثروات الطبيعية، والزكاة تطهر المال والنفس.

ومن أهم العوامل التي عصفت بالأسرة الغربية افتراض المساواة بمعنى التماثل بين الرجال والنساء، فالمساواة لا تعني التماثل بل التكامل، وإلا كان وجود جنسين ذكر وأنثى بمثابة عبث.

ويحتاج الدعاة والوالدين لثقافة تشمل أساسيات مداخل العلوم الاجتماعية، وليس معنى هذا احتياجهم إلى دراسة تخصصية مهنية في تلك العلوم بل التعرف على القيم الاجتماعية وفلسفة تلك العلوم ومقاصدها، بحيث يستطيعون المقارنة بين الرؤى الكونية والقيم والمفاهيم الحاكمة لرؤية الجماعة، فلقد أنتج الغرب علومًا طبيعية واجتماعية حققت إنجازات مهمة، إلا أن توظيفه لتلك الإنجازات كان مردوده سلبيًا على الإنسانية لانطلاق فلسفتها من رؤية كونية كلية استعلائية حيوانية.

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. أيها التربويون الرؤية الكونية الحضارية القرآنية ثم التربية والتربية العلمية، مجلة إسلامية المعرفة، العدد ٧١، شتاء ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣، ص ١٤٣ - ١٥٢.

والمدخل لتحصيل تلك الثقافة يبدأ بمدخل في علم الاقتصاد، حيث وقع العالم الإسلامي في فخ الافتراس المادي الغربي، الذي فتح الطريق أمام تعميق التبعية الثقافية، ففي مجال الاقتصاد أصبحنا نقلد النظام الرأسمالي الغربي دون أن ندرك مخالفته لرؤيتنا الكلية، مما يحكم على المحاكاة بالفشل، فالرؤية الغربية المادية الاستعلائية نجحت لتوفر ظروف لها لا تتوفر مثلها لأمتنا، من بينها غزو القارتين الأمريكيتين، وقارة استراليا، والاستعمار الأوربي لآسيا وإفريقيا ونهب ثرواتها، ولما كانت الرؤية الكلية الغربية المادية العنصرية مخالفة للرؤية الكونية القرآنية الكلية، فإنه كان من المستحيل أن تتبناها الأمة الإسلامية بقناعة جوانية.

وبالمثل لا تمنع الرؤية الكونية الاستخلافية من الاستفادة من إنجازات الدراسات السياسية العلمية في مجال إدارة الشؤون السياسية، لكنها تقضي بتوظيفها؛ لتحقيق قيم السلام والعدل والإخاء والتكافل والشورى التي تتناغم مع كل من الشرع والفطرة الإنسانية السوية.

أما عن برامج علم النفس والتربية التطبيقية والاجتماع، فإنه من الملاحظ أن علم التربية يستمد مناهجه من كافة العلوم الأخرى وبخاصة العلوم الاجتماعية، ويعتمد علم التربية بشدة على علم النفس وعلم الاجتماع، ولابد أن يتغير الخطاب التربوي بتغير المرحلة التي يمر بها الفرد الإنساني، ومرحلة الطفولة المبكرة من الولادة حتى سن السابعة التي هي أهم مراحل حياة الفرد، ومن المهم أن يتكون وعي الطفل في هذه المرحلة على محبة الله.

ويلي ذلك مرحلة التمييز التي تبنى فيها المفاهيم والسلوكيات والأخلاقيات السليمة بالدعم المادي والمعنوي للطفل، ثم تأتي مرحلة المراهقة من الحادية عشرة حتى الثامنة عشرة، وهي مرحلة ضرورية لبناء الذات وتحمل المسؤوليات، من خلال الإقناع وتجنب القسوة والإخضاع، ثم تأتي مرحلة الرشد من سن السادسة

عشرة، ويتحمل فيها الفتى المسؤولية عبر مرجعية ودودة ناصحة؛ ليصير الفتى مسؤولًا في مرحلة شبابه، وليبني أسرته في مرحلة اكتمال رجولته أو أنوثته. (ص ١٤٣-١٥٢).

(١١) الإصلاح التربوي: العلاقة بين الرؤية الكونية والمنهجية المعرفية والأداء التربوي[١] :

المقصد المعرفي لهذه الدراسة هو بيان العلاقة بين الرؤية الكونية والأداء التربوي، والبرهنة على توقف نجاح الإصلاح التربوي على تصحيح المناهج المعرفية التربوية بما يتوافق مع الرؤية الكونية القرآنية، حتى ترقى لمستوى مواجهة تحديات العصر، وتجويد أداء الأمة أفرادًا وجماعات ومؤسسات، ويتطلب ذلك منهجية كلية، تقوم على النقد البناء لواقع الأمة بما يكشف الإمكانات الكامنة والإيجابيات والسلبيات، ويوجه إلى الثغرات، وإلى وسائل سدها، وينقي المدخلات الثقافية في نظام الأمة المعرفي وفي مناهجها وأساليبها التربوية، ومناهج الفكر إنما هي الأدوات التي يبنيها العقل ويرسم خطتها متأثرًا بمنطلقاته وببيئته وبما بها من تحديات وإمكانيات.

ويكشف التنقيب في الخبرة التاريخية لسيرة أمتنا وصيرورتها، عن تعرضها للعديد من عوامل الانحطاط من داخلها ومن تعاملها العشوائي مع المنتج الثقافي لحضارات أمم أخرى، ومن تبنيها لمنهاجية نظر جزئية أحادية المعرفة، وانجرارها إلى منهجية المحاكاة المورثة للتخلف والرؤية القاصرة، وأثر هذا الخلل في المنهجية المعرفية في مناهج التربية بالإغراق في التعقيدات النظرية الفلسفية المدرسية الحاجبة للرؤية والمؤسسة للخضوع للاستبداد والخرافة والمحاكاة التراثية المعرفية. (ص ١٤٧-١٦٠).

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. الإصلاح التربوي: العلاقة بين الرؤية الكونية والمنهجية المعرفية والأداء التربوي، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد ٢٩، صيف ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٢، ص ١٤٧-١٧١.

ولقد بين القرآن طريق الإصلاح الحضاري الإسلامي بكل وضوح، حيث حث على إعمال العقل والتفكر في السنن واجتناب التقليد الأعمى، والقرآن كتاب هداية يقدم كليات الحياة، ولا يفصل فيما هو ثابت من السنن والطبائع، فهو ليس كتاب تعليمات إدارية وميدانية، بل كتاب إرشاد وتوجيه، ومن هنا نهى النبي ﷺ عن تدوين أقواله وتعليماته في إدارة شؤون الدولة والمجتمع لتعلقها في كثير من وجوهها بظروف زمانية ومكانية، ولو كانت توجيهاته بمثابة القرآن لما نهى عن كتابتها، فالقرآن ينفرد بكونه هو النص الموحى به المطلق الدلالة اللازماني واللامكاني.

ويرتبط بذلك حرص الخلفاء الراشدين على أن لا يتداول الناس مرويات الأحاديث النبوية وينشغلوا بها عن القرآن، كما نلاحظ اجتهاد الصحابة في مواجهة المستجدات الناجمة عن تغير الواقع، وليس من المستغرب بعد أن اعتزل رجال العلم السياسة والاجتماع والشأن العام وتفرغوا في المساجد والزوايا والمدارس، أن يحرصوا على جمع كل شاردة وواردة مما نسب إلى النبي ﷺ وأصحابه من حديث وسنة، ويستقوا منها المعرفة بمنهجية جزئية تغيب عنها المعرفة الاجتماعية والسياسية والإدارية، مع إضفاء قداسة عليها تحول دون الاجتهاد في نقدها.

وأدى ذلك إلى تشوه الرؤية الكونية الاجتماعية الإسلامية، وإهمال الحياة العامة في فكر الأمة وضميرها وتربية أبنائها، وتحتاج الأمة في ضوء ذلك إلى منهجية كلية، تعيد التوازن بين مصادر المعرفة وتحقق التكامل بين الوحي والواقع والعقل وخبرة التراث (ص١٦١-١٧٢).

(١٢) ضرب المرأة وسيلة لحل الخلافات الزوجية: رؤية منهجية [1]:

يقع المنافحون عن الإسلام وعن حقوق الإنسان في حيرة تجاه مسألة حق الزوج

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. ضرب المرأة وسيلة لحل الخلافات الزوجية: رؤية منهجية، مجلة إسلامية المعرفة، العدد ٢٤، ربيع ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١، ص ١١٧-١٤٠، ونشرت هذه الدراسة أيضًا في: د. عبد الحميد أبو سليمان، ضرب المرأة: هل هو الفهم الصواب لحل الخلافات الزوجية؟ رؤية اجتهادية قرآنية معاصرة، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٠، كتيب في: ٩٤ صفحة.

في ضرب زوجه الناشز، واعتبار ذلك وسيلة لمعالجة النزاع بينهما، وتواجه أمتنا هجمة شرسة بذريعة حالة حقوق الإنسان فيها، ومن هنا تحتاج هذه الإشكالية إلى دراسة منهجية مبدئية تستلهم القراءة القرآنية السياقية الكلية لموقف الإسلام من المرأة، المؤسسة على قناعة تامة بالتناغم بين الشرع والفطرة السوية، واستحالة أن يظلم الإسلام أحدًا.

وبالتدبر في سر فشل حركات الإصلاح في الأمة على مدى القرون الأخيرة تبين أن الفشل راجع لتغييب الطفولة في المشروع الحضاري الإسلامي، وعدم العناية بالأسرة التي هي المحضن الطبيعي الرئيس لتكوين شخصية لطفل، اعتمادًا على فطرة الوالدين في التنشئة وفق رؤيتهم وقناعتهم، ومعنى هذا أن الدور التربوي للأسرة لا يعدله في أهميته دور أية مؤسسة أخرى، فهل يعقل في ضوء ذلك أن يقر الإسلام في التعامل بين الأزواج إلا كل ما يرسخ المودة والرحمة والسكينة بينهم؟

المتدبر في القرآن الكريم يجد أن الرسالة الإسلامية جاءت هداية وتوجيها لما فيه صالح الإنسان في كل زمان ومكان، والوعي بمعاني القرآن يتأثر باعتبارات الزمان والمكان وبالسقف المعرفي المتغير، مما يمثل دليل إعجاز له يكشف عن كونه صالحا أبد الدهر، والله تعالى يقول في سورة فصلت: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾.

فآيات الله تعالى في النفس والآفاق ستظل تتكشف إلى أن تعرف البشرية جمعاء أن القرآن هو الحق من عند الله تعالى.

ولذا فإنه من الخطأ الاكتفاء عند النظر في أمر تشريعات الأسرة في الإسلام قراءة أي منها بمعزل عن صورتها الكاملة التي تستوجب استحضار أثر عاملي الزمان والمكان على المفاهيم والإمكانيات والأدوار في المجتمع الإنساني، والتدبر في خبرة ما أصاب أمتنا من تحولات في فكرها، وفي نفسيتها، ووضعيتها بين الأمم، وأول ما

يمدنا به الانطلاق من هذه القاعدة المنهجية في معالجة إشكالية جواز ضرب الزوجة الناشز، هو أن الضرب إهانة وأذى بدني يولد السلبية والكره والانصراف، على النقيض من الرفق والتكريم الذي يولد الإيجابية والحب والإقبال.

وخبرة تاريخ أمتنا يبرهن على نحو قاطع على أن من أخطر ما أصيبت به: ثقافة الوصاية والاستبداد على كل المستويات بدء من المعلم وصبي المعلم والمدرس والتلميذ والصغير والكبير والمرأة والرجل والرئيس والمرؤوس، فتلك الثقافة حكمت العلاقات بين كل قوي وكل ضعيف، فغاب الإخاء وذهنية الجسد الواحد المتراحم.

ومن هدي النبي ﷺ أن المسلم أخو المسلم، ومن الحقوق المتبادلة بينهما أن لا يظلم أحدهما الآخر ولا يحقره ولا يخذله، وأن يتقي الله في حرمة ماله وعرضه ونفسه، وينهى النبي ﷺ عن البذاءة والفحش في القول، وينفي النبي ﷺ الخيرية عن من لا يحسنون عشرة أزواجهن، ومن الثابت أن النبي ﷺ وهو القدوة والأسوة الحسنة لم يضرب امرأة ولا خادمًا قط.

ويقتضي التحليل المنهجي القويم لمسألة ضرب المرأة السعي لفهمها وتحديد موقف الإسلام منها انطلاقًا من تلك الكليات الإسلامية، ولمجمل التوجيهات القرآنية المتعلقة بنظام علاقة الزوجية والأبوة والأمومة في الأسرة المسلمة، وفي الصدارة منها تأسيسها على المودة والرحمة المتبادلة، ولم يرو بالسنة بخصوص مسألة ضرب الزوجة الناشز غير التوجيه بأن يكون غير مبرح، وهو ما فسره ابن عباس بالضرب بالسواك، بما يؤكد على رمزيته البالغة، ويعزز ذلك شاهد قرآني مهم، هو التوجيه الرباني إلى سيدنا أيوب ﵇ لما حلف أن يضرب امرأته بأن يضربها بضغث (قبضة حشيش مختلطة الرطب واليابس) ضربة واحدة تحلة ليمينه.

يقول الله تعالى في سورة ص: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ

لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾.

ولقد تعرض النص القرآني الذي وردت به مفردة (ضرب) المرأة، لسوء تأويل صرفه إلى معاني اللطم والصفع وما شابه من دواعي الألم والإهانة، والسياق الذي وردت فيه يزيف ذلك التأويل. يقول الله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾.

فالقوامة هي القيام بما يصلح به أمر المرأة باحتمال مؤنتها والتكفل بها وإعانتها على القيام بدورها الأسري، ولا تمت بصلة لما روجه البعض من كونها تعني تسلط الرجل على المرأة، والرجل مفضل على المرأة بالسعي وبالأبوة، وهي مفضلة عليه بالأمومة وبكونها سكن له، والآيات الكريمة تأتي بمفردة (الضرب) ضمن سياق أساليب غايتها إصلاح ذات البين بين الزوجين، تتم داخل الأسرة ولا يعلم بها غيرهما، قبل أن تفتح المجال في حال فشل تلك المساعي إلى تحكيم قرابي في الأمر، ثم إن العلاقة الزوجية محكومة برمتها بمبدأ كون الرجال والنساء يتحدون في أصل الخلق من نفس واحدة، وإيجاب الشرع أن تكون المعاشرة بالمعروف، وأن يتم

الالتـزام بـذلك حتـى في حـال اسـتحالة العـشرة بـأن يكـون الإمـساك بمعـروف والتسريح بإحسان.

ومعنـى ذلـك أن الإسـلام يوجـب قيـام العلاقـة الزوجيـة عـلى المـودة والرحمـة والرعايـة والإحـسان، ويـستحيل في ضـوء ذلـك أن ينـصرف مفهـوم (الـضرب) إلى الإيلام والإيذاء؛ لأنه بهذا المعنى لا ينسجم وروده ضمن ترتيبـات للتمكـين للألفـة وإزالة الخلافات بين الأزواج، فتوجيه ذلك المفهوم إلى ذلك المنحى ناتج من فتـاوى تراثية تعسفية تبـالغ في إطـلاق سـلطة الرجـل في شـؤون الأسرة عـلى نحـو يتنـاقض وروح التشريع الإسلامي.(ص١١٧-١٢٦).

وتكشف القراءة السياقية لمادة (ضرب) في القرآن الكريم عن كـون ذلـك الفهـم التراثي المؤسس لسلطوية الرجـل في مؤسـسة الأسرة مخـالف لـروح القـرآن الكـريم ولمبادئـه ومقاصـده وكلياتـه، فـالقول بإمكانيـة حمـل المـرأة عـلى المعـاشرة الزوجيـة بالضرب، كان يمكن تصوره في غير الشريعة الإسلامية التي تفتح المجال أمام المـرأة لطلب الطلاق، إن هي لمست سوء معاملة لها من زوجها، بل للخلـع إن هـي كرهتـه حتى دون تقصير منـه في حقهـا، وآيـات النـساء توجـه إلى ترتيبـات لتـسوية الخـلاف الزوجي دون تدخل من طرف ثالث بثلاث خطـوات: الـوعظ والهجـر في المـضاجع والضرب لاستعادة الوئام، وفي حال الفشل توجه الآيات الأزواج إلى التماس العون من الأهل المقربين في استعادة الود وإنهاء الشقاق.

ومعنى ذلك، أن كافة تلك الترتيبات القرآنية تهدف عـلى نحـو إيجـابي لاسـتعادة الآصرة الأسرية المتراحمة، وحتى إبـداء الغـضب في ظـل مثـل تلـك الترتيبـات يمثـل وسيلة إلى غاية هي تحريك الإحساس بجدية خطورة الشقاق، والحث عـلى الخـروج منه، ومما لاشك فيه أن الإيلام والإهانة لا يمكن أبدًا أن يؤديا بامرأة تعرف حقوقهـا وواجباتهـا إلى العـودة إلى الطاعـة، وصرف مفهـوم الـضرب إلى ذلـك لـيس وسـيلة

لإزالة الخلاف الزوجي.

ومن هنا يأتي الوقوف به عند رمزية الضرب بالسواك وما شابهه، كوسيلة لمجرد التعبير عن الغضب، والمعاتبة بالتوقف عن بث رسائل المحبة والتدليل، وهذا التأويل لا بأس به لكونه لا يهدم علاقة الكرامة والاحترام المتبادل بين الزوجين المتخاصمين.

ومن هنا يتبين عدم صحة ما قاله بعض الفقهاء من إمكانية ضرب الزوج لزوجته بما هو أدنى من العشرين أو الأربعين ضربة، ولم يغلق تأويل ابن عباس الباب أمام سوء التصرف وسوء التقدير في المسألة محل البحث، والمتدبر في المضامين الدلالية لمادة (ضرب) في القرآن يجد أنها وردت ست عشرة مرة بمعاني مجازية فيها معنى العزل والمفارقة والإبعاد والترك والدفع، ولم يستخدم القرآن مفردة (الضرب) حين قصد إلى الإيذاء البدني، بل استخدم مفردة (الجلد) فيما يتعلق بجريمة الزنا، وبجريمة رمي المحصنات؛ وبذا ينصرف مفهوم الضرب كوسيلة لتسوية الشقاق الزوجي إلى تجاوز الزوج هجر الزوجة في المضاجع إلى هجر بيت الزوجية، بما يعني حاجة الأسرة إلى تدخل طرف ثالث موثوق به في تسوية الشقاق، مع إشعار الزوجة بالعواقب التي يمكن أن تترتب على مواصلتها العناد من طلاق ومفارقة.

وخلاصة هذا التحليل أن مفهوم (ضرب) الزوجة يجب فهمه في سياق ترشيد العلاقة الزوجية ووضع أطرافها أمام مسؤولياتهم والعودة عن الشقاق والنزاع، بإجراء هو: الترك والمفارقة والاعتزال لمنزل الزوجية، وبالسنة النبوية ما يؤكد على هذا الفهم، فلقد اعتزل النبي ﷺ بيوت أزواجه شهرًا كاملًا، حين نشب خلاف بينه وبينهن لم ينفع فيه الوعظ، ثم خيرهن بين طاعته والرضا بالعيش معه على ما يرتضيه من العيش، وإلا انصرف عنهن وسرحهن بإحسان.

ولم يتعرض النبي ﷺ لأي من أمهات المؤمنين بأذى بدني، ولو كان الضرب

بقصد الأذى النفسي والبدني توجيها إلهيًا لكان النبي ﷺ أول من التزم به، ولكن النبي ﷺ لم يضرب ولم يأذن لأبي بكر وعمر بأن يعنف كل منهما ابنته لإغضابها لرسول الله، وأثمر هذا الهدي النبوي الثمرة المرجوة، حيث أدركت أمهات المؤمنين العواقب، وفاءت كل منهن لرشدها وعادت للرضا بالعيشة المرضية لرسول الله. (ص١٢٧-١٤٦).

(١٣) محاضرات بمركز الدراسات المعرفية بالقاهرة:

(أ) مفهوم التزكية في ا القرآن[١]:

يحدد أبو سليمان سر افتقاد روح البذل والعطاء والإخلاص رغم الثراء القيم لأمتنا الإسلامية، هو أن طبيعة الخطاب الديني لم تعد تتعامل مع الإنسان بوصفه كيانًا متكاملًا أخلاقًا وسلوكًا، والقرآن يحدد أصحاب الدرجات العلى في الآخرة بمن (تزكى)، وحدد مهمة النبي الخاتم بتلاوة الآيات على البشرية وتزكيتهم وتعليمهم الكتاب والحكمة وإخراجهم من الضلال إلى الهدى والنور.

ويبين القرآن الكريم أن لا قيمة للمعرفة ما لم تتحول إلى سلوك يتم من خلاله تنزيلها على الواقع المتغير زمانًا ومكانًا، وأن التزكية ليست مجرد عطاء مادي وعبادات فحسب، بل هي تربية وسلوك، فتعريف المكذب بالدين في سورة الماعون هو: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾، فالمكذب بالدين هو من يسهو عن قيمة الصلاة فيؤديها تأدية الغائب عن روحها[٢].

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. مفهوم التزكية في القرآن، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية، الموسم الثقافي، ١٩/ ١١/ ٢٠٠٨.

(٢) أبو سليمان، عبد الحميد. مفهوم التزكية في القرآن: القاهرة: مركز الدراسات المعرفية، ورقة في عشرين صفحة.

والمشكلة إذن كامنة في أن الخطاب الفقهي يحول القضايا إلى قضايا نظرية، ويختزل مفهوم العبادة في الشعائر والذكر، مع أن مضمونها هو تعبيد الأنفس لكل ما هو حق وصواب، بما يجنب المسلم الأنانية ويربطه بحمل هم أمته.

ومن هنا فإن أمتنا تحتاج إلى خطاب إسلامي صحيح يهتم بالتربية والسلوك وتعبيد النفوس للحق وللعمل الصالح والقول الصالح، ولا يقدم لها تلك التكليفات على أنها نوع من المعاناة والتضحية، بل على أنها مقتضى الفطرة الصحيحة المحققة للذات الإنسانية السوية وللتغيير الوجداني بالربط بين الهداية والفطرة، ودور الوالدين مهم في التربية، فهو أشبه ما يكون بمفتاح التشغيل للسيارة، فحسن تربية الوالدين للطفل تحققه التوعية الكفيلة بتغيير ما بالنفس باتجاه تنشئة الإنسان الصالح لخدمة أمته، وإذا لم ننته عن إخضاع العلم الاجتماعي لنظرة الفقه الضيقة وللأخذ عن الرؤية الغربية، ونوظف العلم الاجتماعي لخدمة الرؤية الكونية الإسلامية التي هي أساس العمل، ونستعيد رابطة الدين؛ فلن تتحقق التزكية، والخروج من أسر قانون الغاب السائد، وللكبار دور مهم في إخراج جيل ناضج يعلم الصواب بما قد يحسن سلوكه، إلا أن الطفولة هي التي تصنع معدن الإنسان نفسه، والناس معادن.

ويحتاج التغيير إلى وقت يتم عبره تصويب المفاهيم، والتحول من المعرفة إلى تجسيدها في أرض الواقع، ويتطلب ذلك إعادة توجيه دور الوالدين ودور التعليم والإعلام بمنظومة القيم الدينية والرؤية الإسلامية الكونية الحقة، باتجاه بناء الوعي بأن المادة ليست هي كل شيء، فالأهم هو بناء الإنسان السوي القانع (ص١٢-، ص١٥، ص٢٠).

(ب) **نماذج في دراسة النص في ضوء سنن الفطرة وتغيرات الواقع الاجتماعي**[(١)]:

لمقاربة هذا الموضوع طريقان، **أولهما**: بيان العلاقة بين العلوم الاجتماعية وفهم النصوص، و**ثانيهما** ضرب أمثلة مع التدبر في كيفية التعامل معها من مدخل المعرفة الاجتماعية، ويفضل أبو سليمان البديل الأخير، ويطرح الإشكاليات التالية:

١- **العقوبات الإسلامية**: يتعامل الواقع معها من خلال نقد منطوقها التراثي، ويرى فيها غير الملم بالشريعة الإسلامية وبروحها عنفًا وبدائية، وتوظف بعض الأنظمة الحدود الإسلامية بالفعل لترهيب الناس، وبتدبره في أفضل وضعية ممكنة لإعاشة الطلاب في المدينة الجامعية بالجامعة الماليزية، رأى أن الوضع الأكثر قدرة على تحقيق الراحة الاجتماعية هو سكنى كل أربعة طلاب معًا، وهذا الوضع مستقى من الجمع بين قراءة معرفية اجتماعية لحديث نبوي يقول فيه النبي الخاتمﷺ فيما أخرجه الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَنَاجَ اثْنَانِ دُونَ الْآخَرِ حَتَّى يَخْتَلِطُوا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ**».

فعند وجود الأربعة لن يكون أيهم وحيدًا، وإذا اختلف اثنان فسيكون هناك طرف ثالث يحكمونه، وإذا اتفق اثنان فمن الممكن أن يتفق الاثنان الآخران، ويكشف ذلك عن الحكمة في جعل الشهود في إثبات جريمة الزنا، المعللة عقوبتها بالنص بعدم شيوع الفاحشة بين الناس، أربعة وليس اثنان؛ وبذا يتبين أن عقوبة الزنا لا تستهدف شخص الزاني بل نقاء المجتمع من استشراء الفاحشة فيه.

وهكذا تتوجه الحدود الإسلامية صوب حفظ الفطرة الإنسانية، وتحقيق الأمن الاجتماعي، ويؤشر هدي الصحابة رضوان الله عليهم، على وجوب تجنب التجسس

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد أبو سليمان. نماذج في دراسة النص في ضوء سنن الفطرة وتغيرات الواقع الاجتماعي، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية، ٢٧/ ٩/ ٢٠٠٩. محاضرة في ١٧ صفحة.

والتلصص، وتتبع عورات الناس، فذاك يعوق الأمن الاجتماعي ولا يخدمه بأي حال من الأحوال، ففي ذلك حتى في وجود خطيئة بالفعل، دفع لمنكر بما هو أشد منه.

ويستبطن هدي عمر بن الخطاب حين رأى أن الحجة قد لزمته حين تسور على قوم يتعاطون الخمر، فقالوا له إنهم ارتكبوا خطيئة وارتكب هو ثلاث خطايا، فهم تعاطوا محرمًا، وهو تسور ولم يدخل من الباب وتجسس، ولو كان ﵁ وجد فعلتهم هذه التي يفعلونها في خفاء تضر بغيرهم كأن يكون قد ضبطهم في تلبس بسرقة أو قتل لأوقع العقوبة عليهم، فمن الحدود ما يتعلق بالطبيعة البشرية، ومنها ما يتعلق بالأمن الاجتماعي.

والحدود الإسلامية بذلك، لدى التدبر الصحيح فيها هي مجرد عقوبات رمزية، فالحد ليس مقصودًا لذاته، ومن المهم مراعاة تنزيل القرآن تنزيلًا صحيحًا على الواقع، والإسلام يحث على سبيل المثال على العفو في القتل ويعتبر القصاص هو الحد الأعلى المتاح، ويؤكد على دفع الحدود بالشبهات، وهو يحدد سقفًا للجرائم بما فيها الحرابة؛ لأن غايته هي الوقاية من الجريمة وليس الانتقام.

وهكذا تتضح أهمية فهم النصوص من مدخل العلوم الاجتماعية، أي من خلال العلاقات الاجتماعية لإدراك حكمة النص، وما نسميه الثقافة الاجتماعية وفهم الطبيعة البشرية وتغيراتها بتغير الزمان والمكان والخلفيات يساعد على فهم النص وعلى توجيه النص للفعل الإنساني، فيما لو التزمنا بمحددين منهجيين: الفهم العلمي للواقع، وعدم تجزئة النص القرآني والنبوي، وعلى سبيل المثال ثمة أحاديث نبوية يبدو من ظاهرها أن الإسلام ينهى في حال الفتنة عن الدفاع عن النفس وعن مقاومة الظلم والظالمين، ولو قرئت تلك النصوص في ضوء سيرة النبي ﷺ ومجريات واقع الأمة بعد العهد النبوي لتبين حالها.

فالنبي الخاتم ﷺ واجه حالة فتنة وصراعًا سياسيًا طيلة فترة النبوة، وهو يحذر

مما سيقع حين يسيطر الأعراب من بعده وتكون لهم الغلبة بما يغير القاعدة السياسية للأمة، فما حدث هو تحويل الفكر الإسلامي من خطاب شامل للفرد والأمة، إلى ما يشبه قانون الأحوال الشخصية، حيث نأى الفقهاء بأنفسهم عن الحياة العامة الاجتماعية والتزموا المساجد، وكثرت المرويات التي منها الصحيح وغير الصحيح، واستحكم التقليد، وبات الفقه يطالب بالالتزام بمقولاته وكأنه سنة مع القرآن والسنة النبوية.

فإن جمعنا بين فقه الواقع في كليته على هذا النحو، فقه النصوص الشرعية، فإن المفتاح الأول الذي سنجده بين أيدينا هو أن الله تعالى بين لنا أنه حفظ القرآن بنفسه ولم يترك حفظه لأحد، ولكنه لم يقل ذلك بالنسبة للسنة النبوية، وبالتالي فإن فهم السنة وتنزيلها على الواقع يجب أن يكون مضبوطًا بالقرآن، وخلاصة السنة النبوية هي التأكيد على السلام المجتمعي في دار الإسلام، وعلى علاقة سلمية تعاقدية مع المجتمعات الأخرى، لا موضع للحرب في ظلها إلا في مواجهة من يأبى السلم والدخول في علاقة تعاقدية، ويصر على العدوان المسلح، والمتدبر في مقارنة ذلك بما عليه الغرب في لحظة سيادته الحضارية الراهنة يجد أنه يطبق في مواجهة الداخل الغربي قانون التعايش السلمي، بينما يطبق في مواجهة الآخر قانون الغاب المجرد من القيم والدين والأخلاق، وفي حين ينطلق المنظور الإسلامي من إنسانية الإنسان ووحدته ومن البحث عن المشترك الإنساني، يتبنى المنظور الغربي المنظور الحيواني الباحث عن الفارق والصانع له، بما في ذلك من عدوان على كل من الدين والفطرة الإنسانية.

ولتحديد العلاقة بين الفطرة والنص، نجد أن الفطرة قابلة للاستواء وللعطب، ويمكن أن يكون فيها جانب سوي وآخر غير سوي، ودور النص هو ترشيدها، وعدم فهم الفطرة الإنسانية يحول دون إدراك دلالة النص، وعدم إدراك النص على الوجه الصحيح يحول دون ترشيد الفطرة به، ومن هنا فإن العلاقة جدلية بين النص

الموحى به والفطرة الإنسانية، والجمع بين حسن فهم الفطرة وفهم النص ضروري، ولباب العلوم الاجتماعية هو: الفهم العلمي للواقع الاجتماعي مع الوعي بالخلفية الثقافية. ولباب تنشئة النفس الإنسانية السوية هي الجمع بين فهم النص: أولويات الشريعة والقيم والمبادئ، والواقع الثقافي، والمنطق العلمي الذي لا موضع فيه لا للخوارق ولا للخرافات، ووزن هذا كله بالقرآن لكونه هو المصدر الوحيد الموثق والمتواتر، وعند الجمع بين هذه اللبنات ينطلق خط فكري مقنع وبسيط: القرآن كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه محفوظ بحفظ الله له يدعو إلى الخير والعدل والإحسان، وحق كل ما يتعارض مع هذا الميزان هو الرفض، والنبي الأمي هو الشخص الذي أتى بهذا النور الرباني، وبالتالي فإن من اليقين أنه صادق أمين، وكليات القرآن ومقاصده حاكمة للجزئيات ولابد من البحث في الثقافة الاجتماعية للأمة، ويحتاج من يتصدر لبيان تعاليم الدين إلى الوعي بهذا الخط المعرفي والالتزام به، بالجمع بين المعرفة بالشرع وبالواقع الاجتماعي. (ص١-١٤).

(ج) **سيمنار بين الأصحاب والأعراب عن الروية الكونية القرآنية**[1]:

في التعريف بتلك الدراسة في مستهل هذه الحلقة العلمية، يكشف أبو سليمان عن خبرته في إعادة بناء المفاهيم الإسلامية، من مدخل السعي إلى استخلاص مبادئ عامة من قراءة سياقية لجملة الآيات والأحاديث النبوية التي تتعلق بمفهوم معين، مع استحضار فقه الواقع المكاني والزماني، وتجنب تجزئة النصوص والفهم الحرفي لها بالتركيز على المقاصد الكلية والرؤية الكونية القرآنية، وعدم الوقوف عند بناء المفاهيم من مضامينها اللغوية المعجمية، وتحري الربط بين الدراسة الشرعية

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. سيمنار علمي حول: بين الأصحاب والأعراب: عن الرؤية الكونية الحضارية المنطلق الأساسي للإصلاح، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية، ١٤/ ٢/ ٢٠٠٨. ورقة تقع في ٣٩ صفحة يخص الدكتور عبد الحميد منها زهاء عشرين صفحة، والباقي تعقيبات.

الدينية، والواقع المهني الحياتي العقلي والوجداني، ورصد الآثار التي ترتبت على الانحراف الفكري على نفسية الأمة وعقلها ومناهج تربيتها وشبكة علاقاتها، وبدأ في ستينيات القرن العشرين بمفهوم (الاقتصاد الإسلامي).

وعبر الالتزام بهذه الموجهات المنهجية، تبين له أن بعض ما يفتخر به علماء الاجتماع المسلمون فيه من المنظور الوجداني ما هو صواب وما هو خطأ، من ذلك على سبيل المثال: التباهي باحتكاك أمتنا في لحظة تألقها الحضاري بالحضارة اليونانية ونقل الكثير من معارفها، فذاك الاحتكاك حين يعاير بالرؤية الكونية القرآنية، يعتبر مدمرًا ومشوبًا بكثير من المآخذ، فلقد أدى إلى انحراف حاد في توجه الحضارة الإسلامية، فهو احتضان لحضارة مادية كانت قد ماتت، فأحييناها بكل ما تحمله من هرطقة، وأخذنا عنها المنطق الصوري، الذي كان هو باب مقولة الصراع بين العقل والوحي، وتحولنا من التفكير للواقع العملي إلى الغرق في البحوث النظرية المجردة، بدل تحقيق جوهر مفهوم التوحيد بالنظر في تناسق الكون ووحدته وغائيته وأخلاقيته والتكامل بين الإنسان وكل ما بالكون.

فالنظرة المادية غير المستنيرة بنور الوحي المنزل تجعل الإنسان بمثابة إله، وتجعل عقله حكمًا على كل شيء، فتشوه كل ما في الوجود، فمفهوم التوحيد يعني وحدة المصدر وأن للخلق غاية وأخلاقية، وأن العلاقة بين الفطرة والشريعة والسنة متناغمة، وأن تحريك الطاقات البشرية يتم بالإقناع الحر أكثر مما يتم بلغة التكليف بجفاء، فالحرية الإنسانية هي الأصل، وجوهر الرؤية الإسلامية ليس إنكار الذات الإنسانية بل تحقيقها، والثمرة النهائية للروح التوحيدية هي العلمية والعالمية والتعارف بين الأمم.

وفي مقابل بحث العنصرية الغربية عن الفارق واختلاف التضاد، يؤكد الإسلام على اختلاف التنوع المستحضر دائمًا لوحدة أصل الإنسان، بما يجعل للاختلاف غاية

أخلاقية عمرانية، فالتنوع آية من آيات الله في الكون يتعين أن لا تكون وسيلة لنظرة استعلائية، بل لحلقات من الولاءات الإنسانية المتحاضنة، فحين يرى الإنسان أن الآخر ينتمي إليه ويماثله لا يكون هناك صراع بين الشعوب ولا تناقض، ولا جرأة نفسية على قتل الآخر أو التصارع معه بمنطق الفلسفة الغربية المادية الحيوانية القائم على فلسفة الغاب والبقاء للأقوى.

ومع أن القومية ظاهرة تعود إلى فجر التاريخ، فإن اتخاذها أساسًا للدولة وللتنظيم السياسي في العصر الحديث، قلب موازين التنظيم الإنساني حيث جعله مبنيًا على العرق، وفي حين كان من يكتب من منطلق ديني يقرر أن العدل أساس الملك، بات من يتكلم عن العدل والحق في عداد من ينظر إليه على أنه مخطئ، من المنظور السياسي الحديث الذي يقوم على حق القوة والاستعمار وتهميش الأخلاق واعتبار الشذوذ سلوكًا طبيعيًا، فتغييب الأساس الديني للتنظيم الإنساني يغيب معه المنطلق الروحي للعدل الذي يقوم على الوعي بأن العدل جوهري حتى لو على النفس، وأن الإنسان مخلوق من طين وروح، وقانون التظالم في الشق الطيني الذي يشاطر الحيوان فيه الإنسان هو قانون الغاب وحق القوة.

فحين تقوم النظرة الإنسانية على التماسك الحيواني للسلالة مع بعضها ضد الغير يأكل القوي الضعيف، ويصير مرجع الأخلاق تابعًا للهوى العرقي، وتسود الفوضى الأخلاقية، أما قانون الروح فيقوم على: قوة الحق، فللحضارة الإنسانية منطلقان، مادي وروحي يولدان نوعين من الحضارات: حضارة مادية تقوم على الخوف وعقلية الترف التي تقسم البشر إلى سادة وعبيد، وتغرقهم في المنطق الصوري الفلسفي، وحضارة روحية تقوم على الحب، وتعي أن لكل شيء في الوجود مبني وفق منظومة الكون من الذرة إلى المجرة، يعجز الإنسان عن التعامل معها على نحو صحيح ما لم يفهم طبيعتها ويتناغم معها، وخبرة تفاعل أمتنا مع الفكر اليوناني تبرهن على خطورة التفاعل العشوائي.

ووحده التعبيد لله بإرادة إنسانية حرة هو مفتاح استعادة الإقلاع الحضاري للأمة، (ص١-١٣) .

ومن متطلبات التعبيد لله التفرقة بين الدعوة والدولة، فالدولة مصالح وكيان وحرب وسلام. أما الدعوة فهي ساحة حرية لإبداء رؤية؛ لذا ينبغي عدم الخلط بين الدعوة والدولة في تعامل المسلم مع الآخر، فالعداء بين الدول وارد، في مقابل إمكانية أن تؤدي الدعوة إلى الإسلام على بصيرة إلى دخول الناس فيه أفواجًا. (ص١٦).

(د) العقيدة الحضارية: البعد المفقود في رؤية الأمة وبرامج تطورها[1]:

سؤال هذه المحاضرة هو: لماذا تخلفت الأمة التي أخرجت للناس لتقدم لهم مفاهيم جديدة في عالم العالمية، كمبدأ التوحيد والاستخلاف والسببية؟ هذا التخلف هو ثمرة أخطاء متراكمة عبر التاريخ نجمت عن إشكالات إنسانية واجتماعية، وأدت إلى تهميش تلك الأمة وتحول المسلم من الريادة والعمل، إلى الاكتفاء بمجرد البقاء على قيد الحياة حتى يوافيه الأجل، وبات المسلمون حاليًا أقرب ما يكونون لرجل بيده كتيب تشغيل آلة أمامه، وهو يقرأ فقط دون أن يحاول تشغيلها، وهو ما لا يليق بأمة اقرأ، المفترض فيها أن تكون أمة المعرفة والعمران.

والسؤال الذي يطرحه هذا الوضع هو: ما هي مفاتيح التغيير حتى تعي الأمة واقعها وتتحرك نحو الواقع الممكن المأمول؟ المفتاح الرئيس للتغيير الذي تحتاج الأمة إليه هو: تدبر معاني القرآن ومقاصده؛ لتحقيق: الإصلاح العقيدي النفسي الفكري، فالإسلام عقيدة إعمار واستخلاف، وثمن الفهم غير الصحيح للعقيدة باهظ، ولا أمل في تصليح الخلل بدون تداركه، (ص١-٤).

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. العقيدة الحضارية: البعد المفقود في رؤية الأمة وبرامج تطورها، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية، ١٦/ ٥/ ٢٠٠٥، محاضرة في ثماني صفحات.

ودور المعهد العالمي للفكر الإسلامي هو السعي إلى تنشئة صناع للفكر يحللون جذور أزمة الأمة ومضاعفاتها على نحو علمي منهجي، بوصفها قضية أمة، والحضارة الإسلامية مادة وروح بما يجعل القوة للحق. (ص٨).

(هـ) القرآن وإعادة بناء وعي الأمة[1]:

القرآن هو المنطلق للوجود الإسلامي الحضاري على مدى التاريخ، وبقدر الالتحام بين الأمة والقرآن يكون اقتراب الأمة من الرؤية الكلية لعهد الصحابة، ومن المؤسف أن حال الأمة وصل في كل المجالات إلى تغييب تلك الرؤية لصالح رؤية هاجرة للرؤية القرآنية ولمفاهيمها وقيمها الحاكمة.

وسؤال الرؤية الحضارية هو: من نحن؟ وماذا نريد؟ وأمتنا لا تعرف: من هي وماذا تريد؟ وهذا هو سر تمزقها وسلبيتها الراهنة، والإسلام جاء ناظرًا للإنسان في كليته، ومن هدي أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا على وعي تام بالقرآن، يقرؤونه كل عشر آيات لا يغادرونها حتى يفهموها ويعملوا بها، وأمامهم النبي ﷺ الذي هو خير نموذج للمربي القدوة، ويفهمون القرآن على وجهه الصحيح وبروحه التي تربط الفلاح بتجسد الشعائر في المعاملات وفق رؤية كلية جامعة قرآنية المنبع والميزان، ولا يوظفون الدين لخدمة السياسة، ويرون أن العلاقة بين المرأة والرجل ليست علاقة تماثل بل تكامل، ولعل في تخبط الحضارة الغربية بشأن الأسرة والمرأة دليلًا صارخًا على فحش الرؤية الكونية للحضارة الحيوانية المادية المعاصرة وتشوهها.

فالاختلافات الجوهرية العضوية والنفسية في تكوين المرأة والرجل ليست عبثية، بل لها غاية، وهدرها ألحق ضررًا بالغًا بالمرأة والأسرة والطفولة، بتهميش منظومة الحقوق والواجبات المؤسسة على الفطرة السوية، وتغييب الطابع التكاملي

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. القرآن وإعادة بناء وعي الأمة، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية، ٨/ ٥/ ٢٠٠٧.. محاضرة في عشر صفحات .

الغائي الأخلاقي للعلاقة بين المرأة والرجل، بما يستدعيه من مفاهيم المودة والرحمة والسكن والمعروف والإحسان، ومن هنا تمس الحاجة إلى إزالة الغبش الذي لحق بالرؤية الكلية القرآنية، ومقاربة مفهوم العلاقة بين المرأة والرجل من منظور كلي يستدعي منظومات الحقوق والواجبات المتبادلة بينهما في كل المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتربوية، وعدم تقزيمها في العلاقة الزوجية المباشرة بينهما.

وخلاصة القول أن الرؤية الكونية القرآنية الحضارية، رؤية توحيدية إعمارية غائية أخلاقية خيرة ترشد الفطرة السوية وتفعلها، بنهج علمي سنني، يسعى إلى تحقيق الحياة الخيرة في الدارين، والأمة جزء في هذه الرؤية من فطرة الوجود الإنساني التي يتكامل في ظلها الوجود الفردي والجماعي. (ص١-١٠).

الفصل الثالث عشر
الأدب الحضاري الأمتي

الفصل الثالث عشر
الأدب الحضاري الأمتي

تضم الحقيبة المعرفية للدكتور عبد الحميد أبو سليمان ثلاثة أعمال أدبية إسلامية، في الفكر الإبداعي التعليمي والتربية العقائدية والاجتماعية، للصغار والكبار، تدور حكاية أولاها الموسومة (**جزيرة البنائين**) بشكل رمزي على لسان الحيوانات، مبينة كيف أدت السلبية والفرقة بالحيوانات الأليفة إلى استئساد الحيوانات المفترسة عليها، وتحويل حياتها إلى جحيم لا يطاق، وكيف استطاعت الحيوانات الأليفة بالعمل الجماعي المنظم أن تستعيد حريتها، وتقهر قوى البغي، وتحكي هذه القصة تاريخ الشعوب والأمم على ألسنة الحيوانات محاكية كتاب (كليلة ودمنة) مبينة أن أبشع داء يمكن أن يصيب أمة من الأمم هو الاستبداد، حيث إنه يورث الفرقة والفساد، وأن الشورى والعدل هما أساس نهضة الأمم، وأنه لا يعدل الأسرة والتربية الأسرية والتنشئة الحضارية للأجيال، شيء في بناء الأمم وازدهارها الحضاري.

وتمثل القصة الثانية التي تحمل عنوان (كنوز جزيرة البنائين) تكملة لها نواتها هي بيان معالم طريق استعادة الأمة، وتأسيس الأمة النابعة منها: أمة مؤسسة الشورى، وهو الهدف الذي تكشف عنه الرواية بصراحة ودون مواربة في مقدمتها وفي ملاحقها، وتؤسس له برمزية أدبية من بدايتها إلى نهايتها، وتطرح هذه القصة على المربين والناشئة والآباء والأمهات قضايا الأمة الاجتماعية، ومعالم الطريق إلى إعادة بناء الرؤية الكونية للأمة على هدي من الرؤية الكونية القرآنية الحضارية الكلية، وحكمة التطبيقات النبوية على واقع عهد الرسالة، وإزالة ما لحق بثقافة الأمة وفكرها من تشوهات في عصور الجمود والتخلف، وكيفية تجسيد تلك الرؤية في السلوك الأسري والتربوي والدعوي والاجتماعي والسياسي.

أما القصة الثالثة فهي قصة تربوية قصيرة للصغار والكبار، مفتاحها هو التنبيه إلى فرادة الإنسان من بين سائر المخلوقات، بدليل بسيط يبينه عنوانها بكل عمق

(القرد الذكي لا يعرف الحساب)، وغايتها هي غرس نواة الرؤية الكونية الإنسانية الإيمانية السليمة في الطفل من الصغر.

(١) **القرد الذكي لا يعرف الحساب**[1]:

يهدي أبو سليمان هذه القصة إلى كل أسرة يتواصل كبارها وترعى صغارها بالحب والتضحية والعلم والمعرفة، ولكل مرب ومعلم يؤدي أمانة العلم والمعرفة لأطفال الأمة، وإلى والديه وكل والدة ووالد يضعون صغارهم على طريق الشرف والإخلاص والأمانة والعزة والقدرة والعطاء (ص٦).

ويختمها بكلمة إلى الآباء والأمهات يدعوهم فيها إلى العناية بأسئلة أبنائهم البدهية المهمة، وبالعلاقات الأسرية والمعرفة التربوية، وتوفير وسائل التعليم والتربية للأطفال وخاصة مكتبة الأسرة التي يجد فيها الأبناء من طفولتهم ما يغرس فيهم حب الاطلاع ومعرفة قيم الخير والصلاح.

ويقول: (البيت الذي يستهين فيه الآباء والأمهات بالمعرفة التربوية ويغفلون عن قيمة الكتاب والمكتبة المنزلية الغنية بالكتب المفيدة والقصص الممتعة الهادفة، فإن هذا البيت أو هذه الأسرة هي الأقرب إلى عش الخراب وهي الجاني الأول على الأبناء، وستتحمل هذه الأسرة المهملة النصيب الأكبر فيما ستصير إليه حياة هؤلاء الأبناء من قصور وانحراف) (ص٥٠).

وتبدأ تلك القصة بمشهد للأطفال يتفرجون على ألعاب القرود (الطفل بحاجة إلى الترويح والانفتاح على المخلوقات الأخرى - هناك من مهمته تلهية الأطفال ويقتات من ذلك ويتخذ من ذلك مهنة له - وهناك بالمقابل أسر توفر لأطفالها مكتبة يحقق من خلالها الطفل الترويح مع التقاط حكمة الأجيال التي تختزن في قصص

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. القرد الذكي لا يعرف الحساب، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٥.

يحوي الحكمة.

ومما يعزز الثمرة المرجوة من تنشئة الطفل على القراءة، تشجيعه على سؤال والديه عن كل ما يدور بخلده من أسئلة من خواطره ومما يقرأ، وصورة الطفل الذكي كما تقدمها هذه القصة هي: نور المحبة للقراءة التي تسأل والديها، اللذين يهتمان بالتعاون فيما بينهما للإجابة على استفساراتها

السؤال الذي وجهته الطفلة لامها: من خلق النجوم الكثيرة التي في السماء؟ الإجابة: الله وهو خالق كل شيء، ويأتي سؤالها: ومن خلق الله؟ فتحتار الأم في الإجابة (أسئلة كثيرة يباغت بها الطفل والديه لم يكن قد دار في خلدهما أنه سيسألها)، الأم تفكر في إجابة شرطها هو، أن تكون مفهومة لابنتها الصغيرة - تحيل الأم ابنتها على أبيها؛ لتطلب منه الإجابة عن سؤالها معللة ذلك بأنه أعلم منها بهذه الأمور (القيمة هنا: لا عيب في أن يكون الإنسان حتى الكبير لا يعرف، العيب أن يتكلم بغير علم).

ومما يرفع من مقام المرء أن يحيل إلى من يرى أنه أعلم منه، مناخ توجيه السؤال: علاقة ود وحنان بين الأب وابنته، وهي في حضنه تحكي له ما سألت أمها عنه، وما أجابتها به، وأنها طلبت منها الإجابة على سؤالها: من خلق الله؟. طريقة إجابة الأب على السؤال: وصف السؤال بأنه ذكي ومهم - أجلسها على المكتب - قال لها السؤال يحتاج لتفكير عميق، فأحضري لي كوبًا من الماء وسأجيبك عن سؤالك؛ ليعطي نفسه فسحة من الوقت للتفكير في إجابة مقنعة وأسلوب سهل.

قال الأب: إننا نعلم أن الله خلقنا وخلق كل شيء، ولكننا لا نستطيع أن نعرف ما هو الله، اعترضت على الإجابة وسألت عن السبب في معرفتنا أن الله خلقنا وعدم معرفة من خلق الله.

تسلسل الإجابة: هل تظنين أننا نعلم كل شيء؟ الإجابة: لا. هذا غير ممكن،

أجاب نعلم أن الله خلق كل شيء وأعطانا كل شيء، ونعلم أننا لا نعلم كل شيء، ولا نستطيع أن نعلم ما هو الله؛ لأنه لا يمكن أن يكون مثلنا.

لم يكتف الوالد بصمت ابنته، بل بادر بمزيد من الشرح، واستدل على الله بالتأمل في مخلوقاته، سألها عن القرود في الحديقة وهي تلعب: هل هي ذكية أم لا؟ أجابت بأنها ذكية ومسلية وتحبها وتركها تستفيض في الحديث عن استمتاعها بألعاب القرود في السيرك وبما تقوم به من ألعاب يطلبها منها القرداتي، ثم سألها: هل تظني أن أي قرد يستطيع أن يفهم كتاب حساب تفهمه هي؟ فردت بالنفي، فالحيوانات لا تعرف الحساب، سألها: هل عدم معرفة القرد الحساب تجعلنا نعتبره غبيًا؟ قالت لا. هو لا يعرف الحساب لكنه ليس غبيًا. سألها: أنت الآن صغيرة وأنا كبير: هل تعلمين كل ما أعلمه؟ وهل تستطيعين أن تفعلي كل ما أستطيع أن أفعله أنا الآن؟ قالت: لا. سألها: لكن هل يعني هذا أنك لست ذكية ومحل إعجابي وإعجاب مدرساتك، وأجاب هو بأنها ذكية وعليها أن تصبر وتتعلم وقد تتفوق عليه في العلم والعمل، نحن كالقردة في عدم معرفة كل شيء رغم ذكائنا وقدراتنا، وعلينا أن نصبر حتى يأتي الوقت الذي نعرف فيه ما لا نعرف الآن، ويكون ذلك حينما نموت ونذهب إلى عالم الأرواح في الآخرة.

(حين دعت الأم الأسرة إلى الطعام، أخذ الأب بيد ابنته وجلست الأسرة على المائدة، حرص الأب على الثناء على الطعام الذي أعدته زوجته أمام أطفاله مع أول لقمة وضعها في فمه، نشيد الطعام في حلاوة الطعام وقلب الأم وروحها وحلاوة الأب – عادة التهامس بين الإخوة على الطعام).

تبدأ الصغيرة من حيث انتهى أبوها، وتقول لأخيها أن أباها أخبرنا بأننا حين نموت سنذهب إلى عالم الروح، وسألته: هل تعلم ما عالم الروح؟ تشاورت هي وأخيها في سؤال والدهما عن عالم الروح (التراحم في غرفة الجلوس الأسرة

والعمة)، والأب يجيب على سؤال نور: نور تبدأ سؤالها بتلخيص ما عرفته من أخيها عن انتقال الأرواح إلى الله بعد الموت.

الأب يقدم أمثلة مشهودة من الواقع لتقريب ما هو من عالم الغيب، ضرب مثلًا بالشجر الذي نزرعه وما يحمله من أزهار وثمار، وقال لأبنائه: اعتبروا أنفسكم مزارعين واشرحوا لي ماذا يفعل المزارع ليحصل على الثمار والزهور، سألت نور أمها: نأتي بالبذور وندفنها في التراب ثم نسقيها بالماء فتنبت وتنمو وتمتد أغصانها وتخضر أوراقها، وتزهر ثم يصبح الزهر ثمارًا، الشجرة تنمو مما تمتصه من الطين والماء، وبعد طول عمر تموت ويزرع الناس شجرة غيرها، فالأشجار تعود ترابًا.

ونحن البشر مثل الشجرة والطيور والحيوانات نموت وتفنى أجسادنا في التراب، ولكن في الإنسان وهو جنين في بطن أمه نفخة من الروح التي هي من عند الله، وهذا هو ما يميز الآدميين عن بقية المخلوقات، وحين نموت ندفن وتفنى أجسادنا أما الروح التي في بذرتنا بعد أن نموت فتذهب إلى عالم الروح عند الله تعالى.

ونفخة الروح هذه كرم الله بها بني آدم هي مصدر انفرادنا بالعقل والضمير والقدرات، وحين نصير في عالم الأرواح سنعلم ما لم نكن ندركه في الدنيا. فنحن مثل الصغار الذين لا يعرفون الحساب قبل الذهاب إلى المدرسة، فنحن في الدنيا مثل القرود أذكياء لكننا لا نعرف الحساب، وعلينا أن ننتظر حتى نموت ونذهب إلى (مدرسة عالم الروح عند الله) حتى نستطيع أن نرى ربنا ونرى عالم الروح ونعرفه، وهناك ستكون أبصارنا قادرة على رؤية الله الذي ليس كمثله شيء بجماله وبهائه وكماله، نراه بقلوب فرحة ووجوه نضرة .

ثم توجه الأب إلى أبنائه: علينا أن نشكر الله الذي كرمنا بنفخة الروح، وبذلك يمكننا فعل الخير والعدل وعدم فعل الشر والظلم، ثم وجههم لتطبيق حبهم للخير والعدل في تعاملهم مع زملائهم في المدرسة، والاعتذار عن ما قد يحدث منهم من

إساءة لأحد دون قصد، وإذا حدث ذلك من أي أحد آخر ضد أي واحد منهم فعليه أن يعتذر لهم، فإن لم يفعل فليشكه للأستاذ وهو الذي يأخذ الحق لهم ويعاقبه، ولا يأخذوا حقهم بيدهم، ونصحهم بتجنب الغش؛ لأن الغش يضر ولا ينفع في الدنيا ولا في الآخرة، وجاء في صحيح مسلم أن الرسول ﷺ قال: «**مَنْ غَشَّنَا، فَلَيْسَ مِنَّا**».

ثم بين لهم أن الله الذي كرمنا ونفخ فينا الروح سيحاسبنا على أعمالنا في الدنيا، وعن استخدامنا لعقولنا وضمائرنا في الخير أو في الشر، والكرام الصالحون مثل الجواهر الثمينة لهم الكرامة، والفاسدون الظالمون مثل القمامة التي تحرق في صناديق النفايات، وإن شاء الله سنكون من الصالحين إن أطعنا الله وفعلنا الخير، والموت ليس نهاية لوجودنا بل لانتقالنا إلى عالم الروح الجميل بإذن الله.

تربية الأبناء على حب الله، هم يصلون؛ لأنهم يحبون الله، ثم وصاهم بالدعاء في صلاتهم فالله يراهم ويسمعهم، وعرفهم أنه هو وكل الصالحين يدعون لأنفسهم ولآبائهم وإخوانهم وأولادهم وأخواتهم ولكل من يحبون، لعلمهم أن من يموتون أحياء في عالم الروح ويفرحون بالدعاء لهم

الأطفال أعدوا نشيدًا تعاونوا جميعا في نظمه، واستأذنوا أباهم في إلقائه معًا، كلماته بسيطة، يدعون فيه الله تعالى بأن يكرم والديهم ويسعدهم ويرحمهم هم وكل المسلمين وكل الناس.

ختم الموقف بقول نور لأبيها (المهم أن نعمل الخير في حياتنا سعداء في الدنيا وفي الآخرة إن شاء الله) ثم قالت لأمها أنها أدركت أنها بعد الموت لن تكون مثل القردة الذين لا يعرفون الحساب، بل ستعرف كل شيء، وستسعد في عالم الروح مثل كل الصالحين، وستفرح بكل عمل طيب عملته في الدنيا، وستكون مع الله الذي يحبها وتحبه، إنه لأمر حلو وجميل أن نذهب إلى عالم الروح، وسنجد كل شيء جميل؛ لأننا

سنعيش إن شاء الله في هذه الدنيا طيبين صالحين ومخلصين (ص٧-٤٨).

ومن البدهيات العقلية أن من ليس كمثله شيء لا يمكن تصوره، ويختم بشواهد قرآنية على وجوب عمومية الرحمة والتراحم، ووجوب الرحمة حتى بالحيوان الأعجم (ص٥٢-٥٣).

(٢) جزيرة البنائين[1]:

يقوم معمار هذه القصة التعليمية في الفكر الإبداعي والتربية العقائدية الاجتماعية على الانطلاق الرمزي من وضعية أمة صارت نهبًا لتفرقها ولافتراس أعدائها لها؛ مما جعل حياتها جحيمًا لا يطاق، وظل في تلك الأمة من يبذل قصارى جهده لتحذيرها من المخاطر الخارجية، وهي منقسمة بين تيار غالب يسيء الظن به ويتشاءم منه ويصدق الصورة النمطية التي رسمها أعداء الأمة له، وقلة تُقيمه في ضوء ما يقوم به بالفعل من أعمال أنقذت عناصر منها من افتراس العدو له.

وهنا يكمن مفتاح التغيير، حيث شكرت تلك القلة من يسهر حاملًا هم أمته، ويحذر من يتعرض منها لخطر خارجي، وأقرت له بالفضل، وبأنها ستجتهد هي الأخرى في تغيير صورته النمطية التي رسمها العدو لجعل أمته تنفر منه وتتجنبه ولا تصغي إليه وتتشاءم منه.

وهنا بين ذلك الساهر على أمن أمته إدراكه لعدم كفاية جهده هو مع بقاء أمته نائمة ومتفرقة، وأن بوسع الأمة إن التقت كلمتها على نحو مخطط أن تستعيد كرامتها وعمرانها وحضارتها، وتدفع كيد خصومها عن واديها، وتحولها من (جزيرة مشتتين خائفين) إلى (جزيرة بنائين متحابين مرهوبي الجانب).

واللبنات التي يمكن تحقيق ذلك بها تبدأ باستكشاف الطاقات الكامنة في كل

---

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. جزيرة البنائين، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٣، قصة تعليمية في الفكر الإبداعي وفي التربية العقائدية والاجتماعية، تقع في ٣٦٠ صفحة.

مكونات الأمة وتفعيلها، وسبيل ذلك الاستكشاف والتفعيل هو: المشاركة في دعوة كل مكونات الأمة للمساهمة عبر الشورى الجماعية المنظمة في تقويم الوضع وتشخيص الداء، ورسم خريطة الدواء، والسؤال الذي بات مطروحًا هو: كيف يمكن تطوير فكرة إبداعية عامة طرحها أحد مكونات الأمة لتغيير حياة الوادي، بتفكير علمي سنني؟.

نقطة البداية في الإجابة على هذا السؤال هي: كيفية التحول من وضعية الفرار من المواجهة مع القوى المفترسة، إلى وضعية: التكاتف الجماعي في الدفاع عن النفس وعن الوطن، ويرافق ذلك البحث في كيفية تحقيق المتطلبات الأساسية للحياة، وفي الصدارة منها: القوت اللازم للبقاء.

وثالثها: تأمين الاتصالات ومعرفة العدو ورصد أخباره.

ورابعها: إقامة حكومة إسلامية قائمة على الشورى والعدل والإصلاح والسلام للجميع، والوعي بمحورية الأسرة وحقوق الأخوة والاستفادة من عبرة الآخرين والاتعاظ بهم. وتختم القصة بما يرسخ قيم التدافع الحضاري، وحفظ ذاكرة الأمة، والتعاون الجماعي، والتأكيد على مفهوم الأمة الداعية إلى الخير الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر.

ولا تخفى الدلالة العميقة لربط أبي سليمان بين جزيرة البنائين وبين كليلة ودمنة، فالأخيرة أدارها مؤلفها على لسان الحيوانات، مقدمًا خبرة الأمم في مواجهة حالة استبداد قد لا يكفي التصدي المباشر لها بخطاب بين بشر ترسخت فيهم نفسية العبيد والاستضعاف أجيالًا متعاقبة، وتلك هي حال أمتنا في القرون الأخيرة، والأعمق من تلك الدلالة هو المستبطن في القصة من أن الأمة وصلت إلى حال من الضعف والعجز عن معرفة قدراتها الكامنة الهائلة على التغيير، لو وقع مثله لحيوانات لما قبلته، فما بالنا بالإنسان الذي كرمه الله وأمده بالعقل وسخر له كل الطيبات التي في

الأرض، فيما لو استعاد الوعي بآدميته، وتحرك برؤية كونية كلية قرآنية متناغمة مع فطرته، للتدافع الحضاري، المؤدي إلى دخول البشرية كافة في السلم.

ومن الدلالات المهمة أيضًا أن يكون الإصلاح في جزيرة هي يابسة الكرة الأرضية المحاطة بالمحيطات من كل جانب، والتي تتخللها البحار وتجري بها الأنهار، ولئن كانت شبه جزيرة سيناء قد احتضنت عملية إعادة التأهيل النفسي والوجداني والمعرفي لبني إسرائيل من نفسية العبيد التي لازمتهم في ظل الحكم الفرعوني، فإن جزيرة البنائين تتعلق بعملية تخليص للأمة الإسلامية من الاستبداد ومن نفسية العبيد ومن قهر الحضارة الغربية العنصرية العلمانية الحيوانية الاستعلائية، لا لتنتقم تلك الأمة ممن أساؤوا إليها، وإنما لتستعيد قيم العفو والصفح الجميل، وتنقذ البشرية جمعاء من الظلم وظلماته.

وأرض الله الواحدة بهذا التصور جزيرة كبيرة تملأ سماءها سحب ندية، والإنسان مستخلف فيها، جميلة بوديانها وجبالها وزروعها وحيواناتها الطيبة السلامية، بيد أن تلك الأرض ساحة للابتلاء بين قوى السلام والعمران والتزكية وبين قوى الباطل والتبديد والقهر، هي بتعبير آخر ساحة لنوعية من البشر طيبة غايتها هي الحياة الطيبة القائمة على التعاون والعدل والإحسان، والأيام دو ل بين الحق والباطل، وتضعنا القصة أمام نتيجة جولة من جولات التدافع الأبدي بين الحق والباطل، كانت الغلبة فيها لأهل الباطل، فتحولت حالة أهل الحق الطيبين المسالمين إلى جحيم، فلم يعودوا قادرين على تعمير واديهم، فهجروه ولاذوا خائفين ومتفرقين بالكهوف المظلمة، كل ينشد السلامة لنفسه، ومن بعده الطوفان.

وتضع القصة أيدينا على أخطر داء يمكن أن تصاب به أمة في لحظة انكسارها، ذلكم هو: الوهن النفسي، الذي يؤدي إلى ذهول الواقع فيه عن منابع قوته الذاتية الكامنة، فيستخف بنفسه، ويقع في وهم العجز أمام قوة عدوه المادية، ويظن بأن

القوة المادية التي لا تستند على قاعدة أخلاقية إيمانية يمكن أن تكسب حربًا، في مواجهة القوة الإنسانية الأخلاقية الإيمانية.

وقد يدفع هذا الداء بالواقع فيه إلى الخوف المرضي من الآخر، و اليأس من إمكانية تحقيق الندية في مواجهته، وطلب رضاه ولو كان الثمن هو العبودية له، أو معاونته في ظلم الأبرياء بأنانية قصيرة النظر سقفها هو اتقاء شره على النفس، على حساب الأمة، فالافتراس فتنة قد تغير حال الإنسانية من نعيم إلى جحيم، وقد تصيب المغلوب على أمره بتقليد غالبه، فيعم الفساد، وعدم التدافع السلامي الحضاري في مواجهتها لا يفرخ إلا تعزيز دائي: الاستكبار والاستضعاف، وفي ظلهما تنتفي الحرية التوحيدية المسؤولة التي لا عمران ولا تزكية ولا تسبيح مشترك في الكون إلا بالمحافظة عليها بحكمة مهما كانت التضحيات.

وواقع الأمر، ودرس الخبرة التاريخية للإنسانية على الأرض، أن العنصرية الافتراسية قد تسفر عن كسب معركة، ولكنها شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، تورد مالكها دركات الهلاك في نهاية المطاف، فالباطل زبد يذهب جفاء، ولا يمكث في الأرض إلا ما ينفع الناس، والله تعالى كبير متعال عالم الغيب والشهادة، مطلع على سر الإنسانية وعلانيتها، وراع لها بحفظة كرام بررة، ولا تغيير لحال أية أمة من خارجها، فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وهو الحكم العدل بين العباد، له دعوة الحق، ولا وزن على الإطلاق عند التدقيق لمن يحادده، فهم لا يملكون لنفسهم نفعًا ولا ضرًا، ناهيك عن قدرتهم على نفع غيرهم أو ضره، والنور والظلمات لا يستويان، كما لا يستوي الأعمى والبصير.

يقول الله تعالى في سورة الرعد: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ

مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ﴿١٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾.

ومن هذا الخيط المعرفي تبين قصة جزيرة البنائين، إن جذر تمكن نفسية الوهن في الأمة الطيبة التي غلبتها الأمم الخبيثة المفترسة على واديها، وهددت بقاءها، هو وقوعها في أسر أسطورة (**لهم مخالب وأنياب...... وليس لنا مخالب وأنياب**).

فالقوة الحقة ليست قوة المخالب والأنياب، بل (**قوة الروح والعقل والوجدان الأمتية**) النابعة من الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها، المستنيرة بنور الوحي الرباني المنزل، والمنظومة به، وبالتدبر في سنن الله تعالى في الكون التي لا تتغير ولا تتبدل، في الصلاح والإصلاح، وفي التخلص من النفايات بكل صورها وأشكالها، بما يجعل القوة للحق، وليس الحق للقوة، ولا يعني ذلك الاستهانة بالقوة المادية، بل يعني وضعها في حجمها الطبيعي، بإعداد القوة المادية المرهبة المستطاعة النابعة من روح الوحي والفطرة ومن قابليات الإنسان في الإبداع في تطويع ما سخره له الله في الأرض من الأسباب، والاستعانة بالله، وإتباع كل سبب سببًا.

ومن المهم هنا الإشارة إلى نموذج ذي القرنين الذي آتاه الله من كل شيء سببًا فأتبع سببًا، وسار في الأرض بالإصلاح والعمران، وبين لمن كانوا على جمر اللظى من إفساد يأجوج ويأجوج، أنهم جديرون بالوصف بأنهم لا يفقهون قولًا فيما لو أرادوا الاعتماد بما لهم على غيرهم في حمايتهم من هذا الخطر، وتغافلوا عن حقيقة وجود كل أسباب الحماية في أرضهم فيما لو أعملوا فيه عقولهم، وحركوا سواعدهم. يقول الله تعالى في سورة الكهف: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ .

ويصير **السؤال المهم** هو: كيف يتم تخليص عقل الأمة من تلك الأسطورة الخطيرة، بتفكيك وتعرية مفهوم **(القوة المادية الحيوانية العنصرية الاستعلائية)** برؤية كلية كونية توحيدية، تخرجه من أسر كل من: الانبهار بها، والخوف منها، فذاك هو المفتاح الوحيد لاستعادة عافية مفاهيم الأمة الطيبة، وعدم الوقوع في فخ تزيين أمة زخرف القول لمفاهيمها، على نحو يسمي الأشياء بغير مسمياتها، ويغري بتقليد ما حقه الفرار منه، فرار السليم من المجذوم، ويربي نفسية القعود والفردية الأنانية العقيمة، وشراء الحياة الدنيا بالآخرة.

وتنبهنا (جزيرة البنائين) إلى أن سقم محاولة تغيير حال الأمة بواحد من ثلاثة طرق عقيمة:

أولها: البكاء على الأطلال وعلى اللبن المسكوب.

وثانيها: سعي كل فرد في الأمة إلى الانطواء بذهنية (نفسي نفسي). فلا فرد إلا بأمة ولا أمة إلا بفرد. وعاقبة ذلك هي هلاك الحرث والنسل، واستشراء الفقر والمرض، وتضرر الجماد والنبات والحيوان والطير.

وثالثها: التعويل على وعظ من لا يؤمنون إلا بمنطق الافتراس والعدوان ولغة الأنياب؛ رجاء تغيير طبعهم، فطريق التغيير الصحيح واحد هو: الاعتصام بحبل الله جميعًا مع عدم التفرق، والتصرف بمنطق ركاب السفينة الواحدة، والجسد الواحد المتراحم، في إقامة المجتمع المتراحم المؤسس على كلمة التقوى، فهو وحده القادر على دفع العدوان، وعلى إقامة نموذج القوة للحق؛ ليكون حجة لله تعالى في الأرض، في مواجهة نموذج حق القوة، ليختار الناس عن بينة، ولينصت الآخر إلى دعوته إلى كلمة سواء قائمة على التوحيد وعدم استعباد فريق من البشر لفريق آخر.

يقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

ومعنى ذلك أن شعور أمتنا بالضعف المستدام، لا يمت للحقيقة بصلة، بل هو

نتاج غفلتها عن قدراتها الكامنة، التي بين القرآن الكريم أنها تفوق مجرد تحقيق الحياة الكريمة لنفسها، فبما أن من البدهي أن الله تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وقد كلف تلك الأمة بأن تكون خير أمة أخرجها للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتوحده جل وعلا، فإن قابليات تلك الأمة الحقيقية تكفي فيما لو فعلت ووظفت على الوجه الصحيح، لتحقيق منع فتنة الناس في دينهم وجعل الدين كله لله، وإخراج البشرية من حالة الصراع التي لازمتها طيلة القرون الخمسة الأخيرة، إلى وضعية: الدخول في السلم كافة، على أساس من كلمتي السواء والتقوى. (ص٩-١٧).

أولًا: معالم طريق تحرر الأمة من الوهن: مفتاح هذا الطريق هو: استعادة الأمة صلاح ذات بينها، وتحررها من وهم أساطير يبثها أعداؤها تزهدها في دعاة الإصلاح، وتشككها فيهم، وتلوثهم، ووسيلة كسر تلك الصورة المفخخة هي إثبات دعاة الإصلاح بالأفعال قبل الأقوال حقيقة بذلهم كل ما في وسعهم للدفاع عن أمتهم، مع توعيتها بعدم كفايته لتغيير حالها.

فالتغيير لا يتم إلا بالأمة بكاملها، المؤمنة بربها، الواثقة في قيادتها، التي تعي أن كل ما يقدمه لها عدوها من مفاهيم، هو بمثابة غثاء سيل، ونفايات مفخخة، غايته الحقيقية هو: استدامة عجزها وتفرقها، وغرس خرافات وأساطير في عقلها ووجدانها.

وهذا هو ما تبينه القصة برمزية إنقاذ البومة للديك من الثعلب، فالبومة ارتبطت في المخيال الشعبي بالتشاؤم وبالعيش في الخرائب، والديك ارتبط بالأذان بالفجر، والثعلب معروف بالخبث والمكر، وتجيء نجاة مؤذن الفجر من أنياب الماكر، عبر استخدام الطرف المشوه السمعة، للقوة التي من الله بها عليه - وهي صوته- في هذه الحالة في أداء واجب النذير العريان له أولًا، ثم بالتعاون معه، ومع غيره من القوى الخيرة المستضعفة؛ لإنجاز الخطوة الأولى على طريق التغيير الرشيد، الذي تتحول به

الأمة من موقع رد الفعل، إلى موقع المبادرة والتدافع الحضاري البناء. (ص١٨-٢٠).

و**الدرس المعرفي** المستفاد من هذا الموقف هو أن: الصوت النابع من داخل الأمة في الوقت المناسب، المصحوب بخطر مباشر ملموس، واستعمال العنصر المعرض للخطر غاية ما لديه من قدرة ذاتية، ومن معطيات بيئته، أفشل هجوم الثعلب، لكنه لم يضمن بأي حال إمكانية نجاحه في محاولة أخرى، ولم يكفل نجاة نظيره لو كان في مكان بعيد عن صوت ذلك النذير، أو كان أسير الصورة النمطية التي رسمها العدو له، وها هي البومة لا يثنيها سوء ظن أمتها بها، عن مواصلة السهر في الظلمات لحمايتها من الخطر قدر استطاعتها، لكن تلك البصيرة لا تأتي أكلها في السير بالأمة على طريق التعافي الحضاري، إلا حين يقابل صنيعها بالعرفان والشكر ممن ساعدتهم على تجنب خطر داهم، ومراجعتهم لموقفهم منها، وتقريرهم العمل على تغيير الصورة النمطية لها بين كل مكونات الأمة، وهنا وجد من ينصت لكلمة الإصلاح الجامعة، فأفصحت البومة عنها.

ومن المهم الإشارة في هذا المقام لتحذير مالك بن نبي من أنه مما يضاعف من مفعول أزمة العقل المسلم، **المسعى الاستعماري لمراقبة حركة الأفكار في العالم الإسلامي**، فالاستعمار لا يهوى (**الرقائق الفكرية**) ولا يريد زرع الأفكار، وإنما يحتفظ بها لنفسه ويبيع أشياءه للآخر، ويحرص للحفاظ على احتكاره للأفكار علي مراقبة حركة الفكر؛ ليتخلص مما لا يروق له من أفكار، أو لينحرف بها عن المدار الذي يريد أصحابها أن يوجهوها فيه، فالاستعمار يملك جهازًا لمراقبة الأفكار واستكشافها، ومنهجًا لتبديل قيمة الأفكار بالإضافة أو الحذف.

وقد يستعمل آلية (**المرآة المعطلة**) لنسف الفكرة من خلال تشويهها، أو تشويه القائل بها، بما لذلك من انعكاسات على الجهاز المناعي المفاهيمي الإسلامي الضعيف أصلًا [1]، فكم من مصلح إسلامي ألصق به أعداء الأمة ما يشوه صورته

(١) بن نبي، مالك. فكرة كومنولث إسلامي، ترجمة: الطيب الشريف، دمشق: دار الفكر،

بغير حق، وابتلعت قطاعات من الأمة هذا الطعم.

ومن الملاحظات المهمة أن الديك الذي تمكن من الاستفادة من صوت البومة، واستطاع توظيف قدراته، والشجرة القريبة منه في تحرك سريع تدارك به الخطر، هو العنصر الذي حافظ على مؤسسة الأسرة، ورأى أن واجب الشكر للبومة، يستوجب اصطحاب زوجه وفراخه معه، فالبومة أنقذت الأسرة بكاملها بالحيلولة دون حرمانها من عائلها، وتقديم الديك الشكر ليس باسمه وحده بل باسم كل الحيوانات الطيبة المسالمة، التي تناشد البومة مواصلة السهر على حمايتها، بما يعني استعادة حس الأمة وروحها، والإعلان عن أن الأفعال تتكلم بلغة أفصح من الكلام، ومراجعة أسطورة تعكير ذات البين، والتوبة إلى غير رجعة من تصديق العدو، والعزم على تحرير بقية عناصر الأمة من إفك أساطيره، ومن تصنعه لدور الناصح لهم، وهو يريد هلاكهم، وحرص الديك على تقديم الشكر بحضرة أسرته، هو نموذج في التنشئة الوالدية والأسرية، التي هي عصب تربية أجيال على العزة والكرامة والبصيرة الحضارية. (ص٢٣-٢٦).

ويحقق لقاء الشكر، والدعوة إلى مواصلة القيام بالواجب، صدى نفسي طيب لدى البومة، فتعلن عن مواصلة القيام بواجبها مهما كلفها ذلك من مشقة، وتتذكر مع الجمع أيام ما قبل افتراس الحيوانات المفترسة للوادي، وتحويله من واحة أمن وأمان وحب وتعاون ووئام وعمران وحياة رغيدة، يتمنى أهل الوادي الطيبين أن تعود، وهنا ولد سؤال التغيير واستعادة العزة، وقالت البومة: إن الحياة الكريمة ثمرة فكر وعمل وإبداع وإتقان، ونعيقي لا يكفي وحده لحماية جميع الحيوانات، فهي عاجزة عن تنبيه كل حيوان على كل الأخطار في جميع الأوقات في الوقت المناسب، فالمفترسون كثيرون وماكرون، والحيوانات الطيبة متفرقة وخائفة ولا تعرف حقيقة كينونتها الجماعية.

١٩٩٠، ص٥٣-٥٨.

فالحل هو: اجتماع كل حيوانات الوادي المسالمة الطيبة والتشاور جميعًا للبحث عن حلول شاملة فعالة لمواجهة كل أو جل مشكلاتهم، مع الاستفادة من كل الآراء وكل الخبرات؛ لتحقيق غايتين: إصلاح أحوال الأمة، وحمايتها من شر الحيوانات الخبيثة الشريرة الماكرة.

وهنا يأتي **الدرس المعرفي الثاني**: النخبة الرشيدة هي التي تعي أن دورها هو توجيه الأمة وليس العمل بالنيابة عنها، مع ثقتها في إمكانية الإصلاح وفق السنن الكونية، وبناء الوعي بهدف جامع، فالحل ممكن في حال تآزر الأمة وإقامة نظام أمرها على الشورى والتخطيط والتعاون والتكامل، والهدف الجامع هو: بناء المجتمع السلامي القوي، وبناء مزرعة كبيرة غنية تكفل العيش في عزة وكرامة، وحماية النفس من الحيوانات المفترسة وطردها من الوادي إلى غير رجعة. (ص٣٠-٣٣).

واقتناع طليعة الأمة بأن تلك الفكرة ذكية وممكنة وواعدة لا يكفي للتغيير، ما لم يصاحبه الاتفاق على خطة لإشراك الأمة بكل فصائلها في سبر غورها، وتفصيلها ووضعها موضع التنفيذ في أرض الواقع، وهكذا اتفق الديك والدجاجة والبومة على الاجتماع ومعهم كل الحيوانات الطيبة بلا تأخير في اليوم التالي في الساحة الخضراء.

وتم تحديد مكان للاجتماع يكفل أقصى درجة تأمين ممكنة للمجتمعين فيه، بتوظيف أثر الخرافة على نفسية الحيوانات المفترسة، ثم إن الديك أحسن اختيار التوقيت الذي التقى فيه مع البومة، وهو الصباح الباكر، وقررت الأمة لاحقًا أن تعقد اجتماعاتها فيه، لمناسبته للبومة، ولكونه موعد استيقاظ الحيوانات الطيبة، وموعد خمود الحيوانات الشريرة، فيدفع شر هجومها، وشر تنبهها لما تخطط له أمة السلاميين الطيبين، ولكونه يتيح فرصة لكل الحيوانات الطيبة لحضور الاجتماعات؛ وبذا نلمس بداية التعافي بالوعي بما لدى العدو من نقاط ضعف نفسية، ومعنى هذا هو الأخذ بالأسباب، ومراعاة التوقيت المناسب لكل الحيوانات، وفي الصدارة منها

البومة التي تقضي الليل كله في حراسة الأمة، والتي هي مصدر فكرة السعي الجماعي المخطط لاستعادة الأمة والإقلاع الحضاري، وتم الاتفاق على الإعلام بالاجتماع والغاية منه وموعده بجهد يشارك فيه كل على قدر استطاعته، فالديك يعلم من يصلهم صوته، والحمام والهداهد والعصافير والببغاوات؛ تطير لتبلغ من هم في مواطن بعيدة من الوادي، وقام رسل التبليغ جميعًا بواجبهم طوال اليوم، واجتمعت الحيوانات الطيبة البعيدة والقريبة في الموعد المحدد عند اقتراب الفجر وقبل أن تشرق الشمس، وكانت الرئاسة هذه المرة للبومة لكونها صاحبة فكرة الاجتماع والداعية إليه، ولما هي معروفة به عند قادة الفكر من الحكمة وعمق التفكير، ورتب المجتمعون أنفسهم بحيث يكون أقدرهم على مقارعة الحيوانات المفترسة، على صخرة عالية كبيرة في المؤخرة، معرضين أنفسهم للخطر، فيما لو وقع هجوم، يستهدف المجموعة أو أحد أفرادها.

وهاهي البومة تفتح الاجتماع بتذكير الحضور بما كان عليه واديهم في ماضيه التليد، وما صار إليه في حاضرهم البئيس، حيث تفترس الحيوانات المفترسة منهم الواحد تلو الآخر، ويعجز كل منهم عن حماية نفسه حين يأتي دوره، وتنبه الحضور أن مصدر هذا المآل ليس كون العدو يمتلك أنيابًا ومخالب لا تمتلكها الحيوانات السلامية، بل لأنها خافت وهربت من الدفاع الجماعي، وظن كل منها أنه يكفيه أن يسعى إلى أن ينجو بنفسه، فضاع الجميع، وضاع الوادي، وضاعت الجزيرة.

وأضافت البومة أنها انشغلت بهذا الأمر كل ليلة تسهرها تراقب وتنعق، وتبين لها أن جهدها هي وفصيل البوم لا يكفي للتخلص من الكارثة الراهنة واستعادة عصر عزة الجزيرة وازدهارها والسلام في ربوعها، فتلك مهمة لا يحققها إلا: الجماعات والمؤسسات القائمة على الشورى والتعاون، فالقدرات الفردية كالعصي تضعف حين تتفرق، وتستعصي على الكسر حين تجتمع وتتكامل. (ص٣٤-٤٢).

وخرج المجتمعون بسؤال معرفي محدد، أرجأوا الخوض في إجابته إلى الغد، للتفكير والتدبر فيه: كيف نخطط؟ كيف نتعاون؟ كيف نتكامل؟ كيف ننظم شؤون وادينا؟ (ص٣٤-٤٥).

وتضع القصة يد القارئ هنا على مفتاح مهم، فالديك ظل على الدوام هو من يؤذن بالفجر؛ لتصحو الحيوانات وتسرع إلى مكان الاجتماع في الموعد المحدد، ولكنه لم يترأس أبدًا أي اجتماع، ومن أسندت إليه مسؤولية القيادة العليا للدفاع، هو الحصان، بقرار جماعي بعد صياغة خطة الأمن والدفاع عن الأمة، وهو الحصان، لم يترأس أي اجتماعي سياسي، وهكذا تغرس القصة واحدًا من أساسيات ثقافة المشاركة، وتوزيع الأدوار، وتجنب ثقافة القطيع، والحذر من اجتماع السلطة السياسية والعسكرية في يد واحدة.

واستقر العرف في كل اجتماع على أن يختار المجتمعون رئيسًا له، وفق طبيعة موضوعه؛ وبذا لا تقع الأمة في فخ الزعيم الملهم الواحد، وتستكشف القدرات القيادية الإبداعية في عناصرها وأجيالها، ولا تتغير القيادة قبل الانتهاء من البت في الموضوع المدرج على جدول الأعمال، الذي اختارتها الجماعة باعتبارها أفضل المناسبين له، فليس تداول الرئاسة غاية بحد ذاته، بل هو وسيلة لتحقيق غاية، ومن الأهمية بمكان أن يبني اللاحق على من أنجزه السلف.

فها هي الحيوانات تختار القطة رئيسًا لاجتماعها الثاني، بمؤهلات هي: تماثلها مع البومة في الذكاء، وتميزها بالإضافة إلى ذلك بالدبلوماسية والكياسة وحسن السياسة، ولئن كانت رئاسة البومة مناسبة في الاجتماع الأول الذي شخصت فيه حالة الأمة، وتمت صياغة سؤال: الطريق إلى التغيير، فإن رئاسة القطة هي الأنسب لاجتماع من المطلوب فيه مشاركة الجميع وتعبيرهم عن آرائهم بكياسة وبحرية وشجاعة، وصولًا إلى خطة متكاملة محكمة تحقق لهم وحدتهم، وتعاونهم في استعادة

السيطرة على جزيرتهم، وإعادة بنائها، وحماية أنفسهم.

ويدور الاجتماع على نحو يقف فيه دور الرئيس على التنظيم، في حين يبادر واحد من أقوى الحيوانات الطيبة - الحصان - بطلب الكلمة، مقترحًا البدء بالتفكير في كيفية تحقيق الأمن لانتزاع الخوف من نفوس أهل الوادي من الحيوانات المفترسة، ومفتاح تحقيق هذا الهدف ليس الاستهانة بالخصم، فهو مفترس بطبعه، ولن يرحم، ولا يخشى رقيبًا ولا حسيبًا في عربدته وفتكه، ثم يقرر الحصان، وهو أقوى تلك الحيوانات الطيبة إدراكه أن أيًا من الحيوانات بما فيها هو نفسه، لن يستطيع حماية نفسه، بقوته هو وحده، واتفق الجميع على أولوية وضع الأمن على جدول أعمالهم.

والدرس **المعرفي الخامس** هنا هو: لابد من البدء بحل إشكالية الأمن أولًا؛ لأنه من دون الأمن، لا يمكن البناء ولا الإعمار ولا التنظيم، ومفتاح الأمن ليس بيد الخصم، بل بيد الأمة، وهو كما تحدد على لسان الحصان: أن تدرك الأمة السلامية طبيعة قوتها، وكيفية استخدامها على نحو متكامل ومخطط وبعزيمة قوية في مواجهة قوة الأمة الحيوانية العنصرية الاستعلائية المفترسة، فالأنياب والمخالب ليست هي الوسيلة الوحيدة للحماية ومواجهة الأعداء.

وتضع القصة هنا أيدينا على حاجة عناصر الأمة التي لا تعي وجود وسائل أخرى للحماية والتدافع الحضاري، إلى سؤال أهل الذكر عنها، وعليهم أن يبينوها لهم ويعمقوا وعيهم بها، وبمواطن الضعف في عدوهم، ويختتم هذا اللقاء بإبقاء سؤال الأمن مفتوحًا، لمواصلة بحثه في اللقاء القادم، مع إعراب الحصان عن الثناء على البومة، والحرص على انصرافها للراحة، وعلى بقاء أمر الاجتماعات سريًا، وتجنب التعرض لمواجهة في غير حينها مع الحيوانات المفترسة (ص٤٦- ٥٢).

والدرس **المعرفي السادس** هنا هو: لا مخرج من حالة الخمود إلى حالة اليقظة

واستعادة الأمة لروحها، إلا بجهد تشارك فيه كل فصائلها، بقيادة حكيمة، مع الأخذ بكل الأسباب، وحماية الأقوى من عناصرها لمن هو أضعف منه، وأخذ الحذر، والتواصل والتشاور الجماعي، والعمل المؤسسي الجماعي، والتجديد الموضوعي للقيادة، مع مواصلة الاعتزاز بجهود الرواد الأول، فالتفرق هو بيت داء الأمة، وهو سر تمكن عدوها منها حتى الآن.

وفي الاجتماع التالي المخصص لصياغة خطة لدفاع الأمة الطيبة عن نفسها، والذي عقد برئاسة القطة، يستهل الحصان حديثه بالتعريف بالموضوع المدرج بجدول الأعمال، مبينًا حاجة الأمة لمشاركة كل من لديه فكرة تعين في صياغة تلك الخطة على نحو محكم، بطرحها للمناقشة والتشاور، وأن يطرح كل من لديه سؤال بخصوصها سؤاله.

وألقى **بالدرس المعرفي الخامس**: لن نعرف الإجابة الصحيحة إلا إذا سألنا الأسئلة الصحيحة المتعلقة بكافة أبعاد قضية الأمن المطروحة للنقاش، فالسؤال الصحيح ليس نصف الطريق إلى الإجابة بل هو طريقها كله.

ومن الملاحظ أن دور الحصان اقتصر على طرح الفكرة، والحض على السؤال، وعلى طرح كل من لديه فكرة لفكرته، وهنا بدأ كل عنصر في الأمة يتحدث عن الدور الذي تؤهله قدراته للقيام به في خطة دفاع الأمة عن نفسها، فتحدث الفيل مؤمنًا على حديث الحصان، ضاربًا المثل بنفسه، فخرطومه يمكن أن يكون أشد من أنياب الأسد والنمر ومخالب النسر، فتكًا بالحيوانات المفترسة وإن كان لا يمزق مثلها، وركلات الحصان لا تحتملها كثير من الحيوانات المفترسة، ويمكن أن تحمي الجزيرة من الذئاب والثعالب والضباع والخنازير الخبيثة.

وهنا نبه الثور لقوة وحدة قرون فصيلته، وقدرتها على حماية الأمة من قطعان الذئاب والثعالب والضباع والخنازير، وتلاه تنبيه الحمار لما يمكن أن يقوم به فصيله

وفصيل البغال في تعزيز قدرة فصائل الأحصنة والثيران، وأمن البغل الواقف إلى جوار الحمار على كلامه، بما له من قوة تضاهي قوة الحصان.

ومع توالي كشف كل فئة عن ما يمكنها المساهمة به في بناء قوة الجماعة وتنظيم دفاعاتها، نبح الكلب بقوة محتجًا، طالبًا من الجمع أن لا يستحقر شأن فصيله، وهو حارس القوم وراعي الغنم، منبهًا إلى أن له أنيابًا ومخالبَ، ولكنه لا يستخدمها إلا ضد أعداء الأمة، ويستطيع لصغر حجمه التسلل بين الحيوانات المفترسة الكبرى، ونهش أرجلها وسوقها، وإشاعة الفوضى بين صفوفها بأنيابه وبنباحه.

وترد القطة رئيسة الاجتماع عليه بكياسة، مطيبة من خاطره، مقرة بعلم الأمة بمكانة الكلاب وأمانتها وإخلاصها وقوة بطش أنيابها ومخالبها، حين تهب للدفاع عن نفسها وعن أصدقائها، وأنيابهم ومخالبهم وحناجرهم مباركة لكونها طيبة وسلامية لا تستخدم إلا في حماية الأهل والأصدقاء.

ثم حددت القطة ما يمكن أن تقوم به فئة القطط من الدفاع عن نفسها وعن صغارها وأهلها، بمخالبها وأظافرها، وفي إبعاد الفئران والجرذان القذرة عن العبث بقوت الأمة، فهي تفر هاربة حين تشم رائحة القطط أو تسمع صوتها، وأخيرًا استأذنت البومة وحددت دور فصيلها في مواصلة الحراسة والمراقبة الليلية، والنعيق للإنذار كلما رأوا حيوانًا مفترسًا يتجه نحو الوادي أو يقترب من أي واحد من أهله، وسوف تساعدهم في ذلك القطط باستيقاظها الليلي وقوة شمها، وعلى بقية الحيوانات الطيبة حين تسمع نعيق البوم أو مواء القطط، أن ينبحوا جميعًا بأعلى أصواتهم لإيقاظ الحيوانات السلامية، وقوى الجهاد والدفاع السلامية، للمساهمة في الدفاع، ومهاجمة الحيوانات المفترسة التي تقترب من الوادي قبل أن تصل إليه.

وهكذا يظل دور الرائد الأول متمثلًا في بناء الوعي بكيفية تكامل الأدوار في الدفاع عن الأمة، بعد مبادرة كل فئة ببيان الدور الذي ستقوم به، وعدم إملائه

عليها من خارجها، وهنا يأتي دور المبادرة البناءة بإعلان الفيل طلبه أن تسند إليه مسؤولية تنظيم الصفوف الدفاعية حين تحين ساعة المعركة، بحيث يمكن مهاجمة العدو من الأمام ومن الخلف بقوة قتالية فعالة، ترده من أي جانب يأتي منه، أو اتجاه يتقدم منه، بما يجعل نصيبه هو الهزيمة والفرار والعار، واستحسن الجميع خطة الدفاع والأمن التي توصلوا إليها بالتشاور وتبادل الرأي، وقرروا إسناد رئاسة القيادة العليا لفريق عمليات الدفاع، وتنظيم كل العمليات الدفاعية اللازمة للدفاع عن جماعة الحيوانات السلامية وواديها ومقدساتها للحصان، لما يتمتع به من قوة وخفة ومهارة وذكاء وأمانة وإخلاص، تجعل من الحكمة إسناد أمانة إدارة شأن الدفاع إليه.

واختتم اللقاء باقتراح من البومة، بأن يلي الاتفاق على خطة الدفاع والأمن، وضع الموضوع التالي على جدول أعمال اجتماع الغد: خطة البناء وتنظيم الإنتاج، وتأمين الغذاء والمؤن لكل حيوانات الوادي الطيبة المسالمة؛ حتى تعود الأمور هنيئة رغدة كما كانت في الماضي، وأفضل بإذن الله. (ص٥٣-٦٧).

ويقدم تحليل هذا الاجتماع **درسًا معرفيًا مركبًا** غاية في الأهمية، فهو يؤكد على جماعية أمن الأمة المبني على قدراتها الذاتية السلامية المتكاملة والمخططة، والمدارة بيد أمينة ومخلصة وقوية، فلا أمن باستيراد أسبابه من العدو، فمن يحارب عدوه بسلاحه هو - كما قال مالك بن نبي - مثل السجين الذي يطلب من سجانه أن يعطيه مفتاح السجن، والتعويل على الأمن العسكري وحده هراء، يستدعي حكاية رد بها أحد مستشاري هارون الرشيد على سؤاله: أيهما أولى بالاهتمام: القوت أم الأمن؟ فحكى له أن راعيًا خاف على غنمه من الذئب، فشكل قطيعًا من الكلاب لحمايتها، وأخذ يطعم تلك الكلاب نعجة كل يوم.

وانتهى الأمر بأن أكلت الكلاب كل النعاج، ولم يبق لديه غير قطيع الكلاب،

فالأمن مفهوم كلي شامل، ولا حرية لمن لا يكون طعامه من كدح يده، ولا كرامة لمتسول، فخطة البناء وتنظيم الإنتاج، وتحقيق حد الكفاية لكل فئات الأمة، هو العمود الفقري لاستعادتها لروحها، ولقدرتها على التدافع الحضاري، وتحقيق الحياة الكريمة، وهنا يأتي العمق المعرفي لأمرين:

أولهما: رمزية الحصان في وجدان الأمة المسلمة، على ضوء قول الله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وثانيهما، التعبير عن محورية الأمن الغذائي بمعادلة معرفية، منطوقها هو: (**القوت حتى لا نموت**)، فلئن كانت الحيوانات المفترسة خطرًا لا يستهان به، فإن الجوع والتجويع، هو السلاح الأشد فتكًا بالأمة؛ لكونه يوهن قابلياتها الدفاعية الفطرية والمكتسبة.

وترأست العنزة، اجتماع تقدير الاحتياجات الغذائية، لما تتمتع به من عواطف الأمومة والحرص على توفير الغذاء خاصة للصغار، وفي ذلك إشارة واضحة لدور المرأة في الأسرة والمجتمع فيما يتعلق بتحديد الحاجات المعيشية على قدر الممكن، وكشفت القصة في هذا الموقف عن حقيقة معاشة، وهي أنه فيما يتعلق بعملية تحديد الاحتياجات، قد تظل هناك فئات يغلب على طبعها الهزل في مواقف الجد، مثلها هنا القرد والببغاء، تحتاج إلى المنع برفق من الاسترسال، فالترويح مطلوب ولكن بقدر.

وفكرت الحيوانات في الحاجة إلى زراعة كل ما تحتاج إليه فئاتها، وإنشاء مخازن لحفظ المحاصيل، وحظائر لحمايتها وحماية صغارها، مسترشدة بقاعدة بالغة الأهمية: تحديد الاحتياجات في حدود القدرات والإمكانيات، وقيام كل منهم بالواجب

المطلوب منه بالتعاون مع الآخرين، لسد حاجة الجميع. (ص٦٧ - ٧٨).

ورأس الفيل اجتماع تخطيط إنتاج الطيبين الطعام بمساهمة الجميع لصالح الجميع، بحيث يعرف كل منهم دوره؛ حتى يحصل على حاجاته الأساسية بجهده وفكره وبكرامة وعزة، وبدأ الاجتماع بإعلان الفيل أن بناء الحظائر يحتاج إلى الأخشاب وهي مهمة يمكن أن يتعاون فيها الفيلة مع الجياد والبغال، فتقلع الفيلة الأشجار وتنقلها الجياد والبغال؛ لنبني حظائر كافية للبقر والماعز والدجاج وصغارهم، ونتولى أمر صيانتها وتجديدها؛ لينتجوا لنا اللبن والجبن والبيض، وسألت العنزة عن من يزرع الحشيش الكافي للحيوانات، فرد الثور بأن تلك هي مهمته بالتعاون مع الأبقار والحمير، بتسميد الأرض وحرثها وبذر الحبوب، وتساعدنا الماعز في جمع المحاصيل والحشائش، وتساعدنا الفيلة في جمع التمور.

وتقوم النحل بالأكل من كل الثمرات؛ لتنتج لنا عسلًا مصفى، وتزرع الزرافات الأشجار والنخيل وتتولى رعايتها وتقليمها، ولن تنسى زراعة الموز والفستق، حتى توفر الطعام للقردة والببغاوات؛ حتى لا يزعجوا الأمة بألاعيبهم وحيلهم وضوضائهم، وتتولى الحمير والبغال نقل المياه إلى المزارع وإلى أحواض الشرب في الحظائر، ونقل المحاصيل إلى الحظائر والمخازن، وتتولى القطط المطاردة المتواصلة للفئران والجرذان.

والدرس المعرفي المستفاد هنا أن على الأمة أن تؤسس خطة أمنها الغذائي على نحو يساهم فيه كل فرد على نحو يتوافق مع قدراته، مع مراعاة التعاون بين المتقاربين في قدرات العمل الواحد، والتعاون بين الجميع في تحقيق حد الكفاية للجميع، بما في ذلك العناصر شبه الطفيلية، لحماية الأمة من حيلهم وضوضائهم (ص٧٩-٨٧).

وبين الفيل في الاجتماع التالي أهمية معرفة العدو ورصد تحركاته، وقال إن وضع

خطة للدفاع في حال التعرض لهجوم، لا يكفي لتحقيق هدف الأمة المحدد بثلاث: طرد العدو، حماية الموارد، تأمين الغذاء، فلابد من خطة لتأمين الاتصالات وجمع أخبار الأعداء؛ لتحقيق الاستعداد الدائم لمواجهته ودحر عدوانه، وطلب من المشاركين في الاجتماع طرح رؤاهم لتحقيق هذا الهدف، وبدأ الحصان ببيان محورية وجود وسائل اتصال كفؤة في الجزيرة في نشر المحبة بين سكانها، وفي تقوية دفاعاتها بمعرفة خطط أعدائها، واقترح أن ترأس الاجتماع الحمامة لما لها من خبرة كبيرة في شؤون الاتصال، وقبلت الحمامة رئاسة الاجتماع معللة ذلك بخبرة نوعها في نقل الرسائل والبريد بين أفراد الجماعة، وتخصص الحمام الزاجل في تلك المهمة جيلًا بعد جيل من قديم الزمان.

واقترحت أن يكمل الحمام والهداهد دور البوم والقطط، فتقوم هي بالحراسة الليلية، ويقومون هم بالطيران بالنهار للمراقبة النهارية للعدو سواء كان قريبًا من الوادي أو بعيدًا عنه، ونقل أخبار تحركاته إلى مسؤول الدفاع، بحيث يكون على علم بكل ما يهدد سلامة الوادي والجزيرة، وهنا اقترحت العصافير والبلابل أن تقوم كل الطيور الصغيرة بالمساهمة في عملية المراقبة ورصد تحركات العدو، مستفيدة من صغر حجمها وتعدد ألوانها، وقدرتها على التخفي، وتغطية كل حدود الوادي.

واتفقت الحيوانات على أن تكون الطيور تحت قيادة الهدهد في مهمة المراقبة هذه وتوجيه الحمام، وأضاف الهدهد إمكانية أن تقوم الطيور بمهمة إضافية بجانب مهمة المراقبة هي التغريد بأصواتها الجميلة، بألحان شجية تدخل السرور على الكبار والصغار، وتمتعهم بألوان ريشها البهية، بالتعاون مع الغزلان والخيل والإبل في القيام بعروض راقصة، في الأعياد والمناسبات، وهنا احتجت القرودورددت الببغاوات احتجاجها، مهددين بإفساد الكثير من شأن الأمة الجاد، إذا لم تشغلهم وتقر بأهمية دورهم في التهريج والتسلية والترويح.

وجاء الرد: خذوا الحكمة من أفواه القرود، علينا أن نضعهم في موضعهم الصحيح في عروض الترويح وتسلية الصغار؛ لأن طبيعتهم في التهريج والتملق تفسد الآخرين من حولهم، وكفانا تهريجًا وتملقًا ومحسوبيات أفسدت علينا حياتنا في الماضي وحرمتنا من كثير من الكفاءات في وادينا، واتفق الحاضرون على أن يكون موضوع الاجتماع التالي هو: بحث تفصيلات خطة إدارة الوادي (ص٨٨-٩٥).

ويتضمن هذا الموقف درسًا معرفيًا مركبًا، فالحمام رمز السلام، وهي التي جعلها الله بعشها وبيضها آية، صرفت من كانوا يتتبعون أثر النبي ﷺ والصديق وهما في الغار في طريقهما للهجرة إلى يثرب، عن الظن بدخول أحد فيه من أمد طويل، وفي ذلك رمز مهم لكون كل خطط أهل الجزيرة السلاميين الطيبين لا تستهدف الإضرار بأحد، فهي مهمة سلام، عدوها هو: الافتراس والعدوان، وغايتها هي دفع العدوان والافتراس.

ولاختيار الحمامة الهدهد رئيسًا لكل الطيور في عملية المراقبة النهارية، مضمونه الإسلامي العميق، فالهدهد هو من قال لنبي الله سليمان عليه السلام (أحطت بما لم تحط به)، وهو من تعجب من أن يسجد قوم لغير الله، وهو من وصل رسالة سليمان إلى بلقيس ملكة سبأ، يقول الله تعالى في سورة النمل: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ

غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإِ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾.

ويكشف هذا الدرس المعرفي أهمية الجمال والبهجة في المشروع الإسلامي، فذاك من زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، كما يكشف عن الفرق بين حق العناصر المتملقة والمهرجة في الحصول على أساسيات الحياة، وبين السماح لها بإفساد أمر الأمة، فدورها هو التسلية والترويح للصغار، وفي المواطن التي لا تناقش فيها الأمور الجادة، فذاك هو موضعها الصحيح، وكم في أمتنا من أمثال أولئك القردة، وتلك الببغاوات.

ثانيًا: معالم خطة إدارة الوادي والجزيرة: في الاجتماع المخصص لتدارس تفصيلات خطة إدارة الوادي، اتفق المؤتمرون باديء ذي بدء على: بناء مجتمعهم على العوامل الجامعة بين جميع فئاتهم المعبرة عن المشترك في فطرتهم السوية من القيم والمبادئ والضوابط التي يتطلعون إلى التزامها والتحاكم إليها في تنظيم مجتمعهم، وينطلق هذا المشترك الفطري الجامع من الوعي بوحدة الأصل واختلاف التنوع المحقق للتكامل بين الشعوب والأجناس والأمم، فالفطرة المشتركة هي المبدأ الجامع الذي يقوم عليه الأصل السلامي لمجتمع الجزيرة، الذي لا يعني التماثل، بل التنوع التكاملي الذي يصب من روافد متعددة في بوتقة الأصل الواحد المشترك، واتفق الجميع على التمسك بمبدأ الوحدة والتعدد والتنوع والتكامل كأساس للأمة السلامية، ولتحقيق فاعلية طاقاتها الكامنة، ولكفالة بناء مجتمع قادر على البقاء

والتدافع والازدهار.

واتفق المجتمعون على تنشئة صغارهم على هذا المبدأ الجامع، لسد الطريق أمام أعداء الأمة السلامية عن تمزيق وحدة صفها مرة أخرى، وهنا تقول الغزالة التي هي رمز للجمال، أنها يستهويها جمال مبدأ وحدة الأمة السلامية القائم على التنوع التكاملي، والحاجة إلى استعادة الوعي به، وبينت الغزالة أن تنوع الغزلان لا ينفي وحدة نوعها، وهي ككل الحيوانات السلامية مفيدة لغيرها، ومستفيدة منها، ويجمع بينها جميعًا بوصفها حيوانات سلامية، سلامة الطبع وسمو الغاية ووحدة الصف والهدف، والسعي لإعمار الوادي وتسخير طيباته للجميع، والكشف عن إمكانياته وطاقته الكامنة وتطويرها، ولذا يجب حمد الله على أن قضى بأن تكون الأمة السلامية أمة واحدة، وواجب على تلك الأمة أن تستعيد وحدتها؛ لتبني بتلك الوحدة حاضرها ومستقبلها.

وعليها أن تعي معنى وحدتها، وتنشئ صغارها على هذا المعنى، وتنشر الوعي به بين كل أفرادها كبيرهم وصغيرهم وغائبهم وحاضرهم، وأثمر الاجتماع تولد قناعة عامة بمبدأ وحدة الأمة، واختلاف التنوع التكاملي بين مكوناتها (ص ٩٩-١٠٨).

ويؤشر هذا الموقف على درس معرفي بالغ الخطورة والأهمية، فتنظيم الحكومة لابد أن ينطلق من رؤية كونية كلية تستحضر وحدة أصل الإنسانية، وتنبثق منه وحدة أمة الخير السلامية، وأساس النظام فيها لا ينفي التنوع، ولكنه لا ينظر إليه على أنه اختلاف تضاد، بل على إنه اختلاف تنوع بناء، يهدي إلى التعاضد والتكامل والإبداع الفردي والجماعي، وتنبثق تلك الوحدة وذاك التنوع من الفطرة السوية، فالشرع الإسلامي ليس تكليفًا فوقيًا، ولكنه مقتضى الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والمبين لكيفية المحافظة عليها واستعادتها لدى الانحراف عن جادتها، والعلاقة بين الإنسان وكافة المخلوقات السلامية علاقة تكامل ورعاية.

ويبدأ الاجتماع التالي بالاتفاق على أن يترأسه الفيل، التشاور لبناء (**مؤسسة شورى الأمة السلامية**)، لتكون هي قاطرة تنظيم الشأن المجتمعي، على أساس: مبدأ وحدة الأمة والتنوع التكاملي بين مكوناتها، فالشورى هي المبدأ التوأم لمبدأ الوحدة والتكامل والتكافل المجسد لروح المجتمع، ولا تتحقق وحدة ولا تدبير جماعي من دونه، ومفتاح الشورى هو عدم الاستغراق في الشكليات وزخرف القول، والانطلاق من الخبرة المستفادة من التجارب والشدائد.

وبإقامة نظام حكم الجزيرة على الشورى تكون الأمة هي الوصي على حكومتها، وتكون قيمها ومصالحها هي الغاية، وتنضج القرارات والسياسات، ويتم التخطيط والمراقبة للمؤسسات العامة والقادة على نحو سديد، ولابد للشورى أن تكون مؤسسية، فتتجسد في مجلس للشورى يضم عقلاء الأمة المجربين والحكماء، الذين تختارهم الأمة بحرية، ومهمة هذا المجلس هي دراسة أحوال الجزيرة والوادي وتجسيد القواسم المشتركة لرؤية الأمة، والمراقبة والمحاسبة، بما يحقق العدل وينفي الظلم، ويحقق التوازن وحس المسؤولية بين كل مكوناتها، ويقيم علاقة ود بين الأمة وحكامها، ويقطع دابر الفساد والاستبداد، فأمر الأمة يجب أن يكون شورى بينها، واختيار أهل الشورى لابد أن يتم بالإرادة الحرة لكل أفرادها.

وغياب الشورى من أي مجتمع يسفر عن نتيجة بائسة واحدة: الاستبداد والفساد والفرقة والضياع والتبديد، ومن الأهمية بمكان تجنب الشورى الصورية المخادعة، المكرسة لاحتكار القلة للسلطة والثروة، التي تكرس الفساد وتفسد الفكر، وتؤدي إلى انهيار الحضارات والأمم، فالشورى الحقيقية المؤسسية المتعاونة مع الرأي العام، والمرسخة لمبدأ خضوع الجميع في القيام بواجباته والحصول على حقوقه، بالشريعة والقانون، هي التي تثمر صلاح نظام الحكم والعمران لصالح الجميع. (ص ١٠٩-١١٧).

وبحث المجتمعون في اجتماعهم التالي **الأساس الثالث** لنظام حكم الأمة

السلامية، وهو: العدل باعتباره أساس الملك، فلا نظام دون مؤسسة قضاء مستقلة ونزيهة لإرساء قواعد العدل والسلم بين أفراد الأمة السلامية، بالفصل بحكمة وعلم فيما يطرأ بينها من خصومات، دون تفرقة بين قوي وضعيف أو بين صغير وكبير، فالعدل هو أساس الوحدة والولاء والعزة والكرامة.

وتلفت القصة النظر هنا إلى وجود عناصر في الأمة ترى أن العدل في غير مصلحتها، فتتململ من الحديث عنه، ومن السعي إلى مأسسته، ويمثل القرد هنا تلك الفئات، ويمثل موقف البومة منه الرد الواجب على مثل تلك الفئات، فهي تنقره في ظهره، حتى تضطره إلى التوقف عن الهزل في مواطن الجد، ومن اللفتات المهمة في القصة أن الحيوانات اختارت البغل رئيسًا للاجتماع الخاص ببناء مؤسسة القضاء. والمستبطن في هذا أن البغل كما البغلة، ينفردان من بين الحيوانات بالتسوية بين ذكره وأنثاه، في كونهما لا ينجبان، والدرس المعرفي هنا أن من يخطط لمأسسة العدل يجب أن تنتفي عنه شبهة المصلحة الخاصة؛ لكي لا يخرج الميزان مختلًا من أول مدماك في بنائه، ولكي تنتفي شبهة إمكانية التفصيل على المقاس والسعي إلى التوريث.

وهنا تتحدث القصة على لسان الدجاجة مبينة أن العدالة لا تعني إقامة جهاز قضائي مستقل ونزيه وحسب، فمثل ذلك الجهاز لن يؤتي أكله، ما لم يكن تؤكد الأمة على مبدأ عام هو: اختيار كل فرق العمل في مؤسسات إدارة الجزيرة، على أساس من الكفاءة والنزاهة، وليس على أي معيار آخر من المحسوبية والشللية والطائفية فلابد من تجفيف منابع عودة المحسوبيات والفساد والعرقيات في المجتمع السلامي، حتى يتم استئصال جذور الفساد والاستبداد وما يترتب عليهما من مآلات وخيمة، فمن أن أراد أن يبر صديقًا أو قريبًا، فليبره من ماله الخاص، وليس من مال الأمة العام. (ص١١٨- ١٢٥).

ومن الرمزية العميقة أن يختار الثور للاجتماع المخصص لدراسة خطة تجفيف منابع الفساد، وأن يكون شعار الاجتماع (**الفساد في البلاد كالثعلب في حظيرة**

الدجاج)، فالفساد يحتاج إلى التصدي له بقوة؛ لأنه مفسد بطرقه الملتوية الخبيثة قبل طرقه الظاهرة، وفساد الحكومات والقيادات خطير، ولكن الأخطر منه هو فساد كهنة المثقفين والإعلاميين، فمثلهم في الأمة مثل الثعلب في حظيرة الدجاج، فالثعلب جشع، ولا يكتفي حتى بقتل ما يستطيع أن يأكله من الدجاج فيما لو تمكن من دخول حظيرتهم، فهو همجي شرير يقتل حتى الكتاكيت البريئة.

وينصب الدرس المعرفي هنا على خطورة دور الإعلام المريض والمثقفين المصابين بمرض عقوق الأمة على عقلها ووجدانها ونفسيتها، وبالأخص على تربية أبنائها على الاستكانة والخوف والتبعية، وتاريخ الأمة الإسلامية خير شاهد على ذلك.

ويحضرني هنا قول مالك بن نبي: وأخطر ما يمكن أن يصيب مجتمع ما هو النشاط الاستعماري غير المرئي، لعدم إمكانية إدراك وسائله ومجالات نشاطه.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الأخطار التي تتعرض لها شبكة العلاقات الاجتماعية تتفاوت، فلذعة إبرة في موضع حساس في بنية المجتمع قد تصيب شبكة العلاقات فيه بالشلل.

كما أن الاستعمار يستخدم (**نوعًا من القوارض المجازة**) يربيهم في بؤرته الثقافية ليتولوا هم مهاجمة شبكة علاقات مجتمعهم في صمت مما يؤدي إلى عدم الوعي بما يقومون به من تدمير.

والقوارض التي تتعرض لها شبكة العلاقات في المجتمع الإسلامي أنواع: **النواتج المجازون** من قبل ثقافة أجنبية، لم يجيدوا تمثلها، بل وقفوا عند قشرتها الخارجية، **ومن يهدمون روحهم** بهدم المبادئ والأخلاق مما يؤدى إلى خلق الفراغ الاجتماعي (**وهؤلاء هم من يجهلون أوامر الله**) **ومن يوجهون كل الملكات** المبدعة والفضائل الأخلاقية في المجتمع إلى خارج عالم الوقائع الظاهرة، فيهدمون وسائل المجتمع (**وهؤلاء هم من يجهلون مقتضيات الأرض**).

وكل هذه سبل تتفرق بالأمة عن طريقها الصحيح، فكل حقيقة لا تؤثر على الأشخاص والأفكار والأشياء، ولا تحمل جنين نشاط معين، هي كلمة فارغة ميتة، مدفونة في نوع من المقابر يسمى: **القاموس**[1].

وهؤلاء الأعلاميون والمثقفون القوارض لأمتهم هم أحد الثمار الخبيثة للفساد والاستبداد، وبالتالي فإن سبيل التخلص منهم هو التخطيط لإنهاء الفساد والاستبداد من الجزيرة والوادي إلى غير رجعة، فهما يفسدان الذمم والأخلاق، وهما يفسدان ذات البين، ويمكنان الأعداء من النيل من الأمة التي تضعف بتفشيهما فيها.

وللمخرج ركنان: حكم المؤسسات، والحذر من الفساد والاستبداد، بضبط الحسابات والمراقبة، وبتبني مبدأ التخصص واللامركزية، فتركيز السلطات في يد واحد مدعاة للفساد والاستبداد، ولإنجاب المنافقين والمضللين للأمة وانتهى الاجتماع بقناعة الأمة بكل فصائلها بنبذ الفساد والاستبداد، والعزم على إقامة الحكم على الوحدة والشورى والعدل وصدق القول والعمل، وحسن اختيار كل المسؤولين العموميين، وتقسيم العمل. (ص١٢٦-١٣٢).

ومن غير الواقعي أن لا ينتبه العدو طويلًا لعملية التخطيط الحضاري لاستعادة العزة والكرامة التي تقوم بها الأمة السلامية، ففي بداية الاجتماع الذي تلي إنجاز ما سبق لمحت البومة ثعلبًا يتحسس الوضع من بعد، فأخبرت الحيوانات المجتمعة، وأبلغتهم أن الضجة التي أحدثوها ربما نبهت ذلك الثعلب للتجسس عليهم، وطالبتهم بالتزام الهدوء، وفكرت الطيور الضعيفة في الهرب، فأعلمهم الحصان- قائد الدفاع الأمتي - أن الهرب ليس هو الوسيلة الصحيحة لمواجهة الحيوانات المفترسة، بل الحل هو الثبات والتخطيط التضامني للتصدي له، فهذا هو ما اتفقنا

---

(١) بن نبي، مالك. ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، بيروت: دار الفكر، ص ٥٠ – ٦٤.

عليه، ولابد من تلقينه درسًا لا ينساه، إن هو بقي على قيد الحياة.

فسيتصدى له الحصان والثور والكلب والفيل، فكل حيوان مفترس ماكر ضعيف في حقيقة أمره، إن واجهته الأمة السلامية بقوتها المتضامنة المبدعة والمخططة، وفكر الببغاء في خطة حرب نفسية ضد الثعلب، ما دام قد جاء هذه المرة وحده، ومن مزايا هذه الخطة أنها لا تفضح مكان الاجتماع إذا ما اضطروا للهرب، وتدخل الرعب في نفوس الحيوانات المفترسة، باستغلال ما في رؤوس كثير منها من خرافات، فنزيدهم منها، ونعلم صغارنا درسًا في التحصين ضد الخرافات بالتربية والعلم الصحيح؛ حتى لا يبقى بيننا حمقى ولا جهلاء ولا أغرار، بما يعزز مناعة الأمة ضد الحرب النفسية التي يوجهها أعداؤها إليها، وحرصت الجماعة على معرفة الخطة قبل الإذن لببغاء بتنفيذها.

وتبين أنها تتمثل في طيرانه فوق رأس الثعلب ما دام الضوء غير منتشر، وإطلاق أصوات مثل صوت الدجاج الهارب، فيتبعها بلهفة دون تفكير، ويطير الببغاء ببطء في ممرات ضيقة بعيدًا عن موقع الاجتماع، إلى أن يوصله إلى منطقة تساقط الصخور حيث يسكن البوم والنحل والكلاب والحمير والأحصنة، فيطلق سربهم أصواتهم فجأة، مع دحرجة الصخور عليه، وأثناء فراره يتبعه سرب من النحل بلدغاتها، في كل أجزاء جسمه، وعبر الببغاء عن وجوب التصرف على نحو لا يؤدي إلى هلاك ذلك الثعلب؛ ليبث الرعب والخوف في نفوس بقية الحيوانات المفترسة.

واتفق المؤتمرون على أن الهدف ليس إهلاك ذلك الثعلب بل تمكينه من الهرب، وقصصه في نفوس العدو عن الأشباح الحيوانية الرهيبة التي تسكن منطقة الصخور، فيشيع الخوف والانهزامية في نفوسها، فيتمزق صفهم بالحيلة والمكيدة، فالخائف من الخرافة يعجز عن التدبير ولا يقدر على شيء، وتم الاتفاق على تلك الخطة وتنفيذها متسترة بالصخور والعتمة، وفوجئ الثعلب بأصوات الحيوانات

الهلعـة، وأصـوات الخيـل والكـلاب الغاضـبة وصـوت حـوافر الخيـل البريـة أعـلى الصخور، التي يسمع صـوتها دون أن يراهـا، وسـيل الـصخور المتساقطة، مـع لـدغ النحل؛ فلاذ بالفرار من تلك الأشباح، وعادت تلـك الوحـدة الفدائيـة المتكاملـة إلى موضع الاجتماع، حيث تبادلوا التهاني، وعادوا سالمين إلى ديارهـم، وكان هـذا درسًـا عمليًا في الحرب النفسية الجماعية المخططة.(ص١٣٣-١٥٣).

وتقدم القصة هنا **درسًا معرفيًا بـالغ العمـق**، في خطـورة الخرافـة عـلى عقـل أمـة التوحيد، ووجوب تخليص عقلها وقلوبها ووجدانها منها؛ لكونها تصرف عن العلم وطلب السنن والأسباب العمرانية، وتؤكـد في نفس الوقـت عـلى أن توظيـف تلـك الأمة لأساليب الترهيب النفسي ضد العدو سلاح دفاعي مـشروع، يلـزم بـذل غايـة الجهـد في اسـتعماله عـلى نحـو يحمـي حيـاة الخـصم، ويـضعف قدرتـه عـلى العـدوان وحسب، فالأمة توظف هنا جهل الخصم بمنطقتها، والحرب خدعـة، ولا يفوتنـا في رصد الدرس المعرفي هنا، الإشارة إلى ضرورة التمييز بـين نـوعين مـن فئـات الأمـة: أشباه القرود، وأشباه الببغاوات، فالنوع الأول لا يمكن أن تعول عليه الأمة في أكثر مما يثير الضحك.

أما النوع الثاني المقلد، فيتوقف دوره على من يقلده ويحاكيه، فلقد رأينا الببغاء في دور هزلي من قبل يقلد القرد وينحاز إليه، ورأيناه هنـا يوظـف مهارتـه في التقليـد في رسم معالم خطة لحرب نفسية محكمة البنيـان، وفي عمـق هـذا الـدرس أيـضًا ضرورة الجمع بين التنظير والتطبيق، فهذا الموقف العملي كان فرصـة لإقنـاع مـن سـولت لـه نفسه الهرب من مواجهة العدو، بأن هذا مضاد لما اتفقت عليه الأمـة، وأن الحـل هـو تخطيط محكم ينتجه عقل الأمة، ويطبقها.

ثالثًا:معالم دستور الأمة: وفكرت الأمة في اجتماعهـا التـالي في دسـتور للمجتمـع، العبرة بالنسبة له ليست بتنميق مواده ونصوصه، بل بالالتزام به، بتربيـة الـنشء عـلى

قيمه ومبادئه من محضنهم الأول، وهو: الأسرة، والاستفادة من عبرة الخبرات السابقة، ومن عمق الدرس المعرفي الذي تقدمه هذه القصة أن تختار الأمة أن ترأس اجتماع صياغة فلسفة الدستور وأساسياته، الغزالة بما هو معروف عنها من كياسة وجمال وحكمة، وأن يكون أول المتحدثين هو: الحمامة؛ لتقدم خبرة نوعها التي جعلته على مدى التاريخ رمزًا للسلام والتعاون والانضباط والجدية والروح الأسرية المتراحمة والمحبة، وحسن تربية الصغار، وبينت الحمامة أن أهم صفات نوعها هي: الولاء النابع من الحب وحسن اختيار الشريك وتقديره، والثقة المتبادلة، فحسن الاختيار وتوثق الروابط أساس لتنمية الولاء للمجتمع وللجزيرة، وللصمود في وجه كل التحديات. (ص١٥٤-١٦٦).

وتبرز القصة في درسها المعرفي هنا محورية دور الأمومة والأبوة القائمة على المودة والولاء والثقة المتبادلة في بناء الأمم، على أن تتحول تلك المشاعر الوجدانية إلى حقيقة واقعة، بالتعاون في تنمية روح البذل وبالعدل في تقسيم الأعباء وتحمل المسؤوليات، وبأن تكون العبرة دائمًا ليست بالأقوال، بل بالأفعال، فأسرة الحمام تقوم على المساواة بين ذكره وأنثاه في تحمل الأعباء الأسرية، وفي تنشئة الصغار، وحين يكون القول مطابقًا للعمل، فإنه يولد الأسوة الحسنة للآخرين، فكل المخلوقات السلامية فطرت على حب السلام برمزه التاريخي وهو الحمام، لفرادته في نظامه الأسري البديع، وكانت خلاصة هذا الدرس أن الأسرة هي أساس البناء، وأن النموذج الحمائمي هو القدوة والسقف المبتغى التطلع لمحاكاته.

وفي اجتماع (الأسرة هي أساس البناء)، تغني الشحرورة أنشودة الحمام، التي كان الديك يحفظها، لكنه رأى أن لصوته دور هو (الأذان) لإيقاظ الطيور والحيوانات، ورشح الشحرورة لأن تسمعها هي بصوتها الجميل للأمة، وعنوان الأنشودة هو (الفتاة العاقلة والدخان)، وعصارتها هي: أن حمقاء دعت جارتها للهو واللعب

بشرب الدخان، فسكن الدخان الأسود في صدرها، وأدمع عينيها وفتك بقلبها، فالعاقل من لا يشرب الدخان، ولا يلعب بالنار، ويعصي الشيطان، ويرضي الرحمن.

فجذر المجتمع هو الأسرة، وجذر الأمة والنظام الاجتماعي هو تربية نشء عقلاء، وتربيتهم على الحب والعدل والجدية والولاء والمسؤولية والانضباط، وتدريبهم عليها، وعلى الاستقلال بشأنهم عند رشدهم، مع تجنب العنف الجسدي والقمع النفسي في تربية الصغار، فالعنف في التربية دليل عجز وجهل وتقصير، فالأبوة تعني المودة والتواصل والألفة والتعاون، والعمل ضمن السرب والجماعة، بروح الحب بالعاطفة وبالفعل وبالتعبير الجميل، وليس أسوأ ما في الحياة من قول بلا عمل، وليس في شأن الأمة ما هو أهم من تربية النشء على الحب وعلى مطابقة القول للفعل، وعلى الاحتكام فيما ينشب من خلافات إلى مبدأ: الإخوة في المجتمع الواحد، ووحدة المصلحة والمصير، فلا مجال للعنف في علاقات أفراد وجماعات المجتمع الواحد، ولا مجال لتصحيح من يقع عليه ظلم، للوضع عنوة وبيده، فطريق حل الخلافات الوحيد في المجتمع الواحد هو التحاور والتصالح، فإن لم تفلح، فاللجوء للقضاء والوسائل القانونية، وحتى في الخلافات الفردية والجماعية الحادة، يجب اللجوء للمقاومة السلمية، مع قيام الأمة بدورها في إخضاع المعتدي للحق بالطرق المناسبة، ولابد أن يستقر في ضمير القوي والضعيف مبدأ الإخوة والمساواة في المجتمع، وأن يكون هذا هو أساس ثقافة الأمة، وعنوان تنشئتها لصغارها، عندها لا تقبل الأمة الضيم، وتضمن لكل مظلوم حقه، ولا يعود أمام العدو سبيل لشق وحدة صفها، ولن يفكر أحد في الاعتداء على حق غيره؛ لأنه يعلم أنه سيستطيع استرداده بالوسائل القانونية السلمية.

هنا استفسر الحصان: إذا كانت الخلافات داخل الأمة السلامية لن تسوى إلا بالطرق السلمية القانونية، فماذا عن الخلافات مع العدو الخارجي والخطط العسكرية المتفق عليها في الاجتماعات السابقة لمقاومته؟ وهنا يأتي الدرس المعرفي

لهذا الموقف مستقى من القرآن الكريم الذي يقرر أن: المؤمنين رحماء بينهم، أشداء على عدوهم. يقول الله تعالى في ختام سورة الفتح: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾.

فالأمة السلامية تنشئ أجيالها على مسالمة من يسالمها ومعاداة من يعاديها، وهي تحب العفو، لكن عند مقدرة، وعليها أن تبني الأسرة على المودة والتراحم فيما بينها، وعلى الشدة على أعداء أمتهم، فمن شب على شيء شاب عليه، والعاقبة من جنس العمل، ولا يحصد المرء إلا ما زرع، فلا عنف في الأمة إلا أن يكون رياضة وديه أو استعراضًا مسليًا، فعنوان العلاقات بين أفراد الأمة السلامية وفئاتها هو: **التراحم والسلام للجميع**. (ص١٦٧-١٩٠).

وتقدم القصة هنا درسًا معرفيًا بالغ العمق، قوامه: أن لا مجال للعنف في تسوية أية خلافات تنشب بين مكونات الأمة السلامية، ولا لجوء للعنف تجاه مكونات الأمم الأخرى التي لا تعادي الأمة السلامية، ولا تخاذل عن مدافعة من يعتدي عليها؛ حتى ترد صولته مع العفو عند المقدرة. يقول الله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

رابعًا: مرتكزات رسالة الأمة الإسلامية في الأرض: يأتي الدرس المعرفي الأعمق في الاجتماع الذي يرأسه الجمل، مستوحيًا حقيقة أن رسالة الأمة الإسلامية في

الأرض لا تقف عند حدود تحقيقها العزة والمنعة والحياة الطيبة لنفسها، فهي خير أمة أخرجت للناس، وشعارها هو (السلام للجميع)، ولا تخفى دلالة أن يترأس الجمل اجتماعًا يبحث هذا الموضوع، رمز الصبر وقوة التحمل، وهو من حمل النبي ﷺ والصديق من مكة إلى المدينة مهاجرين.

وهو يؤكد أن سلام الأمة السلامية وأمنها مرتبط بنشره الأمن والسلام في كل ربوع المعمورة، وبنشر قيم منهجها السلامي، فهي تتطلع ليوم يقلع فيه الكواسر المفترسون عن عدوانهم على غيرهم وعلى الضعفاء، ويسخرون قوتهم للعمران بدل الدمار؛ ليحل مجتمع الإخاء والسلام والبناء الشامل، محل مجتمع الخراب والعداء والعدوان الشامل، ولتلك الأمة سابقة تاريخية في تحقيق هذا الهدف في الواقع الإنساني المعاش.

ومتطلبات تحقيق الأمة هدف بناء مجتمع السلام العالمي، هي تنشئة أجيال الأمة قولًا وعملًا على **ست دعائم**: **أولها**: الحوار الإيجابي البناء.

و**ثانيها**: إقامة النموذج الأسوة الناجح.

و**ثالثها**: نشر ثقافة الأمن والسلام، داخل الأمة، وفيما حولها، وعلى الصعيد العالمي.

ورابعها: تنشئة النشء على بغض الثرثرة الفارغة، والإقدام على العلم والتفكر في السنن الكونية، مع العناية بالرياضة والجمال بوصفها هي مفتاح حب طلب المعرفة والإبداع عند النشء وفي فنون العمران وعلومه، فالأمم الضعيفة البائسة تكثر الكلام، وتجيد تنميقه، لكنها لا تجيد تحويل ما تقول إلى أفعال، ولا تجيد تربية صغارها على روح المسؤولية والتعاون والجمال، فلا تنفعها الثرثرة بل تلهيها عن الاستعداد لمواجهة الأعداء، وما أورد الأمة موارد الانحطاط شيء أكثر من الثرثرة الفارغة وإدمان الأحلام، والانخداع بأقوال الأعداء، فلابد من الحكم على كل

فئات الأمة بأفعالها، لا بأقوالها، فحسن نية الغبي الجاهل لا تنفع الأمة، ومثله مثل الدب الذي هش الذبابة عن فم صاحبه بضربة من رجله فقتله، ومما يقتل الأمم الاستماع لمعسول كلام أعدائها، دون فحصه وتوفر دليل قاطع على صدقه، فالعدو ليس أهلًا للثقة فيما يقول، وإن لبس مسوح الرهبان.

وخبرة التاريخ تثبت أن عدو الأمة لا يهديها إلا إلى سبيل البوار، وسوابق الأعمال ومعلوم الخصال، تنبئ بمخبوء المستقبل، وتحذر من قادم الأفعال، فالدعاوى سواء كانت من الداخل أو الخارج يجب أن تمحص، وتعاير بالأفعال وبالجوهر، لا بالأقوال والمظهر وبذا يتعرى أدعياء العلم والعمائم وأرباب الأقلام وزائف الإعلام، ويصبح كلام الأمة خططًا حقيقية، وتصير حياتها حياة حقيقية، لا مجرد مسرحية هي عليها في موقع المتفرج وتصير قيادة الأمة قيادة جد وعمل مسؤول، وليس فئة تعمل لصالحها الخاص، ويجافي معسول كلامها، سوء فعالها، ولا تؤوي إليها إلا المتملقين المزيفين.

و**خامسها**: الاستفادة من خبرة الماضي بتحريم الأمة الظلم على نفسها، وعدم قبوله من غيرها، فالقوة الإسلامية قوة سلام لحماية الأوطان ورد العدوان الخارجي عليها، وهي لا تعرف العدوان ولا الظلم.

و**سادسها**: بناء الوعي بأن العاقل من يتعظ بغيره.

والدرس المعرفي البليغ الذي تقدمه القصة هنا أن مثابرة الأمة في التخطيط، وفي تحويل خططها إلى عمل، أسفرت في هذا الاجتماع عن تحول القرد إلى الجدية، معترفًا بأن الحيوانات السلامية الجادة، من حقها أن تنظر إلى القردة والببغاوات بعين الريبة؛ لكونهم لا يقتربون من القيادات بالجد والعمل والإخلاص، بل بالنفاق والتملق والكذب، ما يدفع القيادات المخلصة لعدم الاستماع إليهم؛ لأنهم يدعونهم إلى الفساد والاستبداد والإضرار بالعباد، وقال لقد تابعت حديثكم في الاجتماعات

السابقة، وآن الأوان لأن نسمع لنصحكم، فنجعل دورنا هو الفكاهة والتسلية والتمثيل، وليس الغش والكذب والتملق والفساد؛ وبذا يعرف الجميع أن جزيرة البنائين غيرت طباع القرود والببغاوات المعروفة.

فلا مجال لها في مجتمع الفضيلة والعدل والشورى والإخاء، وهنا تأتي الإشارة إلى محورية الرؤية الكونية الحضارية القرآنية الكلية؛ لتستبين الأسئلة الكبرى النهائية، وليرتبط عالم الغيب مع عالم الشهادة في خطة إحياء الأمة.

خامسًا: مرتكزات الرؤية الكونية الكلية: تقول الشحرورة أنها لزمت الإنصات طيلة الاجتماعات السابقة؛ لأن (كثرة الكلام دون حاجة إليه مرض وقانا الله جميعًا منه)، فهي ترى أن ما دار في الاجتماعات قد كشف الكثير من أخطاء الماضي، وسلط الضوء على كثير من دعائم بناء مجتمع الشورى والعدل والقوة الدافعة للعدوان، فلم تجد حاجة إلى الكلام، وبقيت نقطة واحدة هي: بيان الرؤية الكونية لمعرفة الغاية من حياتنا بوضوح، ومعرفة معنى الحياة، وأساس علاقتنا بغيرنا من الكائنات، فالبناء النفسي والوجداني والعقلي للأمة لابد أن يرتكز على هذه الركيزة، ولابد من تنشئة الأجيال عليها.

فالغاية من الحياة ليست مجرد الأكل والشرب والترويح، فكل ذلك وسيلة لغاية هي تحقيق المعنى الحقيقي للحياة، والهدف الأخير منها على شاكلة ما بالكون من خير وجمال وروعة وإبداع، فغاية حياة الحيوانات الطيبة هي الخير لكل الطيبين، ونبذ الحياة المادية القائمة على العنصرية والظلم، فهدف أمة جزيرة البنائين هو: بناء حياة خيرة في جزيرتها وواديها، وحمايته من العدوان، وتسخير كل ما بالوادي من إمكانات مادية وجمالية لخدمة كل الكائنات الطيبة، وتوفير الرفاهية والأمن والترويح البريء لهم وللأجيال الناشئة من بعدهم، وبناء نظام عالم العدل والسلام؛ لتنعم به كل الكائنات الطيبة في كل ربوع الأرض، ولتحمى به من كل الشرور.

وما دامت الغاية نبيلة وأخلاقية، فلابد أن تكون وسائل تحقيقها نبيلة وأخلاقية ومتناغمة مع الفطرة التي فطر الله الكائنات الطيبة عليها؛ حتى لا نأسف يوم النشر والحساب. (ص١٩١-٢٢٢).

ولا تخفى دلالة اختصاص الشحرورة ببيان الرؤية الكونية الكلية، بما هو معروف عنها من جمال ومن حسن صوت، على ضرورة تقديم تلك الرؤية للنشء وللعالم كله من مدخل حب الله والحب فيه، وها هي تدعو الحضور إلى غاية سلوكية فحواها: التسبيح الإنساني المشترك مع كل ما بالوجود من كائنات، فالكون آية في الخير والروعة والجمال، وتكليف الله للأمة السلامية هو أن يكون نظام حياتها على شاكلة العالم الذي استخلفها الله تعالى فيه.

وهنا تضعنا القصة أمام موقف عملي، شج فيه رأس الحمار بجوزة هند سقطت على رأسه، وتتضمن المعالجة: إحضار السنجاب المتهم بإسقاطها، وتولي القطة تنظيف مكان الجرح في رأس الحمار بلسانها، ويضعنا هذا الموقف أمام معنى مهم، فالذي جاء بالسنجاب إلى مكان المحاكمة صاغرًا هو القرد.

وهكذا لم توف القردة بوعدها بقصر دورها على التسلية وحسب، بل باتت تشارك إيجابيًا في إقامة العدل في جزيرة البنائين، وتحرص البومة على تهدئة السنجاب الخائف، وتدعوه إلى حكاية قصته، فالاجتماعات لمصلحة الجميع، وهو واحد من الأمة، وعرفته بأن غاية الاجتماعات هي جمع شمل الأمة وإعادة بناء الجزيرة وتعميرها، وسألته عن سبب عدم حضوره، ووجوده على شجرة جوز الهند وتسببه فيما حدث، فقال السنجاب أن السبب هو الخوف من الجوع، والرغبة في تأمين الغذاء لبياته الشتوي، فمعذرة عن عدم المشاركة في الاجتماع، وعن التسبب بغير قصد في أذى للحمار.

ولمست البومة تفهم الحضور لحجة السنجاب، فقالت له: لا تخف، فالحمد لله إصابة الحمار ليست خطيرة، ولو كنت حضرت الاجتماع وأبلغتنا بمشكلتك كنا

سنساعدك على حلها، فنحن لسنا أفرادًا لا يهتم كل واحد إلا بنفسه، فذاك كان سبب ضعفنا، ولن تكون في خوف من الجوع بعد اليوم، ولم يبق إلا أن تعتذر لأخيك الحمار عما سببته له من ألم، فاعتذر وقابل الحمار اعتذاره بالصفح والغفران (٢٢٤-٢٣٨).

ويضع هذا الدرس المعرفي أيدينا على أساسيات التعامل مع الأضرار غير المتعمدة التي قد يلحقها أحد مكونات الأمة بآخرين، فلقد بين هذا النموذج أن الأمة اهتمت بمعالجة الضرر أولًا، ثم أعطت المتسبب الفرصة لشرح مبررات الوقوع فيه، ثم وعدته بأن تعينه في معالجة تلك الأسباب، ودعته فحسب إلى أن ينتظم في صف شوراها واجتماعاتها، يفصح لها عن ما يصادفه، ولن يجوع بعد اليوم، وسيعاونه آخرون في سد حاجته، بل في سد حاجة أجيال صنفه القادمة، ويزداد هذا الموقف المعرفي عمقًا، حين تقرر الأمة أن يترأس السنجاب اجتماعها، وواصلت الشحرورة حديثها عن الرؤية الكونية الكلية، بوصفها أساس عقيدة المجتمع السلامي والمحرك لطاقاته الكامنة، وسعت لتعليم الحضور جوهر الرؤية الكلية بضرب الأمثلة.

فالحياة دون غاية تماثل الشجرة التي لا زهر لها ولا ثمر، والتربة الجرداء التي لا ماء فيها ولا زرع، وعين الماء التي تنبع من الجبل وتجري بين الصخور إلى البحر المالح، فالحياة التي لها غاية مماثلة للزهر، والحياة التي لا غاية لها مماثلة للشوك، ومعنى الحياة هو خيار بين: عسل مصفى، أو قيح صديد، والكائنات تنقسم وفق اختيارها إلى: أمثال الذباب المتتبع للقاذورات، والنحل المتتبع للزهور ورحيقها النافع، والناقلة للقاح، ولا تلسع إلا من يعتدي عليها، وتضمن هذا الدرس المعرفي عدم السماح لأحد بالعيب في حق أحد، وضرورة التفرقة بين أسلحة الدفاع وأسلحة العدوان.

وتابعت الشحرورة الحديث عن معنى حياة السلاميين وغايتهم الحياتية

الإعمارية، وبناء الحضارة السلامية الراشدة، فالحياة عديمة الغاية والمعنى وغير القائمة على الفطرة السوية والعدل والضمير والخلق والتماثل مع جمال الكون وإبداعه، لا تستحق أن تسمى حياة، ولا لأن يتطلع أحد من الطيبين إلى أن يحياها، فالحياة الطيبة حياة إبداع سوي جميل خير، والعمل الهادف الذي يبني ولا يهدم ويصلح ولا يفسد هو أساس معنى الحياة، ودرس التاريخ هو التلازم بين الاستبداد والفساد، فلا حياة طيبة ما لم تجفف منابعهما، والتضحية واجبة، فلا معنى للحياة إلا أن تكون حرة كريمة مثمرة. (ص٢٣٩-٢٥٢).

ومن المهم ملاحظة أن تلك الاجتماعات الأمتية رتبت على نحو يراعي عدم توقف عجلة العمل والإنتاج.

وهنا يأتي الدرس المعرفي المتعلق بكيفية التخلص من آفة الفساد والاستبداد، ومفتاح ذلك هو عدم جمع السلطة في يد شخص واحد أو مؤسسة واحدة؛ لأن ذلك يجعل منه ومنها خصمًا وحكمًا في آن واحد، ومن أمن الحساب والعقاب أساء الأدب. ولكن الخبرة المستفادة من تجارب أمم عديدة هي أن تقسيم السلطة وتعدد المؤسسات لا يكفيان لتجفيف منابع الفساد والاستبداد، والسبب هو ضعف وعي الجماهير.

فحرية اختيار الأمة لممثليها لا تكفي، ما لم يتوفر لدى أفرادها مقومات حسن الاختيار، **فحسن الاختيار يبني الديار**، والاكتفاء بالاختيار الشكلي، يوقع في فخاخ أصحاب المصالح وتجار الرذيلة، ومحاكاة الببغاوات في الاستماع لكل ناعق، والاغترار بقول كل طامع، فلابد من بناء الوعي المؤسس على معرفة صحيحة في جمهور الأمة.

وهناك سنن وقواسم مشتركة في المجتمع نابعة من منظومة قيم أديان المجتمع ومعتقداته، تمثل أساس الوازع الحضاري لدى الأفراد والجماعات، فإلى جانب دستور الأمة الذي يجب بناء وعي الأمة بجوهره وبمبادئه كقاسم مشترك بين كل

فئات المجتمع وتأسيسها على قيمه الدينية والأخلاقية، يجب إقامة ثلاث مؤسسات: سلطة الشورى والرقابة وسن القوانين، والسلطة التنفيذية، والسلطة القضائية، وكل من تلك السلطات مستقل بمهمته، لكنه متعاون مع السلطتين الأخريين، وتتعدد البرامج السياسية بحسب تعدد المصالح مع مراعاة التداخل بينها، ويؤسس القرار على توافق الأغلبية مع رعاية حقوق الأقلية الأساسية، مع اختصاص مؤسسة الأسرة برعاية مجتمعية فائقة.

وعلى تلك المرتكزات يأتي الدرس المعرفي الخاص بضرورة تحرير العقل المسلم من الخرافات والشعوذة، ومن الترهيب في (محاريب ضرار الفساد والاستبداد والتبديد) باستعادة نقاء منظومة العقائد والقيم والمبادئ الإسلامية الصحيحة، وتفعيلها في واقع الأمة، ورفض خيار إنكار دور عقائدنا وأدياننا في سلوكنا ومقاصدنا، وفي تربية أبنائنا، وبناء شخصيتنا، فهي قوة معنوية لا غنى عنها في ترشيد خياراتنا وحياتنا وتدعيم كل وجوه الخير والإبداع والجمال في نفوسنا وفي مجتمعنا.

ويجب عدم قبول خيار تهميش الدين أو توظيفه لخدمة السلطة أو استغلاله لغير الحق والخير والعمران، وحده التفعيل البناء للدين والقيم والعقائد ومعرفة الخطة المحققة له، هي التي يجب التفكير فيها وصياغتها.

ولا إكراه في المعتقدات وفي الدين، وهي لا تتعلق بالماديات، بل بالروح والضمير والقلب والوجدان، وهي تغرس في الصغار من نعومة أظافرهم، وفي الكبار بالإقناع والحجة والاختيار الحر، وهي مسألة اقتناع شخصي. أما البرامج السياسية والاجتماعية فهي قابلة للتعدد وإن تأثرت بقيم المجتمع ومعتقداته، ويجب التوافق بشأن أساسياتها في الوثيقة الدستورية للأمة، ويجب إبعاد الأديان والمعتقدات عن يد السلطة السياسية، وعن سطوة رجال المال.

وليس في هذا إنكار لقدسية الدين، بل تنزيه له عن تلاعب أصحاب المصالح

الخاصة به، مع دعم دوره في الأداء الكلي للمجتمع وفي التأثير القيمي على برامجه وعلى أولوياته؛ حتى تظل الساحة السياسية ساحة خيارات متعددة، تقوم على مقارعة الحجة بالحجة، وعلى البحث عن التوافق والقاسم المشترك، وليس في هذا فصل بين الدين والسياسة، بل فصل بين الدين والسلطة، فالعقائد والقيم والأديان هي أهم أسس السياسة وتنظيم الشأن المجتمعي، ولا يمكن الفصل بينها وبين السياسة، فقط يرمي فصلها عن السلطة، إلى جعلها الوصال بينها وبين السياسة مأمونًا لا يقود إلى توظيف الدين ولا إلى تهميشه وسوء استغلاله لمآرب خاصة.

ومن المهم نبذ الوصاية على الأمة وفرض أية خيارات عليها غير مبنية على قناعاتها، والجهل يعالج بمزيد من التوعية والتعليم والتنوير، والأمة هي الأصل، والدولة هي الفرع التابع لها، والطريق إلى هذا الفصل بين الدين والسلطة هو إنشاء مؤسسة مستقلة للدعوة تجمع المؤهلين من العلماء ممن تنتخبهم الأمة لعضويتها، وينفق عليها من المال العام والأوقاف الخيرية، وتتولى تلك المؤسسة مهمة تعليم الدين والدعوة الحسنة إليه لكل من يبتغي تلك المعرفة.

والغاية من هذا الفصل المؤسسي بين السلطة السياسية والمؤسسة الدينية الدعوية، هو الاستفادة من درس التاريخ، فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، فالهدف من ذلك هو التخلص من مجتمع القهر والوصاية والقسر، واستعادة المجتمع الراشد التوافقي الحر، فذاك هو مقياس قوة المجتمعات وضعفها، ومفهوم الدولة أوسع من مفهوم الحكومة، فالعنصر الأهم فيه هو الشعب، ولا تتعلق مؤسسة الدعوة بالبرامج السياسية، فالأخيرة متروكة لجمهور الأمة وخياراته وأولوياته وظروفه الحياتية المعقدة، ودور تلك المؤسسة الدعوية هو التنشئة والتعليم والترشيد، القائم على معرفة جامعة بين الوحي المنزل والسنن الكونية والعلوم الاجتماعية، فهي مؤسسة تعليمية تربوية مقاصدية، وكفى الأمة استبدادًا

وظلمًا وفسادًا، حين استولى الديني على السياسي، أو حين استولى السياسي على الديني، أو حين أقصى السياسي الديني أو حين همش الديني نفسه بخرافية محتواه، أو حين همشه السياسي بقصره على الموالد والمناسبات والمآتم.

وهنا تسأل البلبلة: هل مجرد إقامة مؤسسة دعوية مستقلة ومؤهلة لنشر ثقافة دينية صحيحة في الأمة، يكفي لمنع توظيف الدين وتهميشه وتحرير إرادة المجتمع من التزييف والتضليل؟، وبدأت البلبلة الاجتماع التالي باستعراض جمالي صداح للطيور، أعقبه اختيار الزرافة رئيسًا للاجتماع، وموضوع الاجتماع هو (كيف نحمي إرادة المواطنين من التزييف والتضليل؟).

فبدون الإرادة الحرة الواعية لا يستقيم أمر ولا تنظيم ولا حكم، ولكن كيف يتم بناء تلك الإرادة الحرة الواعية؟ خبرة التاريخ تقول إن كثيرًا من الأمم صاغت خططًا محكمة لتنظيم شأنها، لكنها لم تصمد مع مرور الزمن وتغير الواقع، ولم تحمها من تزييف إرادة مواطنيها، وكانت مؤسساتها ستارًا لكثير من الماكرين الفاسدين المتعاونين مع الإعلام الدخيل المغرض، والمنظمات الاستغلالية السرية والعلنية، في تزييف إرادة الشعوب، لخدمة مآربهم، وهؤلاء يجعلون الشعوب تأن، واهمة أنها هي صانعة القرار، وأن ليس بالإمكان أبدع مما كان، والحقيقة أن تلك الشعوب واهمة، فهي سلمت قيادها لمتآمرين يزينون بضاعتهم الزائفة، ويحجبون عنها كل صوت ناصح أمين.

فالأمم القابعة في بحر الظلمات، تأخذ منها السلطة باليد اليمنى ما تعطيه لها الدساتير من ضمانات وحريات باليد اليمنى، وتبقى معاناتها مستمرة، وإن كانت بدرجة أقل من الوديان التي تنعدم فيها الدساتير والمؤسسات، أو توجد فيها مؤسسات ودساتير وقوانين صورية غير مفعلة في أرض الواقع، فالأمة دون إعلام حر نزيه مستقل مثل الأطرش في الزفة، والأعشى في الظلمة.

وماضي الأمة غني بدرس وجود ماكرين من بني جلدتها وأعداء متربصين بها يخادعوها بمعسول الكلام عبر فضائياتهم وقنواتهم وصحفهم ودورياتهم وكتبهم، ويغزون بسمومهم عقلها ووجدانها، فلا إصلاح للأمة إلا بإعلام مستنير يحقق وعيها بالحقائق، ويرسخ قيمها ومبادئها، ويعصمها من المظاهر ومعسول الكلام، والسبيل إلى إقامة مثل هذا الإعلام المستنير البناء هو إسناده إلى مؤسسة شعبية، بمجلس إدارة منتخب بشكل مباشر من الشعب، مستقلة شأنها شأن مؤسسات الدعوة والشورى والقضاء، تمول من مال الأمة، حتى يكون ولاؤها لها وتمثل إرادتها، والأمة بحاجة إلى إعلام له حدة أذن القط، وحدة نفاذ عين اليمامة، وولاء ويقظة كلب الحراسة؛ حتى يستحيل تضليلها. (ص ٢٥٢-٣١٤).

وتختتم هذه القصة الطيبة بدرس معرفي خاتم هو ضرورة التذكرة بالمعالم الكبرى لخطة الإحياء والإعمار التي يجب أن تظل في بؤرة وعي الأمة وأولوياتها، فالأمور لا تستقيم إلا باكتمالها وتوفر شروطها، **فالقِدْرُ** لا يستوي على الموقد إلا إذا كانت له ثلاثة أرجل، ولا مثلث إلا بثلاثة أضلاع، والمجتمع شبيه **بالقِدْرُ** من ثلاثة وجوه، لن يستقيم أمر الأمة إلا بها:

أولها: الأسرة. فهي محضن تنشئة جيل المستقبل الحر الواعد.

وثانيها: التربية والتعليم والثقافة المولدة للقدرات والمهارات، ووفق محتواها ووسائلها تكون نوعية شباب الأمة، ومؤسسة التأهيل هنا هي: المدرسة، التي تعتبر المعرفة عمل وحياة تستلزم التطوير والإبداع والتجديد المتواصل.

وثالثها هو: الإعلام بكل صوره المسموعة والمقروءة والمرئية، فهو مصدر رؤية المجتمع، فإن لم تكن أذنه سليمة، فإن المجتمع يصير أعمى وأصم يرهف بما لا يعرف، ويسيء حيث يظن أنه يحسن الظن، ويضر حيث يظن أنه ينفع، وبدون تلك الأرجل الثلاثة ينسكب الطعام على الرمال، فدون إعلام مستنير يهدر الكثير من

جهود الأسرة والمدرسة، فعلينا حماية إرادة الأمة وذوقها وأخلاقياتها من تضليل إعلام أصحاب المصالح، ودعاة الرذيلة، ونوفر قنوات إعلامية حرة مستقلة كافية للتعبير عن إرادة الأمة ومصلحتها الحقيقية. (ص٣١٥- ٣٢٦).

ولا وجود للفرد دون الجماعة، ولا للجماعة دون الفرد، وسلامة الأفراد تكون بسلامة الجماعة، وسلامة الجماعة تكون بسلامة الأفراد، والبعد الجمعي ومؤسساته هو عماد حياة الأمة، ومن دون مؤسساته وخدماتها لا وجود للأمة ولا للفرد، والحياة العامة ومؤسساتها إن صحت وسلمت هي درع حياة كل فرد فيها، ومن أفراد الأمة، تتكون مؤسساتها، فإن صلحوا صلحت، ولذا يجب تنشئة الطفل على الولاء لأمته والارتباط بها والمساهمة في بناء مؤسساتها العامة، ولا موضع للعنف في المجتمع السلامي، ولا يبقى للعنف دور إلا في رد العدوان عن الأمة وديارها. (ص٣١٥-٣٣٥).

وتختتم هذه القصة بدرسين معرفين هما مسك الختام:

أولهما: هو أن الذي يختم هو الهدهد حامل رسالة التوحيد من سليمان ﷺ إلى بلقيس، وحديثه هو قصيدة شعرية عن (القدر ذي الأرجل الثلاثة) يثني فيها على الرسول، ويؤكد على قيمة العقل، ويرجو الله تحقيق أمل الأمة، وترديد الجميع مع صغارهم ذلك النشيد.

و**ثانيهما**: هو إفصاح أبو سليمان دون مواربة بأنه يحكي في هذه القصة على ألسنة الحيوانات (قصة الأمم والشعوب في نهضتها وانحطاطها)، ويجلي أسس الرشد الحضاري للأمم، ومنابع الانحطاط والتردي الحضاري، وحاجة الأمة إلى مؤسسات سبع: شورية وتنفيذية وقضائية ودينية وتربوية أسرية وتعليمية وإعلامية؛ لتكون هي البنية المؤسسية التحتية للتقدم والإبداع واستئصال الاستبداد والفساد في كل مجتمع.

وينبه إلى أن قصته (كنوز جزيرة البنائين) تناقش ما ورد بقصة جزيرة البنائين من مفاهيم وقيم ومبادئ كما فصلها الإسلام الذي جاء به النبي الخاتم ﷺ، بهدف حسن فهمها وتفعيلها في العملية التربوية (ص٣٣٦-٣٤٣).

(٣) كنوز جزيرة البنائين[1]:

يقوم معمار هذه القصة، التي يهديها إلى كل الآباء والأمهات والشباب والشابات، وإلى الأمة كلها لتحمل مسؤولية بناء أجيال الغد، وأمة الروح والعدل والإخاء والتكافل والعطاء والسلام والإنسان والإسلام والدارين وغايتها هي تعميق المفاهيم والمبادئ والقيم النابعة من الرؤية الكلية الإسلامية الحضارية للإنسان المعاصر، وإعادة صياغة مفهوم الأمة على أساس الرؤية الكونية القرآنية اللازمانية واللامكانية، وترشيد مسيرتها الحضارية المعاصرة، ويرويها أبو سليمان على لسان الفيلسوف بيدبا صاحب قصة (كليلة ودمنة) الشهيرة، التي تتحدث على ألسنة الحيوانات عن كيفية تخلص الأمة من الاستبداد والفساد، على أنها حلقة مفقودة، تضمنت الحوار بينه وبين الرحالة المسلم ابن بطوطة، وهكذا يفصح المؤلف من البداية عن أن بيدبا لا يروي فيها حكمة الهند كما هو الشأن في كليلة ودمنة. (ص٧-١٣)، بل هو فيها في دور المتلقي لحكمة الشرق الإسلامية التي غابت عنه.

ومن الملاحظات عميقة الدلالة التي يجب أن لا تفوت قارئ (كنوز جزيرة البنائين) أن الحكمة الإسلامية تنقل هذه المرة من المشرق الإسلامي، إلى فيلسوف الهند الشهير، وهي لا تنقل إليه بمفرده، بل لجمهور الشباب والشابات من طلاب العلم، ويؤشر ذلك على تعويل مؤلفها على غد إسلامي مشرق، لا يقف عند حد

(١) أبو سليمان، عبد الحميد. كنوز جزيرة البنائين، قصة حوارية تربوية في التنشئة السوية العقدية الاجتماعية للشباب والكبار، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٣. وتقع هذه القصة في: ٤٤٨ صفحة.

نهضة الأمة الإسلامية في الفضاء الجغرافي الذي وصلت إليه، بل يعم الأرض كلها، ولا ينشغل بهاجس تحدي الحضارة الغربية المادية العنصرية، بل يتطلع إلى تقديم خطاب إسلامي رشيد للأجيال القادمة، تدخل به في دين الله أفواجًا، على غرار ما دخلت شعوب الهند وجنوب شرق آسيا به بأخلاقيات وسلوكيات التاجر المسلم في لحظة الازدهار الإسلامية الأولى.

ويقوم معمار قصة (كنوز جزيرة البنائين) على **أحد عشر** محورًا، وملحقين ختامين ينتقل فيهما المؤلف من الخطاب غير المباشر إلى التنظير المباشر لمؤسسة شورى الأمة، ولبناء مفهوم شخصية القانون وإقليميته، وفيما يلي إطلالة على المعالم الكبرى لمفاصل هذه القصة التربوية:

أولًا: تفرد التربية الأسرية في جزيرة البنائين: يروي الفيلسوف بيدبا ما حكاه له ابن بطوطة عن كنوز الحكمة الإسلامية، كما تجلت له في جزيرة البنائين، التي زارها، ورأى فيها من الأمن والسلام والازدهار، ومن المؤسسات المتكاملة، ومن التنشئة الحضارية الرشيدة، ومن حسن الكرامة لدى المواطنين، وحسن المعاملة، ووضوح الرؤية الكونية، ما لا نظير له، وما لا يمل من حكاية أخباره ووصفه، وأول ما شد انتباهه أن الأمهات لا يربون أبناءهم على الخوف فلجودة الثمرة شجر الرمان في تلك الجزيرة، وكون حباته تترك بقعًا لا تمحى على الثياب، وعلى أثاث المنزل، خاصة حين يتناولها الصغار، ابتكرت الأمهات ذوات الثقافة التربوية الرفيعة التي تعف عن إصدار أوامر للأطفال، يصعب عليهم تذكرها واتباعها، إلى حيلة طريفة تمثلت بالقول بأن في كل ثمرة رمان حبة من الجنة؛ حتى يحرص الأطفال على عدم وقوع أي حبة منها، وأثارت الأمهات بتلك الحيلة التربوية البريئة مفهوم الحب والرغبة بكل إيجابياتها في الطفل، وتلك هي التربية الإنمائية الإبداعية للنشء.

وتحدث ابن بطوطة عن أنماط التربية السيئة التي لاحظها في البلاد الأخرى التي

زارها، القائمة على القهر والأمر والترهيب، التي تغرس في نفسية الطفل الكراهية التي تنتهي بالعناد، أو بالجبن والكذب والنفاق، ومن أنماطها كذلك تربية الطفل على الخرافة؛ نتيجة جهل الأمهات والآباء وقصور معارفهم التربوية، فالأم الجاهلة تؤذي أبناءها وتجني على الأبرياء، فالأم الجاهلة تسعى إلى حماية ابنها بمنعه من الخروج في الظلام بتلقينه خرافة وجود جنية وعفاريت تؤذي الأطفال وتفتك بهم، فيحذرون من الخروج من المنازل في الظلام؛ حتى لا تلتهمهم تلك الحيوانات الخرافية.

وتغرس تلك التربية السلبية الخوف في نفس الطفل من الخروج إلى غير المألوف من الأماكن، ويمتد هذا الأثر السيئ إلى الشعوب والأمم، رغم صدوره عن حسن نية والدية، فالعدو العاقل خير من الصديق الجاهل، ومثله مثل الدب الذي قتل صاحبه لهش عنه ذبابة وقفت على رأسه، والأمم التي تقع في الخرافة تتبدل صفاتها بمرور الزمن ويضعف بنيانها وتضعف نفسية أبنائها، فالخرافة ملازمة للكذب، والأخير باب لضعف الأمم وانهيارها، فحين يحل الكذب محل الصدق يتبدل حال الأمم من القوة إلى الضعف.

والصدق يشيع في الأمم بحب القراءة والمعرفة وانتشار المكتبات العامة في كل حي، مع احترام الطفل، والتحاور معه، وإعطائه مساحة للتصرف والمبادرة والتجريب والإبداع والمعرفة، فحب المعرفة واحترام الإنسان هما عماد التمكين لصفة الصدق في الأمة.

فالطفل في سعيه لاستكشاف عالمه، قد يقع في خطأ، ولابد أن يتاح له في التربية السوية فرصة الاستفادة من الخطأ، وإن كان الخطأ فادحًا ولابد من عقاب فليكن العقاب محتملًا يقصد به التعبير عن الجدية وعدم الرضا، كالحرمان من النزهة في عطلة الأسبوع؛ وبذا يتعود الطفل الصدق في القول حين يقع في الخطأ، فيصير طبعًا

له في شبابه وشيبته، وهذا هو سبب حرص أمة جزيرة البنائين على الصدق في المعاملة وعلى الرقابة والشفافية في عمل المؤسسات، وعلى عدم مغفرة كذب القادة، بحيث يغدو الكذب بينهم استثناءً مرفوضًا ومذمومًا.

ولكن كيف يتأصل الكذب في أمة من الأمم؟ باب انتشار الكذب في أية أمة هو سيادة العقلية الخرافية والثقافة الجاهلة السلطوية، وهو ما حدث في أمتنا ذات التاريخ التليد في الصدق والقيم السامية والإنجازات الحضارية، وأصبح الكذب فيهم وبينهم شيئًا معتادًا، بل باتت شعوبها لا تتوقع من قادتها غير الكذب، وما كان للقادة والمؤسسات أن تفتقد المصداقية، لو كان خلق الأفراد لا يتقبل الكذب، فلقد صار الكذب وسيلة سلبية لطلب المكاسب، وطوق نجاة سيء للتخلص من المآزق.

فكيف حلت تلك الكارثة الخلقية الاجتماعية؟ لقد كان بداية الخلل يسيرًا ومغلفًا بالنوايا الطيبة، حيث تهاونوا في بناء الوعي بالأساليب التربوية السليمة، وكان الآباء والأمهات شديدي الحرص على حسن تربية أبنائهم، ولكن انتشار الخرافة والمفاهيم السلطوية بينهم، دفعتهم إلى العنف الذي هو وسيلة العاجز، في تعاملهم مع أطفالهم، فقابلوا خطأ الطفل بعقاب بدني ونفسي بالغ؛ ظنًا منهم أن ذلك سيمنعه من معاودة الخطأ، فلم يتعلم الطفل معنى خطئه، وكره والديه، ورغب في التشفي، ولاذ بالكذب.

فأدى العلاج الخاطئ للخطأ إلى خطأ أبشع منه هو الكذب اتقاء لقسوة الوالدين، وأصبح تصحيح الخطأ أشد صعوبة، وبتكريس إحساس الطفل بحاجته إلى الكذب، يصير ذلك هو طبعه مدى حياته في تعاملاته مع المجتمع، فآثار التربية العلمية الأسرية لا تقتصر على الأفراد بل يمتد أثرها إلى الأمم، وهذا هو سر فشل مؤسسات الأمة التي ينتشر فيها الكذب في تحقيق مقاصدها، فالعلم نور، والجهل ظلمة، والصدق منجاة.

ويصور ابن بطوطة حال أسرة استضافته بجزيرة البنائين أيامًا، فدفعه ما رآه من علاقة ناعمة حميمة مرحة بين أبنائها، بما فيهم من هم في سن المراهقة، إلى سؤال مضيفه عن سر تلك العلاقة، فقال له والابتسامة على وجهه أن تلك ثمرة التربية الأسرية السوية القائمة على احترام الصغار والتحاور معهم وغرس حب المعرفة فيهم وتعويدهم على المحاولة والتجربة وعلى قياس معاملتهم مع أنفسهم ومع غيرهم على النتائج، لا على الدعاوى، وعلى أن يسمعوا بأعينهم لا بآذانهم، وأن يعاملوا غيرهم بما يحبوا أن يعاملوهم به، وجمعنا لهم في التنشئة بين المعرفة والأنشطة والرياضة والترويح، وشغلناهم بما هو نافع ومفيد.

وتعاملنا مع رغبة المراهق في إثبات ذاته على أنه أمر طبيعي، نتفهمه ونصبر عليه ونسمعهم ونسمع منهم ونقنعهم بالنافع، ولا نرفض إلا ما يتجاوز الخطوط الحمر وبحكمة، ونسلم بأن الكبير رغم سنه وخبرته ليس معصومًا من الخطأ في تقديراته، ولكن احتمال خطئه أقل بكثير بالضرورة من المراهق عديم الخبرة. أما المراهقات فتتولى الأم تربيتهن وتوجيههن والتواصل معهن؛ لكونها أعرف بخصوصياتهن، ومثل هذه التربية تنمي الإيجابية والإبداع وحرية الفكر والرأي والمبادرة والكرامة مع التواضع.

وهكذا يتضح أن تنمية ثقافة الوالدين وقدراتهم ووعيهم التربوي، هي مفتاح شيوع السلام الأسري والصدق في الأمة. أما حين ينحط المربي المعلم المدرب، وتتخبط نوعية الإدارة الاجتماعية والسياسية، فإن نوعية المجتمع ومؤسساته تنحط، ويهرب منه النوابغ من أبنائه إلى حيث يجدون من يقدرهم ويرعى نبوغهم، وتخسر الشعوب ما أنفقته على تعليم الهاربين من خبرائها وعلمائها ونوابغها، والسنين التي قضتها في إعدادهم، وقد تعجز عن تعويضهم(ص ١٤- ٤١).

ثانيًا: سمات العلاقة بين الأزواج في جزيرة البنائين: يروي ابن بطوطة أن الزوجات في جزيرة البنائين تطبقن دعوة جداتهن في ماضي عزة الأمة (اللهم اجعل

سوق بنتي نارًا، وزوجها حمارًا).

وقد لا تكون هناك غرابة في دعوة الجدة لابنتها أن يكثر خطابها، لكن قد يبدو للوهلة الأولى أن دعوتها لها بأن يكون زوجها حمارًا أمرا غير مستساغ، غير أن من يتدبر في الخلافات الأسرية والحماقات على أمور تافهة في عصرنا الحالي وتفاقم معدلات الطلاق والتفكك الأسري وشقاء الأبناء، ويراعي تحرير مفهوم (الحمار) من التشويه الذي لحق به، أن المرأة المعاصرة بحاجة إلى تمثل هذه الحكمة البالغة حتى تدرك قيمتها.

فلنحرر مفهوم الحمار بالعودة به إلى جذره الدلالي حين نطقت تلك الجدة بتلك الحكمة، كان الناس قبل تقدم المواصلات ينقلون أمتعتهم على الحمير والجمال والبغال من قرية إلى أخرى. يقول الله تعالى في سورة النحل: ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾.

وكان صاحب الحمار يعيش على ما يرزقه الله به من تأجيره بالنهار، فكان حين يأتي الليل يعتني به عناية تفوق عنايته بنفسه؛ حتى يكون قادرًا على مواصلة القيام بدوره في نقل الأثقال، وإدرار العائد عليه، وكانت الحمير لصبرها وقوة تحملها وهدوء طبعها وقلة كلفة علفها، أكثر الحيوانات استخدامًا في النقل والتنقل بين القرى، وكانت عجائز جزيرة البنائين ينصحن بناتهن اللاتي في سن الحمل والأمومة بالعناية البالغة بأسرهن وبأطفالهن، مع عدم إهمال أزواجهن، وأن يتعين به حين يعود إلى البيت عناية صاحب الحمار بحماره؛ حتى يكون نشطًا في الصباح فيسعى لجلب زرق الله لأسرته، فالزوجة تعني بفطرتها بأطفالها، وتحتاج إلى من يوصيها

خيرًا بزوجها، الذي هو مثل الشمعة تذوب؛ لتنير الدرب لها ولأطفالها، فلتكن العشرة الطيبة والمودة بالليل هي غذاء روحه وعزيمته على السعي بالنهار.

ولا تعني الجدة بمفهوم الحمار المعنى الدارج الذي ظلم به، المرتبط بالغباء، بل تعني سماته الحقيقية: الصبر والجلد، فكم ظلم الناس الحليم العامل في صمت من الناس والحيوان، وكم بالسجن من مظاليم، فالحمير ظلموا سواء كانوا من الحيوانات أم من البشر، ونساء جزيرة البنائين سعداء بكونهن أزواج الحمير، فخير الأزواج لأهله من كانت له صفات الحمير، وليت الزوجات المعاصرات يدركن ذلك ويعاملن أزواجهن معاملة الحمار لحماره، فالحمار: قوي وذكي ومثابر وهادئ الطبع وشديد التحمل، وصاحب ذكورة، وليس في طبعه العنف والمشاكسة، ويعرف الطريق الذي تعود عليه، ويستطيع السير فيه دون دليل ولا موجه، وهو لا يغضب إلا إذا اشتد عليه الأذى، عندها يصير عنيدًا وصعب القياد.

وكل الرجال الذين تربوا تربية سوية يتمتعون بصفات الحمير هذه، ولو تمت التنشئة على تعرف النساء على طباع الرجال هذه؛ لتحقق الوئام الاجتماعي، ولساد التعاون والتكامل داخل الأسرة، وصار سمة للعلاقات على مستوى الأمة.

والمرأة ذات الفطرة السوية والتنشئة الأسرية الجيدة ترى في نفسها أمة وجارية لزوجها وأبنائها وإخوانها وأخواتها وأهلها، أمًا وزوجة وأختًا وخالة وعمة، وتعي أنه إن كان الرجال خدم للنساء، فإن النساء إماء لهن رحمة ومودة بالفطرة السوية، فالنساء شقائق الرجال وشركائهن، والفطرة السوية هي التي تجعل كل بني آدم رجالًا ونساء متساوين في الكرامة يكمل كل منهم الآخر، كأعضاء في جسد جماعة سوية واحدة.

فالتنوع بين الرجل والمرأة مفتاح تكامل واختيار عقلاني ووجداني، والمرأة والرجل يسعدان إذا التزما جادة الفطرة السوية، ويشقيان إذا انحرفا عنها، فحين

يعتبر الشباب أنفسهم عبيدًا لزوجاتهم، تصبح الفتيات إماء لأزواجهن، وقديمًا قالت الأم الحكيمة لابنتها وهي في طريقها إلى عش الزوجية (كوني له أمة يكن لك عبدًا)، فجوهر الأمومة والأبوة هو الحب والتضحية.

وإذا تبدد هذا الجوهر بسوء التنشئة تتهدم الأسرة وتزول قيم الكرامة والتراحم والإخاء من المجتمعات، وخير الأزواج من اختير لخلقه ودينه، وكما جاء بالمثل (من تأخذ القرد على ماله؛ يروح المال ويبقى القرد على حاله)، والحاجات المادية للإنسان بالغة الضآلة إذا ما أحسن التدبير والاقتصاد واكتفى بالضروري المناسب لحاجته وحاله، وأكبر خطأ تقع فيه الفتيات الآن هو الرغبة في البدء ببيت أثاثه مكتمل وبحياة في مستوى تلك التي وصل إليها أبوها وأمها بعد جهاد عمر طويل، والقيمة الكبرى ليست تحقيق الثراء المادي، بل حسن تربية الأبناء حتى لا نرى بين أبنائنا ذئاب وثعالب وخنازير، ولا بين بناتنا أفاعي وعناكب وعقارب وسائبات المعيز.

فالنجاح في الدنيا هو بالدرجة الأولى: حسن التربية والتعليم والتدريب بالأسرة وبالدار، بأن يعطي كل منا الحق من نفسه دون إرهاق ولا شطط، ويحتاج ذلك إلى التربية الوالدية الصالحة التي يجب أن تكون من المقررات الدراسية خاصة في التعليم العالي للإعداد للأبوة والأمومة والوئام الأسري.

وعلى المرأة واجب آخر تجاه أمتها في سن ما بعد الخصوبة والأمومة والحمل والوضع والتربية الأسرية، فالمرأة في سن ما بعد الخامسة والأربعين تصير أقوى من الرجل المناظر لها في السن على العمل، وتعاني من فراغ، من صالح المجتمع أن يشغله بعمل لها، فيصيب هدفين بسهم واحد: نفع عملها لها ولأسرتها، وحماية الأسر الناشئة من تدخل الحموات المتفرغات.

ومن العجيب أن ما يحدث في كثير من المجتمعات عكس ذلك، حيث يدفع بالمرأة في فترة شبابها وخصوبتها وأمومتها إلى العمل خارج البيت على حساب بيتها

وأطفالها، مما يؤدي إلى التفكك الأسري وسوء تربية الأبناء، بل حتى إلى العزوف عن الزواج وعن الأمومة والإنجاب، ثم تحال المرأة العاملة إلى التقاعد والمعاش المبكر، بعد أن تكون قد باتت متفرغة، لا تلد ولا تربي، فتصير عاطلة هي في أوج قدرتها البدنية والنفسية على العطاء.

وخلاصة القول أنه يجب على الأمم السلامية أن تعنى بأصل الفطرة السوية في العلاقة بين الرجل والمرأة، كأساس للأسرة والأمومة والأبوة والبنوة، ولإعادة بناء الأمة المخرجة للناس، وتعريف عالم اليوم بالرؤية الحضارية اللامية البديلة القائمة على الفطرة الإنسانية السوية بعيدًا عن حمى النزوات والشهوات والتفسخ والانحلال الحيواني الصراعي المدمر المتنكر لتلك الفطرة، والقائم على الظلم والعدوان، والمتاجر بالمرأة وأنوثتها، بإعلام مضلل ومزيف ودعاية جنسية رخيصة، دون وازع من أخلاق أو خوف من حساب، بما يصب في معين تدمير مؤسسة الأسرة.

ومن اللافت للنظر هنا رمزية ملازمة قطة ابن بطوطة له، وقيامها بضبط سلوكيات من يتلقون العلم على يده، فهي تشير لدور الزوجة الودودة الذكية المدللة في البيت، الحارسة على وداعتها، لزوجها من كل مكروه وسوء، التي تمنع الفئران والحشرات والأفاعي، من التسلل إلى بيتها أو إيذاء من فيه، حتى لو كان البيت في مكان تكثر في محيطه تلك الحشرات، فالمرأة في حضن الأسرة هي أم وزوجة وأخت وبنت وحبيبة للرجل.

ولا تقوم الحياة ولا الأسر ولا المجتمعات ولا الأمم إلا بالمرأة والرجل معًا، فكل منهما راع للآخر، والكل راع ومسؤول عن رعيته، فبئس دار لا توجد فيها دون مبرر قطة جميلة محبة، تسهر على أسرتها، وتداعب صغارها، وتوفر لهم العش الآمن المريح، فالبيت الذي يخلو من أم رؤوم وزوجة محبة مخلصة هو بيت خراب، لا يسعد فيه صغير ولا كبير، ولا يحلو فيه العيش ولا تطيب به الحياة، والرجل

للمرأة هو أب وأخ وزوج وابن، وهي له: أم وأخت وزوجة وابنة، فكيف لا يتحابان؟وكيف لا يؤسسان الأسرة المتكاملة التي هي أساس الأمة السلامية؟.

تلك هي معالم الرؤية الإسلامية الحافظة لكرامة المرأة المنصفة لها بتشريعات صائبة وبتربية رشيدة فعالة، كبديل للرؤية الغربية الصراعية العنصرية المادية السائدة الآن، المضيعة لكرامتها وإنسانيتها مع الزعم بأنها تسعى إلى تحريرها (ص٤٣- ٦٧).

ثالثًا: خبرة جزيرة البنائين في تجفيف منابع الفساد: يثني ابن بطوطة على التكامل المؤسسي في جزيرة البنائين، المرتكز على الدعوة والتعليم القيمي النابع من إرادة الشعب الناشر للقيم والمبادئ والكرامة في نفوس الناشئة، والإعلام الحر النزيه المبدع المستنير المستقل المعبر عن إرادة الأمة، والنظام الشوري الساهر على المراقبة والمحاسبة والإبداع التشريعي المحافظ على الثوابت مع التكيف مع المستجدات، والنظام الإداري المنصف للعاملين والقائم على الشفافية والمراقبة، ونبذ الرشاوى والمحسوبيات، فمثل هذا النظام المؤسسي الحقيقي المتكامل لا يعطي الفرصة للخفافيش وضعاف النفوس لنشر أمراضهم النفسية وتعلية مصالحهم الأنانية وتخريب العقول والأنفس والحياة العامة.

لذا لم يكن غريبًا أن خلت جزيرة البنائين في ظل هذا النظام من البطالة والعنف والجريمة والفساد والاستبداد، وسر ازدهار تلك الجزيرة ليس كثرة خيراتها الطبيعية، فثمة بلدان كثيرة تشاطرها تلك السمة، بل تزيد عليها فيها، الفارق هنا هو نوعية الإنسان وما يتحلى به من رؤية كونية فطرية إيجابية سوية، ومن قيم ومبادئ وأخلاق، ومن تعليم وتربية يبني بها مؤسساته ويحقق بها إنسانيته.

ثم إن ما يؤدى به واجب الضيافة في مجلس ابن بطوطة التعليمي هو التمر وشراب الزهور، فلا موضع للداء الذي وقعت فيه أمم معاصرة وهو (التدخين) بكل صوره وأشكاله، فذاك هو صناعة البلدان المتخلفة وهو جزء من دائها، فهي

بلدان لا تعي (صواعق السحب السوداء)، فما السيجارة إلا لفافة على أحد طرفيها نار، وعلى الطرف الآخر فم إنسان أحمق، ومثلها في ذلك مثل كافة أشكال الأدخنة التي تؤذي متعاطيها ومن يجلسون معه، فهي تسمم المجالس وأماكن العمل والبيئة، والرحالة الذي يسير في الأرض يعي خطر التدخين، ويستحيل أن تبلغ به الحماقة أن يقربه.

بيد أن مثل تلك الظاهرة الخطيرة ليست هي الوحيدة المتفشية في المجتمعات المتخلفة، فثمة ظواهر أخرى أخطر منها، من بينها: الإدمان والعنف والتفكك الأسري والاجتماعي بسبب الطلاق والعنوسة، وانتشار المفاسد الأخلاقية، والأخطر من ذلك كله، بوصفه هو منبعه، والمغذي له: ضعف الوعي لفشل الأسرة والمدرسة والإعلام في أداء أدوارهم في تلك المجتمعات.

والتربية الأسرية الرشيدة هي مفتاح تجفيف منابع تلك الظواهر الضارة، ومن أمثلة جزيرة البنائين الدالة على ذلك، أن أحد أبنائها الرفيعي الخلق، خرج في بعثة إلى الخارج طلبًا للعلم، فاحتاج لأن تكون له معارف يؤانسهم ويؤانسوه، وفي مجلس أولئك الأصحاب، قدموا له خمرًا، فأبى، فتعجبوا من سلوكه وسألوه في نفس واحد عن السبب، فقال لهم أن لديه سؤالًا واحدًا سيطرحه عليهم يعرفون من إجابتهم هم عليه السبب، وسألهم: هل لو شربت ذلك المسكر، يمكن أن أتصرف تصرفًا ما كنت أتصرفه لو لم أشربها؟ فأجابوا: نعم هذا ممكن، قال: فهل أنا من الغفلة أن أفعل ما يجعلني يصدر عني ما لا أرغب فيه بكامل إرادتي ورغبتي؟ فأرادوا أن يستدرجوه بأسلوب الخطوة خطوة، بإغرائه بتذوقه وحسب، فأبى، قالوا له: ولما لا تجرب فإن أعجبك شربت، وإن لم يعجبك تركت؟ فرد عليهم بأنه لا يجرب من باب الاستطلاع ما لا يقبله عقلًا؛ لأنه إما لا يعجبه فيكون في غنى عن التجربة، وإما يجد فيه لذة رغم أن عقله يرفضه، فلا يعود إليه؛ لأن العودة إليه تمثل حماقة وهوى وضعف إرادة وإهدار للمسؤولية وللعقل وللضمير، فلن أشرب، وأترككم داعيًا لكم بالنضج والعقل والهداية.

وسأل ابن بطوطة ذلك الفتى: كيف تأتى لك مثل هذا الوعي بهذا الاختيار المطابق لعين العقل والدين؟ قال: من دار وأسرة وأم احتضنت صغارها، كما تحتضن الحمامة صغارها بفؤادها وأجنحتها بحنان وهدوء وسلام، وكانت بدارنا مكتبة نقية غنية بكل أنواع المعارف الدينية والأدبية والاجتماعية والتاريخية الأصيلة والحديثة والمعربة صحبنا من خلالها من نعومة أظافرنا خيرة العقول وأرشد الخيرات، وتصرفت بعفوية في موقف التعرض للإغراء بالخمر، متذكرًا حديثًا حدثتني به أمي في طفولتي عن واحد من الحي قتل صاحبه تحت تأثير الخمر، فغرست في عقلي معنى السكر وغياب الإرادة والوعي وعاقبتهما، فعافت نفسي كل المسكرات، رغم أنني لم أرها مطلقًا قبل مجيئي إلى هنا لطلب العلم.

ولم ينج ذلك الفتى من شرب الخمر وحسب، بل نجا من داء التدخين رغم نشأته في أسرة طال هذا الداء فيها والده لانتمائه إلى جيل رأى فيها وسيلة للتسلية ولتضييع الوقت، والسبب مرة أخرى في نجاته من التدخين هو نوعية التربية الأسرية، فلقد كان والده حريصًا على أن يغرس في وعيه أن التدخين بالغ الخطورة على الصحة، وأنه داء يدعو الله أن يعينه على التخلص منه، فالوالد وقع في فخاخ التدخين عن جهل وغفلة، ولما توفرت المعرفة عن مخاطره كان التعود عليه قد استحكم فيه، ولم يعرف الناس في ذلك الزمن وسائل لعلاجه، ومع ذلك فإن التربية الصحيحة نفعت حتى في غياب القدوة في حماية النشء من كثير من الأمراض الاجتماعية، فنشأ كثير من الشباب الأخيار على غير شاكلة آبائهم، فالأب لم يدخن صامتًا، ولا متباهيًا، بل أكثر من الشكوى ومن قلة الحيلة أمام أبنائه، وحرص على أن يري ابنه القطران على سيخ تنظيف الشيشة، وعلى أن يذكره بأن أضعاف ذلك القطران قد سكنت في صدره، وبمثل هذا الأسلوب التربوي كان من المستحيل أن يقدم عاقل على التدخين وما شابهه، وتعلم الفتى من هذا الأسلوب درسًا معرفيًا أعمق أثرًا من مجرد نجاته من التدخين، وهو أن على الأبوين في أسلوب تربية

صغارهم، واجب الاعتراف بما يقعون فيه من خطأ، ويعتذرون عنه، ولا يبررونه، فتبرير الخطأ عذر أقبح من الذنب.

وتحتاج التربية الأسرية إلى تربية مدرسية تتناغم معها وتثريها، ومن المزري الآن أن يكون دور المدرسة هو تخريج موظفين لما يسمى (سوق العمل)، فرغم أهمية لقمة العيش، فإن عدم العناية بسلامة الغاية والوسيلة، قد تقلب السعي الإنساني إلى وسيلة دمار، على ما نرى في هذا العصر من تحلل أخلاقي وتفكك اجتماعي وحروب وصراعات، وتركيز على إنتاج أسلحة الدمار وعلى ترويجها، فكم هو سيء حال الشعوب التي نجحت في التعليم وفشلت في التربية، والأسوأ منها حالًا تلك الشعوب التي فشلت فيهما معًا، ومؤشرات التفوق العلمي المهني قد تكون واضحة.

لكن الأهم منها أن تكون منظومة بنقاء الثقافة والتربية والرقي الأخلاقي، ومؤشره هو: الرقي السلوكي التراحمي الخير، المقدر للحق والعدل وللمسؤولية والمصلحة الإنسانية العامة، فانتشار المخدرات في بعض الشعوب نتاج غفلة وجهل وسوء تربية، وضررها لا يقف عند حد الأضرار البدنية الخطيرة، بل ضررها الأكبر في تدمير القوى العقلية والنفسية والاجتماعية والدينية، وسببها الرئيس هو سوء التعليم والتربية والثقافة، وعدم العناية بشؤون الدعوة والتوعية والإعلام، مما يعمي البصر، ويغيب البصيرة. (ص٦٨-٨٩).

رابعًا: الحرية والأمن الاجتماعي في جزيرة البنائين: لا يغرد إلا الطائر الطليق، ولا يصدح عند الفجر غير البلبل الحر، ومن أكثر المفاهيم تعقيدًا مفهوم الحرية، فلقد ارتبط هذا المفهوم على مدى التاريخ بإشكاليات عويصة ومحيرة، وترتب على العبث به كثير من التخبط والتردي في الأنظمة الاجتماعية، وها هو ابن بطوطة ينقل لنا خبرة جزيرة البنائين؛ لنبني عبرها هذا المفهوم المفتاحي، ففي عصرنا بلاد عبثت بهذا المفهوم على نحو جعله مرادفًا للفوضى التي لا تعرف الحدود، وبلاد أخرى ضيقت

الخناق على المواطنين وكأنهم صبية يجهلون مصالحهم ويحتاجون للوصاية التامة للقلة الحاكمة عليهم، فلا يجوز لهم الكلام ولا التنفس إلا وفق إرادتها وهواها وبأمرها.

وعلى النقيض من هذين النموذجين المضيعين للحرية، فإن جزيرة البنائين تعرف نظامًا يحقق الحرية المسؤولة بمعناه الحق، الذي يسوي كل إشكالياتها، وكل العالم بحاجة إلى التعرف على هذا النموذج المثالي الواقعي ومحاكاته، فالبشر يتداولون مهمة السعي في الأرض جيلًا بعد جيل، وقد يكون سعي البعض مبرورًا مأجورًا، وسعي البعض مأزورًا مذمومًا، ومفهوم الحرية لا يبنى في فراغ، ولا بنظرة جزئية، فمفتاح بنائه هو: الوعي بأن للحياة الإنسانية على الأرض غاية إعمارية أخلاقية حضارية إصلاحية خيرة، والإنسان فيها حامل أمانة مكلف بتأديتها لأهلها على وجهها، وهو بعد ميت، فمبعوث فمحاسب على ما قدمت يداه في دنياه من خير ومن شر.

والله تعالى سخر للإنسان كل ما بالكون من طيبات؛ لتعينه على القيام برسالته العمرانية الاستخلافية في أرض الله، لتقوم الحياة الطيبة المتناغمة مع كل ما في نظام الكون من جمال وإبداع وعمران وتناسق وتوازن واعتدال، بتجسيد منظومة قيم الحرية والعدالة والمساواة والتراحم والإحسان والتكافل والسلام في الأرض، وسد كل أبواب الشر والظلم.

والمفهوم الحضاري الاستخلافي للعقل هو الإبداع المعرفي لتعبيد النفوس للخير والسعي، بالعمل النافع الذي يسخر المنافع وييسرها للآخرين، ويرتقي بنوعية حياة الإنسان في كل المجالات، وكشف الحساب النهائي يكون في يوم الحساب الرباني؛ وبذا فإنه لا معنى للمادة ما لم تجسد قيمة أخلاقية عمرانية حضارية، ومن إبداع الله في الخلق أن نوع قدراتهم وسماتهم، مع وحدة أصلهم، وهذا هو المعنى الصحيح للحرية الذي يجب على الأمة أن تعيه، وأن تنشئ أجيالها عليه.

فالحرية تقوم على حسن استخدام الإنسان لعقله للسعي وفق ما جاء به الوحي وما تقتضيه الفطرة السوية، وما تتطلبه الطبائع والسنن الكونية المبثوثة في الأنفس وفي الآفاق، التي تتكشف للبشرية عبر الأزمان بتطور سقفهم المعرفي، ولا حضارة ولا عمران لأمة تلغي العقل وتكبت الحرية وتقتل الإبداع، وتظلم نفسها أو غيرها.

والإنسان يولد صفحة بيضاء، لا يعلم شيئًا يقول الله تعالى في سورة النحل: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ومن هنا فإن فعل الشر أو الخير ليس صفة موروثة بل هو اختيار إنساني، فالإنسان في الأصل حر مختار مسؤول، واختلاف البشر في القدرات والقابليات ليس اختلاف تضاد، بل تنوع تكاملي، وهذا هو معنى إنسانية الإنسان وتكامل وجوده، وكل سمة للإنسان خيرة فيها لو أحسن توجيهها بالتربية الصالحة، فبدون التنوع في الأمزجة والقدرات يستحيل بناء العمران والحياة؛ ولذا فإن الأمة يجب أن تضع على رأس أولوياتها دائمًا: التنشئة الأسرية على معرفة سبل الخير والبناء وعلى اجتناب سبل الانحراف وندم التجارب الخاطئة، وللمربي نصيب من المسؤولية الأخلاقية عن أخطاء من يربيه.

فالحرية في جزيرة البنائين لا تعني الفوضى والانفلات واتباع الضلالات كما هو شأن فهمها في حضارة الغاب المادية، التي تصيب ببعض أضرارها الحاضر، ولكن عواقبها الوخيمة على المستقبل أنكى وأمر، فالحرية في منظور حضارة الغاب المادية تعني الحق في فعل الخطأ والترويج للمفاسد، وهذا في منظور جزيرة البنائين لا يمت لمفهوم الحرية بصلة، بل هو الحماقة والفوضى والتخلف والتحلل والتفسخ، وذاك هو المفهوم الفاسد الضال للحرية، وهو سيسير بسالك طريقه إلى اللحاق بالأمم البائدة ولو بعد حين.

أما مفهوم الحرية عند أصحاب الفطرة الطيبة الخيرة والعقول والضمائر

والأخلاق السوية، فهو: واجب اجتناب الضرر والضرار، وحق إشاعة الخير والدعوة إلى الصلاح والإصلاح والتناصح وحفظ الحقوق ونشر قيم الشورى المجتمعية والتكافل والعدل والإحسان، وفي ظل هذا المفهوم للحرية يكون تنوع قدرات البشر وخصائصهم، تنوعا تكامليًا يصب في وعاء أصلهم الواحد، وليس سببًا كما في حضارة الغاب للتمايز العنصري بما ليس للإنسان يد فيه مثل اللون أو النوع أو القدرات والقابليات الفطرية غير المكتسبة، فجزيرة البنائين تعرف التنوع مثل كل المجتمعات، لكن بمعناه الإيجابي، حيث لا مجال لقهر ولا لإذلال ولا لفساد واستبداد، ولا جهل ولا خرافة ولا جهالة، فالتفاوت في القدرات لا يرتب أي مساس بالكرامة الإنسانية، ولا يعصف بمبدأ المساواة بين الجميع.

ومن مضامين مفهوم الحرية في تلك الجزيرة أن لا يسأل أحد وهو قادر على العطاء، ولا ينس أحد واجب التكافل بين مكونات أمته، وإنسان هذه الجزيرة ليس معصومًا من الخطأ، ولكن نظام العدالة فيها يفرق بين الجزاء على الخطأ والمساس بإنسانية الإنسان وكرامته، فليس هناك مجتمع أو مخلوق معصوم عن الوقوع في الزلات، إلا من عصم الله وقليل ما هم، فالوقوع في الخطأ عن غفلة أو بغير قصد أو عن تسويل نفس، أمر وارد، لكنه تصحبه في ظل التربية الصالحة نفس لوامة وتأنيب ضمير، فالنفس السوية لا تصر على الخطأ.

ومن واجب السلطات العامة أن لا تتبع عورات الناس بدعوى الحرص على الأخلاق في المجتمع، فذاك سبيل لهدم المجتمع، ولزرع الفساد والاستبداد فيه، حتى لو كانت وراءه نية حسنة، فما لم يشعر المجتمع بالأمن فلن يكون مجتمعًا إنسانيًا بأي حال، فحماية الأخلاق في المجتمع لا تكون بالتلصص والتجسس والتطفل على الناس، بل بالتصدي للجهر بالمفاسد والموبقات، لكون ذلك يؤذي الآخرين، وقد يغري صغارهم، وهذا المنع هو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لتحقيق الأمن الاجتماعي، ومواجهة الفساد في الأرض، وحماية الحريات في المجتمع.

والوقاية دائمًا خير من العلاج، فالوسيلة الأكثر فعالية لحماية الفضيلة والأخلاق في المجتمع هي: حسن التربية، والتصدي للعبث بالمفاهيم وبالقيم، وحماية النشء من تجار الرذيلة. أما التجسس والعصا فلا يولدان غير النفاق والخوف والإمعان في الانحراف، وتختلف زلات الطباع عن جرائم المعاملات وتبادل المنافع بين الناس، التي تتطلب حفظ الحقوق والدماء، وبوسع ضحايا تلك الجرائم أن يلجأوا للقضاء ويقيموا البينة على صحة دعواهم، ويكون العقاب المناسب هو الكافي للردع لا أكثر بالوسائل المناسبة الممكنة المشروعة، فإحساس المواطنين بالأمن، وليس قسوة العقوبات، هو سبيل منع الجريمة والتزهيد فيها، لوجود أطر مشروعة لرد المظالم إلى أهلها، والعقوبات والحدود في الإسلام، تمثل سقف العقوبة المشروعة.

أما الذي كلفت به الأمة فهو حسن التربية للوقاية من الحاجة إلى العقوبة من الأصل، وتقدير ما يطبق من العقوبة بحيث يراعي كل ملابسات الوقوع في الخطأ، بحد هو أدنى من سقف العقوبة المقدرة، فنظام العقوبات يتأسس على وحدة أصل الإنسان، ووجوب أن يحب كل منا لأخيه ما يحبه لنفسه، والتربية على الكرامة والمسؤولية والضمير الحي، والانضباط النفسي الجواني من الطفولة، وروح التكافل الجماعي، وحب الله تعالى والحب فيه وله، وليس على التهديد بالعقوبات، والبون شاسع بين أن يخطئ الإنسان ويضعف، وبين أن يجاهر بالفاحشة والمعصية، ويظن أن مفهوم الحرية يعني حقه في أن يتصرف علنًا على هواه، دون مراعاة لحق نفسه في الستر عند الابتلاء، ولحق غيره في الوقاية من السوء.

وينبثق فضاء مفهوم الحرية الإنسانية الحقة من حقيقة كون كل ما بالكون من الذرة إلى الخلية إلى المجرة منظومات لكل منها غاية وضوابط تصب في النهاية في منظومة واحدة، وأي انحراف عن تلك المنظومات المتناغمة والمترابطة، يؤدي إلى الفساد والدمار، ويجب أن لا يتخلى الآباء والأمهات عن إسداء النصح ومد يد العون لأبنائهم بعد أن يبلغوا الحلم، فمسؤولية الوالدين الأخلاقية والاجتماعية لا

تنتهي عند هذا الحد، ومن الخطأ ترك الحبل على الغارب للابن المراهق، وللبنت المراهقة، كما تفعل مجتمعات الحضارة المادية، التي تؤسس الحياة الإنسانية على مفهوم فردي غريزي نفعي حيواني، بدعوى صيرورتهم مسؤولين اجتماعيًا وقانونيًا عن أنفسهم، ومن الخطأ أيضًا معاملتهم على أنهم لا يزالون تحت وصاية الوالدين، والمبالغة في حمل المسؤولية عنهم.

وخيار أهل الجزيرة في معاملة الأسرة للأبناء والبنات البالغين هو الصواب، وقوامه اعتبار أن علاقة الآباء بالأبناء علاقة إنسانية تقوم على مزيج من مسؤولية الفرد نحو نفسه، ونحو الجماعة، ومن اعتبار الحق والواجب الفردي والجماعي وجهين لعملة واحدة، فالفرد صاحب حق على الجماعة عند حقه، وحامل واجب تجاه الجماعة عند قدرته على مساعدة الآخرين.

والمجتمع القويم كالبنيان يشد بعضه بعضًا، ولن يكون أحد أقدر من الأبوين على إسداء النصح للأبناء وتبصيرهم بالعواقب، وهذا هو النهج والتصور الصحيح لتحقيق الذات والحرية الإنسانية البناءة المسؤولة، وتقرير مبدأ فردية المسؤولية في كيان إنساني شاء الله فيه أن لا تتشابه بصمة فردين من أفراده، وأمر بتجنب التعميم، فلا يحمل أحد وزر أحد، وليس للإنسان إلا ما سعى، (ص٩١-١١٨).

خامسًا: تعريف مفهوم الحماقة: لباب مفهوم الحماقة هو التصرف على شاكلة حمامة تلتقط الحب من شبكة الصياد، وابن بطوطة هنا يؤشر على أن العالم ليس من ينقل ما لديه من علم وحسب، بل من يتعلم مما يقوله من يستمعون إليه ممن لديهم معرفة بسنن العمران الإنساني، فها هو يتدبر فكرة بيدبا عن قيام الكون على منظومات لها حدود وضوابط تؤدي بها مهمتها، فإن هي تجاوزتها انهارت، والإنسان وحياته ومجالاته في الاجتماع والحريات والثقافات ليست استثناءً من ذلك.

فما لم يعرف الإنسان منظومة حياته على الأرض وحدودها وضوابطها، فإن تلك

المنظومة تنهار، وتلك المنظومة هي منظومة الحرية، فمن لا يعرف ضوابطها وحدودها يغدو كالفراشة التي لا تفرق بين النور والنار؛ فيكون مصيرها الهلاك، ومثل الإنسان الذي يتبع هواه على غير علم وبرهان، مثل الحمامة التي تلتقط الحب من بين خيوط شبكة الصياد، والفرق كبير بين من يضعف ويخطئ، وبين من يتعمد الخطأ، فيكون عدوًا للحرية وللحياة، ولا يمت سلوكه للحرية والحق بصلة.

ومنظومة الحرية شأنها شأن كل منظومات الكون لها ضوابط وحدود، وتلك هي سنة الله في الوجود، والتعامل مع منظومة الحرية على غير أصل طبعها وقواعد بنائها، يؤدي إلى انهيارها، ومن المنظومات المركبة التي يمكن بتفهمها تفهم كل منظومات الكون (منظومة الإنسان)، فهو جسد واحد، به منظومات عديدة، فالأكسجين نافع ولا غنى عنه عبر الجهاز التنفسي، وهو قاتل لو دخل الجسد من أحد الأوردة، والماء يفيد حين يدخل من المريء، ويقتل لو دخل من القصبة الهوائية.

ومفتاح منظومة الحرية هو: الفعل الأخلاقي الإرادي المسؤول، فالفهم الصحيح لمفهوم لحرية لا ينفع، ما لم يصاحبه العمل به، بممارسة الأفراد والمجتمعات للمفهوم الصحيح للحرية، بحيث تغدو الحرية الحقة هي ما وقر في قلب ووجدان الفرد والأمة، وصدقه العمل، وهنا يأتي دور التربية والإرادة والوجدان، وتبدأ تلك العملية من يوم ميلاد الطفل، بل من لحظة اختيار أمه، فمن شب على شيء شاب عليه.

فالأسرة والتربية والوعي التربوي الوالدي، هو السر الحقيقي في رقي المجتمعات، وإذا سلم بناء الأسرة سلم الفرد والجماعة والمجتمع، وارتقوا في سلم النور وحسن الخلق، وإذا تهدمت الأسرة وساءت التربية هوى الفرد والمجتمع والأمة في دركات الظلمة والتمزق والصراع والضياع، طال الزمن أو قصر، فالأمم ترتقي وتنهار بحركة حلزونية، وهذا هو درس التاريخ وعبرة الحضارات، والعاقل

من يتعظ بتلك العبرة وذاك الدرس، ولا يكرر الخطأ.

والأمم التي تضل الطريق، يمكنها أن تتوب، وأن تعيد صلاحها، ما دامت قد بقي فيها بقية من حس الغائية والأخلاقية وروح التكامل، أما حين تفقد الأمم ذلك الحس وتلك الروح، فإنها تفقد الحرية البناءة المبصرة، وتغدو عاجزة عن التمييز بين الخطأ والصواب وبين الضار والنافع، وينعدم الأمل في إصلاحها؛ لكونها تغدو شبيهة بالأنعام بل أضل منها، عندها تصير تلك الأمم أعجاز نخل خاوية ونمورًا من ورق، لا تصمد أمام رياح أمة صالحة ومصلحة، تعي جمال تكامل التنوع والاختلاف، ووحدة الغاية، وجماعية رفقة طريق السعي الحضاري، وتتطلع إلى حضارة إنسانية عالمية جامعة، تقوم على الحرية الحقة: تحقيق الذات، والفطرة السوية، والعقل السليم، وشرف الكرامة الإنسانية، وبدون تلك الحرية بهذا المعنى لا تكون هناك قيمة للحياة ولا للإنسانية، فهي حرية تستتبع وحدة الصف والتراحم والإصلاح وتجفيف منابع الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، ولا بقاء إلا لأمة واعية حرة كريمة خيرة. (ص١٢٠-١٣٢).

والعمود الفقري لمفهوم الحرية الحقة هو: نفي الإكراه في الدين، فذاك هو أهم ثابت من ثوابت الرؤية الكونية البديعة للأمة الإسلامية، وما دام الفرد لا يؤذي نفسه ولا مجتمعه، فهو حر في التعبير عن رأيه وقناعته، وفي الاختيار، فجوهر الحرية الاجتماعية الإنسانية هو: تمكين كل فرد في الأمة من التمتع بالحرية الكاملة دون أية معوقات تحول دون العمل النافع البناء الباني للذات وللمجتمع وللأمة.

ومن أهم متطلبات الفهم الصحيح لحرية العقيدة، إعادة بناء المفاهيم؛ ليتمكن العقل الإنساني السوي من التمييز بين الخطأ والصواب، وبين الضار والنافع، من ذلك مناقضة دعاة الحرية الحيوانية المادية العنصرية لأنفسهم، حين يعارضون حق المرأة في الاحتشام بما لا يؤذي الذات ولا المجتمع، بينما يجيزون حق المرأة في العري

والتبرج الفاضح، بدعوى الحرية الفردية، بتقليد أعمى ترفضه عقائد الأمم السوية وقيمها وحضارتها الإنسانية الحقة، حقيقة أن دعوى تحرير المرأة حطمت كثيرًا من القيود الظالمة البائدة التي عرفها التاريخ، لكنه لم يرس أساس الحرية الإنسانية الحضارية الفطرية بغاياتها البناءة، بل انحرف بها إلى حافة هاوية البهيمية.

والدين المنزل كله يدعو إلى العفة والاحتشام ورعاية بناء الأسرة، والحفاظ على طبيعة الحرية وغاياتها الإنسانية السامية، بينما تروج الحضارة المادية للفجور والتحلل بكل ما يترتب عليها من عواقب وخيمة على الأسرة وعلى الأمم وعلى الإنسانية، والاحتشام تعبير عن هوية دينية واعية، فيما لو تأسس على اختيار حر مسؤول، وغطاء المرأة البالغة رأسها أمر التزام ديني. أما النقاب فهو أمر اختيار إنساني شخصي، لا علاقة له بالدين، كما قد تكون له تأثيرات سلبية على حق المرأة في كشف وجهها الذي هو عنوان هويتها وشخصيتها.

ومن حق كل إنسان أن تكون له هوية عقدية، وأن يكون له انتماء سياسي يعبر عنه، بما لا يتعارض مع حقوق الآخرين بكل هوياتهم العقدية والعرفية، وإذا وظف أحد هويته توظيفًا سياسيًا، فإن الخلاف الناشب بسبب ذلك يعالج بالحوار والبرهان؛ لتمييز الصواب من الخطأ، لكي لا يكون ذلك ذريعة للتمكين للفساد والاستبداد، فالرموز ومنها الحجاب والنقاب قد توظف للتعبير عن معارضة الأنظمة المستبدة، وقد يكون حظر أنظمة سياسية لها نوعًا من التوظيف الخفي للتمكن من القهر بدعاوى أيدلوجية زائفة.

ومن العجيب أن تحرم المرأة وهي نصف المجتمع من حق إنساني أساسي لها في الاختيار، والرجال أكثر أدبًا في المعتاد مع المرأة المحتشمة، والإسلام يفرض علينا رجالًا ونساء غض البصر، عن كل ما لا حاجة لنا به من خصوصيات الآخرين، فللطريق حقه، وللجوار حقه، والبشرية بحاجة إلى تعرية كل من دعوى كبت الحريات، ودعوى ترويج الرذيلة باسم الحرية، بالحجة والبرهان.

ولا حجة لدعاة فرض النقاب على المرأة الجميلة، بدعوى منع الفتنة، أو مواجهة التسلط الذكوري، فالإعجاب بالجمال طبيعي في فطرة الإنسان، ولا يفكر في سرقة الجميل إلا من في قلبه مرض فاسد الفطرة، ومن يتجرأ على التعرض للفتاة الجميلة المحتشمة، مستهتر عديمة المروءة، جدير هو، وليس هي، بالمعاقبة، فكيف نواجه استهتاره بحبسها وراء قناع أسود أو بين الجدران، بما يحول الجمال الذي وهبه الله لها من نعمة إلى نقمة عليها؟، وفعل هذا يعني التقصير في التربية، وتلمس العذر للمخطئ، فوجه المرأة هو شخصيتها، ويداها هما وسيلة أدائها.

فحجاب المرأة فضيلة، يخشاها المستبدون، من أتباع صناع (شال الأمير)، فيحكى أن مجموعة من المحتالين قالوا لأمير أن بوسعهم أن يصنعوا له ثوبًا لا يراه إلا الأذكياء المخلصون، وصدق ذلك الأمير الأحمق، أنهم سيصنعون له ذلك الثوب الذي يميز به بين من يتمتعون بالذكاء والحكمة، من الأغبياء الحمقى ومن الخونة الفاسدين المنافقين، وابتز أولئك المحتالون أموال الأمير، وبعد حين من الدهر زف المحتالون البشرى إلى الأمير بأن قد فرغوا من صنع ذلك الثوب، وطلبوا منه أن يخلع ثيابه؛ ليلبس ثوبهم الذي لا وجود له، ونظر السلطان فلم ير شيئًا، ولكنه لحمقه لم يجرؤ على القول بأنه لا يرى شيئا مخافة أن يتهم بالغباء، وجاراه وزراؤه بدورهم في ذلك، وفي يوم الاحتفال ركب الأمير العاري عربته الملوكية في موكب، وجموع الشعب تنظر إليه، والكل لا يجرؤ على القول بأنه عريان مخافة الاتهام بالبلادة وعدم الإخلاص، ولم يكشف هذا الزيف غير طفل صغير بتلقائية سليقته، حين قال (انظروا السلطان عريان)، فانكشف غطاء الخوف وردد الشعب كله أن الأمير عريان، فليسقط الغباء والاستبداد والفساد، فلن تكشف ورقة التوتة عن عورة المستبدين الفاسدين إلا بجمع عزيمة الأمة على الشورى والحرية والعدل، ومفتاح ذلك هو: تربية سوية للأطفال.

ويبقى القول بعد تقرير حقوق المرأة على هذا النحو القول بأنه ليس من الحكمة

في شيء، أن تضيع المرأة وقتها متبرجة في الطرقات وفي نوادي وصالونات الثرثرة، بما لا يعزز التراحم الأسري والمجتمعي بأي حال، فما لم يكن خروج المرأة لمصلحة ولعمل نافع، فبيتها أولى بها وأصون لكرامتها وحقوقها وعفافها، وعليها أن لا تنسى أن في عهدتها (الحمار وأبناء الحمار)، وهكذا يزول الغبش والخلط باسم الدفاع عن الحريات وعن حقوق الإنسان.

وتسأل فتاة ابن بطوطة عن سبب حرصه على أن يجلس الشباب في جانب والشابات في جانب آخر ويتوسط هو صدر المجلس بينهما، ويجيب بأن لمجالس طلب العلم والمعرفة النافعة في كل المجالات للبالغين، جانب روحي، مثل بقية مجالس العبادة، وهي تتطلب إخلاصًا في الطلب وتركيزًا في التوجه، وطلب كل ما لا يصرف النفس عن التركيز وحسن الأداء، ثم إن الوصل المنفصل والفصل المتصل أدعى إلى الزواج، بحكم الفطرة، وهو ما أثبتته الدراسات العلمية، وتلك خبرة من جابوا الآفاق وخبروا حياة الأمم. (ص ١٣٣-١٦٦).

سادسًا: العزة والفلاح في حب الله تعالى: حب الله تعالى هو مفتاح تحلي الأمة بالشجاعة الأدبية، وبحس مشاعر الأنفة والعزة والكرامة، في تواضع ومودة لا يشوبها تصنع ولا كبر، ولقد افتقدت كثير من البلدان في هذا العصر تلك السمة رغم كثرة حديثهم عنها، فساد الخوف والكذب والنفاق والخضوع لكل ذي سلطان.

ويقول ابن بطوطة هنا أن مصدر التناقض بين الحديث عن خاصية (الكرامة مع التواضع دون تصنع) وبين سيادة مضاداتها في حياة كثير من الأمم المعاصرة، هو: الاختلاف بين الرؤية الكلية الكونية لأمة الكرامة مع التواضع، عن نظيرتها الخاصة بأمة الاستعلاء والتكبر في الأرض، وكذا الحال بالرؤية الكونية للأمم المستعبدة، فالأمة الحرة تبني رؤيتها الكونية الكلية الاستخلافية على الحرية والقيم والتكافل والكرامة. أما الأمم التي تتشوه رؤيتها الكلية فتقيمها على الزيف والعبث بالمفاهيم

وتضليل البسطاء وقهر المخلصين، وكثير من الشعوب الذليلة العاجزة كانت سلامية بحق حين كانت تتمتع برؤية كونية كلية صحيحة، فالذوات السوية تقدس الحرية الحقة بفطرتها الاستخلافية، وتعبد نفسها ومؤسساتها لفعل الخير واجتناب الشر، ولتلك الأمم بذلك نصيب من أسماء الله الحسنى، فالله يبغض الظلم والفساد والقسوة والعدوان والإصرار على المعصية، والنفوس والشعوب والأمم السوية تحب الله بفطرتها وتكره الشيطان، وهي لا تطيع النفس الأمارة بالسوء، وتلوذ بالنفس اللوامة للتوبة النصوح من الهفوات والزلات.

وجل البشر يدركون صفات الله، وصفات الشيطان، ويحبون الله بفطرتهم السوية، ولكن كثيرًا منهم لا يعلمون ذلك بسبب تشوه رؤيتهم الكونية الكلية، بحيث قامت على خطاب التهديد والتخويف الموجه إلى المعاندين المعتدين الأشرار، الذي صاغه المستبدون وأصحاب المصالح لإخضاع الشعوب لأهوائهم، وتضمن هذا الخلط في الخطاب جعل الخطاب الموجه للأشرار خطابًا موجهًا للأخيار الذين تهوى أنفسهم قيم الحرية والحق والعدل والتكافل والسلام؛ وبذا يزرع الخوف في النفوس الذي يجعلها لا ترى في نفسها غير الهفوات والزلات والعورات، ومن يخاف يدبر ويبتعد، أما من يحب فيقبل ويثمر، ومن هنا فإن الأمم التي تربي أجيالها على الحب والرغبة تزدهر، أما التي تربي أجيال على الخوف والرهبة، فتتألم وتتحسر.

وفي ظل تشوه الرؤية الكونية للأمة، يغيب البعد العام الإنساني في حياتها، وتتمدد الأنانية الفردية، وتصير غاية الإنسان فيها هي البقاء الفردي الأناني، وتدبير لقمة العيش بأقل جهد حتى يأتي الموت، فتتحول الأمة إلى أفراد متنازعين مجردين من قوة الأمة والجماعة، فيغدو حالها كما يعبر عنه القرآن بأسلوب بليغ في سورة الحشر: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾، فلا فرد من غير حس أمة، ولا أمة من دون سلامة بناء الفرد، والفرد السوي الفطرة مسؤول عن حفظ أمته.

ولقد استمدت الشعوب السلامية رؤيتها الكونية في لحظة عزتها من الفهم الصحيح لعلاقتها بالله، بحبها لله الرحمن الرحيم الحق العدل السلام، فصارت ذات نفس معبدة لله ولفعل الخير، وليست مستعبدة، كانت بذلك لا يحركها غير حب الله، وحب صفاته الحسنى، وكانت تخاف من الله خوف العباد، لا خوف العبيد، والقرآن الكريم يجلي الفرق بين نفسية العبد لله، ونفسية العبيد. يقول الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٦].

ومن هنا فإن بعض الشعوب التي تخلت عن حرية الاختيار وأوكلت مصيرها لوصايات كثير من الإجازات الأكاديمية العقيمة، والمغرضة، فتحت الباب أمام تجهيلها وتضليلها واستعبادها، فالخوف يولد المذلة.

أما الحب فيولد التذليل، وأدى عدم فهم الشعوب لمعنى الحرية إلى انزلاقها إلى هاوية الخضوع للنزوات والشهوات والمطامع، وتلك هي حالة الأمم المادية الكواسر في عالم اليوم، التي لم تعد لها غاية في الحياة غير الملذات الحسية والسلب والنهب وقهر الشعوب الضعيفة، وهي وإن كانت قد حققت قوة مادية، فإنها تفسخت أخلاقيًا، ودرس التاريخ هو أن ذلك علامة على السير نحو الأفول الحضاري. (ص١٦٧-١٧٩).

ومن أهم مداخل تضليل كهنة الظالمين والمستبدين للشعوب لخدمة الفساد والظلم الخلط بخبث بين أمرين من شؤون الفطرة السوية، هما: تفاوت القدرات بين الآدميين، وتساوي الكرامة الإنسانية فيما بينهم.

ومن اللافت للنظر أن أبا سليمان يروي أن الاجتماع المعقود لتجلية هذين الأمرين عقد في السوق، وعبأ له بيدبا الحضور للاستماع لما يقوله عنه ابن بطوطة، وفي ذلك إشارة مهمة، هي وجوب تعميم الوعي الجماهيري بهما في مواجهة حضارة

السوق المادي المفترس.

فيما يلي إطلالة على هذين الأمرين:

١ - **يد الله مع الجماعة:** يجلي ابن بطوطة هنا أسس بناء المجتمع الإنساني وشبكة العلاقات والحقوق والواجبات المتبادلة بين الفرد والمجتمع. فكما هو معروف فإن القدرات تتفاوت بين الأفراد لتتكامل في مجمل جماعاتهم. أما الكرامة الإنسانية فإن الله تعالى سوى فيها بين كل البشر بأصل خلق الإنسان وحق الاستخلاف في الأرض، وفي عمق ذلك تأتي المقولة الإسلامية (سيدنا أعتق سيدنا) في إشارة إلى عتق أبي بكر لسلمان الفارسي، فالكل (أسياد كرام)، ومن هذا المنطلق تبرع أبو بكر بكل ماله، لعلمه أن أبناءه لن يضيعوا في أمة صاحبة رؤية كونية كلية حقة، كالتي عاش في ظلها، وفي عمق ذلك جاء رده على سؤال: ماذا تركت لأولادك بقوله (تركت لهم الله ورسوله) .

فتفاوت القدرات يحتم التكامل والتكافل بين البشر، ودون التكافل والكرامة لا توجد أمة ولا جماعة بل دواب مفترسة وعصي متناثرة يسهل كسرها، وفي ظل التكافل والكرامة لا يتردد قادر على البذل عن العطاء؛ ليقينه أن خلفه سيجدون حاجتهم في عزة وكرامة، ولن تزول الأحقاد بين الشعوب والأمم طالما كان هناك ظالم وضحية لظلمه.

ولا تتطلب الرؤية الكونية الكلية السوية إنكار الذات، بل تسعى إلى تحقيقها، دون التمركز حولها؛ وبذا يكون الفرد راعيًا لأمته، والأمة راعية لأفرادها، ويزداد المعنى ويكبر كلما جرت التنشئة من الطفولة على التضحية والبذل المسؤول في عالم النور والخير والروح، ومقت روح القومية العنصرية، والتمكين للحرية الحقة.

ومن المهم أن يبذل المربون غاية الجهد؛ حتى تفهم الأمة كبيرها وصغيرها، مفهوم الحرية، ويفهم معهم الديك.

وفحوى (رمزية: ويفهم الديك معهم)، هي وجوب التزام الواقعية بالوعي بحاجة أمتنا لإزالة ما أصاب رؤيتها الكونية الكلية من غبش، ومن تشوه، إلى جهد جهيد، قد يطول مداها حتى يفهم الديك، فمن الصعب على النفوس أن تغير ما اعتادت عليه، ومن الصعب عليها أن تتذوق طعم ما لم تألف، والبركة في الشباب، فما إن يدركوا حقيقة الرؤية الكونية الكلية السوية وجدواها، فإن التحول إليها سيكون بإذن الله تعالى كاسحًا، والمهم هو المثابرة في تجليتها والتنشئة عليها، حتى يهتدوا بنورها، ويتخلصوا من جحيم نفسية العبيد، ونفسية الطغيان، والأمل في إصلاح حال الأمة وإقلاعها الحضاري التوحيدي كبير، بشرط بذل التربويين والإصلاحيين غاية جهدهم. (ص١٨٠-١٩٥).

وسنة الله في الوجود أن الباطل يزهق ويحقق الله الحق بكلماته، فسيحل عمران الخير محل عمران الاستدراج بمشيئة الله، فيما لو غيرت أمتنا ما بنفسها.

وفي هذا السياق تأتي الحكمة المتضمنة في قصة (العصفور)، فيروى أن فتى كان مولعًا بتسلق الجبال واستكشاف الغابات، فزلت قدمه من قمة جبل وعرة، ولمهارته لم يصب بحمد الله بغير كسر هين في ساقه، ألزمه عدم الحركة وممارسة هوايته حينًا من الدهر، وذات يوم جلس ذلك الفتى على مقعده تحت شجرة، فشاهد أطفالًا يلعبون، وحط عصفور على الشجرة التي يجلس تحتها، وأخذ ذلك العصفور يلتقط ثمارًا من الشجرة ويقلب بصره في الأطفال، وذاك الفتى الذي يخيم الضيق على وجهه بجبيرته وعكازيه، والشمس توشك على الغروب، أسقط العصفور بعض وريقات الشجرة على رأس الفتى؛ ليقطع تأملاته، فسأله الفتى: لم فعل ذلك؟ قال: لأنني رأيتك ساهمًا واجمًا مهمومًا، ولم يخفف عنك مرح الأطفال ولهوهم، قال: بل هو سبب همي، قال العصفور: أهذا ما أهمك، وبعد قليل تتعافى، الحمد لله الذي خلقني عصفورًا أجوب الفضاء وألتقط الثمار بلا عناء، ولو خلقت مثلكم أخطو على الأرض لأكلتني القطط والثعالب والذئاب، وأنا لست من جنسك، ولا

يسوؤك أنني أسرع منك، فلم تأسى على أن بعض بني جنسك أسرع منك في لحظة من اللحظات؟ إنك إنسان حباك الله بالعقل والإرادة، فلا تعجزك النوازل والعقبات، فقيمتك هي بالعقل والإرادة، لا بالقدرة على الجري، فلا تتجاهل الجانب المضيء من حياتك ووجودك.

٢- **الإيمان هو قاعدة الهوية**: يقوم كيان الإنسان وكيان المجتمع على الإيمان، فإذا تناقض حس البشر تصاب هويتهم بالسيولة والضبابية، ويفسد الشك عزائمهم ويزعزع التناقض بنيانهم وواقعهم مع إيمانهم وعقائدهم، فيهتز كيانهم ، ولب الإشكالية هنا هو أن الأمة إذا أحلت القول محل العمل، فأكثرت الدعاء والشكوى إلى ربها طالبة رفع ما بها من بلاء دون جهد ولا عمل، والقواعد المشاهدة هو أن الله لا يستجيب لها، والمظالم تتزايد هي والنوازل والآفات والأمراض، دون أي بارقة أمل من المتسلطين عليهم ومن أعدائهم، وسر ذلك أن الأمة التي تشوهت رؤيتها الكلية لم تعد تميز بين الإيمان بالقدرة الإلهية المطلقة، وبين وجوب استجابتها لله بتغيير ما بنفسها بقول يستقر في قلبها ووجدانها ويصدقه العمل في سلوكها، وتستحضر حقيقة المصير بعد الموت، حتى يستجيب الله دعاءها.

وحقيقة المصير بعد الموت، عند الوقوف عند المقاصد والكليات التي تبقى في الوجدان وفي القلب هي: نعيم وسعادة ما بعدها نعيم وسعادة للصالحين العاملين في الدنيا وفيما بعدها، وشقاء وتعاسة ما بعدها تعاسة للأشرار القاصدين للظلم في الدنيا والآخرة، ونحن بمشيئتنا الحرة نحدد مصيرنا، والمحصلة الأخيرة يعبر عنها قول الله تعالى في سورة العصر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾، وقوله في سورة الزلزلة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

والموضع الطبيعي للنفايات هو المزابل، والموضع الطبيعي للجواهر هو الخزائن، فمصير الإنسان الصالح هو النعيم والتكريم، ومصير الإنسان الطالح هو الذل والمهانة، وكما نرى في دنيانا فإن مصير القاذورات السامة هو الجحيم، ومن الواجب تنشئة النشء على هذه الكليات والمقاصد دون تخويف وترهيب. (ص١٩٦-٢١٤).

سابعًا: إشكالية عدم الاستجابة لدعاء الشعوب المضطهدة المستضعفة في عالم الكواسر المادية العدوانية المتسلطة: أضر سوء فهم الدعاء بكثير من الناس والشعوب وغيب وعيهم، وأوهن عزيمتهم، وجعلهم ينقسمون إلى فريقين: فريق ينكر أسرار الدعاء، وفريق يتخذ منه بديلًا عن العمل والبحث في السنن، وسبب تلك الإشكالية هو الخلط في الخطاب والرؤية المنهجية الجزئية القاصرة، ومناهج التربية والتعليم المشوهة، وعدم بناء مفهوم الدعاء على الوجه الصحيح بالبصر وبالبصيرة، فلا تناقض بين الإيمان والحس، فكلمة الوحي متكاملة مع نواميس الخلق، والله خلق كل شيء بقدر، والشعوب العاملة العاملة تعيش في بحبوحة من العيش.

أما الجهلة البسطاء الذين يحمل بعضهم إجازات أكاديمية فيطلقون القول دون فهم صحيح لحتمية التطابق بين صحيح العقائد وبين ما أودعه الله في الكائنات من السنن والطبائع والمصالح، وكل هؤلاء إما مقلد لداثر من غث التراث، أو للأجنبي، مع عدم السير في الأرض، والجهل بحقيقة الواقع، ومن هنا تحتاج الأمة إلى إصلاح الفكر والرؤية والثقافة؛ حتى تعرف جوهر معنى كلمة الحق ومقاصدها وكلياتها، فالإحسان هو الإتقان في كل شيء مع الجد والبذل في كل المجالات، وليس العمل الصالح هو ريادة حلقات الذكر، بل السعي في الأرض وفق الفطرة السوية والسنن الكونية؛ طلبًا للتزكية والعمران والإبداع، والتنقيب في الأرض عن الرزق، وفي الكون عن سننه وأسراره، بما يحفف التسخير والتيسير في سبيل الحق والعدل.

وليس العمل الصالح هو حب الحياة الدنيا والحرص عليها، بل هو حب الذرية

الصالحة لإنجاب الأجيال للأجيال الصالحة لحمل الأمانة وترشيد الخيار الاستخلافي في أرض الله، ومن سنة الله في الكون أن من يتواكل ولا يفكر ولا يعمل، يعاني، ومصيره هو ما اختاره لنفسه، فالفقر ليس فقر إمكانيات في الأرض، بل فقر عقول وقلوب وفكر وثقافة، ولو أن طلاب المعادن دعوا الله مئات السنين أن يخرج لهم المعادن من باطن الأرض دون أن يؤهلوا أنفسهم لاستخراجها بالكدح والعمل والعلم، فلن يستجيب الله لهم.

تلك هي سنة الله في الخلق، لكن ذلك لا يعني أن دعاء الله وهم وسراب، فالحقيقة أن شرط استجابة الله للدعاء هي استنفاد الأسباب التي أعطاها الله للإنسان وللأمم، مع الاستعانة بالله فيما هو وراء تلك الأسباب مما هو في قدرة الله، لا في قدرة البشر، فلا جائزة للخامل ولا للظالم، فالله تعالى يستجيب دعاء من جدوا واجتهدوا وعملوا وتوكلوا، ولم يعجزوا، ثم دعوا، فيمدهم الله تعالى بالإلهام والتيسير واللطف الإلهي الذي هو في كلياته ثمرة الإيمان والاجتهاد وحسن الأداء. أما العاجز المتواكل المفرط، فهو صنو للظالم والمفسد لا دعوة مستجابة له ولا جائزة، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فالدعاء المستجاب عند الله هو جائزة المؤمن العامل، فالله يرزقه من حيث لا يحتسب، لأنه سبحانه وتعالى مع المحسنين، فالمؤمنون العاملون المجتهدون المتوكلون هم أهل الدعاء المستجاب.

وينبعث الدعاء الصحيح في جوهره من عاطفة حب الله، وهو قوة للروح وطلب لألطاف الله، وحين تستعيد الأمة رؤيتها الكونية الاستخلافية الصحيحة، وتعمل بها، تصير من أهل الدعاء المستجاب، كما كان حال سلفها الصالح، وليست الإنسانية إلا صورة مكبرة للإنسان الفرد، ممتدة في الزمن والمكان، بتعاقب الأجيال، وهي مثلها مثل الفرد أمام خيار من اثنين: استخلاف الخير أو تسلط الفساد والظلم والعدوان، وعلى الأمة أن تنشئ أجيالها على أن الاستخلاف في الأرض ليس أمرًا وإلزامًا، بقدر ما هو مقتضى الفطرة السوية التي خلق الله الإنسان عليها، وعززها

بالوحي المنزل، وليس مفهوم الأمانة إلا الخيار والإرادة التي أودعها الله في فطرة الإنسان للاختيار بين الخير والشر وبين النور والظلمات، وبين حق القوة وبين قوة الحق.

ولتحقيق الأمة لأهلية الدعاء المستجاب فإنها تحتاج إلى إقامة ست مؤسسات مستقلة: مؤسسة الدين والقيم، ومؤسسة الإعلام الشعبي، ومؤسسة مجلس الشورى والتشريع، ومؤسسة التنفيذ، ومؤسسة هيئة القضاء، ومؤسسة مجلس صيانة الدستور وسلامة مؤسسات النظام الاجتماعي، على أن تكون تلك المؤسسات منتخبة ومستقلة ومتكاملة، وقائمة على مبدأ اللامركزية، فتلك المؤسسات الست لازمة لبناء مجتمع العدل والتكافل والسلام في أية أمة، ولا يمكن القضاء على الظلم والفساد والعدوان والاستبداد إلا بها، على أن تكون مؤسسات حقيقية وليس مجرد حبر على ورق (ص٢١٥-٢٥٧).

ثامنًا: مثل المجتمعات المادية والمجتمعات العاجزة المشوهة الرؤية: مثل المجتمعات المادية مثل من لديه سيارة كاملة العدة جيدة البناء لا تتخلف عن خدمته وحمل أثقاله، ومثل المجتمعات العاجزة المشوهة الرؤية كمثل صاحب سيارة مفككة، يستحيل استعمالها والاستفادة منها مهما كانت قيمتها واعتزازه بها، ما لم يعد تركيبها برؤية سليمة وكيان كلي متكامل، ومن العجب أن الأمة التي تقوم على مفهوم وحدة الإنسان وتراحمه، وحقه في الاختيار، تتشوه رؤيتها الكونية الكلية ومفاهيمها حتى تصير مضرب المثل في التخلف والتناحر والفساد والاستبداد، وفي المقابل نجد أممًا من الكواسر تنطلق من مبدأ الصراع والعنصرية القومية، وبناء الهوية الإنسانية على الاختلاف في الجنس واللون واللغة، تنجح بسبب وضوح رؤيتها المادية الحيوانية وبناء مؤسساتها، في توحيد شعوبها، وفي إقامة منظمات عالمية يسمونها عصبة أمم تارة وأمما متحدة تارة أخرى، مدعين أنها أداة للسلام والأمن العالميين، مع كونها في الحقيقة أداة لهيمنتهم على الشعوب المستضعفة، فهي نجحت في تجنيب بلادها أن تكون ساحة وحطبًا للحروب، بينما تجتهد في صنع السلاح

وبيعه وإشعال الحروب والصراعات بين ضحاياها وفرائسها؛ لتنهب ثرواتهم بأقل تكلفة وبثمن بخس.

ولو قدر للأمة التي تباهي بتراثها القيمي التوحيدي، أن أزالت الغبش عن رؤيتها الكونية واستعادت عافية مفاهيمها ومبادئها، وبنت مؤسساتها؛ لكان من الممكن أن تقدم بديلًا عالميًا لحضارة النور والإنسان والعمران، فبناء المؤسسات لتفعيل رؤى الأمم وتحقيق مقاصدها هو الضمان للاستمرارية والفاعلية والاستقرار، ومفهوم المؤسسات الآن لم يعد أمر اختيار، بل ضرورة لا يقف في وجهها إلا كل مغرض مفسد، فعالم اليوم بات متشابكًا في العلوم والأنظمة والمعارف والتقنيات على نحو غير مسبوق، وأصبح العمل ضمن فريق يضم كل التخصصات لازمًا.

فنحن اليوم في عصر المؤسسات العلمية والإنتاجية، ولم يعد التأمل الفردي كافيًا، بل تلزم معامل المعرفة ومراكز البحوث والدراسات، وعلى الأمم أن تربي النشء على روح التعاون والتكافل والتكامل المؤسسي، وليتعلم شباب الأمة ضرورة روح الفريق من درس تمكن الكلاب الوحشية من افتراس صغار البقر الوحشي، رغم أن قوة الكلب الوحشي أدنى بكثير من قوة البقرة الوحشية؛ لأن البقر الوحشي يدافع عن صغاره فرادى، والكلاب الوحشية تهجم عليها قطعانًا، ولا تقترب من البقرات الأمهات فرادى، وبالكر والفر تعجز البقرة الأم عن مواصلة الدفاع عن صغيرها، فتجره الكلاب وتفترسه دون مقاومة، ومع أن البقر يسير قطيعًا، فإنه حين يتعرض صغير إحداها للهجوم، ينظر الباقون للمشهد دون أن يحركوا ساكنًا.

فذاك هو درس يقدم لمن تبلغ به الحماقة أن لا يتعاون مع رفاقه؛ حتى لا يواجه مصيره منفردًا، فالضعيف يفوز بمعرفته معنى التعاون، والقوي يخسر بذهوله عن معنى التعاون، وكثير من الشعوب تقع في حماقة البقر الوحشي هذه، بل تتفوق

عليها في الحماقة والغباء، حيث تتنازع وتتفرق، وتستعدي أعداءها على نفسها؛ ليقع الواحد منها تلو الآخر فريسة لهم، وصدق من قال: أكلت يوم أكل الثور الأبيض، فالخروف الأحمق هو من يطلب العشب من يد الجزار. (ص ٢٥٨-٢٧٨).

تاسعًا: معالم الطريق إلى توضيح الرؤية الكونية الاستخلافية السوية: من الأهمية بمكان توضيح الرؤية الكونية الكلية، بكل السبل الممكنة، لارتباطها بالغاية من وجود الإنسان في هذه الحياة، ومفتاح التوضيح المقاصدي الكلي هو أن أمام الإنسانية رؤيتين كليتين متقابلتين، أولاهما: رؤية الأمة الروحانية النورانية، الناظرة إلى حياتها من بدايتها إلى منتهاها على أنها ذات معنى وغاية بنائية إعمارية خيرة، ملتزمة للعدل والرحمة والتكافل، نائية بنفسها عن الجور والظلم والعدوان.

ويلخص صورتها قول الله تعالى في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ۝٩١ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٩٢ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، وقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

وثانيها: هي رؤية الأمة المادية الحيوانية باهتة الضمير مشوهة الإرادة التابعة لهواها ونزواتها، وشريعة الأمة الأولى هي قوة الحق. أما شريعة الأمة الثانية فهي شريعة الزيف والافتراس والتسلط العنصري العرقي، بدعوى حق القوة، وقانونها هو ما تسميه (المصلحة القومية، وسياسات الأمر الواقع، وسياسات القوة)، وتلك

هي ثنائية النور والظلام، وثنائية الحق والباطل، والإنسانية بكل أنساقها العمرانية مخيرة بين: التدافع السلامي، والصراع العدواني.

ولوضوح الرؤية صالحة كانت أو طالحة، أهميته البالغة، فمن يعرف قبلته ووجهته عن يقين، يجد في عمله وفي طلب بغيته. أما من تلتبس عليه رؤيته، فيهيم على وجهه وتفتر همته، ويفقد بصره وبصيرته، ومن هنا فإن أهم ما ينبغي على مفكري الأمة القيام به هو أن يوضحوا الرؤية الكلية الاستخلافية، ويمكنوا للوعي بأن الأجيال تتعاقب، ويبقى المتغير الوحيد هو نمو المعارف والجد في طلب العمران وتحقيق الذات السوية المؤمنة الصالحة المصلحة، وحين تمتلك الأمة رؤية وغاية، فإنها تجتهد وتتحرك طاقاتها الكامنة، وحال الأفراد والأمم دون غاية ورؤية ومنهج علمي سببي، هو حال الآلة المفككة، لا تقوى على الأداء ولا على الإبداع، وكل أمة توزن بمعنى الحياة عندها في ميزان المعاني والغايات، فمقياس فلاح الأمم هو: هل قبلتها ووجهتها هي الخير أم الفساد والإفساد في أرض الله، وهذا هو معنى المصير والمآل، ولا تجيد الأمة حين تتشوه رؤيتها الكلية، وتفقد ذلك المقياس الحضاري، إلا المحاكاة والتقليد العشوائي الأعمى، دون دراية بحالها وحال من تقلده، فتكون كمن يأخذ الأكسجين في الوريد، فيهلكه. (ص٢٧٩- ٢٨٦).

ورحم الله امرؤاً عرف قدر عقله، فلم يكلفه التنقيب فيما هو فوق قدراته، وخارج نطاق طبيعته ووظيفته، فكم أضر بأمتنا سفه الخوض في غيبيات لا سبيل للعقل الإنساني للوصول إلى برد اليقين فيها، ولو كان لمعرفتها ضرورة في قيام الإنسان بوظيفته الاستخلافية في الأرض؛ لبينها الوحي المنزل، فالله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وفيما كشفه الوحي من الغيب المطلق الكفاية الوافية، فلقد خلق الله كل شيء في الوجود بمقدار، ودور العقل هو البحث في تدبر الوحي المنزل، وفي التعرف على سنن الأنفس والآفاق، واستكشاف الغيب النسبي، الذي باكتشافه يتحقق العمران ويزدهر عبر الزمان والمكان.

وبهذا المحدد المنهجي يتخلص عقل الأمة من السفسطة الفسيفسائية، التي تقوم على الجدل العقيم، الذي يجد الواقع فيه نفسه بعد جهد جهيد يراوح مكانه دون طائل، وخير الرؤى ما تلقاه الإنسان عن الحياة وما بعدها من مصدر موثوق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يصدق هذا الوصف إلا على القرآن، فهو دليل الأمة في كل الأسئلة النهائية الخاصة بالحياة ومعناها وغايتها ومآلها، وبقدر التعمق في فهم الواقع بإمكانياته وتحدياته، تتحدد قدرة الأمة على الاستفادة من الوحي المنزل، في الإجابة على سؤال كل عصر وترشيد حركته، بالعلم والتعليم والتربية، وليس بالادعاء والتعالي والتمترس وراء الشكليات، والوقوع في براثن الوصايات المتسلطة، فرشاد الأمم هو مسألة ذكاء قلب وكلية فكر، وسلامة عقل ووجدان، وصحة معرفة، ولا سبيل لذلك كله إلا بتنشئة النشء على رؤية كونية كلية واضحة، بمنهجية سننية علمية كلية سوية، تركز على المقاصد والكليات، وتنظم الجزئيات في سلكها، ولا تخلط في خطابات الغيب بين الخطاب المتعلق بأحوال الصالحين العاملين، والخطاب المتعلق بأحوال الطالحين المعاندين، وتنوع الخطاب بما يستجيب لتنوع البشر، وتوجه الخطاب على نحو يحيي النفوس ويبصرها بالحق ويقيم الحجة لله ولرسوله ولكتابه، فحال الخطب كحال الدواء، إن لم نكن عالمين به وبحال المعالج به، فإن ضرره قد يكون أكبر من نفعه، والعدو العاقل خير من الصديق الجاهل، ورحم الله كل من عرف سقف عقله، ولا ثمرة للسفسطة النظرية غير النابعة من واقع الحياة وقضاياها، غير إشاعة الفوضى الفكرية، وتشويه الرؤية الكلية للأمة، وشل عزيمتها. (ص ٢٨٧-٢٩٤).

ومن الملاحظات التي لا تفوت المتدبر في (كنوز جزيرة البنائين)، حرص المؤلف على إبراز دور الفتاة المسلمة سائلة ومحاورة ومتعلمة ومعلمة، وها نحن الآن ننصت لفتاة في مجلس ابن بطوطة العلمي، عن خبرة ذاتية لها تؤكد على محورية وضوح الرؤية الكونية الكلية لأمتها، تحكي تلك الفتاة أنها كانت ضمن جماعة في مجلس

علم أحد تلاميذ الفلسفة الإغريقية الصورية البائدة، ويتحدث الشيخ المتفلسف اليوناني عن معضلة، استعصى عليه حلها، ويسأل تلاميذه إن كان عند هم حلًا لها، قال: إنه كان لديه قطًا ذكيًا يسليه، أفلح في تعليمه الكثير من الحركات والحيل، وخطر له يومًا أن يعلمه مبادئ الجبر والحساب، فلم يفلح، رغم أنه لم يعرض عليه إلا أبسط مبادئ الحساب والجبر، فكيف أفسر لغز يقيني بذكاء القط وبجودة الكتاب الذي أردت أن أعلمه منه، وفشلي في تحقيق غايتي، مع قدرة الطفل على تعلم الحساب؟ لاذ الطلبة بالصمت فلقد احتاروا في الإجابة على سؤال أستاذهم، وفي تلك اللحظة دخل طفل صغير وقال بتلقائية (ولكن هذا يا أستاذ قط وليس إنسانًا يتعلم الحساب)، فأفاق الطلاب من غفوتهم وعادوا إلى صوابهم، وتبينوا أن القضية وهمية من أساسها.

فمن الجهل والاستكبار أن يخوض الإنسان بلا دليل فيما هو فوق سقف منطقه ومعرفته وقدراته، فلقد كانت فضيلة الملائكة هي الاعتراف بسقف معرفتهم، وكانت خسة الشيطان في المكابرة بإنكار أن لمعرفته سقفًا، والعلم يأتي على الدوام بجديد يبرهن للإنسان على أنه لم يؤت من العلم إلا قليلًا، ويجعل صاحب الفطرة السوية يقر بأن من العلم، معرفة أن من الحماقة الظن بعدم وجود ما يجهله، والظن لا يغني من الحق شيئًا، وكل ميسر لما خلق له، والله يأمرنا بأن نيسر ولا نعسر، فلندع معرفة عالم الغيب والروح، إلى يوم القيامة والبعث والنشور (ص ٢٩٥-٣٠٢)

عاشرًا: خطورة خلط المفاهيم والخطابات: خلط المفاهيم والخطابات أنكى من خلط الماء العذب بالماء الملح الأجاج، ويقول مالك بن نبي في هذا المقام أن فساد المفاهيم أصعب في معالجته من فساد السلوك، ولقد وقعت أمتنا في فخ الخلط بين المفاهيم، وصور ذلك عديدة:

أولها: الخلط بين مفهوم الذكر ومفهوم الجهاد في سبيل العمران، فالذكر هو دليل عمل، ولا معنى لدليل لا يؤدي إلى غايته في العمل وإغناء الحياة.

وثانيها: الخلط بين مفهومي الدولة والدعوة، الذي يخرجها من دائرة التكامل والتعاون المؤسس على المبادئ والقيم، إلى دائرة الصراع والخيار السياسي، فلباب مفهوم الدعوة هو الحب والإرشاد بالحسنى بعاطفة الإخاء الإنساني، الذي لا متسع فيه لأي إرغام أو إكراه أو كراهية، وهذا أمر غير أمر الدولة التي تقوم على الاختيار السياسي الموقفي في مواجهة التحديات، فالدولة كيان بشري بكل مكوناته من الأرض والشعب والنظم والمصالح والدين والثقافات، وسلوكها يتأثر بالدين، لكنها تتأثر أيضًا بعوامل أخرى عديدة، بعكس الدعوة، والعالم في منظور الدولة يتسع لأن يكون دار مودة ولأن يكون دار خصومة وصراع.

وينقسم العالم لدى النظر إليه من مفهوم **الدولة** إلى ثلاث دور: دار سلم، ودار حرب، ودار عهد. أما حين ننظر إليه من مفهوم **الدعوة**، فإنه لا يتسع إلا لأن يكون فضاء لأمة إجابة وأمة دعوة يرجى على الدوام قبولها وهدايتها.

وهكذا كانت طبيعة الدولة على مدى التاريخ في جوهر رعايتها لرعاياها، وللتمييز بين تلك المعاملة ومعاملتها لغير رعاياها ولغيرها من الدول.

ومن هنا فإن الخلط بين مفهوم الدولة ومنطقها، وبين مفهوم الدعوة الإسلامية ومنطقها، يمثل تزييفًا، لا يثمر غير الحروب النفسية لهيمنة الكواسر لبث روح الهزيمة في الأمة، وقتل روح المقاومة في ضحايا الظلم والعدوان، ولذلك فإنه من الباطل القح تكاتف الدول في عالم اليوم على تحميل العقائد والأديان تبعة سلوكيات الدول، لشن حرب نفسية، تمكن للهيمنة والاستبداد، ومقتضى الإنصاف هو معايرة الواقع الإنساني برؤية كلية، تكشف المتسبب الحقيقي فيما هو فيه من صراع وبلاء.

وكل الأديان والعقائد تدعو إلى التسامح والسلم، القائم على الإقرار بحق الضعيف في الدفاع المشروع عن نفسه، وفي التكافل الإنساني لصد عدوان القوي عليه، وليس من الإنصاف أن تطلب الدول الكواسر المفترسة في عالم اليوم من

رجال الدين والفكر في الأمة المستضعفة، عدم دفع المظالم عنها، وجحد حقها في الدفاع المشروع عن النفس، ودعوة المقهورين إلى الرضا بالظلم، فسياسات القوة في عالم الكواسر المعاصرين لا تعرف الحلول الإنسانية العادلة.

وعلى الأمة الإسلامية أن تعي درس التاريخ، بأنها لن يحميها من العدوان غير استعادة رؤيتها الكونية الكلية السوية وتفعيلها، وتدبر طبائع النفوس في الأفراد والأمم، والعناية بالرقابة على السياسة الخارجية لبلدانها، بنفس درجة الاهتمام بالرقابة على سياستها الداخلية، لامتلاك القدرة على التدافع الحضاري، فلقد عانت أمتنا من سيل من حروب السياسة الخارجية الحمقاء، التي لا ناقة فيها ولا جمل للإنسانية وللشعوب التي تشبه فيها الخروف حين يلتمس العشب من يد الجزار، قبل أن يقوده إلى المجزرة، ولو عقل الحمقى من قادة أمتنا ذلك لما طمعوا ولما طعموا، ولما سمنوا من علف الجزار ومن تدابيره، وجعلوا دماء شعوبهم زادًا لجشع أصحاب المصالح المتسلطين في الداخل وفي الخارج، والبون سيكون شاسعًا حين يكون أمر الأمة بيد قيادة حرة خيرة منتخبة معبرة عن إرادتها، مخلصة لها وللإنسانية جمعاء، في سياستها الداخلية والخارجية، والأمل معقود على أن يعتدل الميزان، وتغرب شمس حضارة الغاب الاستعلائية، ويمكن الله تعالى من جديد لأمة النور والخير والفطرة السوية، في الأرض من جديد، والشرط المطلوب السعي لتحقيقه ليصير ذلك الأمل واقعًا، وفق سنن الله في الكون هو: اجتهاد المخلصين في الأمة في التنشئة على صحيح الرؤية والعقيدة، حتى يصح عزم الأمة، وتنجب أجيالًا حرة واعدة، تتبع القول بالعمل الصالح المخطط المتقن، وتخلص العهد لأسرها ولأمتها، مسلحة بصحيح دينها وبعبرة التاريخ وبالفهم العلمي السنني لواقعها.(ص٣٠٣- ٣٢٣).

حادي عشر: مرتكزات الاستقرار الأسري: في نهاية مجلس علم ابن بطوطه في مدارساته مع بيدبا وإخوانه وأخواته، تعرض فتاة جميلة تفوق البدر جمالًا على ابن بطوطة أن يتزوجها؛ لكونها لم تعد قادرة على عدم مواصلة الاغتراف من وصاياه

ومن حكمته، وجاءت ثمرة ذلك مجموعة من الدروس المهمة في التمكين للاستقرار الأسري، نوجزها فيما يلي:

١ - **الانتهاء عن تعدد الزوجات إلا لضرورة قاهرة**: يرد الشيخ على طلب تلك الفتاة بوجوب انتهاء من تقدم بهم السن عن ظلم البنات الصغيرات بالزواج منهن مهما كانت العلة والسبب، ويقول إنه محب لشباب العلم والصلاح، ولكنه رحالة لا يستقر له مقام، وله في بلده أسرة وأبناء وأحفاد، وقد أخلص العهد مع زوجته فأخلصت العهد معه، وساد الود والسكينة والوئام بينهما، وسعدت الأسرة، وكيان الأسرة يحتاج إلى الخلو من التربص، ومن تعدد المصالح والحسابات، ومن واجب الزوج أن يحذر من نصائح الحمقى له المؤدية إلى إثارة غيرة زوجته عليه، فالثقة بعفة الزوجة هي عماد استقرار الأسرة، والأساس الثاني لهذا الاستقرار هو رعاية كرامة الزوجة وكرامة الأبناء وتقدير المسؤولية الأسرية، وبعد ذلك لا توجد خلافات أسرية يستعصي حلها بالحوار.

والعجوز الذي يتزوج شابة، يظلمها لعجزه عن حمل أمانة عشرتها، فضلًا عن تضييع أطفال صغار، يلقاه الأجل، وهم ضعاف ويتركهم لأرملة شابة مسكينة، ولذا فإنه من الظلم ومجافاة العدل والإحسان الإقدام على تعدد الزوجات لغير ضرورة، فابن الشباب يسند أبويه عند شيبتهما. أما ابن الشيبة فيضيعه أبوه ويتركه للخيبة، والأصل في المجتمع الإنسانية وأن الله خلقنا أزواجًا، فمن بدء الخلق خلق الله آدم، وخلق له زوجة واحدة هي حواء، ومن هنا فإن القاعدة هي وحدة الزوجة، والاستثناء هو تعدد الزوجات؛ لتغطية الحالات التي يقل فيها عدد الرجال عن النساء بسبب الحروب، أو في حال عدم وجود مؤسسات لرعاية اليتامى وأسرهم، أو بهدف الحفاظ على حسن عشرة زوجة عاقر فتكون أمًا ثانية لأبنائه، أو لرعاية زوجة مريضة معاقة؛ حفظًا لحق سابق العشرة؛ وبذا لا يكون التعدد بابًا لتضييع روح الأسرة وحقوقها، ولا للاستهانة بنفسية الزوجة والأبناء وحقوقهم،

فالتعدد طلبًا للمتعة يمثل تعديًا على حقوق الأسرة والمجتمع والأمة، وهو بمثابة حل لمشكلة بمشكلة أعوص منها، وتكون العلاقة بين الزوج المفرط في حقوق أسرته علاقة شك يشيع فيها الصراع ويقل الولاء وينهدم البناء، فتضيع الأسرة، ومعها الرجل والمرأة والطفل والأمة (٣٢٢- ٣٣١).

٢- **العواقب الوخيمة لانهيار الأسرة في الواقع المعاصر**: انهيار الأسرة في الواقع المعاصر وارتفاع معدلات الطلاق والعنوسة والخلافات الأسرية، مؤشر على الضعف الأخلاقي، وسوء التربية، وتشوه الفطرة الإنسانية السوية، ويحكي ابن تيمية خلاصة ما سمعه من عالم في حلقة علم عن (أسس بناء الأسرة وتكامل أدوار أعضائها وتراحمهم وأثر ذلك على نفسية الأبناء وعلى تنشئتهم) ردًا على سؤال وجهه شاب إليه، فحواه أن الله رزقه بزوجة فاضلة طيبة، وبطفلة جميلة، ولكن زوجه تتضجر كثيرًا بتأثير نصائح جاهلات لها، وبحكم قلة خبرتها، من القيام بمسؤولياتها الأسرية، فتصرخ وتكرر على مسامعه طلبها الطلاق، وهو يخشى أن يفرغ صبره فيلبي طلبها، فبم ينصحه حتى يتجنب الطلاق لمثل تلك الخلافات التافهة؟، فشكر له ذلك العالم صبره وسؤاله، وحكى له قصة طريفة وقعت لأحد معارفه، شبيهة بقصته، وفيها مفاتيح الإجابة العملية على سؤاله.

فروى له أن فتى مكيًا معروفا بحكمته ودماثة خلقه وحسن تحمله للمسؤولية، غضبت زوجته ذات يوم، وطلبت الطلاق، رغم أن ما تشكو منه هو بعض مسؤولياتها الأسرية التي لا مفر منها تجاه بيتها وصغارها، وأبدت جديتها في طلبها الذي لا مبرر له، إلا أن يكون هو تقليد الجاهلات أو الدلال، صمت الزوج مليًا، ثم قال لها: اسمعي يا زوجتي العزيزة واعلمي أنني لن أطلق أبدًا، فلست أنا الذي يرتكب الخطأ بالزواج؛ لتدفع هذه الصغيرة ثمن خطأي وغلطتي، وأنت تعلمين صدق قولي في استحالة التخلي عن مسؤوليتي بالطلاق لما يترتب عليه من آثار وخيمة على الأبناء؛ ولذا فإنني سأكتب صيغة الطلاق، وأترك فراغات تملأ

بالأسماء، وإذا كنت حقًا تريدين الطلاق، فاكتبي ورقة الطلاق بخط يدك، عندها سأنزل على إرادتك مهما كان القرار مؤلمًا، وأوقعها لك دون تأخير؛ لأن الحياة الأسرية لا تقوم إلا على الرضا والمودة والرحمة، وكتب الفتى المكي وثيقة الطلاق دون أسماء ولا توقيع، وقدمها لزوجته، ومن يومها لم تنطق زوجته أبدًا مهما غضبت واحتدت بلفظة (طلب الطلاق).

فحين علم الفتى المكي أن ليس من المروءة أن يطلق زوجته ويهدم أسرته ويضيع أولاده، كان رد زوجته الفطري هو عدم طلب الطلاق، وعاشت الأسرة في مودة وهناء، فالأسرة تزدهر فيما لو سادت المودة والثقة المتبادلة بين الزوجين، والإحساس بوحدة الكيان الأسري، ومن أخطر ما منيت به الأمة، بل الإنسانية، في هذا العصر الغفلة عن معنى الأسرة والأمومة والأبوة والبنوة، وأهميته أن يكون الزوج (طفل زوجته)، وأن تكون الزوجة (طفل زوجها)، وأن نكون كلنا أطفال في أسرنا، وأن تعود الأسرة الممتدة متعددة الأجيال، التي يلتقي في حضنها الأب والأم بالجد والجدة، بالبنين وبالأحفاد، وأن تنبعث أواصر القربى وصلة الأرحام، لتعم جسد الأمة كله، والتعبير عن الحب بالقول والعمل هو بالنسبة للأسرة بمثابة الماء للزروع، والهواء للأحياء.

والماديات يمكن الاكتفاء منها بالقليل، وحدها المودة والتراحم هما اللذان لا تشبع الفطرة السوية منهما أبدًا، فحاجة القلب والروح يجب أن لا تغلب عليها حاجات الأجساد، والحب والتقدير هو مؤونة تثبيت لبنات بناء الأسرة، وشعار الكريم السوي على الدوام هو المعاشرة بالمعروف والحرص على الوفاء، فإن تحتم الفراق فليكن بإحسان رعاية للرحم ومشاعر الأبناء وصلات القربى، ودرس التاريخ أن الأمم التي فرطت في الأسرة، فتحت باب الرذيلة على مصراعيه، فانهار أساس مجتمعاتها وبادت حضارتها (ص٣٣٢-٣٥٣).

وكم من مآسٍ ترتكب في حق من تربيهم زوجة أب ليست أمهم، حيث تتعرض للقابلية للتحيز ضدهم معنويًا ونفسيًا لصالح أبنائها، فتغرس الكراهية بين أبناء الأسرة الواحدة، وقد يصل الغي بها إلى معاقبتهم جسديًا على أمور، من الطبيعي أن تصدر عن الأطفال، وحين سمع ابن بطوطة ضجة في البيت المجاور لمجلس علمه، وعلم من تلاميذه أن ذلك أمرًا معتادًا لوجود زوجة أب فيه درجت على معاقبة أبناء زوجها من زوجة غيرها، أرسل إليها ثلاث سيدات مسنات تلطفن في خطابها، وطلبن موعدًا لجلسة علم تحضرها هي وزوجها، استجابت لهن، وتحدث الشيخ عن صلة الرحم والعطف على اليتامى والفقراء، وفي نهاية المجلس استأذن الشيخ في أن يخلو بأهل ذلك البيت لبعض الحديث، ثم انتقل بصحبة بيدبا وزوجته وتلكم السيدات الثلاث، والجار وزوجته وأمها وأختها، إلى بيت ذلك الجار، وقال للزوجة أنه سمع ما حدث في ذلك البيت بالأمس، ويقدر ثقل عبء مسؤولية أبنائها ناهيك عن أبناء الزوج الذين ينظرون إليها على أنها هي المرأة التي اغتصبت مكان أمهم وحرمتهم من دفء حضنها، وعليك أن تجتهدي لكسب ودهم، وسد الطريق أمام من قد يبغضهم فيك؛ وبذا أظهر الشيخ حسن تفهمه لمعاناة تلك الزوجة، ويبقى السؤال الذي يجب أن تطرحيه على نفسك دائمًا: كيف نحول تلك السلبيات إلى إيجابيات؟ وكيف تكسب معركة ثقة أولئك الأطفال ومودتهم؟ وأجاب بأنه لا يقدر على تلبية متطلب هذا السؤال إلا من كان له أصل في فطرته أو مصلحة له في القيام به وتحمل أعباءه، فمن المهم أن تعني تلك الأم أن لرعايتها لأبناء زوجها أصل في فطرتها ومصلحة لها ولأبنائها، ومفتاح ذلك هو الوعي بحقيقة أن هؤلاء الأطفال ضحايا أبرياء لأخطاء والديهم، ومن غير موجبات الحق والعدل أن يعاقبوا على أخطاء آبائهم وأمهاتهم.

وعلى زوجة الأب أن تجتهد في تصويب نظرتها إلى أولئك الأطفال الأبرياء، فلا تراهم على أنهم أبناء الزوج، بل على إنهم إخوة أبنائها، ويرتبطون بهم برابطة دم لا

انفصام لها، بحيث أن ما ينالهم من خير وحسن سمعة ينعكس بالإيجاب على أبنائها، وما يصيبهم من ضر ومن سوء سمعة، يطول أبناءها، ثم إن الأمومة ليست دماء تجري في العروق، بل هي لمن تتفتح عين الطفل على حبه ورعايته، ولو لمس أبناء الزوج صبرًا وحنانًا ومداراة، فإن تلك الأم التي لم تلد ستحصد ثمرة ذلك عرفانًا منهم في الدنيا، وثوابًا مضاعفًا يوم الدين، فتكون في الدنيا (أما صالحة واعية) وفي الآخرة (أما مأجورة مكرمة)، ومن يومها لم ينطلق من ذلك البيت غير أصوات الضحك والمرح والسرور، وكم سعد حين رأى تلك العروس في ذلك البيت تحتضن (أم الرباية والبذل) كما تحتضن (أم الحمل والرضاعة)، وتقبل رأس كلتيهما.

وحكى الشيخ أن المرأة ليست وحدها هي المعرضة لإساءة معاملة أبناء الزوج، فلقد كان هناك رجل يصر على أن لا يأكل أبناء زوجته إلا من طعام يضعه على رأسه، مع التزام الصمت، وظن الناس أن ذلك من باب المروءة والكرم، إلا أنه صرح لصديق ألح عليه لمعرفة سر ذلك، بأنه لا يطيق أن ينظر إليهم وهم يأكلون.

واقتراح الشيخ تأسيس جمعية تطوعية خيرية ترعى جميع الأطفال الضعفاء وأسرهم، وتقوم بمعالجة مثل هذه الحالات، بتصبير من تربي غير أبنائها، وتبصير من يربي أبناء زوجته، ولزيارة الأمهات المطلقات لبناء وعيهن بأن من مصلحتهن ومصلحة أبنائها، أن تكف عن تشويه صورة أبيهم وزوجته في عيون أبنائها؛ لأن عواقب ذلك لا تضر بأبنائها وحسب، بل بأمتها بتربيتهم على الكراهية وحب الانتقام والعناد، وأن ذلك خنجر يرتد إلى صدرها.

والقاعدة الذهبية لتربية الأبناء هي أن يعاملهم الوالدان في طفولتهم بما يحبان أن يرياهم يتعاملان به مع الآخرين وهم بالغون، فالوالد الذي يعامل ابنه على أنه قاصر يربيه على القصور وعدم الثقة بالنفس وعدم احترامها، فليعامل الآباء والأمهات الأبناء معاملة تغرس فيهم الاعتداد بالنفس والإحساس بالكرامة،

وعدم قبول الإهانة ولا الظلم، وحين يكون هناك لزوم للعقاب فليكن محتملًا وبقدر، وبعد البيان والشرح والتوضيح والحوار، فالطفل الحر تكفيه من المربي الإشارة، وعلى المربي أن يغرس في وجدان من يربيه أن يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به، ولنعلم جميعًا أن عود الشاب الابن لن يستقيم، إن اعوج جذر نبت طفولته، ومن تغلب عليه نزواته، فليبتغ مخرجًا في تعدد الزوجات، وليس في الخليلات، فالضرر المترتب على التعدد المرتبط بالمسؤولية، أخف من الانهيار الخلقي المصاحب لاتخاذ أخدان، وحسن التربية في الطفولة، لا يدع مجالًا لوجود من لا يقدرون على التحكم في شهواتهم، فيصيرون في حكم الاستثناء الذي يثبت القاعدة ولا ينفيها.

وبعد كل هذا البيان الحكيم النابع من روح القرآن، يتوجه ابن بطوطة لتلك الفتاة فائقة الجمال، التي أرادت أن يكون زواجها منه، سبيلًا لالتزام مجلس علمه وحكمته: لست في مثل سني يا ابنتي الكريمة بالزوج المناسب لفتاة جميلة في مقتبل العمر مثلك، ولكن أستأذنك في أن تقبليني لك أبًا، وأن أخطبك لمن أظنه بما توسمت فيه من نجابة ومن مشاعر حب، زوجًا لك؛ ليكون خير زوج لك وخير أب لأبنائك في رحلة حياة سعيدة، ويطلب الشيخ من فتى وسيم أن يجلس إلى يمينها، فيلبي مسرعًا، ثم ينظر إلى شاب يضاهيه في حسن الطلعة، ويطلب منه أن يجلس إلى يسارها، فيلبي في سرعة وخجل، ثم نظر الشيخ إلى فتاة أخرى جميلة تضاهي الأولى حسنًا وجمالًا، وطلب منها أن تجلس في الجانب الأيسر إلى جانبه، ثم خاطب الشاب الجالس إلى يمينه قائلًا أنه لم تفته نظراته إلى فتاته التي إلى جانبه ونظرات الحياء التي ردت بها، فهل تأذنين لي أن أخطبك إلى الشاب الجالس بجوارك، وجاء صمت الفتاة المزوج بحمرة الوجنتين أبلغ من الكلام، ثم التفت إلى الشاب الآخر وسأله: هل يأذن له بأن يخطب له الفتاة الجالسة بجواره لظنه أن مثلهما لن يجدا شريك حياة أصلح له من ذلك؟ ثم التفت إلى الفتاة وسألها هل

تقبلين، فردت بمثل ما ردت بها أختها، وقال الشابان له: أنت بمنزلة الأب لنا ونحن راضون بما اخترته لنا، وقال ابن بطوطة لبيدبا: سأدبر فرح زواج هذين الشابين من هاتين الفتاتين، وسيكون العرس في داري وعلى نفقتي، لأكافئ صبرك وصبر إخوانك على عناء الحوار والدرس طيلة الأيام الماضية، فلقد كنتم خير محاورين، وخير مستمعين. (ص ٣٥٤- ٣٨٥).

مسك الختام
كنز الشيخ، والتبتل في محراب
تأسيس أسر على التقوى

مسك الختام

كنز الشيخ، والتبتل في محراب تأسيس أسر على التقوى

على مدى أيام عديدة من مدارسة بيدبا وابن بطوطة، يجد الأخير ما يثير قلقه، من تسلل شخص إلى بيته، والعبث بأثاثه دون أن يترك أي أثر يدل على هويته، أو على غايته من وراء ذلك، وهو ما أسر به إلى بيدبا، الذي وجه الشرطة لفرض حراسة على منزل الشيخ؛ للكشف عن هوية ذلك المتسلل، وها هو الشيخ يقرض قصيدة شعرية، ويدفع بها إلى بيدبا، ويطلب منه أن يقدمها لأفضل ملحن؛ لتزف بها عروستان إلى عريسان، كان هو الأب الروحي لهم، والمنتقي لهم.

وهو هنا يؤسس لقاعدة تقديم رضا المخطوبة بخطيبها، على رضاه هو بها، ويرسم معالم لرسالة مجالس العلم الحقيقية التي تنشغل بهم الأمة، من منبعه الأصيل وهو الأسرة، فيصاحب التنظير فيها، السعي العملي في إصلاح ما اعترى بعض الأسر القائمة من خلل، وبناء الوعي الأسري، وفي القضاء على ما استقر من تقاليد بالية تضر بالأسرة في العقل والوجدان المسلم، والحرص على تأسيس أسر على التقوى، وحث الشباب والشابات على الزواج، والفرح بهن، وتحمل أعباء عرسهن، والتخلص من أثقال ما يسمى بالأثاث الكامل لبيت الزوجية، والشقق المنفردة الموحشة الخالية من بركات الجدود والجدات، الحارمة لهم وللأحفاد من حضن الأسرة الممتدة الدفء، ومن خبراتها في التربية.

فلندخل ساحة هذا العرس في ذلك المجتمع الراقي الأخلاقي بحق، حيث تعم الفرحة وجوه كل الحضور، ويخلو الجمع من عروض مفاتن الجنس والجسد وحرماته، بينما يفيض بالحشمة والعواطف الإنسانية النبيلة، فلا يرى فيها من النساء غير وجوههن الوضاءة وأيديهن، ولا يسمع فيه إلا طيب القول وبديع الألحان.

فما الشعر الذي يؤسس به ابن بطوطة العصر، لميلاد أسرتين مسلمتين؟ إنه يفتتح الحفل باستدعاء شعر الأنصار في استقبال النبي الخاتم ﷺ والصديق أبي بكر، فجر

يوم الهجرة المجيد، فالنبي ﷺ بدر هلَ على البشرية، والشكر لله واجب، ما دعا لله داع. وأمر النبي ﷺ المبعوث رحمة للعالمين مطاع. أما قصيدة الزفاف فتخاطب أهل الحارة والبلدة، بأن الفرحة هي فرحتهم جميعًا بأجمل وأنبل العرسان، وتدعوهم لأن يغنوا كلهم بأجمل الألحان ويهنئوا الحبايب بالحب والشعر والورد والأزهار، ويفرحوا بنيل حبايبهم للمنى والهنا، ويدعوا الله لهم بأن يحميهم ويسعدهم، وتختتم القصيدة بالصلاة على النبي وآله الأطهار وصحبه الأخيار كلما أشرقت الشمس، وطل نور الفجر، وتفتحت الزهور.

ثم كانت وليمة العرس، التي تنتهزها الأمهات لانتقاء من ترى أنها مناسبة لخطبتها لابنها، وفي أثنائها جلس قيم الدار بجوار الشيخ، وشغله عن تناول الطعام، واستهل حديثه بشكره على إصلاح شأن تلك الأسرة التي ضمت زوجة ثانية خلفت أمًا لها أولاد بحكمة، أثمرت إنشاء جمعية لرعاية الأطفال الضعاف، ثم أثنى على كونه قد سن سنة الفرح الجماعي، الذي سيكون مثالًا للتعاون وللحد من التكاليف وتيسير أمر الزواج، ثم قال له القيم أن أمه وأبيه بما لهما من خبرة لما يعودا معه، وله وأخوات يقوم على رعايتهن وتربيتهن، ويسعى لأن يحسن اختيار أزواج صالحين لهن، فما هو السن الذي يجب عليه أن يجتهد فيه في أمر زواجهن؟ وما مستوى التعليم والتدريب الذي يكتفي به في إعدادهن قبل الزواج حتى تتأهل كل منهن لرعاية أسرة؟

أجاب الشيخ بأن السن المناسب لزواج الفتاة والقسط الذي يجب أن تحصله من التعليم يختلف باختلاف ظروف كل مجتمع، المهم أن لا تعرض الفتاة للزواج قبل نضجها الجسدي والنفسي والتعليمي، وأن لا يزيد الفرق في السن بينها وبين العريس عن عشر سنوات. أما السن المناسب للفتى للزواج فهو إتمام إعداده التعليمي والمهني، ولسوء الحظ فإن الأعباء الاقتصادية في كثير من المجتمعات باتت تتسبب في تأخر الزواج للجنسين، مما يتمخض عن مشكلات اجتماعية بالغة الخطورة، ومن

واجب الوالدين أن يحرصا على عدم تفويت فرصة زيادة الطلب على بناتهن، والمهم هو حسن الاختيار، وتوسيع الأسرة لدوائر علاقاتها الاجتماعية يساعدها على حسن الاختيار، في التوقيت المناسب (كنوز جزيرة البنائين: ص٣٨٦- ٤١١).

ويأتي حل لغز كنز الشيخ، فعلى مدى أيام عديدة اشتكى الشيخ من أن شخصًا يتسلل إلى بيته بعد خروجه إلى مجلس العلم ويقلبه رأسًا على عقب بحثًا عن شيء، دون أن يترك أي دليل يهدي إلى التعرف عليه، وطلب بيدبا من قائد الشرطة أن يكثف الحراسة على بيت الشيخ؛ ليحل هذا اللغز، وبعد انتهاء الفرح، فوجئ بيدبا والشيخ بقائد الشرطة يأتي والجدية بادية على وجهه؛ ليخبره بأن الشرطة نجحت أخيرًا في القبض على المتسلل إلى بيته، وما يسره ويؤسفه في نفس الوقت أن المتسلل ليس من أبناء بلاده، بل هو البحار مسعود الذي صحبه على المركب الذي حمله إليها، والذي كان من بين رواد مجلسه والمواظبين على حضورها، وسنعاقبه على فعلته هذه أشد العقاب.

فوجئ الشيخ بالأمر كما فوجئ الجميع به، لكنه قال بهدوئه المعتاد: لا بأس عليكم، أرجو أن تأخذوني إلى حيث أوقفتم الرجل: لأتحدث إليه، ثم نتشاور بشأن مصيره بما فيه الخير، إن شاء الله، استقبل الشيخ في مركز الشرطة بالحفاوة الواجبة، وأوتي بالبحار مسعود مكبلًا والخزي يعلو وجهه مما فعل، طلب الشيخ من مدير المركز أن يفك أغلاله، وأمره بالجلوس، سأله الشيخ عن السبب في فعله ما فعل، فلقد صحبتني ولزمتني، وكنت أجدر الناس بالاستفادة من علمي، مع اليقين بأنني ليس لدي شيء يتطلع إليه أحد أو يرجو الحصول عليه، فأنا لا أملك كما يعلم الجميع إلا ما يسد رمقي؟ صمت مسعود، وقال الشيخ له: فسر لنا لغز تصرفك، فإن صدقتنا القول، كان ذلك منجاة لك مما قد ينتظرك من عقاب.

قال مسعود: أخشى أن لا تصدقني إن أخبرتك بالحقيقة، قال له: لا عليك، فالصدق منجاة، قال البحار أنه فقير ووراءه زوجة وأم وصغار يشقى شهورًا في

البحر؛ ليدبر لهم لقمة العيش، وسمعتك على ظهر المركب في عرض البحر تتحدث إلى أحد ركاب السفينة عن كنز عزيز عليك لا تكاد تفارقه قط في حلك وترحالك، ولا تعدل به الأموال الطائلة ولو كثرت، فانتهزت فرصة صلاتك على المركب، وفتشت في متاعك فلم أجد شيئًا.

صدق الشيخ على كلامه: فعلًا رأيت ساعتها متاعي مبعثرًا، لكنني ظننت أنه من حركة السفينة والرياح المتقلبة، قال مسعود: ومن يومها حرصت على ملازمتك وتتبع خطواتك لعلي أعثر على الكنز، وأقضي به على حياة العوز والفقر، وانتهزت فرصة انشغالك بدروس العلم في التسلل إلى بيتك مرارًا بحثًا عنه، فلم أجده، وليلة الفرح، سولت لي نفسي أن تلك هي الفرصة الأخيرة لاستغلال انشغالكم به، لأن لا يضيع مني الكنز، فأقدمت رغم علمي بتشديد الحراسة على فعلتي بدافع الحاجة والطمع والأمل.

انفجر الشيخ ضاحكًا، فقال له بيدبا: أضحك الله سنك، ماذا في كلام مسعود يدعو إلى الضحك، وما حل هذا اللغز؟ وما هو أمر ذلك الكنز الذي يتحدث عنه مسعود؟. أجاب الشيخ بأن مثله لا يكنزون المال والجواهر الثمينة، ولقد أضنى هذا المسكين لجهله بذلك نفسه في البحث عن كنز لا وجود له، وأزعجني وورط نفسه بفضوله وطمعه، ولو كان لديه ذرة من عقل وفطنة ما فعل ذلك، كنزي هو (**مصحفي وسجادة صلاتي**) اللذان ورثتهما عن أبواي، وكنت أصلي صغيرًا على تلك السجادة إلى جوار أبويَّ، وأحيانًا أنام عليها بين أيديهما، وكنت أشاركهما تلاوة القرآن في هذا المصحف، وهذا المصحف وهذه السجادة يحملان رائحة والدي وذكريات طفولتي، وعلى الرغم من سني وشيخوختي، فإنني أدس رأسي في حضنيهما كعهدي بهما في طفولتي، ولقد كان كنزي أمام عينيه على الخوان في مجلسي، لكن هيهات أن يرى من استولى الجهل والطمع على نفسه مثل هذا الكنز.

وبعد الفواق من دهشة المفاجأة، انفجر الجميع بالضحك، وتجمع كل من بمركز الشرطة ينظرون لما يجري باندهاش واستغراب، وطلب الشيخ من قائد الشرطة أن يخلي سبيل البحار مسعود، لما علمه من حاله وحال صغاره، وقال إنه على ثقة أنه قد تعلم الدرس، ولن يعود إلى تلك الحماقة، وسيقنع بالكسب الحلال إن شاء الله.

أراد مسعود تقبيل يد الشيخ، ولكنه أبى احترامًا لكرامته الإنسانية، وعاهد مسعود الشيخ على التوبة النصوح، والرضا بالرزق الحلال، وعفت الشرطة عنه؛ إكرامًا للشيخ ورأفة بصغاره، وثقة في توبته، وصار مسعود من خيرة تلاميذ الشيخ الذي رحل إلى الجنوب، وصار على خير حال.

وأصبح ربان سفينة من أكبر سفن بحار الجنوب، وحتى قطة الشيخ (فلة) التي كانت تمتعض من رؤية مسعود وتبتعد عنه حين كان جاهلًا طماعًا، باتت تحبه، وتأتي إليه بصغارها؛ ليداعبهم، فكل من يحب الشيخ حقًا، فقد عرف الطريق إلى قلب قطته (فلة) (كنوز جزيرة البنائين: ص٤١٢- ٤٢٥).

وما يجب العض عليه بالنواجذ في مشروع الإصلاح الشامل الكلي المقاصدي للأمة هو: إقامة مؤسسة الشورى، والتمكين لمبدأ المعاشرة بالمعروف والتسريح بإحسان، وعدم الخلط بين الدعوة الإسلامية، والسلطة السياسية، وإقامة مؤسسات الأمة المعبرة عن إرادتها الحرة، والوعي بالبون الشاسع بين: مبدأ إقليمية القوانين **(قانون الدولة القومية)** وشخصية القانون، فإقليمية القانون نتاج تطور أوربي وصراعات دينية كاثوليكية وبروتستانية، وهو قانون يعامل المواطنون بموجبه معاملة الأتباع الذين لا خيار لهم، ويتحيز ضد الآخر أفرادًا وشعوبًا. أما **شخصية القانون** أو القانون الشخصي، فهو القانون الذي يراعي انتماءات الرعية وهوياتهم وخصوصياتهم، فتتعدد في هذا النظام القوانين فيما لا ضرورة ولا مصلحة عامة في

توحيده؛ احترامًا لإنسانية الإنسان ولخصوصياته، وينعدم مفهوم شخصية القانون في عالم الحضارة الغربية والدولة القومية، بينما لا تزال بعض آثاره في كثير من الدول القومية الهجينة في العالم الإسلامي، فيما يسمى (قوانين الأحوال الشخصية).

والحمد لله الذي بحمده تتم الصالحات

قائمة مصادر الحقيبة المعرفية

قائمة مصادر الحقيبة المعرفية
(مرتبة حسب ورودها بها)

١- د. عبد الحميد أبو سليمان، **الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني**، ضمن: د. أحمد فؤاد باشا (وآخرون) المنهجية الإسلامية، القاهرة: دار السلام للطباعة والتوزيع والترجمة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٠ الجزء الأول. & د. عبد الحميد أبو سليمان، **الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني**، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٩.

٢- ....، **أزمة العقل المسلم**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٩.

٣- ....، **أزمة الإرادة والوجدان المسلم: البعد الغائب في مشروع إصلاح الأمة**، في إصلاح الثقافة والتربية رؤية إسلامية معاصرة، دمشق: دار الفكر، مؤسسة تنمية الطفولة، ٢٠٠٤.

٤- ....، **الإصلاح الإسلامي المعاصر: قراءات منهجية اجتماعية**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١١.

٥- ....، **تجديد الخطاب الإسلامي المعاصر، الثابت والمتغير: نظام العقوبات نموذجًا**، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية: ٢٠٠٧ .

٦- ....، **حد الردة في الإسلام عقيدة وقانونا**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٣.

٧- ....، **الإصلاح الإسلامي المعاصر**، القاهرة: دار السلام

للطباعة والنشر، ٢٠١١.

٨- ....، **إسلامية الجامعة وتفعيل التعليم العالي بين النظرية والتطبيق: الجامعة الإسلامية العالمية نموذجًا**، مجلة إسلامية المعرفة، العدد ٢٦، ٢٠٠١.

٩- ....، **النظرية الإسلامية للعلاقات الدولية: اتجاهات جديدة للفكر والمنهجية الإسلامية**، ترجمة:د. ناصر أحمد المرشد البريك، الرياض: مطابع الفرزدق التجارية، ١٩٩٣.

١٠- ....، **نظرية الإسلام الاقتصادية: الفلسفة والوسائل المعاصرة**، القاهرة: دار مصر للطباعة، مؤسسة الخانجي بمصر ١٩٦٠.

١١- ....، **إشكالية الاستبداد والفساد في التاريخ الإسلامي**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٢ .

١٢- ....، **الإنسان بين شريعتين: رؤية قرآنية في معرفة الذات ومعرفة الآخر**، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٠٧.

١٣- ....، **العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي بين المبدأ والاختيار: رؤية إسلامية**، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٧ & د. عبد الحميد أبو سليمان، **العنف في الإسلام بين المبدأ والاختيار**، العدد ١٥، شتاء ١٤١٩هـ ١٩٩٩.

١٤- ....، **انهيار الحضارة الإسلامية وإعادة بنائها: الجذور الثقافية والتربوية**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان: مركز معرفة الإنسان للدراسات والأبحاث والنشر والتوزيع، ٢٠١٦.

١٥- .... (خطة وإشراف)، **دليل مكتبة الأسرة المسلمة**، القاهرة:

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٨، دراسة في مجلدين .

١٦- ....، **أسس الحكم الشرعي في التصوير والتجسيم**، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد ٤٠، ربيع ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥ & د. عبد الحميد أبو سليمان، **أسس الحكم الشرعي في التصوير والتجسيم**، القاهرة: الموسم الثقافي بمركز الدراسات المعرفية، ٢٠/ ١٠/ ٢٠٠٧.

١٧- ....، **إسلامية المعرفة: رؤية للعشر سنوات القادمة**، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية، ٢٠/ ١٠/ ٢٠٠٧..

١٨- ....، **إسلامية المعرفة: مهمة باقية**، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي العدد ٥٢، ربيع ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨..

١٩- ....، حوارات منهجية في قضايا نقد متن الحديث الشريف، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد ٣٩ شتاء ١٤٢٦ / ٢٠٠٥.

٢٠- ....، **الإصلاح التربوي: العلاقة بين الرؤية الكونية والمنهجية والأداء التربوي**، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، خريف ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠.

٢١- ....، **معارف الوحي: المنهجية والأداء**، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي رمضان ١٤١٦هـ / ١٩٩٦.

٢٢- ....، **استفتاء علماء الأمة بشأن مواقيت الصلاة وصوم رمضان**، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، صيف ١٤٣٦ هـ / ٢٠١٥.

٢٣- ....، **استفتاء في قضية تختص بتجديد فهم الدين: ما هي أيام**

الحج في العالم المعاصر، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد ٧٨، خريف ١٤٣٥ هـ/ ٢٠١٤.

٢٤- ....، **لتعارفوا بين الحجاب والنقاب**، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد ٧٥، شتاء١٤٣٥ هـ/ ٢٠١٤.

٢٥- ....، **أيها التربويون الرؤية الكونية الحضارية القرآنية ثم التربية والتربية العلمية**، مجلة إسلامية المعرفة، العدد ٧١، شتاء ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣.

٢٦- ....، **الإصلاح التربوي: العلاقة بين الرؤية الكونية والمنهجية المعرفية والأداء التربوي**، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد ٢٩، صيف ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٢.

٢٧- ....، **ضرب المرأة وسيلة لحل الخلافات الزوجية: رؤية منهجية**، العدد ٢٤، ربيع ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١ & ....، **ضرب المرأة: هل هو الفهم الصواب لحل الخلافات الزوجية؟ رؤية اجتهادية قرآنية معاصرة**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٠.

٢٨- ....، **مفهوم التزكية في القرآن**، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية، الموسم الثقافي، ١٩/ ١١/ ٢٠٠٨..

٢٩- ....، **نماذج في دراسة النص في ضوء سنن الفطرة وتغيرات الواقع الاجتماعي**، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية، ٢٧/ ٩/ ٢٠٠٩.

٣٠- ....، **سيمنار علمي حول: بين الأصحاب والأعراب: عن الرؤية الكونية الحضارية المنطلق الأساسي للإصلاح**، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية، ١٤/ ٢/ ٢٠٠٨.

٣١- ....، **العقيدة الحضارية: البعد المفقود في رؤية الأمة وبرامج تطورها**، القاهرة:مركز الدراسات المعرفية، ١٦/ ٥/ ٢٠٠٥.

٣٢- ....، **القرآن وإعادة بناء وعي الأمة**، القاهرة:مركز الدراسات المعرفية، ٨/ ٥/ ٢٠٠٧.

٣٣- ....، **القرد الذكي لا يعرف الحساب**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي،٢٠١٥.

٣٤- ....، **جزيرة البنائين، قصة تعليمية في الفكر الإبداعي وفي التربية العقائدية والاجتماعية**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٣.

٣٥- ....، **كنوز جزيرة البنائين،قصة حوارية تربوية في التنشئة السوية العقدية الاجتماعية للشباب** والكبار، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠١٣.

فهرس المحتويات

سيرة الدكتور السيد محمد السيد عمر

* دكتوراه في العلوم السياسية من جامعة القاهرة عام ١٩٩١م، بمرتبة الشرف الأولى في موضوع «الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام».

* حاصل على درجة الأستاذية في العلوم السياسية في تخصص النظرية السياسية الإسلامية.

* تولى مهام التدريس والتأليف والإشراف العلمي والمناقشة والحكم على الرسائل الجامعية والتحكيم العلمي بجامعات: حلوان/ والقاهرة/ وأسيوط. فضلاً عن التحكيم العلمي بلجنة ترقية أساتذة العلوم السياسية بفرع جامعة الأزهر بغزة، ولجنة ترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين بجمهورية مصر العربية.

* بؤرة بحوثه ومؤلفاته المنشورة التي ناهزت الخمسين هي: النظرية السياسية الإسلامية والفكر السياسي الإسلامي.

* أستاذ النظرية السياسية الإسلامية – جامعة حلوان .

هذا الكتاب

الحقيبة المعرفية للعلامة عبد الحميد أبو سليمان كتاب يجمع بين دفتيه عصارة أبرز مؤلفات هذا المفكر المعاصر. ونواتها هي الزود عن حمى الأسرة المؤمنة السوية بوصفها هي حجر الأساس في بنية الأمة المتراحمة، بل في بناء عالم الإنسانية الحقة في كون كل ما فيه يسبح بحمد الله.

وينتظم الخيط المعرفي لهذا الكتاب في مقدمة تبين مفاتيح هذه الحقيبة المعرفية، وأحد عشر فصلاً تبدأ ببيان أن الرؤية الكونية الحضارية القرآنية هي المنطلق الأساسي للإصلاح الإنساني. وتدلف منها إلى تجلية أزمة كل من العقل المسلم والوجدان المسلم، واستشراف آفاق الإصلاح الإسلامي المعرفي والنظرية الإسلامية للعلاقات الدولية ونظرية الإسلام الاقتصادية، وتشريح ظواهر الاستبداد والفساد في التاريخ الإسلامي والعنف وإدارة الصراع السياسي في كل من المنظور الغربي والإسلامي، وعملية انهيار الحضارة الإسلامية وإعادة بنائها، والاجتهاد المعاصر في إسلامية المعرفة، وتقديم دليل لمكتبة الأسرة المسلمة، ونماذج من الأدب الأمتي للناشئة وللكبار في عملين معرفيين عميقين: جزيرة البنائين وكنوز جزيرة البنائين، وجهته هي تأسيس الأسرة المسلمة على التقوى.

وموضوع هذا الكتاب هو إطلاق حوار يفتح الطريق لوصف داء الأمة ودوائه، سواء بالتوافق مع ما جاء به أو بما هو مغاير له. والغاية هي: رسم صورة لأمة مسلمة عزيزة محررة من الوهن، تجسد الحق قولاً وعملاً وغاية ووسيلة، وتصير نموذجًا مثاليًا وواقعيًا له. وهو محاولة للفهم فيها من الصدق حدته ومن الصراحة مرارتها، وجهتها ليست التغني بالأمجاد بل تحليل ثغرة العجز والاستضعاف وتلمس مخرج علمي رصين منها.


9 789773 116583



